

الطبعة الثالثة

المغرب في عهد الدولة السعيدية

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للدكتور عبد الكريم الكرمي

منشورات

جمعية المؤرخين المغاربة

الرباط، المملكة المغربية

المغرب في عَهْدِ الدَّوْلَةِ السَّعْدِيَّةِ

دراسة تحليلية
لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

للكاتب عبد الكريم الكرمي

منشورات
جمعية المؤرخين المغاربة
الرباط، المملكة المغربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة 1427 - 2006

© جميع الحقوق محفوظة

المحتويات

- 1 مل 1
- 5 الفصل الاول : الاحتلال الاجنبى للسواحل المغربية .. 5
- 13 الفصل الثانى : اوضاع المغرب الداخلية .. 13
- 25 الفصل الثالث : رد الفعل المغربى ضد الاحتلال الاجنبى .. 25
- 33 الفصل الرابع : بدء الدعوة السعدية بالجنوب المغربى .. 33
- 45 الفصل الخامس : القيادة السعدية بسوس والاصطدام مع الوطاسيين .. 45
- 51 الفصل السادس : السعديون وتوحيد المغرب .. 51
- 65 الفصل السابع : القضاء على الحكم الوطاسى فى فاس .. 65
- 75 الفصل الثامن : السعديون والقوى المجاورة .. 75
- 83 الفصل التاسع : التقارب السعدي - البرتغالى - الاسبانى .. 83
- 97 الفصل العاشر : معركة وادي المخازن وبيعة المولى احمد المنصور .. 97
- 123 الفصل الحادى عشر : المنصور والنزاع الاتجلىزى - الاسبانى .. 123
- 145 الفصل الثانى عشر : فتح السودان وتأسيس الامبراطورية المغربية .. 145
- 174 الفصل الثالث عشر : تطور العلاقات الخارجية للامبراطورية المغربية .. 174
- 191 الفصل الرابع عشر : ثورة الناصر وملابساتها الدولية .. 191
- 205 الفصل الخامس عشر : المنصور بين التحالف مع الاتجلىز و التناهم مع الاسبان

- 227 الفصل السادس عشر : مظاهر الحضارة المغربية أيام السعديين
- 228 نظم الحكم وبناء القوات العسكرية
- 253 الفصل السابع عشر : المظهر الاقتصادي
- 277 الفصل الثامن عشر : الاحوال الاجتماعية
- 307 الفصل التاسع عشر : الناحية الثقافية
- 328 الفصل العشرون : المغرب بعد المنصور
- 338 المصادر والمراجع
- 349 الجدول التاريخي لوثائق الدولة السعدية في القرن (10 هـ / 16 م)
- 353 نصوص بعض الوثائق التاريخية الهامة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مدخل

اثر اكتشاف طريق الهند البحرية عبر جنوبي افريقية ، تأثيرا كبيرا على اوضاع حوض البحر المتوسط ، فقد اخذت اهمية هذا البحر تضخم منذ مطلع القرن السادس عشر ، في حين ان مكانة المحيط الاطلسي قد ازدادت باعتبار انه اصبح الطريق التجارية الجديدة الموصلة الى بلاد التوابل في الهند والشرق الاقصى .

وقد كان من المتوقع ان يشارك المغرب بلدان حوض المتوسط التي دخلت نتيجة لذلك في مراحل جديدة من تاريخها ، ولكن قرب المغرب من شبه جزيرة ايبيريا وغربي اوربا الناهضة ، وامتلاكه سواحل طويلة على المحيط الاطلسي ، اثرت على تاريخه تأثيرات اخرى ، ذلك ان انظار البرتغال والاسبان توجهت نحوه ، وعملت على احتلال مراكز مختلفة من سواحله . فما هي الاحوال السياسية في البحر المتوسط في ذلك الوقت ؟ وما هي احوال بلاد المغرب ؟ وما هي الاوضاع الجديدة التي نتجت عن ذلك ؟

شهد حوض البحر المتوسط خلال عصور التاريخ المختلفة تطورات هامة ومتباينة . باعتبار ان هذا البحر يتوسط من جهة قارات العالم القديم الثلاث : آسيا وافريقيا وأوربا . ولان الحوض من جهة اخرى كان الموطن الاول للحضارة البشرية الاولى . ولما كان البحر المتوسط من اهم وسائل المواصلات بين اجزاء العالم القديم . فقد أصبح المحور الاساسى الذي تدور حوله السياسة العامة لمختلف الوحدات السياسية التى قامت على اطرافه : فكل منها كان يسمى السى السيطرة على مجموع هذا الحوض ، وجعله بحيرة خاصة بها ، ولم يخرج عن هذا القصد لا الاغريق ولا الرومان والقرطاجنيون وحتى العرب المسلمون ، وليست غارات الصليبيين وتأسيسهم امارات فى شرقى المتوسط الا محاولات فى هذا الاتجاه .

وعند نهاية العصر الوسيط ، كان حوض البحر المتوسط قسمين متميزين : أحدهما ذو طابع عربى اسلامى ، وهو القسم الممتد على كل الناحية الشرقية والجنوبية من الحوض ، والاخر اى جنوبى أوربا، يحتفظ بالطابع المسيحى اللاتينى. ورغم ان العلاقات بين هذين القسمين لم تكن فى مجموعها ودية ، الا ان المبادلات التجارية خاصة ، قد ظلت قائمة بينهما ، حيث كان الاوربيون يستوردون الحاصلات الاسيوية المختلفة التى تسلك طريقين الى البحر المتوسط : أحدهما بري وهسو المعروف (بطريق الحرير) من الصين وآسيا الوسطى فالبحر الاسود وسوريا ، والاخرى وهى (طريق التوابل) من موانئ الصين فسيلان والبحر الاحمر الى الاسكندرية . وهذان الطريقان كانا يمران ببلاد العرب ، مما جعل تجار العرب يقومون بدور هام فى عمليات نقل المنتجات الشرقية التى يأتى التجار الايطاليون . لحملها من موانئ الشام ومصر الى ايطاليا وغربى أوربا ، ولما كانت هذه التجارة تدر ارباحا طائلة فان تنافسا حادا قد حصل بين دول غربى أوربا من اجل البحث عن مواطنها وأيسر الطرق للوصول اليها مما كان له اكبر الاثر فى حركات الاكتشافات الكبرى التى انتهت باكتشاف الاسبانيين للعالم الجديد والبرتغاليين لطريق الشرق الاقصى البحرية عبر رأس الرجاء الصالح .

وفي السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، ظهرت في حوض النهر المتوسط قوى سياسية متباينة : البرتغال (1) وإسبانيا (2) اللتان ظهرتا كقوتين عظيمتين بسبب حركات الكشوف البحرية التي عادت عليهما بتأسيس إمبراطوريتين استعماريتين واسعتين في قارات مختلفة من العالم . وقد كانتا تعتمدان على مائدات ممتلكاتهما المتزايدة من توابع الشرق وكنوز الغرب ، كما كان التاجر يلعب في حياتهما الاقتصادية الدور الهام والأساسي ، وقد قامتا بدافع من العصبية الدينية وبتحريض من الكنيسة تعملان على نشر المسيحية ومحاربة المسلمين ومهاجمتهم في مقر ديارهم .

(1) ازدادت أهمية بلاد البرتغال كقوة بحرية منذ القرن الرابع عشر الميلادي عند ما نشأت علاقات تجارية بين موانئ البحر المتوسط وبين موانئ غربي أوروبا حيث أصبحت لشبونة بحكم وقوعها في منتصف هذا الطريق ميناء استراتيجيا مما دفع الملوك البرتغال الى الاهتمام بالأساطيل البحرية . وبين سنة 1415 التي هاجم خلالها البرتغال سبتة وبين 1497 التي تم فيها اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، مرت ملكة البرتغال ازدهارا ونشاطا متزايدا وخاصة في عهد الأمير هنري بن جان الأول مؤسس أسرة (Avis) والذي عرف بسبب اعتنايه بالأساطيل وحركات الاكتشافات بهنري الملاح ، وقد كانت تدعمه الرغبة في معرفة سواحل إفريقيا الغربية والوقوف على مدى قوة المسلمين في إفريقيا ثم رغبته في نشر المسيحية بها وراء البحار استجابة لنداءات البابوية ، علاوة على محاولته لفتح المجال أمام الطبقة التجارية الناشئة ، ولم يفسر غير زمن قليل حتى أصبحت للبرتغال مراكز ومستعمرات في معظم سواحل إفريقيا الغربية وآسيا الجنوبية انضمت لتكوين الأسطول. وتكون بمثابة قواعد يراهب منها البرتغاليون منافع البحار التي تسيطر على طريق التجارة العالمية آنذاك وحراستها بالإضافة التي انضلتها مراكز للتجارة مع المناطق المجاورة لها .

(2) لقد ظهرت اول املة متباعدة باسبانيا في اقليم اسطورياس (Asturias) التي توسعت حدودها ومرت خلال القرن التاسع بملكة (Leon) وفي القرن العاشر ظهرت ملكة تشالة (Castille) كقوة مسيحية ثانية باسبانيا ، بينما ظهرت في شرق البلاد ملكة (Navarros) وخلال القرن الحادي عشر انضمت لبونا الى تشالة التي تزمت الحروب ضد العرب المسلمين . على ان النزاع الذي دام طويلا بين تشالة وارانغونا (Aragon) قد انتهى سنة 1469 بزواج ايزابيلا ملكة تشالة مع فرناندا ملك ارانغونا وتكونت بذلك الملكة الإسبانية التي ازدادت مكناتها سنة 1492 بسقوط غرناطة وبكشاف العالم الجديد في نفس السنة .

اما القوة الشرقية فهم الاتراك العثمانيون (3) الذين سيطروا على معظم الشرق الاسلامى وشرقى اوريا ، وبدات انظارهم تتجه نحو بقية البلاد الاسلامية فى الشمال الامرىقى لتوحيد جبهة العالم الاسلامى ، وذلك لمواجهة الاخطار الخارجية التى تتوعد هذه البلاد . غير ان جميع هذه البلدان قد ضعفت امكانياتها الاقتصادية وبالتالي اهميتها الاستراتيجية ، بعد تعرف الاوربيين على طريق الشرق البحرية ، مما اجبر الاتراك على الاعتماد على عائدات الارض الزراعية بالدرجة الاولى . فالاختلاف كان عظيما بين القوى القائمة فى حوض المتوسط فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، فى سائر نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والادارية ، ولقد قامت بين هذه القوى حروب ومعارك ، كما حصل بينها تسابق للسيطرة على المناطق التى يمكن اتخاذها قواعد ، كبلاد الشمال الامرىقى : فقد ادرك العثمانيون اهميتها فى تأمين حدود امبراطوريتهم الغربية ، وفى تهديد الطريق التجارية الجديدة عبر المحيط الاطلسى ، ولم يغفل الاسبان والبرتغال بدورهم عن اهمية هذه البلاد ، لباعتها الباب الموصل الى قلب ائريقيا لاستغلال ما بها من الخيرات والمعادن ، ولنشر المسيحية بين شعوبها ، بل ولان استيلاء العثمانيين عليها من شأنه ان يخلق تهديدا خطيرا للاسبان والبرتغال ، وينذر بالخطر كل المسيحية فى غربى اوريا . ولتتلقى الدولتان المسيحيتان جميع هذه الاخطار ثم لتحولا دون فتح اسلامى جديد لشبه جزيرة ايبيريا ، عمد البرتغال والاسبان الى التوسع فى شمالى ائريقيا واحتلال مواقع هامة على سواحلها ، يشجعهم على ذلك احوال البلاد الداخلية المضطربة بسبب ضعف الحفصيين فى تونس ، وبنى زيان فى الجزائر والمرينيين والوطاسيين فى المغرب .

(3) الاتراك العثمانيون ينحدرون من العرق الاصغر وقد كان مهد اجدادهم الاولين بآسيا الوسطى ثم هاجروا منها نحو الغرب واستقروا فى بخارى وسمرقند وغورزم التى دخلها الاسلام زمن الفتوحات الاسلامية. وقد لعب الاتراك ادوارا هامة زمن الخلافة العباسية بما يعرف بالمهد التركى ، وكذا زمن السلطنة الفين عرف الشرق الاسلامى فى مهدهم صلحة ذهبية خالدة . وقد ظهر الاتراك من جديد فى آسيا الصغرى عند مطلع القرن الخامس عشر باسم العثمانيين ننتبة الى اهد اجدادهم المبروف بثمان ، واسسوا امبراطورية مترامية الاطراف فى كل من آسيا واوريا وائريقيا .

الفصل الأول

الاحتلال الأجنبي لسواحل المغربية

كان لعوامل النهضة الأوربية اثر كبير في التطورات التي عرفتها بلدان غربي أوربي. وخاصة شبه جزيرة ايبيريا ، فلقد اخذت تظهر لدى الاسبان والبرتغال رغبة في التوسع والسيطرة على البلاد الاخرى ، لاستغلال ما بها من الخيرات ، ولاتامة القواعد على سواحلها ، ولاسيما في المناطق الاستراتيجية والهامة منها ، علاوة على نشر الدين المسيحي بين اهالي البلاد . غير ان الفوز في هذا التنافس الذي اخذت بوادره تتزايد لدى الاسبان والبرتغال ، كان يتوقف الى حد كبير على الاوضاع الداخلية في كلا البلدين : فالاسبان كانت مشاغلمهم الاساسية تنحصر في توحيد البلاد ، واسترداد ما تبقى للمسلمين بها ، اما البرتغاليون فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطريق التجارية بين بوانىء البحر المتوسط وشمالى غربي اوربا ، اذ عاد ذلك على البرتغال بنتائج عظيمة ، لان الارياح الطائلة ساعدت ملوك لشبونة على توحيد اجزاء البلاد الداخلية ، ودفعتهم في الوقت نفسه الى الاهتمام بالاساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج . والعمل على الوصول الى مواطن التوابل لاحتكار تجارتها .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى اقرب نقطة الى غربي اوربا الناهضة وشبه جزيرة ايبيريا ، ثم لما كان يمتلك سواحل طويلة على المحيط الاطلسى ، فقد اتجهت اليه انظار البرتغال والاسبان ، واخذت تعمل على احتلال مراكز مختلفة من سواحلها ، خصوصا وان اوضاع المغرب الداخلية كانت جد سيئة بسبب ضعف السلطة المركزية في فاس ، وظهور الوحدات السياسية وما اعقب ذلك من انتشار للفوضى والاضطرابات .

وعمليات الاحتلال البرتغالي والاسباني للسواحل المغربية ، ترجع في اصولها الى مطلع القرن الخامس عشر عندما حصل بين هاتين الدولتين نزاع حول ملكية جزر كناريا التي اعتبرها كل من الطرفين نقطة انطلاق وتوسع في غربي افريقيا . ولاهية هذه الجزر لم يشأ كل منهما التنازل عنها للاخر ، مما دفعهما الى تحكيم الكرسي المقدس في روما (4) .

وبدیهى ان السفن البرتغالية والاسبانية اثناء سيرها محادية للسواحل المغربية في اتجاه جزر كناريا وغربي افريقيا ، كانت تضطر الى الوقوف ببعض المراكز المغربية للتزود منها أو للتبادل معها الشيء الذي جعل البرتغاليين والاسبانيين يطلعون على الكثير من شؤون البلاد واحوال المغاربة ، وما كانوا عليه من تجزئة داخلية لضعف السلطة المرينية في فاس ، وعجزها عن ادارة الشؤون العامة في البلاد . وحدث ان تعرضت بلاد المغرب لنكبات طبيعية تجلت في الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد ولاسيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغال في ذلك فرصة ثمينة سرعان ما استغلوها لاحتلال مركز هام في شمالي المغرب هو مدينة سبتة (5) التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي لاشرافها على الطريق التجارية البحرية بين جنوبي اوربا وشماليها الغربي عبر بوغاز جبل طارق يضاف الى ذلك مناجم الذهب التي طالما سمع البرتغال بوجودها بهذه المدينة المغربية . وقد ناجت قوات البرتغال البحرية المدينة الآمنة في اليوم الواحد والعشرين من غشت لسنة 1415 ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت المدينة قد وقعت في قبضة المحتلين البرتغاليين (6) .

(4) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى البرتغال المجلد الاول : (التسابق البرتغالى - الاسبانى في المغرب والشواطىء الجنوبية منه)

(5) كان الاسطول البرتغالى تحت قيادة D. Alphonse وكان يتكون من مائتى سفينة ونحو 50,000 امم محارب وقد ابخر من البرتغال يوم 25 يولييه 1415 ووصل امام سبتة يوم 12 غشت الا ان انزال القوات بسبتة لم يتم الا يوم 21 منه .

(6) المصدر السابق نفسه .

ومما تجدر الإشارة اليه هو ان سياسة التوسع البرتغالى منذ احتلال مدينة سبته ، أصبحت تهدف الى السيطرة على مضيق جبل طارق وبالأخص المراكز الجنوبية منه الواقعة على الساحل المغربى بدافع المحافظة على الطريق التجارية فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، مما يفسر لنا الحملات المتواصلة التى تعرضت لها بعض المدن المغربية الشمالية كطنجة مثلا ، ويجعلنا ندرك فى نفس الوقت الاسباب التى جعلت البرتغاليين يخلفون بالوعود التى قطعوها على انفسهم أن يعيدوا للمغاربة مدينة سبته رغم أنهم تركوا احد أمرائهم رهينة لذلك ، اثر فشلهم فى احتلال هذه المدينة سنة 1437 (7) .

هذا الى جانب القيام بعمليات الاستكشافات فى سواحل افريقيا الغربية حيث وصل البرتغاليون الى مصب نهر السنغال وأسسوا مركزا تجاريا يحرسه حصن فى جزيرة (Arguim) بالقرب من الرأس الابيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق .

على أن تزايد المنافسة بين البرتغال والاسبان قد دفعت ملوك لشبونة الى السعى لدى البابا للحصول منه على ما يمكنهم اتخاذه كحجة يجابهون بها خصومهم ومنافسيهم الاسبانيين أو غيرهم ، وقد استجاب البابا ثيقولا الخامس لذلك ومنحهم براءة فى اليوم الثامن ليناير 1454 تجعل سبته والممتلكات الأخرى التى كانت قد فتحت أو لا زالت فى الأماكن المجاورة وكذلك الشاطئ الإفريقى منذ رأس بوجادور ونام الى غينيا ومن تم الى ما بعدها من نصيب التاج البرتغالى (8) والأكثر من ذلك

(7) عندما تولى عرش البرتغال الملك (D. Eduard) بن الملك جان الاول ، رغب فى احتلال طنجة والتوسع فى الأراضى المغربية ، ولأجل ذلك أرسل سنة 1437 م حملة ضد المدينة المذكورة إلا أنها منيت بالخيبة للإمدادات المتوالية التى أرسلها الوزير الوطاسى أبو زكريا للمدينة المحاصرة وقد أجبرت أخيرا القوات البرتغالية على الاستسلام يوم 16 أكتوبر حيث اشترط المغاربة مقابل إخلاء سبيلهم التخلي عن سبته . وكضمان لذلك سلم البرتغاليون للمغاربة الأمير مرديناند كرهينة الى أن يتم الانسحاب من المدينة المغربية (المصادر الأصلية للتاريخ المغربى المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول . حاشيته ص 94 .

(8) المصادر الأصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال المجلد الاول (التسابق البرتغالى الاسبانى فى المغرب) .

ان البابا بعث يحث البرتغاليين والامير هنري الملاح بوجه اخص ، بأن لا يتوانوا عن حرب المسلمين ، والاتصال بالملك المسيحية في الشرق للتحالف معها على حرب المسلمين وان يدخلوا في زمرة المسيحية تلك الشعوب التى لم تتأثر بالاسلام (9) . والواقع هو أن عمل البابا يعد رد فعل ضد ما قام به الاتسراك المسلمون الذين فتحوا بيزنطة سنة 1453 وقضوا على ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية في شرقي أوروبا .

ولم تمض غير اعوام قليلة على البراءة البابوية حتى قام البرتغاليون بمهاجمة مدينة القصر الصغير بقوات عظيمة يوم الواحد والعشرين من اكتوبر سنة 1458 وقد كان على رأس الحملة الملك الفونس الخامس نفسه واحتلال هذه المدينة (10) يرجع في أساسه الى أنها ميناء هام على مضيق سبنة وطنجة ، ويمكن الاعتماد عليه لتقوية سبنة ولمهاجمة طنجة في قابل الايام . ونعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحمات عديدة (11) فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حدا بالبرتغاليين الى القيام بمهاجمة أصيلا واحتلالها يوم الرابع والعشرين من غشت لسنة 1471 . واتخاذ هذه الاخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التى فر عنها اهاليها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة ايام من التاريخ المذكور (12) . فتعززت بذلك وضعية البرتغال في شمال المغرب ، وقويت امانى ملوك لشبونة في اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخل البلاد ، غير ان تزايد المنافسة الاسبانية كانت تجبر سادة البرتغال على تأجيل عملية الانتفاض على المغرب . فالاسبانيون وان اعترفوا بشرعية التوسع البرتغالى

(9) في طلب التوابل . مقدمة صفحة 2

(10) هزم الملك البرتغالى الفونس الخامس الذى خلف ادوارد على احتلال مدينة القصر الصغير التى تعتبر ميناء هاماً على مضيق سبنة وطنجة ، هذا المضيق الذى يمكن الاعتماد عليه في تقوية القوات المهاجمة على طنجة . وفى يوم 21 اكتوبر 1458 قاد الملك البرتغالى نفسه الحملة المكونة من 280 سفينة و 25 الف رجل ، وتم بعد يومين احتلال المدينة التى عين كحاكم عليها الضابط (Duarte Meneses) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المقدمة)

(11) قاد الفونس الخامس حملة ضد طنجة يوم 20 يناير 1464 الا ان الحملة فشلت وتكبد البرتغال خسائر فادحة في الارواح والعتاد (نفس المصادر السابق) .

(12) اغتتم الفونس الخامس النزاع القائم بين محمد الشيخ الوطاسى وبين الشريف الادريسى مولاي محمد ابن على عقب اغتيال آخر سلطان مرينى عبد الحق سنة 1465 ، هذا النزاع الذى استمر حتى سنة 1472 م ، وذلك بالهجوم على الاراضى المغربية وبدلاً من مهاجمة مدينة طنجة التى استعصى احتلالها من قبل توجهت القوات البرتغالية نحو أصيلا . وقد كان الاسطول البرتغالى يتكون من 474 سفينة عليها 30 الف مقاتل تحت قيادة (Restelo) وفى يوم 24 غشت 1471 م ، احتل البرتغاليون أصيلا وقد انزع هذا النبا اهالى طنجة الذين أخذوا في الجلاء من المدينة مما سهل على البرتغالى احتلال المدينة بعد خمسة ايام من احتلال أصيلا واحتلال هاتين المدينتين ساعد القوات البرتغالية على غزو مدينة المرائش واحتلالها يوم 10 سبتمبر 1473 م . (المصدر السابق) .

في سواحل المغرب وغربي افريقيا كما تسمح لهم بذلك براءة البابا ، فانهم لدوافع مختلفة قاموا ينازعون البرتغال في المنطقة الممتدة ما بين رأس كانت ورأس نون ، أي ما بين أسفى وافنى تقريبا ، مدعين بأن البراءة البابوية السابقة لم تنص على ذلك (13) ، ومن تلك الدوافع ما اشتهرت به هذه المنطقة من تجارة واسعة وغنى في المحصولات الزراعية والمعدنية (14) ، وما أن تطور الخلاف بين الامتسين المسيحيين واشتملت نيران الحرب بينهما ، حتى أسرع الاسبان الى التقرب من الوطاسيين الذين قامت دولتهم على أساس محاربة المحتلين البرتغاليين ، وانتهى الامر بخلق تحالف عسكري بينهما كما ظهر ذلك في الهجوم المشترك على سبتة من البر والبحر سنة 1476 (15) ، وقد استغل الاسبان هذه الحروب واحتلوا بجنوبي المغرب عند وادي ذون منطقة بنوا بها حصنا سنة 1478 أطلق عليه سانتاكروز(16) ولم تنته حال الحرب بين الاسبان والبرتغال الا بعد توقيع معاهدة طليطلسة في السادس من مارس 1480 تخلى بموجبها البرتغال عن كل ادعاء لهم في جزر كناريا مقابل اعتراف الاسبان بحق البرتغال في غينيا وكل المناطق التي سيقع اكتشافها فيها وراء جزر كناريا ، وكذلك حقوق الفتح في مملكة فاس .

ورغم توقيع هذه المعاهدة ، فان الجو لم يصف بين الفريقين للخلاف الذي حصل بينهما حول حدود وأراضى مملكة فاس : فلقد وسع البرتغاليون حدود المملكة وجعلوها تشمل كل بلاد المغرب الحالية تقريبا في حين ان الاسبان اقتصرُوا في تعريفهم للملكة على الجزء الشمالي من المغرب . وعلى ما يبدو فان هذا الخلاف قد وجه انظار لشبونة نحو سواحل المنطقة المتنازع عليها — أي المنطقة الجنوبية من ساحل المغرب الاطلسي — اذ منذ السنة التالية لتوقيع معاهدة طليطلة نجد البرتغاليين يبسطون شبه حماية على مدينة أسفى سنة 1481 ، ثم مدينة أزموور 1486 (17) ، ليجعلوا منافسهم أمام الامر الواقع .

-
- (13) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد 1 (المتدبة) .
(14) كانت التجارة رائجة في جنوبي المغرب حيث كان الاجانب يسعون الى اقتناء الذهب والسكر ومسحوق البارود والنحاس والجلود الخام او المدبوغة ثم الشمع والصبخ والتبر والمسل ، هذا علاوة على المزروعات المختلفة (المصادر لاصيلة للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . المجلد الاول . بريطانيا المتدبة) .
(15) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى — البرتغال — المجلد الاول . (اوائل الاحتلال البرتغالي للمغرب) .
(16) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول (التسابق البرتغالي الاسباني في جنوبي المغرب) .
(17) المصدر السابق نفسه .

على ان انشغال الفريقين بعمليات الكشوف الكبرى ، الى جانب بعض الاحداث الداخلية لم يعرض بقية السواحل المغربية للاحتلال الاجنبى : فالبرتغاليون أصبح شغلهم الشاغل هو التوصل الى الهند والشرق بحرا بعد ان نجح بارثولومه دياز (Bartholome Diaz) فى التعرف على جنوبى افريقيا وأصبح فى الامكان الدوران حول افريقيا منذ سنة 1487 ، وذلك للوصول الى مواطن التوابل لانتزاع تجارتها من ايدي التجار الايطاليين الذين كانوا يحتكرون تجارتها ويجنون من ورائها الارياح العظيمة . اما الاسبان فقد أصبح اهتمامهم ينحصر فى توحيد اراضيهم وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها ، خصوصا وقد أصبحت كل اسبانيا خاضعة لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة مع فرديناند ملك اراغونة وعندما كانت سنة 1492 حقق الاسبانيون نصرين عظيمين : فتحهم غرناطة آخر حصن عربى اسلامى بالاندلس . واكتشافهم العالم الجديد الذي ساد الظن فى اول الامر بانها الشواطىء الشرقية لبلاد الهند ، فكان ذلك تفوقا كبيرا احرزه الاسبانيون على منافسيهم البرتغاليين . وقد استغل الاسبان هذه الاحداث وانتزعوا من البرتغال اعترافهم حسب معاهدة (Tordesillas) التى وقعت يوم السابع من يونيه لسنة 1494 باحقية الفتح الاسبانى فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى ، مقابل منع الرعايا الاسبان من اجتياز رأس بوجادور (18) . كما التجأ الاسبان - الى نفس الوسيلة التى كان البرتغال قد استعملوها من قبل ، وهى مطالبة البابا الاسكندر السادس بمنحهم براءة يأذن لهم فيها بالتوسع فى افريقيا ، وقد بارك الكرسى البابوي فى اليوم الثانى عشر من نوفمبر 1494 ، ارواح الذين سيشاركون بأموالهم وأرواحهم فى عمليات الغزو التى سيقوم بها الملوك الاسبانيون ، كما منحهم براءة فتح ممالك افريقيا فى اليوم الثالث عشر من يبرابر 1495 م (19) : من غير ان توضح البراءة المقصودة من ممالك افريقيا . ولعل الاسبان تعمدوا هذا الغموض ليستغلوه فى التوسع بافريقيا وليحاجوا به منافسيهم البرتغاليين . وهكذا وصلت الى مليية قوات بحرية اسبانية استطاعت فى مدة وجيزة ان تحتل المدينة التى كان

(18) المصدر السابق

(19) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى اسبانيا . المجلد الاول - مليية خلال القرن 16 .

أهاليها قد فروا عنها خوفا من الاحتلال الأجنبي . وتمت السيطرة على مليية خلال سبتمبر سنة 1497 (20) ، في نفس السنة التي نجح البرتغاليون خلالها في تحقيق الأمل المنشود وهو الوصول بحرا الى الهند موطن التوابل التي طالما تأقت نفوس البرتغال لاحتكار تجارتها .

واكتشاف طريق الهند والشرق الأقصى البحرية ، يعد بداية تطور هام بالنسبة لعمليات التوسع الاستباني والبرتغالي في السواحل المغربية وبالأخص في سواحل البلاد الجنوبية التي ازدادت أهميتها بحكم وقوعها مشرفة على طريق التجارة الجديدة ، اذ كان على السفن التجارية البرتغالية العائدة من الهند والشرق ان تقترب كثيرا من هذه السواحل لوجود جزر كناريا التي كانت في قبضة الاسبانيين وبهذا اثرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الاسبان والبرتغال وازداد نزاعهما لادراك كل من الفريقين مدى أهمية هذه السواحل من بلاد المغرب الجنوبية في مراقبة طريق الهند البحرية . ولعل البرتغاليين حاولوا أن يضموا منافسيهم أمام الأمر الواقع اذ أسرعوا الى احتلال ساحل ماسا سنة 1497 (21)، غير ان الاسبانيين أجابوا على ذلك باحتلال مواقع ساحلية على مقربة من سانت كروز مثل طلكاوست عاصمة وادي نون ، وتامانار وامران وافني وذلك سنة 1499، وليعزز الاسبان نقط احتلالهم هذه أقاموا عدة حصون بها خلال السنة الأولى من مطلع القرن السادس عشر . وقد حاولوا في سنة 1504 احتلال ساحل اكادير الا ان سكان ماسا بتحريض من البرتغال وبمساعدهم أجبروا الاسبانيين على الانسحاب (22) في حين ان القوات البرتغالية أسرعت الى احتلال المنطقة المذكورة واقامة حصن منيع بها أعطى نفس اسم سانتا كروز وكان ذلك سنة 1505 (23).

(20) كانت مليية عند مطلع القرن السادس عشر تظهر كمنطقة ثانوية لان العناية كانت موجهة نحو ميناء غصاصة وثازوطا ، وقد كانت الحملة الاسبانية بقيادة (D. Juan de guzman) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - مليية خلال القرن 16)

(21) في اليوم 11 يناير 1497 بسط البرتغاليون حمايتهم على أهالي ماسة واقاموا بساحل المنطقة حصنا منيعا (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - (التسابق البرتغالي . الاسباني في جنوب المغرب) .

(22) المصدر السابق نفسه .

(23) لم يكن الحصن البرتغالي قد بنى في موقع اكادير الحالية ، بل عند عين فونتي على بعد كيلومترين او ثلاث كيلومترات نحو الشمال وقد سماه البرتغال (Santa Cruz de Cabo de gué) نسبة الى رأس كبر القوية منه (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني . (احتلال البرتغال لأكادير) .

ولم تقتصر الهنافة الاسبانية البرتغالية على سواحل بلاد المغرب الجنوبية، وانما شملت بقية سواحل المحيط الاطلسي وسواحل البحر المتوسط أيضا ، اذ احتل الاسبانيون في سنة 1506 مدينة غصاصة (24) بينما فرض البرتغال سيطرتهم على موكادور (الصويرة) (25) التي ساعد أخذها على احتلال أسفى خلال سنة 1508 م (26) وبعد احتلال الاسبان لحجرة بادس في نفس هذه السنة نهاية التسابق بين الامتين المسيحيتين على التوسع في السواحل المغربية ، اذ توصلنا في اليوم الثامن عشر من سبتمبر 1509 الى توقيع معاهدة (Sintra) التي وضعت حدا للنزاع والخلاف بينهما ، على أساس اقتسام مناطق النفوذ في السواحل المغربية : فقد اطلقت يد الاسبان في السواحل المغربية الواقعة بين بادس غمارة حتى غصاصة ومليبية ، مقابل اعترافهم بنفوذ البرتغال منذ حدود بادس غمارة حتى رأس بوجادور ونام عدا حصن سانتاكروز الذي احتفظ به الاسبانيون في سواحل بلاد المغرب الجنوبية (27) . اذن يمكننا أن نرى ان التنافس البرتغالى الاسبانى قد جعل معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية ، تخضع للحكم الاجنبى ، مما زاد في ضعف البلاد ، وقوى الفتن الداخلية لدرجة أصبح الحال معها ينذر بأمدح الاخطار والتكبات .

(24) حسب المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول (مليبية خلال القرن 16) فان اهالى غصاصة قد أرسلوا الى اسبانيا منذ يبرابر 1494 ، وهذا لتقدسيم طاعتهم . وقد باشر الاسبان احتلال المدينة منذ 4 أكتوبر 1504 ولم يتم احتلالها الا في أبريل لسنة 1506 .

25 اقام البرتغال في موكادور خلال عهد الملك ممانويل الاول حصنا قرب باسم (Castillo Real) وذلك في غشت 1506 (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص. 120 .

(26) يرجع النفوذ البرتغالى في أسفى الى سنة 1481 وقد تزايد هذا النفوذ في عهد جان الثانى سيما وان ميناء أسفى كان بمثابة محطة تجارية بين غانا والبرتغال . وحسب ليون الامريكى فان ميناء أسفى كان طروقا من قبل التجار الاوربيين . وقد استفاد البرتغاليون من الفوضى التي كانت عليها المنطقة لسيط نفوذهم ولما تأكدوا من وجود صلات سرية بين الاسبان وبعض اهالى أسفى قاموا باحتلال المدينة مسكريا ثم بنوا بها حصنا باسم (Chateau de Mer) (المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 151)

(27) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - (السابق البرتغالى الاسبانى في جنوبى المغرب) .

أوضاع المغرب الداخلية

في الوقت الذي وقع فيه التنافس الإسباني البرتغالي على المغرب . كانت ظروف هذه البلاد العامة في أحوال سيئة . فتعدد الإعداء ، وتعدد مراكز الاحتكاك والاحتلال ، أدت الى تجزئة المعركة بالنسبة للقوى الوطنية . وإذا أضفنا الى ذلك صعوبة المواصلات والبعد عن مركز السلطة الحاكمة في فاس ، لوجدنا ان العوامل كانت تساعد على تفكك المعسكر الوطني :

من الناحية الاقتصادية : لقد تأثرت أوضاع المغرب الاقتصادية بحالة التجزئة والفتن السائدة في داخل البلاد ، وبالأخطار الخارجية التي ترتبت عن الاحتلال الاجنبي لمعظم السواحل المغربية ، والتوسع العثماني في الجزائر في الوقت الذي كانت الروابط بين المغرب وغربي افريقيا قد ضعفت . والواقع انه ليس هناك من مجال يعكس لنا الحالة الحقيقية التي أصبح عليها المغرب ، كالناحية الاقتصادية : فقد اضطرت جميع المظاهر الاقتصادية ولم نعد نرى أثرا للنشاط الذي عرف به المغرب في ميدان المبادلات التجارية مع بلدان حوض البحر المتوسط ، وكذا مع مناطق الصحراء وغربي افريقيا . كما ان أعمال الزراعة التي كانت مزدهرة باعتبار أن معظم الاراضي في المغرب سهول خصبة قد اضطرت مما اضعف من نشاطها وقلل من منتوجاتها ، اذ كان من الصسير على الفلاح ان يتعهد أرضه في جو تسوده الفتن والفوضى اي في أوضاع لم يكن الفلاح يشعر خلالها بالطمأنينة والامن زد على ذلك المحافظة على وسائل الزراعة القديمة . ونفس الامر حصل للحرف والصنائع التي الى جانب تمسكها بطرق العصور الوسطى ، لم تجد الجو الملائم للازدهار والتطور . ولقد ترك لنا الحسن الوزان (1) (ليون الامريقي) المعاصر ،

(1) ليون الامريقي (Léon d'Africain) هو الحسن الوزاني أبو علي ولد حوالي 1496 في فاس ونشأ بها ثم رحل الى الشرق وغربي افريقيا وعاصر بداية الاحداث التي تمرض لها المغرب اواخر العهد الوطاسي وقيام الدولة السعدية . أسره القراصنة الاوربيون قرب الشاطيء التونسي 1520 ونقلوه الى ايطاليا حيث عمده البابا ليون العاشر وسماه (يوحنا الاسد) وفي ايطاليا تعلم اللغات الايطالية واللاتينية كما كان يتقن الاسبانية والعبرية ، الامر الذي ساعده على ترجمة رحلاته لافريقيا الى ايطالية يطلب من البابا ، وقد قام الحسن الوزان بتدريس العربية في كلية (Bologne) التي كانت من أعظم جامعات ايطاليا في عصر النهضة الحديثة . عاد الى افريقيا الشمالية سنة 1528 ثم عاد ثانية الى أوروبا وانتعشت اخباره .

وصفا هاما للحرف المغربية وعمليات التبادل التجاري ، دون أن يغفل عن التعرض الى النتائج التي ترتبت من الاحتلال الاجنبي في الميدان الاقتصادي بوجه خاص ، وجميع ما أورده يؤكد لنا بان الاقتصاد المغربي قد أصبح يعيش في نظام شبه مفلق. الامر الذي زاد من مساوئ الحالة الداخلية للبلاد . نعمت الفتن والاضطرابات وأصبح من الصعب وجود طرق آمنة منظمة ، لا تتعرض لاعمال النهب والسلب ، مما ساعد على التجزئة الداخلية وجعل الوحدات السياسية تعيش في نظام شبه اقطاعي (2) . ولم يشذ عن ذلك الا المدن الساحلية والقبائل التي كانت توجد على مقربة من مراكز الاحتلال الاجنبي لانها اخذت في التعامل مع الاجانب من برتغال وغيبرهم (3) . وأكثر ما تحفظ لنا المصادر أحوال سكان السواحل المغربية الاطلسية الذين كانوا يتاجرون مع البرتغال خاصة يوم كان هؤلاء منهكين في اكتشاف سواحل امريكا الغربية ، وجادين في البحث عن طريق الهند البحرية . وحسب هذه

(2) لقد أولى الحسن الوزاني الناحية الاقتصادية عناية كبرى لما لها من أهمية وتأثير على مختلف أوضاع البلاد ، ولم يكتف بذلك أشهر المصنوعات المغربية بل تعرض أيضا الى المناطق التي تصنع بها كما حلل عمليات التبادل التجاري بين النواحي المغربية .

(3) بعد احتلال البرتغال لسبتة والعصر الصغير حصل اتفاق بين البرتغال والقبائل المجاورة لهاتين المدينتين ، يسمح بموجبه لهذه بالتجارة مع المدينتين ، مقابل السماح بمرور القوات البرتغالية بالاراضي المجاورة ، واجراء الدارهب العسكرية بها . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول . اوائل احتلال البرتغال للمغرب)

المصادر نعلم بأن المغاربة في القسم الجنوبي من الساحل الاطلسي ، كانوا يتاجرون مع الاجانب ، وانهم كانت لهم سفن خاصة بهم ، بل وان من الدواع التي جعلت بعضهم يدخل تحت الحماية البرتغالية الرغبة في استمرار المتاجرة مع الاجانب ومع أوروبا وبلاد البرتغال بوجه خاص (4) .

(4) هناك رسائل عديدة تبولت بين ملوك البرتغال والاهالي في السواحل الجنوبية لبلاد المغرب ، وقد وردت في المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - وهي مكتوبة بلغة اقرب منها الى العامية .

1 - رسالة من اهالي ازموار الى الملك جان الثاني مؤرخة سنة 1486 يعربون فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ، ويؤكدون له الجزية السنوية التي سيقدمونها له سنويا (عشرة الف شابل) . كما يخبرونه بانهم لن يأخذوا من المراكب البرتغالية ضرائب وكذا التجار البرتغال الذين سيتاجرون معهم . وكعربون على طاعتهم فقد اخذوا الاعلام البرتغالية وزعموها بموق بلادهم . ويرجو اهالي ازموار من الملك البرتغالي ان يخبر ملوك النصارى حتى لا تتعرض سفنهم لمراكبهم في البحر (كما هو الامر بالنسبة لرهايكم) وان من اراد (منا المتاجرة مع بلادكم يكون له الحق في ذلك) دون ان يلحقه اذى (المصدر السابق . ص 9) .

2 - رسالة من جان الثاني الى سكان اسفي مؤرخة بسنة 1488 .

مبتدئة بعبارة (دون جون بنعمة الله سلطان البرتغال والغربيين المحيطين بالبحرية وصاحب كتابه الذهبين) . وجوابا على الرسالة التي بعث بها سكان اسفي الى الملك البرتغالي لتجديد طاعتهم ، يؤكد لهم رضاه عنهم ويسمح لهم برفع الاعلام البرتغالية بعد تأدية ميثاق الطاعة وعلى ان يرسلوا في كل شهر سبتمبر 300 مثقال ذهبيا او قيمتها مع اقامة دار للتجارة في المدينة التي سيسقط بها التجار البرتغاليون ، ويختم الملك البرتغالي رسالته مخبرا اهالي اسفي بأنه امر البرتغاليين بان لا يؤذوهم وان من خالف منهم ذلك يخاصم (المصدر السابق ص 25) .

3 - رسالة من اهالي اسفي الى عمانويل الاول بتاريخ 1509 .

بعد اطلاق الملك على احوالهم المضطربة وانهم يتسكون بطاعته ويخبرونه بتعمقات حاله

في اسفي وبما يقوم به الجنود البرتغاليون في اسفي من فوضى وتخريب مما اضغف التجارة باسفي . ويختمون رسالتهم بان يطلبوا من الملك البرتغالي ان يولى على اسفي عميلا عادلا يستطيع ان يصلح ذات البين بين سكان اسفي والتبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد من جديد . (المصدر السابق . ص 177) .

4 - رسالة من اهالي ماسة الى عمانويل الاول مؤرخة بسنة 1510 .

مستهلة بالعبارة الاتية : (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واقليم الهندى دون منوال) بعد السلام يخبرونه بالمرور الذي اعتراهم عندما علموا ان الملك البرتغالي سيقوم ببلدهم هامية برتغالية ، ويذكرونه بتلقاتهم في طاعته (التي امنوا بها في بلادهم) . ثم يوجهون انتباه الملك البرتغالي الى ان سفنهم التجارية تتعرض للنهب في البحر مما جعل جيرانهم يضحكون عليهم مع انهم تحت حماية التاج البرتغالي ، ويرجعونه النظر في امرهم وان يرد عليهم حقوقهم التي نهبت وان يامر البرتغاليين بالكف عن اذيتهم (المصدر نفسه ص 233) .

ومن الناحية السياسية : كان لضعف السلطة في فاس وعجزها عن صيانة الامن والدفاع عن البلاد اثر كبير في انتشار الفوضى والفتن مما أدى الى تجزئة المغرب الى وحدات سياسية شبه مستقلة بعضها املتها ظروف الجهاد ومقاتلة العدو المحتل للسواحل المغربية كما حصل بالنسبة لشفشاون والقصر الكبير وتطوان ، وبعضها الآخر نتيجة البعد عن مقر الهيئة الحاكمة ، وذلك كما تم في شرق المغرب وجنوبه . بالاضافة الى أن معظم القبائل التي كانت بالسواحل الاطلسية خاصة قد وجدت نفسها مضطرة الى مهادنة المحتلين واعلان بعضها الدخول تحت حماية البرتغاليين .

فقد ظهرت مدينة شفشاون كمركز للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبى منذ أن اتخذها المولى على بن راشد (5) قاعدة لجهاده ضد البرتغال ، وتحفظ لنا المصادر التاريخية الكثير من المعارك التي خاضها هذا المجاهد ضد البرتغال وحسب منظومة الكراسى فان المولى على بن راشد قد ثار ضد الوطاسيين وانتقد مهادنتهم للبرتغال (6) ، ورغم اخضاع ثورته فان مدينة شفشاون ظلت تحتل مكانة مرموقة في حركات الجهاد باعتبارها من الثغور القريبة من مراكز الاحتلال البرتغالى . وعندما وامت المنية المولى على تابع ابنه المولى ابراهيم عمليات الجهاد والغزو ضد البرتغال في كل من طنجة واصيلا والعرائش .

والى جانب شفشاون هناك مدينة القصر الكبير التي (كانت سقوا تجلب اليها بضائع العدوتين . . وثغرا بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى) (7) وقد تولى حكم هذه الامارة عائلة العروسي التي كان القائد احمد من أشهر ابنائها ومن الذين

(5) على بن راشد : أحد شرفاء جبل العلم . صارع البرتغال في مراكز احتلالهم بشمال المغرب . وهو الذى بنى مدينة شفشاون واتخذها مقرا لقاعدة جهاده وقد اسره البرتغال في طنجة في اكتوبر 1457 واطلق سراحه في عمليات تبادل الاسرى .

(المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة)

(6) اللافى محمد الكراسى : كان أدبيا شاعرا تولى خطة القضاء بمدينة تطوان ، له (عروسية المسائل في ما لبني وطاس من الوسائل) وهو جزء في تاريخ الدولة الوطاسية برغ منه عام 1543م (عروسية المسائل) (المطبعة الملكية) الرباط 1963 . ص 17 .

ذاك الشريف المعانم الممثالا
ان يدخل الحضرة من حيث طلع
خاف وخاب رايه ما كانا
فاس وكتاس لهم بنود
بالانتطاع وتنام الحيل
لاموه مما كان من تخريف
وتبعت شفشاون بالطاعة

وثار في شفشاون ومثالا
دما لنفسه وجاهه الطبع
على بلاد مغرب سلطانا
تحركت لداره الجنود
... فانهصر بن راشد في الجبل
نطلع السادات للشريف
دخل في الطاعة والجماعة

(7) مرآة البحاسن ص 143

عرفوا بحملاتهم المتواصلة ضد مراكز الاحتلال . على أن المدينة التي ساهمت بحظ أوفر في هذا القبيل هي مدينة تطوان وذلك بحكم موقعها على الساحل الشمالي للمغرب حيث كان البرتغاليون والاسبانيون قد أتموا السيطرة على كل المدن الهامة بهذه المنطقة ، يضاف الى ذلك وهو العامل الاساسى كون تجديد هذه المدينة يرجع الى المهاجرين الاندلسيين الذين كانوا يقدرون جيدا مدى خطورة التوسع المسيحى في المغرب الامر الذي دفعهم الى القيام بحركات الغزو وخاصة في البحار ضد السفن الاسبانية والبرتغالية . وقد تولت امر هذه المدينة عائلة اندلسية هي أسرة المنظري التي توارث ابناؤها الحكم في تطوان والذين اشتهروا بأعمالهم الحربية ضد الاعضاء (8) .

وإذا كانت ظروف الجهاد والمناذاة بقتال المحتلين قد ساعدت على ظهور هذه الوحدات السياسية في شمال المغرب ، فان ضعف الحكم الوطاسى في فاس قد دفع بعض الولاة في المناطق البعيدة الى محاولة الاستقلال عن العاصمة ، ومن هذا القبيل ما حصل في مدينتى : دبدو بالمغرب الشرقى ، ومراكش في جنوب المغرب .

دبدو : التي تقع غير بعيدة عن وادي ملوية والتي تعد نقطة هامة في المغرب الشرقى قد أخذت تظهر كمركز لامارة شبه مستقلة منذ العهد الاول لقيام الوطاسيين ، ونحن وان كنا نجهل الكثير عن هذه الامارة لقلّة المصادر والوثائق عنها ، الا أنه - حسب ما يظهر - فان هذه المدينة قد التجأ اليها بعد زوال الحكم اليربني في فاس بعض الامراء اليربيين . وفي منظومة الكراسى ما يؤكد ذلك اذ ورد بأن أميراً يربنيا هو محمد بن أحمد قد ثار بدبدو ودعا لنفسه الا أن الوطاسيين اخضعوا ثورته (9) وان استمرت هذه الامارة في الظهور ، مما يجعلنا نرى بأن اليربيين الذين زحزحوا عن فاس قد اتخذوا دبدو مركزاً جديداً لامارة صغيرة هي كل ما بقى لهم من حكم المغرب ، ولقد ظل حكام دبدو يلتقون بالملوك وظلت هذه الامارة اليربية معاصرة للوطاسيين الى أن كانت نهايتها معاً على يد السعديين .

(8) تطوان . المجلد الأول . ص 85 .

(9) وثار في دبدو بذلك الحسين دعاً لنفسه ومات في البلاد فمقدوا صلحاً مع السلطان وجاء هنا ولد الدبدوبى وكان ذا سنة خمس جازت

محمد بن أحمد اليربني ورام بعد الصلح أميراً بفاس ورجموا لى نعمة البنسان حتى بفاس جد في الركوب من بعد تسميته وبارت

(اي ثار سنة 905 هـ الموافق 1499) (هروسة البتائل فيما لبني وطنش من الفضائل . ص 19) .

وفي الجنوب المغربي : استولى أمراء هنتاتة وهي قبيلة من مصوذة على حكم هذه المناطق واتخذوا مراكش عاصمة لهم ، وقد أخذ نفوذهم يزداد منذ منتصف القرن الخامس عشر حيث امتد خلال بعض الفترات الى سواحل المحيط الاطلسي . على ان بعض المصادر التاريخية تؤكد بأن أمراء هنتاتة رغم استقلالهم العملي بجنوبي المغرب فان الروابط التي كانت تربطهم مع فاس لم تظهر وكانها انقطعت . ويمكن اعتبار هذه الملاحظة في الواقع بالنسبة لجميع الوحدات السياسية التي ظهرت بالمغرب خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخه .

والى جانب هذه الامارات الداخلية هناك القبائل التي كانت توجد على الساحل الاطلسي حيث انشأ البرتغاليون عدة مراكز وقلاع ما بين طنجة حتى اكادير باعتبار انها تشرف على الطريق التجارية البحرية نحو الهند والشرق الاقصى ، وقد اقام البرتغاليون في هذه المراكز قوات مسلحة ، كما اتخذوا منها مخازن لتموين الاسطول ونقط استناد لاكتساح المناطق الداخلية من البلاد . ولما كان الاهالي في المناطق الساحلية قد دأبوا على التعامل مع الاجانب في مراكز الاحتلال ، فقد ساد النفوذ البرتغالي في هذه المناطق ، بل وان البعض من هؤلاء لم يتورع عن اعلان طاعة البرتغال والدخول في حماية التاج البرتغالي ، الامر الذي جعل سكان المناطق الداخلية والمجاورة لهم خاصة يتبرمون منهم ويسمون الى القضاء عليهم ، ما دام هؤلاء المتعاملون قد ربطوا مصيرهم بالاحتلال الاجنبي .

وان الرسائل التي تبودلت بين بعض مشايخ وزعماء هذه القبائل وبين ملوك لشبونة لتعد من الوثائق الهامة التي تكشف لنا القناع عن الكثير من اوضاع البلاد الجنوبية من المغرب خلال اواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن الذي يليه .

هذه هي الاوضاع السياسية التي كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر ، وهي في مجموعها تدل على مدى التجزئة التي وصلت اليها البلاد مما ساعد على تزايد الفتن الداخلية وشجع في نفس الوقت الاعداء على التمادي في عمليات الاحتلال والتفكير في السيطرة الشاملة على مجموع المغرب .

ومن الناحية الاجتماعية : فلئن كانت هناك مدن قد ازدهرت من قبل ولا زالت بها بعض من مظاهر حضارية ، فان الاغلبية العظمى من السكان كانت تعيش في البادية حيث يسود نظام العشيرة والقبيلة ، فمدينتا فاس وتطوان كانتا تمثلان مستوى رفيعا من التقدم الحضاري : الاولى باعتبارها العاصمة السياسية منذ

عهد المرينيين ، والثانية تدين بوجودها وتقدمها الى المهاجرين الاندلسيين الذين نقلوا من وطنهم الاصلى مظاهر شتى للحضارة العربية الاندلسية وتأتى بعد فاس وتطوان مدينة مراكش التى لا تزال بها بقايا من مجد غابر عرفته في عهد المرابطين والموحدين ، اما بقتية المدن فقد كانت في مراحل التطور وخاصة الواقعة منها فسى الداخل ، لان المدن الساحلية كانت قد وقعت جميعها تقريبا في قبضة الاحتلال الاجنبى . وبالنسبة للبادية التى كانت تمثل القسم الاعظم والهام ، فان حياة القبيلة ونظام العشيرة هما السائدان من بين انماط الحياة بالمغرب ، ولا تخفى علينا المظاهر التى تغلب على المجتمع القبلى سواء فيما يرجع للتمسك بالاعراف والتقاليد المحلية ، مما يحول دون قيام ترابط بين افراد المجتمع ، او فيما يتعلق باستمرار النزعات العصبية ، وما يتبعها من فوضى وفتن ولا يوجد بين ايدينا اعظم من منظومة الامام الهبلى (10) المعاصر (الالفية) التى تعتبر صورة حقيقية لما آلت اليه احوال الناس من عادات وتقاليد سواء بالنسبة لسكان المدن او القبائل المنتشرة في البوادي المغربية والظواهر التى تبرزها الالفية هى انحراف الناس عن مبادئ الاسلام الصحيح ، واحداثهم الكثير من البدع مثل تغييرهم القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وايمانهم بالكهان وشيوع عادات شرب الخمر ، واستعمال الوشم وكذا الغش في المعاملات . وهذا الخروج والانحراف عن الدين التويم لم تتصف به طبقات العامة فقط بل ولقد تجلى بصورة اشد عند الطبقة الخاصة التى كانت تتكون من الفقراء اي المتقشفين ، والفقهاء اي رجال الدين ، ثم طبقة الامراء

10) الهبلى : هو الشيخ ابو محمد عبد الله بن محمد بن الطنجى المعروف بالهبلى نسبة الى الهبلى . وهو من اكابر اهل العلم والعرفان ورعة القدر الواضحة البرهان . كانت تلك الجبال التى كان بها وهى جبال فمارة كثيرة الجهل وشرب الخمر وغير ذلك من المنكر يبذل الوسع في تعليم التوحيد وتقرير المعتاد وتغيير المنكر وخاطب في ذلك ولاة البلاد واشياخ القبائل فهدى به عالما لا يحصى وحسن حال البلاد واهلها . (مرآة المحاسن ص 5) وقد عدده صاحب التحفة من مشايخ الطبقة الثالثة من اتباع الجزولى . تولى عام 963 هـ - 1555 م بمعانين يحوز شفشاون التحفة ص 32

والحكام . ويبرز الامام الهبطى حقيقة هامة وهى انه اذا ضعف ايمان اهل المدن ، فان الحالة لادهى وامر بالنسبة لسكان البوادي (11) .

واخيرا هناك الناحية الفكرية : التى اكثر ما يهمنى منها الاطلاع على الدور الذى اصبحت تلعبه الزوايا والرباطات التى كانت منبئة فى مختلف مناطق المغرب . فنحن بعد تعرفنا على الاوضاع العامة التى كان عليها المغرب من سياسيه واقتصادية واجتماعية عند مطلع القرن السادس عشر اصبحت من السهل علينا ان نتنبأ عن الحالة الفكرية التى اصبحت عليها البلاد : فاذا كانت فاس لا تزال متمتعة بالشهرة العلمية بفضل جامع القرويين ، واذا كانت تطوان قد اخذت تتبؤا مقاما رفيعا فى هذا المجال باعتبار ان المهاجرين الاندلسيين الذين انشأوها كانوا على مستوى عال من التقدم الفكرى والحضارى ، فانه لمن الصعب العثور على مراكز علمية اخرى تضارع ما ذكرنا ، اللهم الا ما كان من الزوايا والرباطات التى قلما تخلو منها منطقة او ناحية من بلاد المغرب ، والتى لم تعدم ظهور ائمة ومشايخ اشتهروا فى علوم الدين أو عرفوا بالتقشف والزهد . وهذه الزوايا والرباطات ترجع فى اصولها الى الحركات الصوفية الاولى التى كانت قد تسربت الى المغرب من الشرق والاندلس منذ امد بعيد .

غير ان تسرب الانحراف والشذوذ الى بعض الحركات الصوفية ابعدها عن اهدائها الحقيقية الى حد ان الكثير من الفقهاء قاموا يعارضون بقوة هذا اللون من الطرق للبدع التى احدثتها واكثر ما ظهر ذلك فى البوادي التى كانت اكثر غلوا فى الجهل حيث وجد فيها هؤلاء المدعون تربة خصبة للشذوذ ولعل هذا هو الدافع الذى جعل الامام الشيخ زروق يصف بعض الطرق السائدة فى عصره بقولـه (ولقد تتبعت الطرق الموجودة بأيدي الناس فى هذه الأزمنة فلم اجد لاهلها فتحا

والكر داخل الى القلوب
اذ الرسوم عندنا من العلوم
وبدلوها كلها بالبدعة
على نساد ما لهم من ايمان
والظلم والجور على الميساد
قالوا تعالوا نحو هذا الصالح
وصدقوا الكهانة البلمونة
بل كلهم اتوه حيث كان
فأين أنت من حديث الوثام
على نساد العقل والايان
لم نعرفوا حقا ولا حقيقة
باسم الفقيه والفقير والامير

(11) فالدين ذاهب الى الفروب
لا تمجن من حالنا يا مهموم
ان الموام قد خرقوا الشريعة
وكل بدعة لهم كالبرهان
نكان ما ترى من النساد
ومن اتاهم بالبحال الواضح
كلا ولكن كذبوا الشريعة
ما يهيم من كذب الكهان
وان دهك ما نسمت من كلام
عصابة دلت بلا نوان
اصابتا وهم شديد الحيرة
لا تغفر يا صاحب العقل البنيـر

ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما ، بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز بالاختصاص (12) . وليس معنى ذلك أن جميع الطرق الصوفية كانت على هذا النوال ، بل هناك حركات صوفية تميزت حقا بصدق الايمان وحسن النية وسلامة المقصد ومن اشهرها الطريقتان الجزولية والزروقية التي وصفها صاحب التحفة الصديقية في مخطوطه وكيف ان جميع (طرق اهل الله بقطرنا هذا في هاتين المائتين العاشرة والحادية عشرة ترجع الى شيخين : الشيخ الامام العالم الكامل القطب الجامع الكبير ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابي بكر بن سليمان الجزولي ثم السلالي الشريف الحسنى ، والشيخ الامام العلامة المحقق الفهامة المصنف الرباني شيخ وقته وعروس عصره ابي العباسي احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المؤذن عرف بزروق رضى الله عنهما ، الا من شذ عنهما من بهلول ومجنوب وأصحاب حال ، ممن لا يعرف له شيخ) (13) على أن الطريقة الجزولية

(12) الفكر الصومى والانتقالية بالمغرب . مقال في البينة . نوفمبر 1960 . العدد السابع ص 91

(13) التحفة الصديقية مخطوط ص 2 الجزولى : هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر ابن سليمان بن سعيد ... بن علي بن ابي طالب ، ويعرف بالجزولى لانه من جزولة وهي قبيلة من البربر بسوس الانسى ويكتب في نسبه السلالي أيضا نسبة الى سلالة وهي من قبائل جزولة (تمتع الاسماع في ذكر الجزولى والتباع) كان رضى الله عنه في اول امره يطلب العلم فكان يماس بدمية الصغارين وبها لك (دلائل الخيرات) الذي جمعه من كتب خزائنة جامع القرويين (الاعلام ص 67) . وبعد خروجه من فاس التقى بالشيخ ابي عبد الله امغار الصغير في الساحل فأخذ منه برباط تهنظطر وهي قرية بساحل أزموور وتعرف الان بتيط . وقد كان الجزولى كثير الاوراد مراقبا لله في جميع اعماله واقفا عند حدوده عابلا بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام الى أن اشتهر بالصلاح وظهرت منه الكرامات وتاب على يده هناك خلق كثير وانتشر ذكره في الاماكن وأخذ في تربية المريدين . ثم انتقل من هناك بعد ظهور ما من الله به عليه من البركات وتتابع الخيرات الى الموضع المسى باموغال من بلاد مطرازة فاقام على حالته من تربية المريدين وارشادهم الى سبيل الله . وباموغال تولى وهو ساجد يوم الازمءاء من شهر ذى القعدة عام 869 ودفن بوسط المسجد الذى كان أسسه هناك . وقد جعل البمض ولفاته بين 870 و 875 هـ . اما الطريقة الجزولية فهي مبنية على كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى عن الشيخ الجزولى قوله (قبل لى يا مبدى لفلتك على جميع خلقى بكثرة صلاتك على نبي . يا عبد ... من اطاعك من الاولياء نقد اطاعنى ومن عصاك من الاولياء نقد عصاتى ومن تكبر عليك من الاولياء سلطه من نورى) (الاعلام ص 69) . وقال أيضا (ان دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله المقاتلين لامداء الله) (الاعلام ص 65) ولقد ذاع صيت كتابه دلائل الخيرات ولوائح الاتوار والبسرات في سائر الاقطار والابصار كما كثر الانتفاع به في طريق الله وعم نفعه العظيم لعباد الله فشاغ ذكره في سائر الاقطار والابصار كما كثر الانتفاع به في طريق الله وعم نفعه العظيم البنفس ومم وقوع الابدال عليه في كل حضرة ومجلس وشرحه الائمة والاعلام والاجلة المظالم بشروح عديدة (الاعلام ص 103)

الاعلام ص 63 . 64 .

زروق البرنسي الفاسي (1442 - 1493) هو شهاب الدين ابو العباس احمد ولد في تكريس بطرابلس الغرب وهو من ائمة الصوفية تعلم صناعة الخرز واشتغل بالتصوف والتوحيد . له (الطريقة الزروقية) . ويضيف صاحب (النشوف الصغير) مخطوط لعبد الرحمن الصومى (بان الطريقة الزروقية (كانت على السنة الكتاب وهي المذكورة في قوله تعالى الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) النشوف الصغير ص 76 .

هى التى تركت كبير الاثر فى المغرب ، لان الجزولى هو الذى جدد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها وخبو أنوارها وأصحابه الذين أخذوا عنه تفرقتوا فى البلاد ، فأخذ الناس عنهم وانتشر أتباعهم واشتبكت فروعهم وقد كانت بلاد السوس هسى الموطن الاول الذى نشأت به الطريقة الجزولية ، اذ (جزولة) التى ينتسب اليها الشيخ هى قبيلة من البربر توجد ببلاد السوس ، ومن السوس عمت سائر المغرب حيث قام أتباعها بدور عظيم فيما يرجع لحياء السنة ومحاربة البدع والطوائف الضالة . وحسب (دوحه الناشر) يمكننا أن نحصر المناطق التى ظهر بها هؤلاء المجددون كبلاد غمارة وشفشاون والهبط وتطوان وفاس ومكناسة ومراكش وسجلماسة وتادلا ودرعة وسوس ، ومعظم هذه المناطق والسواحل منها خاصة كانت على مقربة من مراكز الاحتلال الاجنبى الشىء الذى سيكون له اثر كبير فى انتشار حركات الجهاد ومقاتلة المحتلين .

وقد اثر البعض من هؤلاء الدعاة العزلة وحياء التقيف ، فاقبلوا على العبادة والصلاة ، كما قاموا بالتأليف ونسخ الكتب ، حيث لا يزال العديد من تأليفهم مخطوطا حتى اليوم . كما كان لهؤلاء الائمة والزهاد احترام وتقديس لدى العامة ويكفينا دليلا على ذلك كون الشيخ ابي عبد الله بن المبارك بالسوس (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها ايام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل فيها احد سلاحا ولا يقدر احد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل ابيه وولده ولا يقدر ان يكلمه ، وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من سوس) (14) .

الا ان قيام بعض المفرضين والجهلة وتظاهرهم بالزهد والعبادة ثم استغلالهم بساطة العامة وسذاجتها لمآربهم الخاصة ، قد احدث استياء ورد فعل من قبل رجال الدين الاتقياء الذين تصدوا لمقاومة ذلك ، ولعل الاوصاف التى ابرزها الامام الهبطى فى الفيته عندما تعرض لبعض الفقراء والمنتقشين والفقهاء ، كانت تعنى هذه الفئة الضالة التى حادت عن سواء السبيل (15) . فقد أدرك الامام الهبطى حقيقة الاوضاع المضطربة وعرف أن الحالة التى وصلت اليها البلاد ترجع فى اساسها الى

(14) الدوحه ص 74

وسيدى محمد بن مبارك هو نفسه يدى بركات

(15) من لى بواحد من السولات

او مسن لنا بعالم رشيد

مؤديا لما عليه قد وجب

او من لنا سيد الصريسة

يدعو الى التوحيد والصلاة

يدعو الى الصلاة والتوحيد

من بث عليه على وفق الكتاب

يدعو الى الهدى بمدق النية

جهل العامة : وشذوذ الفقراء ، وجبود الفقهاء ، وجور الحكام ، الشيء الذي جعله يتوجه بالنداء الى اصحاب العقل ورجال الدين المخلصين والى الحكام والسلطين ، طالبا منهم العمل على نشر التعليم بين طبقات العامة من رجال ونساء وبنين ، اذ بالعلم والمعرفة ستتغير الامور وتتحسن الاحوال . ولا ينسى الامام الهبطى اخيرا ان يحمل الفقهاء والحكام والمفكرين مسؤولية ذلك .



هذه هى الاوضاع العامة التى كان عليها المغرب عند مطلع القرن السادس عشر : وحدات سياسية نتجت عن ضعف السلطة المركزية فى فاس ، واضطراب اقتصادى للفتن التى كانت عليها البلاد فى الداخل والخارج ، ثم فوضى اجتماعية زادت تأخرا انماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلى بوجه خاص ، واخيرا ظهور دعاة زوايا وطرق ، اتصف البعض منها بالاخلاص والدعوة الصادقة ، وغلب على البعض الآخر الشذوذ والشموذة . وهذه الاوضاع جميعها قد زادت بها تعقيدا الاخطار الخارجية المتمثلة فى عمليات الاحتلال الاجنبى لمعظم السواحل المغربية ، وقد أصبح من المتوقع ان يقوم هؤلاء الدخلاء باكتساح كل البلاد ان لم تعبأ جميع الطاقات الموجودة بالبلاد ، للوقوف بها صفا واحدا لمواجهة الخطر الدايم . فهل بقى المغرب فى مكانه تاركا للاجانب حرية التصرف ؟ ام كانت له بقية من قوى ، وبعضا من الطاقة وشيئا من الحيوية ، تدفعه للحركة ومجابهة الاخطار ؟

رد الفعل المغربي ضد الاحتلال الأجنبي

ان المتبع لاحداث المغرب خلال القرن الخامس عشر ، وهو القرن الذي تمت خلاله عمليات الاحتلال لمعظم سواحل المغرب ، يلفت نظره حصول ظاهرتين متلازمتين ، هما الصدى القوي الذي أحدثه الاحتلال البرتغالي والاسباني للاراضي المغربية ، ثم ظهور رد فعل عظيم ضد المحتلين المسيحيين .

فبالنسبة للتاثيرات التي أحدثتها عمليات الاحتلال الاجنبي لسواحل المغربية نلاحظ بأنه منذ أن تم للبرتغال احتلال سبتة ، وطوال مراحل الاحتلال التالية ، ظهر عجز السلطات القائمة وضعفها عن مواجهة الاحداث ، فقام المخلصون من الدعاة والائمة والمشايخ يحثون الناس على بذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن ولاعلاء كلمة الاسلام . ولم يهتم هؤلاء بتحريض الناس على الجهاد فقط ، بل وأخذوا في جمع الاموال لصرفها على شؤون الجهاد ، أو لافتكاك أسرى المسلمين . والدعوات الى الجهاد والحرب كانت تتزايد باستفحال الخطر المسيحي ، ولقد بلغ الامر ببعض القائمين على شؤون الجهاد ، ان كثر كل قادر على الحزب ، وكل متعاس عن أداء هذا الواجب المقدس (1) . ولم تختلف نظرتهم هذه حتى بالنسبة للحاكمين حيث كانوا يستنكرون ضعفهم وتخاذلهم عن القيام بتعبئة القوات المحاربة لقتال العدو . ولشدها كانت ثور ثائرتهم عندما يعمد هؤلاء الحكام الى مهادنة العدو ، فقد جاء في (دوحة الناشر) ان الشيخ ابا عبد الله محمد بن يحيى البهلول عندما بلغه خبير الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسي محمد البرتغالي مع الاعبياء (آلى على نفسه الا يلقى السلطان المذكور ولا يمشى اليه ، ولا يقبل منه ما كان والده عينه له من جزية أهل الذمة بفاس لقوته) (2) .

(1) أورد صاحب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن الماشر (ابن عسك) ان بعض المشايخ الذين كانوا يقومون بالجهاد ضد العدو قد توفيت زوجته في غيابه ، وعند موته وجد الناس على وشك الانتهاء من دفنها فقام هو ومن معه بالصلاة على الجنازة مما أدى الى استنكار العاصرين الا ان الشيخ اجابهم بان صلاتهم ماسدة لكونها بخير امام وعندما استفسروه في ذلك قال (اذ من شروط الايام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم ، لان الذي لم يتقلد سبها قط في سبيل الله ولم يضر به ولم يعرف الحرب كما كان نبينا عليه السلام ، فكيف يعد ابابا ذكرا ، بل املمكم والله من جملة النساء) ص 47 .

(2) الدوحة ص 24 .

ومن الامثلة التي يمكن ان نقيس بها الاعمال العظيمة التي كان الدعاة المخلصون يقومون بها ، لحث الناس على الجهاد والكناف ، ما قام به الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجيش التازي ، والشيخ الامام الهبطي ، ونحن وان كنا نجعل ما اذا كان الاول من اتباع الطريقة الجزولية التي ذاعت شهرتها في مجموع المغرب ، فان الامام الهبطي يعد من اتباع هذه الطريقة ، بل وقد عدده صاحب (التحفة الصديقية) من مشايخ الطبقة الثالثة من اتباع الجزولى ، الشيء الذي يجعلنا نتأكد من ان الطريقة الجزولية قد طبقت شهرتها مجموع جهات المغرب ، ويرينا في نفس الوقت النتائج البعيدة المدى التي اخذت تظهر لهذه الطريقة نيبا يرجع لتغيير الاوضاع العامة بالمغرب سواء في الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

فالشيخ بن يجيش التازي (3) اذهلته الغفلة التي سيطرت على عقول الناس ، وانزعه انحراف العامة عن الدين القويم ، في الوقت الذي اخذ العدو يجمع قواته لاكتساح باقى البلاد ، خصوصا وقد تأكد من عجز المغاربة ، وضعف امكانياتهم الحربية ، وثبت لديه انقسامهم الى احزاب وفتات ، علاوة على عدم اكتراث معظمهم بالمصير الذي آلت اليه بعض المدن الساحلية . وبعد ان يحث هذا الداعية الناس على الجهاد ويظهر ما اعدده الله من الثواب الجزيل للمجاهدين الصائقين ، وبعد ان يهيب بهم لتحرير اخوانهم الذين سمعت اخوالهم بعد الاحتلال الاجنبى ، يثير انتباههم الى ان الاعداء الذين احتلوا السواحل ، هم بصدد احتلال

(3) محمد بن عبد الرحيم بن يجيش التازي ، تولى عام 920 هـ (درة العجال ص 170) له (جملـة مختصرة) : مخطوط . ص 227 - 438 - 439 - 441 - 442 .

ما تبقى من البلاد ان لم يقوموا قوة رجل واحد لصد هؤلاء ، الدخلاء ولتحرير المراكز المحتلة . ولم يغفل الامام التازي جانبا هاما وهو تصوير احداث الاحتلال نسي تالبا شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر (4) .

(4) (عباد الله ما هذه الغفلة التي أضحت على القلوب سقيمة ، وركنت اليها النفوس التي أصبحت من الرشاد والتوفيق عديبة ، أما علمتم ان أعداءكم باحثون عليكم مشتغلون بكل حيلة في سبيل الوصول اليكم ، قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد وأرسلوا جواسيسهم وعيونهم في كل بلدة ليخبروهم بما عندكم من عدة وما أنتم فيه من قوة أو شدة فليخبروهم بما أنتم عليه من الاستهزاء والغفلة وان عدتكم بالنسبة الى عدتكم في غاية الضعف والقلّة وانكم مطفونون مع اخوانكم المسلمين ، لم تبالوا بما اتفق من اذلال دين سيد المرسلين وأخذ عباد الله المومنين فلما عرفوا جميع احوالكم وما أنتم عليه من عدم اهتمامكم بهم واشتغالكم طمعوا لا يبلغ الله لهم املا منكم في نيل المراد ، واجمعوا يدد الله شملهم في ما بلقنا من الخروج لهذه البلاد فلما اتبعتهم احوالكم وسامحتهم اراذلكم وسفهاكم فسدت باذن الله جميع الاحوال ورفعت البركة من الاموال وحجبت القلوب من سماع المواعظ فلم يؤثر فيها كلام حكيم ولا وعظ واعظ فالبدار البدار معاشر المسلمين والمجل المجل عباد الله المومنين ، فهذا منادى التوجه لاستنقاذ اخوانكم من ايد الكفرة يناديكم وهذه رسالة يستنفركم لجهاد من طفي عليكم من اعدائكم بذكرة لكم بمضي ما أعده الله عز وجل للمجاهدين من عظيم ثوابه وما ادخر لهم من الخيرات في اعلا الجنات مع خاصة احيابه . لان الامداد دبرهم الله قد استفاض من خبرهم انهم يزمعون على الورود عليكم لانهم اما أخذوا ما قدر الله عز وجل من البلاد وملكوا ما سبق في علمه من العباد ولم يروا منكم حركة انهم وغلب على ظنهم انكم ليس لكم قدرة في الوندرة عليهم سيما حينما تحققتوا ما اشتهر من بركتكم وما وقع من الشنآن بينكم وبين اخوانكم ، طمعوا لا يبلغ لهم املا فيما يكون ان شاء الله وبالا عليهم وسببا لهلاكهم واغتنام ما لديهم ، فاصروا همكم رحيمكم الله للاكتثار من اكتساب العدد ومن اجادو الخيل البوصلة للفرض في اقرب امد واقبوا اليهم الرحلة وآتوهم على حين غفلة ولا تعطوهم فترة ولا مهلة ، فمساكم ان اوجفتهم عليهم يخيلكم ورجلكم تظفرون ان شاء الله تعالى بابلكم وتخلصوا اخوانكم من ايديهم وتغنموا اموالهم واهاليهم) .

ولتكون لمواعظ بن يحيى تأثير كبير في قلوب المسلمين ميد الى تصوير احداث الباقى في قالب شعري واتخاذها عبرة لمن يعتبر .

وقد هتكت بن ديننا كل حرمت
وقد أخذوا جل البلاد البهيبت
وصاروا يودون الفراج كجزيت
وما فعل الامداد من شر قدرت
كذى سكن صار في ارض فريت
كان لم يكن فيها مردد سورت
بتلييس رهبان ورجس الاكست
بكت الدما من بعد انفاذ عبرت
وكيف تلذ النفس بمدد لشهوت

ولم استطع سبرا وكيف يصح لى
وشاركنا الامداد في طر فرينا
وقد ارميت تلك السواحل منهم
لقصة اصيلا مرتهم جيمعا
واضحت على الإسلام تبكى رسوما
بساجدها تبكى على نقد اهلها
بجالس اهل العلم يا صاح بدلت
فلو ابصرت مينك حال خروجهم
لكيف يطيب العيش بمدد لعاقل

أما الامام الهبطى فقد قام يدعو الى الجهاد وتلبية نداء الواجب ، مبينا الحالة التى كان عليها السلف الصالح وكيف أنهم كانوا يتسابقون الى الشهادة لاعلاء كلمة الاسلام ، وما آلى اليه امر المسلمين من تقاعس وتخاذل (5) .

ومن الدعاة ايضا يمكن ادراج الشيخ أبى عبد الله محمد بن يحيى البهلول الذي جعل من نكبة المسلمين فى الاندلس مثالا لترهيب الناس من أن يحل بالمغرب ما حل بالاندلس ولترغيبهم فى الجهاد والدفاع عن الوطن (6) .

ولقد اثر عامل الجهاد ومقاتلة العدو على السلطة الحاكمة الضعيفة ، فما احتل البرتغال مدينة سبته ، وظهر جليا عجز السلطان أبى سعيد المرينى وان ليس باستطاعته انقاذ هذه المدينة ، حتى قامت ثورة ضده أودت بحياته ، ولما تمض غير بضعة اعوام على هذا الاحتلال ، وذلك سنة 1420 م ، مما جعل الفرصة مناسبة لقائد سلا أبى زكرياء الوطاسى الذي جاء الى فاس وأصبح وصيا على الامير عبد الحق الذي نودي به فى نفس السنة سلطانا على المغرب . وما من شك فى أن الوزير أبى زكرياء قد أدرك ما للمناداة بالجهاد وحرب العدو من دور فى توطيد حكمه اذ نراه يهاجم سبته ويسرع الى صد حملة برتغالية ضد طنجة سنة 1437 م ، بل ولم يقبل اخلاء سبيل جنود هذه الحملة الفاشلة الا بعد أن تمهد البرتغاليون باخلاء مدينة سبته ، وقد تركوا احد امراءهم رهينة ذلك . وجميع هذه الاعمال قد قوت من نفوذ الوزير أبى زكرياء الا أن مؤامرة دبرت ضده سنة 1448 م . تزايدت أخطار الحملات البرتغالية بعد احتلال مدينة القصر الصغير سنة

1458 م وهجومهم على طنجة من جديد سنة 1464 فضاعف ذلك من استياء العامة ضد السلطان المرينى ، ودفع بادارسة فاس وعلى رأسهم الشريف الادريسى

(5) باب ما وقع من التمييز فى الجهاد بسبب تغير الايمان .

عليه تنبذى أمور الدين
بلذة عظيمة فى الطيب
دين الهدى ذو العز والجمال
شيئا شيئا باتقفاء نزه
نهج الرشاد الى الاتوام لو نهوا
لو كان يمكنى فى الليل احتزم

ان الجهاد أكبر المميين
كانت تباع النفس دون ريب
وعندما مال الى السزوال
انتثر الايمان قل من عقده
(6) تم للجهاد رماك الله منتهجا
من بعد اندلس ما زلت محتما

الادب المغربى . ص 292

محمد بن علي الى القيام بثورة ضد السلطان عبد الحق ، انتهت بمقتله سنة 1465 .
وان لم ينعنا هذا من القول بان من اسباب هذه الثورة مما اشيع من ان السلطان
عبد الحق كان قد دبر قتل الشيخ الامام بن سليمان الجزولي مؤسس الطريقة
الجزولية التي كان السلطان المريني يدرك مدى خطورتها على ملكه وسلطانه (7) .

اما الشرفاء الادارسة بناس وان اعلنوا بيعة زعيمهم المولى محمد بن علي ،
فان الامر لم يستقر لهم لقيام حاكم اصيلا محمد بن ابي زكرياء الوطاسي بمعارضتهم
اضف الى ذلك ما بدأ منهم من ضعف اتجاه الخطر الاجنبي ، فما ان تم للبرتغال
احتلال اصيلا وطنجة سنة 1471 حتى تخلت عامة الناس عنهم ، بينما استغل محمد
بن ابي زكرياء ذلك ودخل فاس حيث أعلن نفسه سلطانا سنة 1472 ، فابتدا بذلك
المعهد الوطاسي بالمغرب .

وحسب منظومة الكراسي نتأكد من ان الوطاسيين لم يتولوا الحكم الا تحت
شعار الدفاع عن الوطن ، فقد أورد الكراسي بان بيعة محمد بن ابي زكرياء
محمد الشيخ) قد تمت بموافقة أهل الشورى والحل ، وهل هناك شيء أكثر
اهمية من أمر القيام بالجهاد ضد الاعداء والمحتلين (8) ؟ ولا ننسى الاعمال
الحرية التي قام بها ابو زكرياء الوطاسي في الوقت الذي كان فيه وزيرا للسلطان
عبد الحق ، هذه الاعمال التي كانت لا تزال عالقة بأذهان الناس الشيء الذي يثبت
ما ذهبنا اليه من كون الوطاسيين قد استغلوا الدعوة الى قتال المحتلين لتولي
الحكم في المغرب .

(7) عبد الباسط بن خليل (روبري برونشفيك) باريس 1936 . ص 27 .

محمد الشيخ بلا منازمة
على اتفاق من ذوي المشورة

(8) أولهم من حازه مبايعة
قام بأمر الله عن مشورة

وقد ازدادت مكانة الوطاسيين في الداخل اثر الانتصار الذي احرزوه على الحملة البرتغالية التي احتلت جزيرة المليحة بوادي اللوكوس سنة 1489 (9) . غير ان تقاعس محمد الشيخ عن نجدة اهالي الاندلس بغرناطة ، وسقوط هذا الاخيرة بيد الاسبان وما اعتقب ذلك من هجرة للاندلسيين الى المغرب ، ثم احتلال الاسبان لمليحة سنة 1497 ، اثار الاستياء ضد الوطاسيين ، وقد يكون هذا سببا رئيسيا في الحملات التي قام بها السلطان محمد بن محمد الشيخ (الملقب بالبرتغالي) ، الذي ما ان تولى الحكم بعد وفاة ابيه سنة 1501 حتى هاجم بعض مراكز الاحتلال الاجنبي ، شعورا منه بما حصل في الاوساط الداخلية من تذر بتقاعس الوطاسيين عن محاربة الاعداء . ولقد سعى محمد البرتغالي لدى ملوك الاسلام المعاصرين في مالي بغربي افريقيا ، وآل عثمان في الشرق ، لخلق تحالف اسلامي ضد المسيحيين والبرتغال والاسبان بشكل خاص ، الذين اصبحوا يهددون بلاد الاسلام ، وذلك كما يستنتج من الرحلات التي قام بها محمد الحسن الوزان

(9) عندما علم السلطان الوطاسي محمد الشيخ بخبر الحملة البرتغالية أسرع على رأس قوات مغربية لمعانلة المهاجمين ، ولما كانت المراكب البرتغالية قد صعقت مع وادي اللوكوس فان المغاربة قد قاموا ببناء حواجز عند مصب الوادي للحيلولة دون خروجها نحو المحيط . وبهذا فشلت الحملة وانتهى الامر بمقتد هدنة انسحبت على اثرها القوات البرتغالية بعد تخریب قلعة كراسيوسا (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة)

والى الحادثة نفسها يشير الكراسي في منظومته تحت عنوان ذكر مجيء النصارى الى عمارة جزيرة (مليحة)

بكل أسطول وكبل ميرة
ذاقوا به الهوان بالنكوس
واسكنوا فيه الطفأة والمدا
راى سديد ردهم جليب
من تصب وبالصخور تنلسى
وقطع السوادى بلا تليث
فأيقنوا بالمهون والخسران

وجات الروم الى الجزيرة
ودخلوا في وادي آل كوس
هناك اذ ذاك اقاموا بلدا
وكان من ذا الرئيس الحبيب
ان قطع الوادي يجل لك
انزلها بمبيل التثبيت
وامتنع الطلوع في الاجفان

(تطوان المجلد الاول . ص 148)

(ليون الإفريقي) إلى كل من السودان المغربي (10) وإلى مصر (11)، عند مطلع القرن السادس عشر، إلا أن، محاولاته لم يكتب لها النجاح. وقد كان بوسعه أن يكرر المحاولة مع ملوك المسلمين في الشرق والغرب لولا انشغاله بالأحداث الداخلية وخاصة فيما يرجع لانتشار الدعوة السعيدية التي أخذت تعم بلاد السوس والجنوب المغربي، والتي أدرك الوطاسيون مدى خطورتها على دولتهم. زد على ذلك أن الأيام لم تكن لتزيد الحكم الوطاسي إلا ضعفا وتدهورا في وقت استفتحت خلاله حملات البرتغال وإسبانيا على السواحل المغربية المتوسطة والاطلسية، فظهر للجميع عجزهم وأنه لم يعد هناك أي أمل يرجى من الوطاسيين في إصلاح حال البلاد ورد الأخطار الخارجية عنها.

هكذا كانت الأوضاع العامة لبلاد المغرب خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر: احتلال أجنبي لمعظم السواحل الشمالية والغربية، وأحوال داخلية مضطربة، تردد صداها في جميع مظاهر الحياة بالبلاد، في الوقت الذي ضعفت فيه السلطات القائمة عن رد الأخطار الخارجية، وظهر عجز الحركات الداعية إلى مناوأة الأعداء في تعبئة العامة ضد المحتلين، لأن ظروف البلاد كانت بحاجة إلى قادة يتزعمون صفوف المجاهدين لمقاتلة البرتغال وإسبانيا. فكيف ظهرت الحركة السعيدية؟ وما الظروف التي ساعدتها على ذلك.

(10) زار ليون الإفريقي عند مطلع القرن السادس عشر منطقة السودان المغربي وقد كان موعدا في مهمة دبلوماسية من قبل سلطان المغرب إلى السيك الكبير مؤسس إمبراطورية إسلامية في السودان المغربي. (تاريخ الإفريقي، ص 30).

(11) بعد اشتداد خطر البرتغال وإسبانيا على المغرب كلف محمد البرتغالي الحسن الوزان بمهمة لدى العثمانيين، وقد قصد ليون الإفريقي القسطنطينية أولا ثم غادرها إلى مصر حيث كان السلطان سليم قد فتحها وقد أورد ليون الإفريقي وصفا من دخول سليم إلى الإسكندرية على أن الحسن الوزان عاد إلى المغرب، ولعل مهمته الاستنجد بالأتراك فشلت كما فشلت المحاولة الأولى مع محمد إسكيا. والظاهر أن انشغال كل من محمد إسكيا وسليم العثماني بالأخطار البرتغالية على بلادهم قد دعتهم إلى الاهتمام بأحوالهم قبل الأقدام على نجدة المغرب.

بدء الدعوة السعودية بالجنوب المغربي

أحدث الاحتلال المسيحي للسواحل المغربية رد فعل قوي في الداخل ، اذ ظهرت حركات تدعو الى حمل السلاح والتقدم لتحرير الاراضى المفتصبة ، وقد أصبح أمر السلطات القائمة بالبلاد يتوقف الى حد كبير على مدى استجابتها لهذا النداء . ولما لم تصادف أي منها النجاح في نشر الامن في الداخل وصد العدوان الخارجى ، انبرى المصلحون للاعراب عن امانهم في ان يقيد الله للمغرب قيادة جديدة ؟ وحاكما عادلا مؤمنا . يعود بالناس الى الطريق المستقيم ، ويسمى نسي نفس الوقت الى نشر الطمأنينة وحماية البلاد من الاخطار التى تتهددها ، وقد تحقق هذا الامل المنشود عندما قامت ببلاد سوس حركة دينية رائدها التمسك بالدين التويم والحث على الجهاد لتحرير الوطن وتوحيد اجزائه . فهى حركة جديدة وقيادة جديدة للمغرب ، حاولت ان تحقق له امانيه ومطالبه .

لقد كان من المتوقع ان يكون خلاص المغرب وانقاذه من الهوة التى تردى فيها . سواء فيما يرجع للفتن الداخلية او الاخطار الخارجية على يد الوطاسيين الذين حاولوا الظهور فى اول الامر بمظهر المدافع عن وحدة البلاد وسلامتها ، وحتى اذا ما خاب الظن فيهم وبرزت وحدات سياسية وخاصة تلك التى قامت فى شمال البلاد . اتجهت اليها الانظار ، ولكن اية واحدة منها لم تكن اهلا للقيام بالمأمورية العظمى لعوامل عديدة أهمها سعى كل منها الى تركيز النفوذ الداخلى واستغلال ظروف الجهاد لبلوغ ذلك . ثم معارضتها كل ما من شأنه ان يعيد ثانية سيطرة الوطاسيين الفعلية الى مقاطعاتها أي ان اهتمام هذه الوحدات السياسية كان ينحصر فى النظر الى مصالحها الخاصة قبل أي اعتبار آخر . كماارات اقطاعية تعمل جاهدة للاستقلال عن الوطاسيين فى فاس . ويديهى ان هذه الوحدات السياسية ، وشأنها كما رأينا . ستتقدي بالوطاسيين فى مهادنتها للعدو ، بل وستجد فى ذلك الفرصة للتقرب من المحتلين أو للتعامل معهم . وهذا فى مجموعة اباد قوات الاحتلال التى اغضمت ظروف الهدنة لبناء الحصون والقلاع ولبسط

النفوذ على المناطق المجاورة . فاذا لم يكن هناك أي أمل يرجى من الهيئات القائمة لانتقاذ البلاد وتحريرها . طالما أن النزعة المحلية والرغبة في المصلحة الخاصة كانتا من الأهداف الأولى لكل منها . ولا غرو ، والحالة هذه إذا وجدنا المؤمنين المخلصين الذين كانوا يتألمون لها آلى إليه أمر العباد والبلاد ، يتطلعون الى ظهور قيادة جديدة رائدها التمسك بالدين الاسلامى القويم . وهدفها توحيد البلاد وتطهير سواحلها من الاحتلال الاجنبى . ومسألة توحيد البلاد وتحرير مناطقها المحتلة كانت اذا الشغل الشاغل للدعاة المخلصين . وما من شك فى ان اية حركة جديدة تجعل من هذين الهدفين أساسا لدعوتها ، لابد وأن تصادف تجاوبا عظيما يضمن لها الفوز والنجاح ، وكذلك كان شأن الدعوة التى قامت بالجنوب المغربى ، وفى بلاد السوس بوجه خاص (1) .

لقد تعرضت المناطق الجنوبية لسواحل المغرب الاطلسية عند مطلع القرن السادس عشر ، بما فى ذلك سواحل بلاد سوس ، للحملات البرتغالية والاسبانية المتوالية ، التى انتهت باتامة مراكز نفوذ واحتلال عليها ، وذلك للاهمية الاستراتيجية التى أصبحت لهذه الناحية بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند البحرية ، من حيث التحكم فى طريق التجارة العالمية الجديدة بين غربى أوروبا والهند والشرق الاقصى ، او فيما يرجع لاتخاذها نقطة انطلاق للتوسع فى المناطق الجنوبية من المغرب وصحراء افريقيا الشهيرة بخيراتها وتجارتها . ولم ينته صراع الامتين المسيحيتين الا بعد توقيع معاهدة (Sintra) سنة 1509 م التى جعلت هذه المنطقة من نصيب البرتغاليين ، حيث لم يبق بها للاسبانيين الا حصن سانتاكروز الذى كانوا قد أقاموه عند وادي نون منذ عهد بعيد .

نهج الهدى وما سواه قد ترك
والامر فى حرز النيار والطرق
دهرهم ربي سبوا للابكار
سدده ولم يكن فى الغافلين
مثل الاب المهسوم بالدريسة
الى امام قائمهم بالقرآن
بين يقوم فى السورى بالسنة
حتى نرى مقامه بلا حجاب
يهد بنيان الخنا والباطل
وكننا به يصير ظانرا

(1) الهبطى : فرحم الله اميرا قد سلك
كما به أخذ الحدود والحقوق
والمون للثفور حيث الكفار
مان رأى امر يضمر بالمسلمين
حنانه ايضا على الرعيعة
ما احوج السورى لذا شرمين
نجد علينا يا عظيم المنه
اطلع علينا شمس بلا سحاب
امن علينا بالامام المادل⁴
حتى نرى الحق البين ظاهرا

وهذه الحملات الاجنبية اثارت رد فعل قوي من قبل أهالي سوس ، اذ خلقت بين الواحات الداخلية — التي عرفت منذ القديم كأسواق تجارية بين جنوبي المغرب وغربي افريقيا ، والتي ظهرت منذ ضعف السلطة الحاكمة في فاس على شكل وحدات شبه مستقلة شعورا بالخطر ، اهاب بها الى التفاهم والتعاون لتوحيد القيادة الداخلية من جهة ، وللعمل على صد الاخطار الخارجية من جهة اخرى . ولقد زاد من هذا الشعور لدى أهالي سوس ، رؤيتهم القبائل والمراكز الساحلية تستسلم للاجانب بل وتعلن دخولها تحت حمايتهم ، مما اثار حفيظة المؤمنين الصادقين ودفعتهم الى اعلان دعوات الجهاد ضد المحتلين ومن يتعاون معهم .

وتحفظ لنا الوثائق التاريخية رسالة وجهها سكان ماسا الى الملك البرتغالي عما نويل مؤرخة بسنة 1510 ، وهي اذ تلتقى ضوءا على اوضاع بلاد سوس وعلى النفوذ البرتغالي بها ، تدلنا على ناحية اكثر اهمية وهي موقف الاهالي من المحيين والرسالة مكتوبة بلغة اقرب الى العامية منها الى العربية الفصحى ، وقد جاء في مطلعها (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين واطاليم الهندي دون منوال) ، ثم تذكر الرسالة مدى السرور والفرح الذي عم أهالي مدينة ماسا لما علموا بأن الملك البرتغالي قد عزم على اقامة قوات عسكرية ببلادهم ، ولا يخفون عليه أنهم قد أصبحوا آمنين في بلادهم بعد الدخول في طاعته . والذي يهمننا من هذه الرسالة أكثر مما تقدم ، هو تعرضها لموقف أهالي سوس من سكان ماسا ، فقد اخبروا الملك البرتغالي بأنهم يتحملون عداوة جيرانهم من العرب بسبب خضوعهم للبرتغال ، وان جيرانهم (يخطفون اولادنا وابنائنا ويبيعونهم) (2) .

فمن هذه الوثيقة نتأكد من ان السوسيين لم يكونوا كلهم راضين عن الاوضاع التي آلت اليها بلادهم ، وخاصة فيما يرجع لخضوع بعضهم للاجنبي ، الشيء الذي اعتبروا معه هؤلاء المحيين في حكم الخارجين عن الاسلام ، ولم يفرقوا فس الموقف العدائي بينهم وبين الاجانب المحتلين . واذا عرفنا بأن بلاد السوس كانت المقر الاول للطريقة الجزولية التي عمت شهرتها كل بلاد المغرب ، والتي كان لها اثر كبير في نشر حركة دينية ببلاد سوس بوجه خاص ، أدركنا مدى الدور الذي سيقوم به الائمة والمشايخ الذين ينتمون الى هذه الطريقة من حيث دعوة الناس

(2) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول — ص 233

الى الجهاد كما جاء على لسان امامها ابن سليمان الجزولى (أن دولتنا دولة المجتهدين ، المجاهدين فى سبيل الله) (3) ، ولم تكن هناك من فرصة للدمرة الى القتال ومحاربة الاعداء ، وللجهاد فى سبيل الله ، اعظم من الظروف التى كانت عليها بلاد سوس عند مطلع القرن السادس عشر ، وعقب الغارات الخارجية والاعمال العدوانية التى قام بها البرتغاليون ضد سواحل بلاد المغرب الجنوبية ، والتى انتهت باتخاذ قواعد احتلال ومناطق نفوذها عليها .

ومن أشهر الائمة الذين عرفتهم بلاد سوس خلال هذه الفترة الشيخ العالم الحسن بن عثمان شيخ جزولة بقرية (اسجاور) (4) ، والامام محمد بن مبارك بقرية (اتسا) (5) ، والشيخ على بن محمد الاديبي (6) ، وغيرهم من الذين عرفوا بالورع والتقوى والقيام بشؤون العلم والتدريس . ولئن كنا مفتقرين الى الوثائق التى تكشف لنا النقب عن دور هؤلاء الائمة والمشايخ فى حركات الدعوة الى الجهاد وقتال الاعداء والمتعاملين معهم ، فاننا نستنتج من اجتماع بعض القبائل السوسية ، على مبايعة الامام الشيخ محمد بن مبارك للقيام بأمرهم ، وجود ائمة ودعاة كالشيخ المذكور ، اشتهروا الى جانب عملهم وورعهم بحث الناس على بذل النفس والمال لاعلاء شان الاسلام ، ولو لم يكونوا كذلك لما كان هناك من سبب يجعل القبائل الائمة الذكر تقدم على مطالبة الشيخ ابن مبارك بأن يتولى شؤونها وجميع امورها ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو كون القبائل التى اتصلت بالشيخ المذكور ، كانت بحكم موقعها معرضه اكثر من غيرها للخطر الخارجى الذى كان يهددها فى كل وقت وحين .

وبديهى أن الشيخ بن مبارك سيكون أول من تتجه اليه الانتظار فى ظروف عصيبة كهذه ، استنفحت خلالها الاعتداءات الخارجية وأصبحت تنذر بالشر سائر نواحي البلاد ، خصوصا وأن الشيخ يتمتع الى جانب الاحترام والقداسة ، بنفوذ قوى لدى سائر القبائل والاهالى السوسية ، ولا أدل على ذلك من أنه كان قد (وضع اياما معلومة فى كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك لا يحل

(3) الامام من 65

(4) سوس المالبة 156

(5) سوس المالبة 156 .

(6) سوس المالبة 133 .

فيها أحد سلاحا ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها ، ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده ، وما يقدر أن يكلمه . وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من أهل سوس (7) .

لقد قصد وفد يمثل بعض قبائل سوس ، بلاد (آقا) (8) ، حيث يوجد الشيخ ابن مبارك ، وطلبوا منه مبايعته ، ليتسنى لهم أن يوحدوا الصفوف وأن يقوموا بأعمال الجهاد والدفاع عن البلاد ضد الخطر المسيحي . إلا أن الشيخ رفض ذلك لإدراكه المهمة التي طلب منه القيام بها : مهمة تسيير الشؤون وقيادة القوات الحاربة ، وهي أن كانت شاقة يصعب على شيخ مثله القيام بها ، فإنه لم يكن له أن يتولى رئاستهم وهو المعروف بالورع والزهد عن الدنيا . على أن ابن مبارك الذي كان يعلم الدواعي التي أهابت بهذه القبائل إلى التقدم بطلب بيعته ، لم يكن له لترك الوفد يمضي إلى حال سبيله إذ معنى ذلك أن القبائل الأتفة الذكر ستعود إلى اتخاذ أحد الأمرين : إما الخضوع والاستكانة إلى الأعداء والدخول في طاعتهم شأن جيرانهم من قبل ، أو أنها ستتهجر المنطقة ، وكلا الأمران يساعدان على توسيع مناطق النفوذ الأجنبي ببلاد سوس وهذا يتناقض وما عرف به الشيخ من حرص على التمسك بوحدة الصف ومن دعوة إلى الجهاد ومحاربة المعتدين . لذا فقد دلهم على أحد أشراف (تاكادارات) ببلاد درعد وهو المولى محمد بن عبد الرحمن (فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب لكم واليق بمقصودكم) (9) .

والمولى محمد بن عبد الرحمن كان يعرف بين قومه ببلاد درعة بسعة العلم و (التمسك بسيرة السلف الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (10) ، كما ذاعت شهرته ببلاد سوس لقيامه بأعمال الجهاد والمرابطة إذ كان (يستنفر الناس للرباط بأقدير حيث كان النصراني دمرهم الله) (11) ، الشيء الذي جعل له بين القبائل السوسية نفوذا عظيما فقد (كان يأمر أشياخ القبائل فيمثلون أمره) (12) .

(7) الدوحية ص 74 .
(8) آقا : قرية تقع في جبال بانى بالاطلس الصغير ، توجد بها زاوية الشيخ بن مبارك .
(9) الأيراني : نزعة الحادي . ص 12 .
(10) الزباني : المغرب في دول المشرق والمغرب . (مخطوط) ص 343 .
(11) المصدر السابق نفسه ص 343 .
(12) المصدر السابق نفسه ص 343 .

وعلى ما يبدو فان الوفد السوسى لم يقنع من الشيخ بن امبارك ارشاده اياهم الى المولى محمد بن عبد الرحمن . بل طلبوا منه ان يكون واسطتهم لديه ، فلم يمانع في ذلك ، وخلال المقابلة التى تمت بين الشيخ بن امبارك والمولى محمد ببلاد (اقا) (13) ، قبل هذا الاخير مبدئيا — كما يظهر — القيام بالمأمورية التى عرضها عليه الشيخ ، اذ أننا نجده يقصد بعد ذلك بلاد درعة ، ولعل ذلك كان للتشاور مع قومه ، لان المسؤولية خطيرة والمهمة جد شاقة .

ومن مجريات الاحداث نعلم بأن اهالى سوس ما أن علموا الخبر بعد عودة الوفد من اقا ، حتى أرسلوا ثانياة الى (تاكادارات) بدرعة من يطلب من المولى محمد بن عبد الرحمن المجيء اليهم (فقد بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه ، فلبى دعوتهم وأجاب رغبتهم) (14) وفى قرية (تدسى) قرب تارودانت اجتمع المولى محمد بزعماء القبائل ومشايخها حيث (خطبهم خطبة عجيبة بلسان البربر ، ذكر فيها ووعظ ، وحض على الجهاد) (15) وتلك ميزة أخرى كان يتصف بها المولى محمد ، وهى معرفته باللهجة البربرية (تاشلحيت) مما ساعد على حصول التفاهم بين الطرفين . وقد استعرض فى خطبته أوضاع البلاد ، وما آلى اليه أمر الناس ، بسبب الفوضى والفتن (فضاعت الحقوق ، وانقطعت السبل ، واكل التوي الضعيف ، وبطلت الاحكام الشرعية) (16) ، كما تطرق الى الضرورة التى تحتم تولية من يقوم بشؤون المسلمين ، منفصلا المهام التى عليه أن يقوم بها فى الداخل والخارج : فهو الذى سيعمل على (اصلاح قطركم ، وينصف مظلومكم ، ويسرح سبلكم ، ويقبض واجب زكواتكم وعشوركم ، فيصرفها على اصلاح بلادكم ومنها تكون نفقة من يكون معه من رجالكم ، والذي يفضل يصرف فى الجهاد) (17) ، وقد وقع بعد الخطبة اجماع الراي على بيعته . وذلك بفضل تزكية الشيخ ابن مبارك له ، و (باشارة من الصالحين ، واذن من العلماء العاملين) (18) ، ثم لما اشتهر به من علم ودين واعمال الجهاد ومحاربة العدو علاوة على نسبه الشريف وكونه غريبا عن قبائل

13 الامرائى : نزهة الحادى ص 12 .

14 الامرائى : نزهة الحادى ص 17 .

15 الزيانى : المعرب (مخطوط) ص 343 .

16 الزيانى : المعرب (مخطوط) ص 343 .

17 المصدر السابق نفسه ص 343 .

18 الامرائى : النزهة . ص 14 .

سوس التي لم تكن لتقر بعضها البعض على الزعامة والرئاسة . وقد علق المولى محمد بن عبد الرحمن قبوله المسؤولية التي طوقوا بها عنقه ، بشرط أساسى ، وهو أن تقوم كل قبيلة من القبائل التي ارتضت بيعته بتقديم عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بكامل الاسلحة والعتاد ، لعلمه أن الامر لن يعدو ضربا من الخيال اذا ما اقتصر على اعلان القبائل طاعته ، دون قيامها بمشاركة فعلية (فاستحسنوا رايه وانعموا له بذلك ، وتوجهوا لقبائلهم) (19) . ولقد عاد المولى محمد الى درعة ليصحب معه أهله الى المقر الجديد ثم ليطلع وجهاء قومه بما انتهى اليه اجتماع قرية تدسى الاخير . وما أن عاد الى بلاد سوس حتى وجد في انتظاره القوات المسلحة التي وقع الاتفاق في شأنها من قبل ، وكانت (خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم) (20) ، أي ان القبائل التي أعلنت بيعه المولى محمد في قرية تدسى ، كانت خمسين قبيلة .

وهناك نقطة جديرة بالذكر ، وهى ان المولى محمد بن عبد الرحمن قد اقدم على اعلان بيعه ولده الاكبر المولى احمد ، ولما يمض على وصوله الى بلاد سوس غير وقت قصير ، حيث أصبح المولى احمد يلقب (بملك سوس) ، في حين أن المولى محمد قد تلقب (بالقائم بأمر الله) . وعند التساؤل نجد بأن المولى محمد قد أدرك بأن الامر ببلاد سوس يتوقف نجاحه على مدى القيام بعمليات الجهاد والغزو ضد مراكز الاحتلال الاجنبى ، ولن يصلح لهذا الامر غير ابنه الاكبر الذي لا يزال شابا . يتوقد حدة ونشاطا ، ثم انه وان أعلن ملكية ابنه ، فقد ظل يقوم بدور الامام المرشد، والداعية كما يدل على ذلك لقب (القائم بأمر الله) فكان المولى محمد قد اقتسم مع ابنه المولى احمد السلطتين السياسية والدينية .

أما فيما يرجع للتاريخ الذي يمكن اعتباره نقطة البداية بالنسبة للدولة السعدية الناشئة ، فالمصادر العربية مختلفة في ذلك ، وسبب هذا الاختلاف يرجع الى أي الرجلين يمكن اعتباره المؤسس الاول لهذه الدولة والذي تسلم سلطنة سياسية ببلاد سوس ، هو المولى محمد بن عبد الرحمن ؟ أو ابنه المولى احمد ؟ ثم للاتصالات العديدة التي جرت بين المولى محمد وابن مبارك ونحن اذ اعلنا بأن الوثائق التاريخية تؤكد بأن المولى محمد لم يتقلد أية سلطة سياسية (21) ، وأن

(19) الزياتى : المغرب (مخطوط) ص 344 .

(20) المصدر السابق نفسه ص 344 .

(21) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - (جدول عام للسلالة السعدية) .

ابنه المولى أحمد هو أول من بويع كملك على سوس ، زال عنا كل التباس ، خصوصا اننا نملك وثيقة معاصرة ، وهى رسالة أرسلها البرتغالى (Ignacio Martins) الى الملك عما نويل الاول ، مؤرخة بخامس نوفمبر لسنة 1510 ، جاء فيها (بأن المولى محمد قد نادى بابنه (المولى أحمد) ملكا على سوس ، وانه قام بتنظيم قوات سوسية) (22) . فهذه الوثيقة لا تترك اي مجال للشك بأن بيعة المولى أحمد قد تمت خلال الاشهر الاخيرة من سنة 1510 ميلادية ، الموافق لعام 916 هجرية . وهى السنة التى يجب اتخاذها البداية العملية للدولة السعدية بالمغرب .

أما مسألنا الانتساب لآل البيت ، وتسميتهم (بالسعديين) فرغم وجود من يطعن فى نسبهم وخصوصا خصومهم الوطاسيون الذين اتخذوا من ذلك وسيلة لمقاومتهم وتنفيذ العامة منهم ، فان المصادر التاريخية المختلفة والمعاصرة منها خاصة ، تثبت هذا النسب الشريف الذى كان من أهم أسباب نجاح هذه الدولة . (فان كلمة الاشياخ قد اتفقت على أن ابا عبد الله محمد القائم . انما كان نهوضه بإشارة من الصالحين واذن من العلماء العاملين ، وكفى ذلك شاهدا على صحة نسبه الشريف عندهم ، والا لما حضوه بالامامة العظمى التى لا يمتطى صهوتها الا شريف النسب ، قرشى المحتد) (23) .

وأما اللقب الذى كان الحكام من سلالة المولى محمد بن عبد الرحمن يتلقبون به ، فيظهر من المراسلات والوامر الصادرة عنهم وكذا الوثائق المعاصرة لهم : أنهم كانوا يعرفون (بالشرفاء) ، الا أن بعضهم اضيف اليه لقب (السعدي) كالفالغاب بالله ثالث ملوك هذه الدولة ، وذلك كما جاء فى الرسالة التى وجهها علماء المغرب الى المولى محمد المتوكل على الله جوابا عن خطابه اليهم (وبعد فهذا جواب من كافة أهل المغرب . . لمولانا محمد بن عبد الله (السعدي) رحمه الله (24) ، ثم أصبح هذا اللقب فى الفالغاب صفة لهذه الدولة ، خصوصا بعد أن سعد المغاربة فى عهدها وأصبحوا ينعمون بالامن والطمأنينة ، مما لا قبل لهم به منذ عهد بعيد . ويعد صاحب (تاريخ الدولة السعدية) من الاوائل الذين استعملوا هذا اللقب عند

(22) المصادر الاصلية للتاريخ المغربى . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الاول - ص 255

(23) الامرانى : نزهة الحادى . ص 14 .

(24) الامرانى : النزهة . ص 65 .

تاريخه لهذه الدولة ، ونحن وان كنا لا نزال حتى اليوم نجعل صاحب الكتاب ومتى
الف تاريخه ، الا اننا لا نجادل في أنه كان من المعاصرين لهذه الدولة ، بل ومن
المطمئن على الكثير من أسرارها ، كما يتأكد ذلك من مقارنة أخباره مع بعض
الوثائق المعاصرة . ولعل خصوم هذه الدولة قد وجدوا في صفة (السعدي) وسيلة
للطمع في صحة نسب حكامها الشريف ، وأنهم ينتسبون (لبني سعد بن بكر بن
هوازن الذين منهم حليلة السعدية ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم) (25) .

* * *

في الوقت الذي كانت بعض قبائل سوس تعمل على توحيد صفوفها الداخلية
وتتبعاً لمواجهة التحديات الخارجية ، كانت لشبونة تخطط للانتفاض على هذه
البلاد باعتبار أن معاهدة (Sintra) مع اسبانيا قد فتحت آفاقاً واسعة للعمل
أمام البرتغاليين .

لقد وضعت معاهدة (Sintra) الموقعة سنة 1509 حداً للنزاع والحروب
التي دامت طويلاً بين الاسبان والبرتغال ، حول احقية الفتح في سواحل المغرب
الاطلسية الجنوبية ، الممتدة بين راسي كائتان ونام ، اذ جعلت المعاهدة هذه
السواحل في مناطق النفوذ البرتغالي ، مقابل اعتراف البرتغال بمشروعية التوسع
الاسباني في الجزء الشرقي من ساحل المغرب الشمالي الواقع بين بادس حتى
غصاصة ومليلية . ولعلنا لن نجد صعوبة في فهم العوامل التي دفعت البرتغال الى
التنازل لاسبانيا عن جزء هام من بلاد المغرب الشمالية ، اذا ما عرفنا أن البرتغاليين
كان يهتمهم بالدرجة الاولى اتمام فرض السيطرة على بقية المناطق الجنوبية من ساحل
المغرب الاطلسي . للاهمية التي اصبحت لها بعد التعرف على طريق الهند البحرية .
حيث السفن التجارية تمر على مقربة منها في كل وقت وحين ، علاوة على اتخاذها
كقواعد للانطلاق نحو المناطق الجنوبية الداخلية في بلاد المغرب .

والواقع أنهم منذ توقيع هذه المعاهدة خلا الجو للملوك البرتغاليين الذين وجدوا ان الفرصة قد حانت لتحقيق الامل المنشود الذي طالما عمل اجدادهم من قبل على انجازه ، وهو احتلال بلاد المغرب التي كانت تمثل في نظرهم الباب الموصلة الى بلاد الاسلام وتقلب افريقيا . والطريقة التي نهجها البرتغاليون لتحقيق خطة الاحتلال الشامل لبلاد المغرب كانت تتخلص في التمرکز في نقطتين او عدة نقاط استراتيجية من ساحل المغرب الاطلسي . في شماله وجنوبه واتخاذها قواعد للانطلاق نحو البلاد الداخلية . ولما كان البرتغاليون قد فشلوا مرارا في احتلال شمال المغرب او مملكة فاس رغم القواعد العديدة التي لهم بسواحل هذه البلاد . للمتأومة التي ابداهها الوطاسيون وكل من مجاهدي شفشاون والتصر الكبير وتطوان ، فقد توجهوا صوب بلاد المغرب الجنوبية ، او بعبارة اوضح صوب سواحل بلاد دكالة والشياظما وما جاورها ، يشجعهم على ذلك الفوضى الضاربة اطنابها بهذه البلاد . وعدم وجود اية سلطة سياسية قوية بها . علاوة على بعض القواعد ومناطق النفوذ التي كانت لهم بها ، كاسفي وموكادور . وتطبيقا لخطة احتلال البلاد الجنوبية او مملكة مراكش اخذ البرتغاليون يمهدون لذلك بخلق العملاء ومن يمكن التعاون معهم من رؤساء المشايخ والحكام المحليين ، وقد وجدوا ضالتهم في مولاي زيان أحد الامراء الوطاسيين . وحسب المصادر التاريخية يظهر بان مولاي زيان كان حاكما على منطقة ازموور وان خلافا حصل بينه وبين السلطان محمد البرتغالي ، دفعه الى مهادنة البرتغاليين ، والسماح لهم ببناء حصن بساحل ازموور ، وذلك حسب المعاهدة التي وقعتها الطرفان سنة 1510 (26) . على ان احتلال البرتغاليين لمدينة ازموور لم يتم الا في سبتمبر من سنة 1513 والا بعد تعاون يهود ازموور الذين كانوا على اتفاق مع البرتغاليين المحاصرين للمدينة ، حيث فتحوا لهم الابواب على حين غفلة من اهلها ، كما اورد ذلك محمد الحسن الوزاني المعاصر (26) . ومن ازموور توصل البرتغاليون الى فرض سيطرتهم على مازكان (28) التي بنوا بها حصنا عظيما خلال

26 المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 394

27 المصدر السابق . ص 394 .

28 لقد كان الاهالي يطلقون اسم البريجة الجديدة اي الحصن الجديد على المدينة التي كان البرتغال قد بنوها منذ 1506 مكان مازكان والتي عرفت عند البرتغال باسم (Castcho IR eael) وفيما بعد اخذت مدينة مازكان اسم الجديدة وقد كانت بنواحي مازكان البرتغالية قرية قديمة كانت تسمى مازكان المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . فرنسا - المجلد الاول حاشية صفة 159 .

نفس السنة وذلك لاهمية هذا الميناء الذي يمكن استخدامه في أي وقت من أوقات السنة خلاف ما عليه الحال بالنسبة لميناء أسفى وأزمور . وما أن تم تحقيق هذا النصر للبرتغاليين حتى بعث الملك عما نويل الاول الى البابا ليون العاشر يبشره بالخبر . ويبنه أمانيه في فتح مملكة مراكش كلها (29) .

وحسب ما بين أيدينا من مصادر تاريخية معاصرة ، فإن الملك البرتغالي قد حاول في بداية الامر ان يتقرب من ملك مراكش (مولاي الناصر أبو على الهنتاني) لاستمالته ، فقد أرسل الى مراكش خلال غشت لسنة 1514 م سفارة على رأسها (Fernao Dias) لتعرض على مولاي الناصر عقد معاهدة على أساس التبعية والدخول تحت حماية التاج البرتغالي (30) وعندما رفض ملك مراكش ذلك ، وصلت أوامر من لشبونة الى القوات البرتغالية المرابطة في أسفى وأزمور بأن تنتهي لاحتلال مراكش . وقد خرجت الحملتان خلال شهر أكتوبر لسنة 1514 في اتجاه مدينة مراكش . وكل منهما تمنى نفسها بشرف احتلال هذه المدينة . وعند مطلع يناير 1515 كانت مدينة مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية (31) التي لم تجد في النهاية بدا من التراجع للمساعدات التي وصلت الى المدينة المحاصرة من الخارج وخاصة من قبل ملك فاس محمد البرتغالي .

ومثل حملة مراكش جعل البرتغاليين يدركون بأن احتلال المغرب يتوقف الى حد كبير على احتلال فاس ووضع حد للمقاومة التي يتزعمها الوطاسيون ، الامر الذي دفع لشبونة الى ارسال أسطول عظيم الى المعمورة خلال شهر يونيو من سنة 1515 م (32) . مستغلة فرصة قيام ملك فاس بحملة ضد القبائل الخارجة عنه في بلاد دكالة . وانتهى امر الحملة بالاستقرار عند مصب وادي سبو ، الا أن اخ السلطان مولاي الناصر ونائبه على مكناس سرعان ما تصدى لرد المعتدين وأجبرهم على الانسحاب عند أوائل غشت في نفس السنة .

(29) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . الجند الاول (فتح أزمور) ص 394 .

(30) م. ص. ت. م. البرتغال - ج 1 - ص 687

(31) المصدر السابق . ص 686 .

(32) المصدر السابق . ص 695 .

وهكذا فشلت الحملتان على مراكش والمعمورة ، اللتان كان ملك البرتغال يؤمل من ورائهما احتلالا شاملا لجميع بلاد المغرب . وقد كان من نتائج هذه الخيبة ان اخذت لشبونة تنهج سياسة التقرب من بعض القبائل والعمل على خلق العملاء ، امثال اولاد عمران ومشايخ قبائل شرقية والقواد حمو امركاس ، ويحيى بلصباغ ، ويحيى اوتافونف ، وعبد الرحمن بن حدو ، والشيخ سعيد ، وعلى مومن وغيرهم من الذين كانوا يعملون تحت الحماية البرتغالية . ويمكننا ان نتخذ من يحيى اوتافونف مثالا نستدل به على نوع العلاقات التي كانت بين هذه القبائل والمشايخ مع البرتغال : ففي شهر يونيه لسنة 1516 ، اصدر الملك عمانويل الاول مرسوما يقضى بتعيين يحيى اوتافونف حاكما على كل دكالة مع السماح له بتأليف حرس خاص . شريطة ان ينفذ اوامر الملك البرتغالي التي سيتوصل بها بواسطة حكام اسفى وازمور (33) . ومما يجدر ذكره هو ان جميع هؤلاء العملاء كانوا يبعثون برسائل وتقارير الى لشبونة ، تعد خير مساعد على معرفة احوال بلاد المغرب الجنوبية خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخها .

(33) المصدر السابق . ص 6 .

الفصل الخامس

القيادة السعدية بسوس والأصطدام مع الوطاسيين

انصف العهد الاول من حكم المولى أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بظاهرتين متلازمتين : الرغبة الاكيدة في القيام بأعمال الجهاد والقتال لتحرير سواحل بلاد سوس من الاحتلال المسيحي ، والطموح الى السيطرة وبسط النفوذ على مجموع هذه البلاد . وقد اعتمد في تحقيق ذلك على فرقة الفرسان التي كانت بعض القبائل المنضوية تحت لوائه ، قد وضعتها رهن اشارته ، وقوامها خمسمائة رجل ، والتي تزايد عددها مع الايام لكثرة الراغبين في الجهاد ومقاتلة العدو . كما استغل موارد البلاد الزراعية والتجارية للحصول على الاموال اللازمة لسد الحاجيات ولشراء الاسلحة ومواد الحرب لتقوية مركزه في الداخل ولمحاربة خصومه واعدائه . وحسب ما لدينا من وثائق معاصرة فان المولى أحمد قد باشر سياسة التعامل مع التجار الاجانب ، من غير البرتغاليين منذ الايام الاولى لتوليته ، اذ أبرم مع جماعة من التجار القشتاليين اتفاقا يقضى باحتكار سكر سوس ، مقابل مبلغ هام من المال يقدر بستمائة الف كروز ادوس (Gruzados) (1) . وما من شك في ان المولى أحمد قد استغل هذه الموارد لتدبير شؤون دعوته من حيث القيام بالدعاية لها في الداخل . والاستعداد لمنازلة الاعداء البرتغاليين ، الشيء الذي يفسر لنا انقضاء زهاء السنة من تاريخ بيعته ، قبل أن يقوم بأول هجوم ضد البرتغال في حصن سانتاكروز ، في اليوم الثامن عشر من غشت لسنة 1511 م (2) ، هذا التاريخ الذي يعد في الواقع بداية انطلاق الدعوة السعدية الرامية الى تحرير الوطن من الاحتلال الاجنبي . والمولى أحمد الى جانب الغارات المسلحة ضد مراكز الاحتلال البرتغالي ، التجأ الى منع كل تعامل مع هذه المراكز ، دون أن يتوان عن مقاومة

(1) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول من 255
(2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول من 334

كل من يحاول الخروج عن ذلك من قبائل سوس . وان كانت علاقاته التجارية مع التجار الاجانب من غير البرتغاليين قد تزايدت ، سيما وان هؤلاء ، كانوا ينتمون على البرتغال ادعاءهم حق احتكار التجارة والتعامل مع هذه المنطقة ، وفرضهم ضريبة الخمس على البضائع التي يتاجر بها غيرهم في هذه السواحل ، ولكي يعزز المولى احمد سياسة المقاطعة احتل (تافنتا) التي كانت تشرف على طرق المواصلات مع حصن سانتاكروز خلال سبتمبر 1514 م . مما اثر كثيرا على وضعية البرتغاليين في هذا الحصن ، وجعل حاكمه Afonso Rodrigues يسرع الى تحصين القلعة واتخاذ كل الوسائل اللازمة للدفاع (3) . وقد جاء في احدى الرسائل التي وجهها هذا الاخير الى الملك عمانويل الاول بأن العلاقات مع الاهالي قد أصبحت غير قارة ، اذ لم يعد بإمكانهم نقل المواد الغذائية من اللحم والقمح والفواكه وغيرها خوفا من المولى احمد (4) .

وكرد فعل ، عمد البرتغاليون في حصن سانتاكروز الى الاتصال بخصوص المولى احمد الذين كانوا يناهضون دعوته ، وأمدوهم بالمساعدات المختلفة ، ومن هؤلاء الخصوم تحفظ لنا الوثائق والمصادر أسماء قبائل كزيما التي كانت تستقر حول حصن سانتاكروز . وقبائل ازرا التي قام قائدها مالك بن داود بدور هام في نشر فكرة الدخول تحت حماية البرتغال بين بعض القبائل بسوس . كما قام البرتغاليون بتشديد المراقبة على عمليات تهريب السلاح التي كان التجار الاوربيون يقومون بها لمصلحة المولى احمد (5) . مقابل المتاجرة معه ، الا ان جميع ذلك لم يفت في عضد الحركة السعدية الناشئة لان المولى احمد نجح في الاستيلاء على مدينتين هامتين ببلاد سوس خلال سنة 1516 : احدهما بالشمال ، وهى تارودانت (6)

-
- (3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث (احتلال اكادير)
(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 614
لم تكن مراكز الاحتلال البرتغالي بالسواحل المغربية ، حصونا عسكرية فقط ، بل كانت أيضا مراكز تجارية تتم بواسطتها المبادلات التجارية بين الاجانب والاهالي . وقد نشأت لذلك وكالات بكل منها وكيل وكاتب . يستقران في مراكز الاحتلال وهؤلاء الوكلاء كانوا مكلفين بثلاثة اشياء :
1 - تجنيد القوات لتقوية المخازن البرتغالية في المغرب .
2 - جمع الفضة والبعادن الثمينة .
3 - جمع المؤن من اللحم والحطب والطعام والقمح لتبوين البراكز .
اي ان الوكالة كانت مكلفة بمهام تجارية وعسكرية في آن ولحد . (المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني . ص 564)
(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الثالث (احتلال اكادير)
(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . حاشية ص 440

التي كانت بحق من أعظم المراكز الهامة بوادي سوس . والباب الموصلة الى بلاد الحوز عبر جبال الاطلس الكبير . والمدينة الثانية هي (ماسا) الساحلية التي خرج اهلها عن طاعة البرتغاليين . وشاركوا في الحملات المؤقتة التي شنها المولى احمد ضد الاعداء وحليفهم مالك بن داود . ويبدو مما تقدم ، أن المولى أحمد كان يهدف الى عزل مراكز الاحتلال الاجنبي بسواحل سوس ، وتضييق الخناق عليها ، املا في انزال الضربة النهائية بها عند الوقت المناسب ، وتمشيا مع هذه السياسة تام باحتلال (تاركوكو) الواقعة في الشمال الشرقي لحصن سانتاكروز كما اتخذ (ازرو) وهي قسبة لا تبعد الا بثلاثة اميال عن هذا الحصن ، مقرا لقواته المحاربة . ويدهى ان المولى أحمد قد اتجه بكل امكانياته نحو حصن سانتاكروز باعتباره أهم هذه المراكز واقواها . والمصادر التاريخية المعاصرة تؤكد بأن المولى احمد عند محاصرته الاعداء ومنعه القبائل السوسية من التعامل معهم ، لم يكن يتورع عن احراق بيوت هؤلاء المخالفين لاوامره ، وذلك كما حصل في شهر ماي لسنة 1517 م . ويكنى الرجوع الى رسالة كان قد وجهها الشيخ سعيد ، احد مشايخ قبائل سوس ، الذين كانوا يتعاملون مع البرتغاليين الى الملك عمانويل الاول ، مؤرخة بشهر ماي من هذه السنة (اي 1517) . لتؤكد من موقف المولى احمد اتجاه هؤلاء المتعاملين ، فقد ورد فيها بأن الشيخ وقبيلته كانوا يقومون منذ ثلاث سنوات بخدمة البرتغاليين في حصن سانتاكروز ، حيث يحملون اليهم البضائع المختلفة ، الا ان المولى احمد اتى بقوات جرارة وانتصر على قومه ، ففر بعضهم وخضع له الباقى . ثم يعرب الشيخ سعيد عن أسفه لعدم تمكنه من خدمة البرتغاليين ، اذ من المستحيل الاتصال بالحصن المذكور لان قوات المولى احمد تحرس كل الطرق المؤدية اليه (7) .

وهكذا اشتد الحصار على البرتغاليين في حصن سانتاكروز ، اهم قاعدة احتلال في ساحل سوس ، وازداد شعورهم بالخطر الذي يهددهم من جراء الحركة الجديدة . ولقد حاول الحاكم البرتغالي لهذا الحصن Don Francisco de Castro ان يقوم في احدى المرات بفك هذا الحصار وذلك بارساله لحملة خاطفة ضد قوات المولى احمد يوم الخامس عشر من ماي لسنة 1518 م . في ازرو ، ولكن هذه الحملة فشلت فاضطر الحاكم المذكور الى طلب النجدة من حكومته في لشبونة ، وذلك للمرة الاولى في تاريخ الاحتلال البرتغالي بسواحل بلاد سوس .

7. المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 93

ما تميز به حكم السلطان الوطاسى محمد البرتغالى الذي تولى السلطة عند مطلع القرن السادس عشر ، أعمال الغزو والجهاد التى قام بها ضد قوات الاحتلال البرتغالى ، فقد ظهر وكان البلاد مقبلة على عهد جديد خصوصا بعد المحاولات التى قام بها هذا الملك الوطاسى لدى ملوك السودان المغربى والسلاطين العثمانيين لتوحيد القوى بين الملوك المسلمين ، حتى يتمكنوا من صد الاخطار المسيحية عن بلاد الاسلام . ورغم فشل هذه المحاولات الخارجية ، فان الملك الوطاسى لم يتوان عن القيام بعمليات الجهاد ومقاتلة الاعداء المحتلين ، رغم الامكانيات القليلة الموجودة لديه ، الامر الذي جعل لمحمد البرتغالى سمعة بين اوساط العامة ، ودفع بالتالى حكام الامارات الذين كانوا فى شبه استقلال عن فاس ، للتعاون معه وتلبية دعواته لقتال المعتدين . وقد عرفت سنة 1512 تطورا هاما فيما يرجع لعمليات الجهاد والغزو ، اذ فى شهر يونيو قاد محمد البرتغالى حملات عسكرية ضد اصيلا وكان بمعيته حكام شفشاون والقصر الكبير وتطوان ، ورغم ان هذه الحملة قد فشلت الا ان جميع المحاصيل الزراعية لهذه المدينة قد خربت (8) . كما أعلن نى شهر سبتمبر لنفس السنة ملك مراكش الحرب ضد قبائل عبدة ودكالة التى كانت تدين بالولاء والطاعة للبرتغاليين . وتعرضت نفس هذه القبائل لغارات قام بها الناصر اخ ملك فاس خلال سنة 1514 (9) .

على أن الحدث الذي دفع المغاربة الى التكتل لرد المعتدين هو الحملة ضد مراكش ، اذ شعر الجميع بالخطر التى ستعرض لها البلاد فيما لو نجحت هذه الحملة ، ولولا المساعدة التى بذلها الوطاسيون خاصة لسقطت هذه المدينة نى قبضة الاحتلال البرتغالى عند اوائل سنة 1515 . ولقد كان لنجاح الوطاسيين فى صد الحملات البرتغالية عن المعبورة خلال نفس السنة اثر كبير فى داخل البلاد ، اذ ظهروا لدى العامة بمظهر المدافع عن البلاد شمالها وجنوبها ضد الخطر المسيحى ، كما شجعهم ذلك على الاستمرار فى غزو المراكز البرتغالية وانزال الضربات بجبيح القبائل المتعاونة معها . ولما كانت الحملات البرتغالية قد استهدفت اكثر ما استهدفتها بلاد المغرب الجنوبية لذلك فقد قام الوطاسيون بتوجيه جل عنايتهم الى هذه النواحي من المغرب ، وليس هناك من شك فى أن السلطان الوطاسى قد وجد فى ذلك الفرصة

(8) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الاول ح . ص 388

(9) المصدر السابق حاشية صنحة (ح . ص 594)

المناسبة لبسط نفوذه من جديد على هذه البلاد ، بل وعلى غيرها من المناطق التي كانت قد أصبحت في وضع شبه مستقل عن فاس ، منذ أن ضعفت السلطات القائمة بها . وعندما كانت سنة 1517 قاد محمد البرتغالي حملة عسكرية ضد قبائل عبدة اشترك فيها حاكم مراكش مولاي الناصر الهنتاتي ، وابن عمه محمد الهنتاتي سيد الجبل ، وقد انتهت هذه الحملة بدخول معظم قبائل دكالة وعبدة نسي طاعته بينما انهزم عميل البرتغاليين يحيى أوتانوفت (10) .

أما موقف المولى أحمد بسوس من حركات الجهاد التي يتزعمها الوطاسيون في جنوبي المغرب خاصة ، فالمصادر التاريخية المعاصرة لا تثبت لنا حصول تعاون حقيقي بينهما، بل نستنتج من رسالة وجهها حاكم آسفي الى لشبونة سنة 1517 التي فزا خلالها محمد البرتغالي قبائل عبدة ، بأن الملك الوطاسي لم يتم بحصار آسفي بسبب تأخر المولى أحمد في ارسال خمسمائة جمل كان محمد البرتغالي يعتمد عليها لضرب الحصار حول المدينة المذكورة (11) . ومعنى ذلك أن المولى أحمد قد أدرك بأن تزعم الوطاسيين لحركات الجهاد في جنوبي المغرب من شأنه ان يعيد النفوذ الوطاسي الى هذه البلاد ، خصوصا بعد الاتفاق الذي تم بين محمد البرتغالي وملك مراكش الناصر ، بأن حكم مراكش سيؤول بعد وفاته السيسى الوطاسيين في فاس (12) . وهذا جميعه يتعارض والدعوة السعدية للناشئة بسوس . ولقد أخذت العلاقات تتوتر بين الوطاسيين والمولى أحمد حيث لم تكن الايام لتزيد هذا التوتر الا شدة وحدة ، سيما وأن الحاكم السعدي الذي كان قد اتم السيطرة على كل السوس استطاع أن ينقل مجال نشاطه الى ما وراء جبال الاطلس الكبير حيث بلاد الحوز والشياطما وعبدة — هذه البلاد التي كان للمولى أحمد بها عدد غير قليل من الانتصار ، وذلك منذ عدة سنوات ، ويوم أن تنتقل الى الشياطين والده المولى محمد ابن عبد الرحمن واستقر بها — (13) مما لم يدع مجالا

(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال — المجلد الثاني ص 153

(11) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 721

(12) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 171

(13) انتقل المولى محمد ابن عبد الرحمن (القائم بأمر الله) من سوس الى الشياطينا (بعد الحجاج شيوخها عليه في الذهاب الى بلادهم) : الامرائى : النزعة ص 17 . وتؤكد رسالة حاكم آسفي للمورخة — اكتوبر 1513 بأن القائم هذا قد انتقل الى بلاد الشياطينا (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول ص 443 . حيث استقر بانوغال (قرية تقع قربه سوق الاحد بالشياطينة على بعد 35 كم من الصويرة وبها توجد زاوية سيدى على معاشو) . وقد ظل القائم بها الى ان تولى سنة 1517 حيث دفن فيها بجوار قبر الولى الشهير محمد ابن سليمان الجزولى (الزياتى : المغرب . مخطوط . ص 344) .

وسيقوم أحمد الامرج بنقل رفاة والده ورفاة الشيخ الجزولى الى مراكش بعد ان يستقر أمره بها وذلك سنة 1525 (الامرائى النزعة ص 19) .

للك شك لدى الوطاسيين في أن المولى أحمد إنما يهدف من وراء دعوته إلى الجهاد للسيطرة والحكم . وحسب رسالة وجهها الملك جان الثالث إلى حاكم آسفى بتاريخ يونيه 1523 : نُعلم بأن الخلاف قد اشتد بين الوطاسيين والمولى أحمد خلال نفس السنة ، إذ طلب الملك البرتغالي أخبارا مفصلة عن النزاع القائم بينهما (14) . ومن البديهي أن البرتغاليين الذين كانوا يترقبون الفرص السانحة للتدخل في البلاد ، سيقطنون هذه المناسبة للتقرب من الفريقين المتنازعين ويعرضوا عليهما هدنة وسلما أو تعاونا ضد الفريق الآخر ، وغير ذلك مما يضمن مصالح البرتغال في المغرب بل ويساعدهم في المستقبل على اكتساح البلاد . وتنفيذاً لذلك توجه وفد برتغالي إلى تافنتا خلال سبتمبر لسنة 1523 ليعرض على المولى أحمد تبادلاً للأسرى ، وليدخل معه في شروط للهدنة ، وقد انتهت المفاوضات بتعقد هدنة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر (15) ، انقلبت إلى هدنة سلم بين الطرفين فيما بعد ، كما بدأت في نفس الوقت بمفاوضات بين البرتغال والوطاسيين بواسطة القائد العطار (16) ، غير أن الظروف كانت في صالح المولى أحمد الذي سرعان ما اغتتم فرصة الهدنة مع البرتغال وانزل الضربة النهائية بالقوات الإسبانية سنة 1524 في حصن سنفاكروز عند وادي نون (17) ، مما زاد في شهرته ببلاد سوس ، كما قام بحملة ضد مدينة مراكش انتهت باحتلالها أوائل يناير 1525 . ومهما اختلفت المصادر في كون المولى أحمد قد دخل مراكش سلماً أو عنوة (18) إلا أن الذي لا جدال فيه هو أن احتلال مراكش واتخاذها مقراً للدولة السعودية الناشئة ، قد أثر على مجرى الأحداث بالمغرب ، وجعل هذه البلاد تدخل مرحلة حاسمة من تاريخها الحديث .

(14) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 308

(15) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الثاني ح - ص 351

(16) المصدر السابق حاشية صفحة 355 .

(17) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الأول ص 151

(18) بعض المصادر ترى أن أحمد الامرج دخل مراكش عنوة وقتل أميرها محمد الهنغالي الملقب (بوشنلوا) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 366 - ويؤيد هذا الزيتي في مخطوطه (الترجمان) ص 345 (لقد ارتحل - أي الامرج - من رداة وقصد مراكش فنزل عليها وحاصرها ، وملكها أحمد الامرج وبنيهمه أهلها وقبائلها وأخرجت من حكم بني وطنس) . أما الامراتي في النزعة ص 20 فيرى بأن مراكش قد دخلت طوعاً في بيعة المولى أحمد (لقد اشهر أمر الامرج ببلاد سوس وهرع إليه الناس وقصدوه من كل جهة ووندوا عليه وطلبه أمراء خناتة وملك مراكش حيث استنجد بعضهم بالمولى أحمد الذي جاء إلى المدينة واحتلها ثم قسى على خصومه بها .

السعوديون وتوحيد المغرب

ما بين استقرار المولى احمد الاعرج في مراكش عند مطلع سنة 1525 ، ودخول اخيه المولى محمد الشيخ ظانرا الى فاس سنة 1549 . عرفت الحركة السعودية تطورات هامة ، ومرت بمراحل مختلفة ، كان الكفاح في جميعها هو الطابع المميز ، والصفة التي عرفت بها كفاح في الداخل ضد الوطاسيين الذين شعروا بخطر الحركة عليهم فناوؤوها وناصبوها العدا . وكفاح في الخارج : ضد مراكز الاحتلال الاجنبى ، ومن يتعاون معها من الاهالى . تعمل الحكام السعوديون على استفلال كل الفرص السانحة التي تمكنهم من القضاء على خصومهم . وتساعدهم في نفس الوقت على تقوية نفوذهم ، وتوطيد دعائم دولتهم الناشئة . وبالكفاح لتوحيد البلاد وتحرير سواحلها المحتلة ، استجاب السعوديون لرغبات طبقات العامة ، نظهروا كتادة شعبيين مختلفين تمام الاختلاف عن الوطاسيين وبعض رؤساء الامارات المحتلة ، الذين قبلوا التحالف مع اعداء البلاد ، في سبيل الابقاء على مصالحهم الخاصة ، فالتوى متباينة ، والمصالح متضاربة .

لقد استغل المولى أحمد الاعرج فرصة الهدنة التي وقعتها مع البرتغال لبسط نفوذه على معظم البلاد الجنوبية ، وخاصة بلاد درعا ثم لاحتلال مدينة مراكش التي اصبحت منذ مطلع سنة 1525 المقر الجديد للدولة السعودية الناشئة .

وبديهى ان اعمالا كهذه كان من شأنها ان تثير الوطاسيين في فاس ، وتجعلهم يتكدون من ان المولى أحمد يستغل الدعوة الى الجهاد للسيطرة والتملك ولكن ظروف الوطاسيين لم تكن تسمح بالقيام باي عمل ضد المولى أحمد في مراكش : فقد تولى الملك الوطاسى محمد البرتغالى في شهر ماي لسنة 1526 تاركا الحكم لآخيه (أبو حسون) على ، الذي لم يحكم الا خمسة أشهر ، اذ عزله ابن أخيه المولى أحمد وتولى زمام السلطة في سبتمبر في نفس السنة (1) .

(1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 146

ولعل المولى أحمد السعدي قد حاول استغلال أحداث فاس الداخلية والنزاع بين الامراء الوطاسيين لصالحه ، مما جعله يتمسك بالهدنة مع البرتغال رغم التحرشات وبعض الاعتداءات التي قاموا بها سواء في سوس أو في أحواز آسنى وأزمور ضد أراضي ورعايا السعديين ، كما لا يستبعد أن تكون أحداث فاس الداخلية وظهور ضعف الوطاسيين من العوامل التي دفعت الحكومة البرتغالية من جهتها الى المحافظة على الهدنة مع المولى أحمد السعدي ، بعد أن كان الملك البرتغالي يفكر في ضرب الحركة السعدية القائمة في الجنوب بهم .

ولقد جرت خلال فترة الهدنة مراسلات بين المولى أحمد والبرتغاليين تكشف لنا النقاب عن بعض أوضاع المغرب الجنوبي ، وتظهر في نفس الوقت مدى اخلال قوات الاحتلال البرتغالية بشروط الهدنة . وما كانت تقوم به من تعسف وانتهاك للحرمات . وان قوات الاحتلال البرتغالية لم تكن جادة في المحافظة على الهدنة ، بل عملت على اغتنام الفرص السانحة للتوسع والسيطرة . فلم تكذب تمضى على الهدنة غير مدة قليلة حتى قام حاكم سانتاكروز (Antonio Leitao de Gambao) بحملة ضد بعض مراكز السعديين في سوس ، مستغلا فرصة انتقال المولى أحمد واخيه المولى محمد الى مراکش ودرعا . وقد غنمت القوات البرتغالية الكثير من الغنائم ، كما ألحقت بانصار السعديين أضرارا جسيمة ، ولم ينسب الحاكم البرتغالي ان يبعث الى الملك جان الثالث ليعتذر عن قيامه بهذه الحملة ضد السعديين . رغم أوامر الملك بعدم الخروج من سانتاكروز . معللا ذلك بأن المناسبة كانت جد موأنية (2) . ومن هذا القبيل أيضا تحرشات الحاجيات البرتغالية في آسنى وأزمور والحاقها الاضرار برعايا السعديين وأراضيهم ، مما جعل المولى أحمد يكتب الى الملك البرتغالي محذرا اياه من مغبة التمادي في ذلك وتعد هذه الرسالة هي الاولى من نوعها في تاريخ العلاقات السعدية البرتغالية . كما تعتبر من أهم الوثائق المتعلقة بالدولة السعدية الناشئة (3) . وقد جعل هذا التحذير الملك البرتغالي يقوم بعزل حاكم آسنى وتعيين حاكم آخر جديد هو (Garcia de Mello) الذي دخل لتوه في اتصالات مع المولى أحمد للاتفاق على هدنة جديدة ، وقد كان القائم بدور الوسيط بين السعديين والبرتغال اليهودي ابراهام بن زامير . وتم

(2) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني - ص 332

(3) المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني - ص 348

التوقيع على الهدنة في سبتمبر ، أي في نفس الشهر الذي أخذت فيه أوضاع الوطاسيين تستقر بفاس ، عقب تولية السلطان أحمد الوطاسي الذي اتخذ كوزير له المولى ابراهيم بن علي بن راشد (4) ، وهو أحد الشخصيات البارزة التي لعبت ادوارا هامة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ المغرب .

ولقد عمل السلطان أحمد الوطاسي من جانبه على اثناء خصومته مع البرتغاليين حتى يتفرغ لخطر السعديين المتزايد . فكلف المولى ابراهيم بالاتصال بالبرتغاليين في اصيليا . كما امر القائد أحمد العطار — حاكم تادلا — بالقيام بنفس المهمة في آسفي . وحسب الرسائل التي بعثها حاكم آسفي الى لشبونة فان القائد العطار قد عرض عليه باسم سلطان فاس السلم والتعاون ضد السعديين ، على ان يحتفظ كل منها بالاراضي التي سيفتحها وشرح له ان ملك فاس له رغبة أكيدة في الاستيلاء على مراكش وانه اذا ما ساعده البرتغال على ذلك ، فسيخلى لهم عن كل البلاد الواقعة على طول الساحل ، أي اراضي الشياظمة (5) . هذا ولم يكن مداد الهدنة التي كان البرتغال قد وقعها مع الشريف السعدي ، وعن طريق حاكم آسفي نفسه ، قد جف بعد . وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يتظاهرون بالمحافظة على الهدنة مع السعديين كما يتأكد ذلك من مراسلة المولى أحمد من جان الثالث (6) وأصبح على البرتغال ان يختاروا بين « التعاون » مع الوطاسيين في فاس او المحافظة على (الهدنة) مع السعديين في الجنوب .

وظهرت نوايا سلطات الاحتلال البرتغالية الحقيقية ، عندما قام ملك فاس بهجامة مراكش ومحاصرتها ، فنحن وان كنا نجهل ما اذا حصل اتفاق بين ملك فاس والبرتغال حول تنظيم هجوم ضد السعديين لان الوثائق لا تفصح عن ذلك ، الا ان حصار الوطاسيين لمراكش ونقض سلطات الاحتلال البرتغالية للهدنة مع المولى أحمد السعدي ، يجعلنا نقول بتعاون الفريقين وان كان ذلك لا يثبت ان حكومة لشبونة قد رسمت سياسة معينة . فعندما جاءت القوات الوطاسية لحصار

(4) مولى ابراهيم بن علي بن راشد الادريسي ، مجاهد شفشاون . ابيه اسبانية الاصل هي للا زهرة ، واخذه هي السيدة الحرة عائشة التي حكمت تطوان بمد ومائة زوجها القائد المنظري . كان مولى ابراهيم يتنقن الاسبانية الى جانب العربية . وقد خاض عدة معارك ضد المراكز البرتغالية كاصيلا وطنجة ، كما لعب دورا هاما في الانقلاب الذي ادى الى تولية أحمد الوطاسي . تولى الوزارة لهذا الاخير وشارك في جميع حروبه كما قام بمفاوضات البرتغال لمقت السلم معهم .

المصادر الاصلية للتاريخ المغربي . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 146

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 382

(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني ص 367.

السعديين ، توجهت قوات برتغالية من أزموور وأسفى . وهاجمت قبائل بنى عمير الموالية للسعديين (7) ، وحسب رسالة حاكم أسفى نعلم بأن الوطاسيين قد حاصروا مراكز حصارا شديدا ، وأن الخسائر كانت فادحة في الأرواح والعتاد بين صفوف السعديين (8) . ولم يطل حصار مراكز طويلا ، وذلك بسبب ثورة قامت في مكناس ضد السلطان أحمد الوطاسى . قام بها ابن عمه مسعود بن الناصر ، حيث دعا لنفسه بمكناس ، فعاد الوطاسيون ادراجهم وتمكن الملك من اخماد ثورة مكناس . بفضل وساطة المولى ابراهيم الذي جعل مسعود يستسلم، حيث نقل الى فاس وسجن بها الى ان مات (9) .

وتجلى رد الفعل السعدي ضد السلطات البرتغالية في الهجومات المتواصلة التى قام بها السعديون ضد مراكز الاحتلال البرتغالية في السواحل الجنوبية : اذ حوصرت سانتاكروز وتمكن أحد المغاربة من اغتيال حاكمها (10) . كما الحقت القوات السعدية اضرارا جسيمة بالبرتغال والمتعاونين معهم في كل من أسفى وأزموور فقد جاء في رسالة موجهة من اهالى أزموور الى جان الثالث وصف لاعمال التخريب التى كان السعديون يقومون بها ضدهم ، حيث أن ما زرعه (قد اكله الشريف وتركنا للجوع) (11) . والاكثر من ذلك أن الحاكم السعدي قد منع التجار البرتغال واليهود من الدخول الى اراضيه تحت عقوبة الاعدام لمن يخالف ذلك ومصادرة بضائعه التجارية (12) .

(7) المصدر السابق ص 407

(8) المصدر السابق

(9) حسب منظومة الكراسى : مروسة المسائل . ص 28

وكان حاركا على ضرورة
كان قتالهم على البيبان
ثم تولوا راجمين في نغم
لها دما لنفسه مسمودا
اتاه حاركا بكل الناس
صاحه على يد الوزير
بعنينا دخل في فاس معه
(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثاني - (احتلال
اكاديس) .
(11) المصدر السابق . ص 459 .
(12) المصدر السابق . ص 482 .

وعلى ما يبدو ، فان المولى احمد الوطاسى الذي تاكد من جهة بمحاولات البرتغال الرامية الى مساعدة عمه ابي حسون ضده ، والذي رأى من جهة اخرى استفحال الاخطار السعدية ضد مملكته ، او ما تبقى منها ، قد غير من سياسته وذلك بان أخذ في التقرب من الاتراك العثمانيين في الجزائر (21) : فمنذ سنة 1531 غادر بارياروس الجزائر مع عدد من السفن التي أرسلت بتطوان والعرائش وقد تزودت منها بالمؤن والعتاد ثم التمح خاصة ، لان الجزائر عرفت آنذاك المجاعة والقحط (22) . وتعاونوا من هذا القبيل ، جعل البرتغال والاسبان يرون تواطؤ الوطاسيين مع الاتراك ، ويسرعون الى تجهيز وتموين مراكز احتلالهم وخاصة بشمالى المغرب ، خصوصا بعد أن وصل الى فاس سفير من الجزائر ، ليعلم بمقدار استعداد الوطاسيين لمحاربة المسيحيين (25) . وقد أخذت سياسة التعاون الوطاسى التركى تؤتى ثمارها ، خاصة بعد أن نجح القائد العطار في تحرير غصاصة وطرد الاسبان منها ، ثم عندما حاصر الوطاسيون بليلية أيضا (24) . وقد أصبحت وضعية الاسبان ببليلية حرجة إذ أن السفن الاسبانية الذاهبة اليها كانت معرضة لخطر المغاربة في غصاصة (25) . وبديهي أن هذه التطورات كانت في صالح الاتراك العثمانيين لانهم كانوا في حالة حرب مع الاسبان والبرتغال ، ولأنهم أخذوا يتركزون في السواحل المغربية ويتخذون من بعضها مراكز وقواعد لمحاربة خصومهم ومتى استمر الاتراك في سياستهم هذه فلا محالة من أن يبسطوا نفوذهم على مجوع المغرب ولن يلبثوا أن يتعاونوا مع السعديين لان عملية الجهاد ومحاربة اعداء المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين . وهذا جميعه يضر بمصالح البرتغال والاسبان في المغرب ، بل ويهددهم بأفدح الاخطار .

(21) ادخل احد امراء بنى حفص في تونس في خدمته الاخوين من أسرة بارياروس اللذين كانا من أشهر قراصنة المتوسط : مروج وخير الدين . وقد كانا من اصل يونانى ثم أسلبا واشتغلا بالقرصنة كما تطوعا لاتخاذ مهاجرى الاندلس ونظلم الى المغرب وشمالى افريقيا . وعندما اشتدت الحيللات الاسبانية على الجزائر استنجد أهاليها بمروج . سيما وان دولة بنى زيان في تلمسان قد ضعفت منذ مطلع القرن 16 م لدرجة جعلت امراءها يتسابقون الى التعاون مع الاسبان ضد بعضهم البعض كما فعل ابو عبد الله محمد سنة 1511 م . وقد أعلن مروج نفسه أميرا على الجزائر وصد عنها حملة اسبانية سنة 1516 م وعندما قتل مروج في احدى حروبه ضد الاسبان سنة 1518 م تولى اخوه خير الدين مكانه وأصبح صاحب السلطة في مجوع البلاد الجزائرية تقريبا . وخير الدين هو الذى أعلن طاعة العثمانيين قد خلت الجزائر ضمن الامبراطورية العثمانية التي كانت تضم آنذاك آسيا الصغرى وشرقى أوروبا والشرق العربى .

(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد :الاول من 1 ، 3

(23) المصدر السابق ص 41

(24) المصدر السابق ص 72

(25) نفس المصدر ص 61

ومما زاد في قلق البرتغال والاسبان ، العلاقات التي أصبحت لفرنسا وفرنسوا الاول الخصم اللدود للامبراطور الاسبانى شارلكان ، مع الوطاسيين . نتيجة الروابط والتعاون الذي تم بين فرنسا والأتراك العثمانيين . وما من شك في أن تقرب أحمد الوطاسى من فرنسا كان التصد منه تقوية مركزه في الداخل خاصة ، عن طريق الاسلحة التي كان سيتوصل بها من فرنسا ، في حين أن فرنسوا الاول كان يرى في المغرب بلدا ذا موقع ستراتيغى هام يمكن اتخاذه لمحاربة الخصوم الاسبانيين ، علاوة على تشجيع رواج التجارة الفرنسية في المغرب . وقد استقبل السلطان أحمد الوطاسى في فاس سفارة فرنسية برئاسة الكولونيل (Colonel de Piton) وبعث معه الى فرنسوا الاول رسالة تعد الاولى من نوعها في تاريخ العلاقات المغربية - الفرنسية خلال مطلع العصور الحديثة . وتتضمن الرسالة المغربية السماح للتجار الفرنسيين بالقيام بأعمال التجارة مع مملكة فاس . وذلك جوابا على طلب الملك الفرنسى بهذا الشأن (26) .

ولم تكن هذه التطورات لتخفى على المولى أحمد الاعرج الذي قام بمحاصرة المركز البرتغالية في الجنوب ، وتضييق الخناق عليها خلال سنة 1534 : إذ حوصرت آسفى حصارا شديدا في شهري ماي ويونيه وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين ، لولا المساعدة الخارجية التي بعثها البرتغاليون الى المدينة المحاصرة . حيث ظهر وكأن تعاونا قد حصل بين المسلمين : الأتراك والوطاسيون والسعديون ضد المسيحيين ، وضد مراكز الاحتلال الاجنبى في المغرب خاصة . وما أن بلغ مسبح الملك جان الثالث بأن بارياروسيا قد غادر القسطنطينية في أسطول ضخم ، وأن في اتجاه نحو شمالى افريقيا وبلاد المغرب ، حتى أخذ يفكر جديا في الجلاء عن بعض المراكز ، والجنوبية منها بصورة أخص ، تمهيدا لتركيز القوات البرتغالية في المناطق الشمالية من المغرب ، كسبتة وطنجة باعتبارها حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غربى البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق . ثم لصد الأخطار العثمانية عن شبه جزيرة ايبيريا (27) . وفي سبتمبر من سنة 1534 بعث الملك جان الثالث منشورا الى مختلف النبلاء والاساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الاحتلال البرتغالى في جنوبى المغرب كآسفى وازمور . وكذا حول حروب البرتغال

(26) م. ص. ت. م. المجموعة 1 - فرنسا - ج 1 ص 8
(27) م. ص. ت. م. المجموعة 1 البرتغال ج 2 ص 640

في افريقيا بصورة عامة . وحسب المنشور الذي وجهه الملك البرتغالى الى هؤلاء بتاريخ 13 سبتمبر 1534 م ، نجد بأن الملك يطلب منهم الاجابة عن الاسئلة الآتية : هل ينبغى ترك أسفى وأزمور الى المغاربة أم لا ؟ وهل ينبغى الجلاء عنها أو عن بعضهما ؟ واذا احتفظنا بهذه المراكز فهل ينبغى تحويلهما الى حصون للتقليل من المصروفات ؟ ثم ما الاضرار الناتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفادها ؟ (28) .

على أن الرسالة التى وجهها الملك البرتغالى جان الثالث الى السيد الاعظم (Grand Maître) تشرح وجهة نظر الحكومة البرتغالية ازاء الاوضاع الداخلية بالمغرب فقد جاء فيها بأن الاحتلال البرتغالى فى المغرب أخذ يضعف منذ سنة 1534 لصعوبة تموين المراكز وامدادها بالرجال والعتاد . لان جل العناية كانت موجهة نحو الهند والبرازيل . ولقد أخذت القبائل المغربية التى كانت قد رضيت من قبل بالسيطرة البرتغالية فى استرداد استقلالها تدريجيا بالاضافة الى كون البرتغاليين وجدوا أنفسهم أمام عدو جديد : فالملك الوطاسى الذى كان يحكم فى فاس لم يفتأ يواصل اطلاق سبته والقصر الصغير وطنجة وأصيلا ، ولكن خطر الجنوب كان أشد واعظم حيث الشريفان مولاي أحمد وأخوه مولاي محمد : فالاول كان حاكما على مراكش بينما الثانى اتخذ كعاصمة له مدينة تارودانت . وقد أصبحت لهما سيطرة واسعة وسلطة قوية كما أصبح لهما نفوذ كبير بسبب الحروب المقدسة التى يقومون بها ولأنهما كانا يعلمان بأن هدفهما هو طرد البرتغال من اراضى الاسلام . ولا انتفاء ما عساه أن يحدث اقترح — الملك جان الثالث يقترح — مشروع اخلاء بعض الممتلكات البرتغالية فى الساحل المغربى وذلك بجمع المقاومة فى النقاط التى يمكن الدفاع عنها بسهولة ويسر . ويضيف الملك البرتغالى بأنه استشار مع النبلاء حول اخلاء أسفى وأزمور : فأسفى ليس لها ميناء ، بينما أزمور لها مدخل جد صعب بسبب عارض وادي أم الربيع ولان هذا المكان الاخير هو من جهة اخرى يوجد على مقربة من مازكان التى تقرر الاحتفاظ بها (29) . والمغرب فى الامر أن الملك جان الثالث لم يتوان عن التفكير فى موضوع غزو الاراضى المغربية . فقد كتب الى النبلاء وكبار رجال الدين يستشيرهم حول هذا الموضوع طالبا منهم الراي فى المراكز التى يجب اتخاذها كنقط استناد لعمليات الغزو المقبلة (30) . وليس

(28) م. ص. ت. م. المجموعة 1 البرتغال ج 1 ص 645
(29) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . مرسا — المجلة الاول — ص 43
(30) نفس المصدر ص 52

بخاف ان الملك البرتغالى عندما اظهر حرصه على غزو المغرب ، كان يهدف من وراء ذلك تغطية عجز الحكومة البرتغالية وضعفها امام المقاومة السعدية المتزايدة التى اجبرت البرتغال على التفكير فى الجلاء قبل ان يلقي بهم فى عرض البحر كما حل بالاسبان فى سانتاكروز بالامس القريب .

وقد تلقى الملك البرتغالى اجوبة عديدة من مختلف الشخصيات البارزة ، وهى فى مجموعها تلقى ضوءا على ما كانت تكنه الطبقة الحاكمة فى البرتغال من حرص على المستعمرات والمراكز المغربية بشكل خاص ، وتعرب ايضا عن رغبة رجال الدين فى اتقاء خطر الاتراك العثمانيين الذين اخذ نفوذهم يتزايد بالشمال الاغريقى : فالامير Don Formond اخ الملك احتج على مشروع اخلاء اسفى وازمور ونصح بتحويلهما الى قلعتين . وعند الضرورة القصوى يجب اخلاء ازمور . وحبذ فكرة غزو المغرب على ان بتديء ذلك بالسيطرة على فاس التى سيكون لاحتلالها اثر عظيم (31) . اما الماركيز De Villa Real فقد نصح فى جوابه للملك بعدم الجلاء عن اسفى وازمور واذا تعذر الاحتفاظ بهما فلنخرب المركزين ولا نبغى الا على الحصون ثم يوجه انتباه الملك الى ضرورة التشاور مع البابا ومجلس الكرتيز حتى لا يتحمل الملك وحده مسؤولية ذلك . ويرى الماركيز اخيرا البدء بفاس عند محاولة غزو المغرب (32) . وفى جواب (Francisco Lobo) نلاحظ مدى التخوف من السعديين : فالجلاء عن هذه المراكز سيجعل الشريف يوجه الحرب نحو الشمال ، فيهدد بذلك اصيلا وطنجة وفاس بدون ان يضع ملك فاس اية عقبة فى طريقه . ثم ينصح الملك بتحسين جميع المراكز البرتغالية فى المغرب (33) . ولا يخفى (Nuno Rodregues Barreto) استيائه من فكرة الجلاء عن بعض المراكز المغربية لان ذلك غير جدير بالبرتغاليين . حيث سينظر اليهم اجداهم بعين غير الرضى ، اذ ينبغى التضحية بالاموال والارواح دون التفكير فى الجلاء عن هذه الاماكن . ويرى اخيرا اتخاذ اسفى وازمور كتقاعدتين للعمليات الحربية ضد المغرب فى قابل الايام (34) .

-
- (31) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا - المجلد الاول ص 52
(32) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى ص 671
(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثانى - ص 676
(34) نفس المصدر ص 680

على أن أجوبة بعض رجال الدين وان تضمنت النصح بالتخلي عن بعض المراكز الجنوبية مما ذلك الا لتحث الملك على أخذ كل وسائل الدفاع بالنسبة للمراكز الشمالية لصد خطر الاتراك العثمانيين وبارباروس بوجه خاص . فهذا أسقف (Lamego) ينصح باخلاء سانتاكروز وأسفى وأزمور لان أهميتها لا تبرر النفقات الباهظة التى تصرف عليها . وان احتلال الشريف لها لن يكون له كبير الخطر على البرتغال . ويرى هذا توجيه العمليات الحربية الاولى ضد فاس كما ينصح بتحسين سبته للدفاع ضد خطر بارباروس (35) . وهذا السيد الاعظم (Grand Maître) لسانتياكو (Santiago) ينصح هو بدوره حكومته لتتخلى من تلك المراكز،على أن تأخذ كل الاستعدادات للدفاع ضد الاتراك (36) . ولقد تميز جواب أسقف (Algarve) ببعض التفاصيل : فبديهى أن الملك البرتغالى يهه بالدرجة الاولى أن يتوصل الى القضاء على الشريف قبل أي شىء آخر . لذلك نعليه أن يسيطر على سلا وأن يتخذها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس . كما كان الملك عمانويل الاول قد قرر القيام به يوم أن فكر فى غزو المغرب عند مطلع القرن السادس عشر للميلاد . ويوجه انتباه الملك الى ضرورة الاستعانة بأموال الاكليروس للقيام بمشروعه هذا . ثم يختم جوابه بأن يطلب من الملك العمل على كسب جانب القبائل المغربية وخاصة القريبة منها من المراكز البرتغالية وذلك بجعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة . ومتى ما نجحت هذه الوسيلة فان كثيرا من القبائل ستتخلى عن الشريف من تلقاء نفسها . وفى ختام الرسالة يكرر الاسقف طلب غزو المغرب واعلاء كلمة الصليب (37) .

وهكذا فى الوقت الذى كان المولى احمد يشدد الخناق على المراكز البرتغالية والجنوبية منها خاصة كان الملك البرتغالى جان الثالث يجري استشارات سرية حول الوضع القائم فى المغرب ، سيما وأن الظروف العامة بالنسبة للبرتغال لم تكن تسمح بالقيام بأي عمل من شأنه أن يخلق الجو الملائم للتسرب العثمانى داخل الاراضى المغربية كما حصل من قبل فى بلاد الجزائر . ورغم تراجع البرتغال عن القيام بأعمال عسكرية فى المغرب وتفكيرهم فى الجلاء عن بعض المراكز الجنوبية فان

(35) نفس المصدر ص 656

(36) نفس المصدر ص 622

(37) م. ص. ت. م. المجلد 1 البرتغال - ج 2 ص 962

وجود الأتراك في الجزائر قد أحدث تطورات هامة على سير الأحداث في المغرب ، فالملك الوطاسي أحمد بعدما كان يرى التعاون مع البرتغال لحفظ عرشه من الخطر السعودي ، قد أخذ اليوم يعمل على توطيد علاقاته مع ملك فرنسا ومع الأتراك العثمانيين . ولعل ذلك كان نتيجة شعوره بضعف البرتغال وعجزهم عن رد الخطر الجنوبي . على أن استفحال أمر الدعوة السعودية وتزايد انصارها في المغرب ، أرغم الوطاسيين على التقرب من البرتغال كذلك أو ان الخطر المشترك قد قارب وجهات نظر كل منهما : فالحروب بين فاس ومراكش قد استؤنفت من جديد وحصلت معركة ببوعقبة قرب وادي العبيد يوم 24 يولييه 1536 م انتهت بانهزام الملك الوطاسي بسبب تخلى قبائل الخلوط التي كانت تكون القوات الامامية للجيش الفاسي ونشرها الفوضى في سائر الجيش (38) وبعد المعركة (تدخل كبار القوم وعقد صلح بين الطرفين كتبه العالم ابو محمد عبد الواحد الونشريسي حيث أصبح الشمال للوطاسيين والجنوب للسعديين واتخذ وادي أم الربيع كخط فاصل بينهما كما احتفظ الوطاسيون بسجلهامة وبتانيالات بينما اعطيت درعة للسعديين بالاضافة ، الى تادلا وتامسنا) (39) . واثر هذا الانهزام تقرب أحمد الوطاسي ثانية من البرتغال ولعل ذلك نتيجة شعوره بانشغال الأتراك في حروبهم ضد الاسبان . وكلف وزيره مولاي ابراهيم بالسعى لدى هؤلاء لعقد معاهدة سلم على أساس العمل المشترك ضد السعديين . وقد استجاب البرتغاليون الذين افزعته انتصارات المولى أحمد لهذا الطلب وجرت اتصالات متعددة بين الطرفين لتهيء المعاهدة المنتظرة .

(38) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث - ص 49
جاء في منظومة الكراسي :
ذكر حركة وادي العبيد . ص 32 .

وكان قطع الوادي رأى طمأنينة
والمسلمين من شريف الامراء
يحل عقدها بجمع مفرقا
وبعد ذاك يعقب بالخلجان
وكان بالنصر عليه مائلا
عاذ مقهرا لراى مآدها
ولم يجد في الناس من مدافع
والوادي وحده له قنوط
فلم يكن في الناس من يصبر
وخسة على البليك السوارذ
وان بعد الضرب في الضارة
ولامور المسلمين ينجح

وقصد الجيش الى البحلة
وذلك بعد مجيء الفقراء
والسيد الشريف في كل لقا
يرجع للصلح وللمواسي
يقطع الوادي اليه مائلا
فلما وقعت المعين بها
من جملة الانتفاض والمدافع
فخانه الامراب والخلوط
ومرت الاجساد والبرابير
غير ثلاثين على ابن راشد
.. وخاف من عداوة النصارة
فعمل الصلح بما قد يصلح

(39) المورخ المجهول : الدولة السعدية . ص 7 .

وبالمقابل فان الحاكم السعودي الذي تمت سيطرته على معظم المغرب الجنوبي قد اخذ يتقرب من امير دبدو بالمغرب الشرقي الذي ثار ضد فاس وارسل اخاه الى مراكش لتنسيق العمل ضد الوطاسيين (40) . ولن نجد صعوبة كبيرة في فهم الاسباب التي دفعت البرتغال الى الدخول في مفاوضات مع الوطاسيين . والتي سنتنتهى بعقد معاهدة بين الطرفين ، اذا ما اطلعنا على التعليمات التي ارسلها جان الثالث الى سغيره في مدريد الكونت (Comte de Castanheira) ليطلع عليها الامبراطور الاسباني ، فهي تعبر بحق عن نوايا الملك البرتغالي اتجاه المغرب ، وثبتت مدى تخوف البرتغال من السعوديين . وبعد ان تطرق الملك البرتغالي الى المصروفات الباهظة التي تتحملها الخزينة للدفاع عن الهند ضد الاتراك ، يشير الى اعمال البرتغال في المغرب ضد ملك فاس وملك مراكش ، والى الجهود المتواصلة للحيلولة دون احتلال فاس من قبل السعوديين ، لان ذلك سيكون خطرا على الامتين المسيحيتين . كما تبرز التعليمات الاسباب التي دفعت الملك جان الثالث الى عدم ارسال النجيدات الى ملك فاس (مما يدل على ان الوطاسيين قد استنجدوا بالبرتغال قبل خوضهم معركة بوعقبة السابقة) لانشغاله باحداث الهند التي ارسل اليها الكثير من العناد والرجال والاموال ، ولا يخفى ملك البرتغال شعوره عندما يقارن بين احوال الهند والمغرب ، فهو يرى ان اعماله بالمغرب هي اكثر اهمية وان على الامبراطور ان يتتبع احوال المغرب عن كثب ، لانه اذا استتبعت المقاومة ضد الاتراك ، فان كل ما تبقى يجب ان يوجه الى المغرب ، ولرد خطر السعوديين . واخيرا يشير الملك البرتغالي الى ان المولى احمد السعودي حاكم ذكى وغنى ، وله اتصالات مع الاتراك . وان الخطر كل الخطر اذا ما احتل فاس او المراكز البرتغالية في المغرب ، اذ لو سقطت جميعها بيده ، فان ذلك سيعرض لا محالة قشتالة لخطر عظيم (41) .

على ان سياسة التقرب التي اخذت لشبونة تنهجها في المغرب لا بالنسبة للوطاسيين المستنجدين بهم ، ولكن بالنسبة للسعوديين ايضا ترجع في واقعها الى الظروف العامة التي كانت عليها اسبانيا والبرتغال اثر المعاهدة التي وقعها فرنسوا

(40) دبدو : تقع قريبة من الضفة اليمنى لوادي ملوية وتمتد مركزا هاما في المغرب الشرقي لا يقل اهمية عن تازة ووجدة . وقد اخذت هذه الابارة تستقل تدريجيا عن فاس منذ اشغال الوطاسيين بمحاربة المراكز الاجنبية ومقاومة الخطر السعودي

(41) م. ص. ت. م . المجموعة الاولى - البرتغال - ج 3 - ص 166

الاول مع العثمانيين في سنة 1536 حيث بدأ وكان امبراطورية شارلكان قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والاتراك ، مما ادى الى استئناف الحروب بين هؤلاء بن جديد . واول محاولة بدرت من البرتغال في هذا الشأن ، عندما أرسلوا وفدا الى مراكش للتفاوض مع المولى احمد في شأن هدنة بين السعديين والبرتغال ، وقد استجاب المولى احمد لذلك ، لانه كان في حاجة الى تنظيم أمور دولته الناشئة ، سيما بعد الانتصارات الاخيرة التي أحرزها ضد خصومه الوطاسيين . وقد وقعت هدنة بين الطرفين يوم 25 ابريل 1537 لمدة ثلاث سنوات . مع اجراء تبادل تجاري بين رعايا البلدين (42) . كما جرت مفاوضات مع الوطاسيين انتهت بعقد معاهدة لمدة أحد عشر عاما . وقد وقعها مولاي ابراهيم وضابط أصيلا (Don Joao Continho) يوم 24 يونيو 1538 (43) .

ولنتأكد من أن سياسة التقرب البرتغالية من الوطاسيين والسعديين ، لم يكن القصد منها سوى الحيلولة دون قيام تعاون حقيقى بين الاتراك والمغاربة ، ما جاء في بعض الرسائل والتقارير التي كان التجار والرحالة ورجال الدين المسيحيين يبعثونها عن أحوال المغرب . مع الإشارة الى كل ما من شأنه أن يساعد البرتغال أو الاسبان أيضا على فرض نفوذهم ويعمل على تحقيق الامنية المنشودة وهى احتلال مجموع المغرب (44) .

اما بالنسبة للوطاسيين والسعديين ، فقد حاول كل منهم الاستفادة من ظروف الهدنة التي لهم مع البرتغال ، لتقوية المركز الداخلى أولا ، وللتهيء لمنازلة الخصم ثانيا : فمن جهة نجد السلطان الوطاسى جادا في تحسين علاقاته مع الإمارات المجاورة لخلق قوى ضد السعديين فقد تزوج مع السيدة الحرة (عائشة) حاكمة تطوان (47) ، كما زوج ابنته مع أمير دبدو (48) ، ومن جهة أخرى ،

(42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث ص 44

(43) نفس المصدر ص 44 .

(44) م. ص. ت. م المجموعة 1 - البرتغال - ج 3 ص 166

(47) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع - حاشية ص 51

(48) نفس المصدر . ص 75 .

فالسعديون الذين كانت دعوتهم في تزايد ، قد حققوا نصرا عظيما على يد المولى محمد اخ المولى أحمد ونائبه على سوس ، وذلك عندما فتحوا حصن سانتاكروز المعتد يوم الثاني عشر من مارس لسنة 1541 . ويكنى للدلالة على الاثر الكبير الذي تركه سقوط هذا الحصن ان نذكر بأن الملك البرتغالي جان الثالث ما ان علم الخبر ، حتى امر حاميات أسنى وأزمور بالجلء فورا عن هاتين القاعدتين ، مع الاحتفاظ بقاعدة مازكان وتحصينها . وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن الى سفيره بهدريد . (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة بالثاني والعشرين من ديسمبر لسنة 1541 ، ليطلع عليها الامبراطور الاسباني شارلكان ، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التي أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي أسنى وأزمور : فبالاضافة الى وضعيتها الحرجة ، هناك تزايد قوات السعديين ، بفضل المساعدات التركية ، حيث أصبح الحاكم السعدي يتوهم على المدعية ، والآلات وعلى جنود مديريين ، وقد رأينا كل ذلك عند حصار سانتاكروز ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرا شاقا وصعبا ، فقررنا اخلاءهما . ثم ان الجلاء عن أسنى وأزمور ليس معناه التخلي بالمرة عن المغرب ، فقد اعطيت الاوامر لتحصين مازكان ، لسهولة استغلال مينائها طوال ايام السنة (49) .

وهكذا اعتب سقوط سانتاكروز اخلاء أسنى وأزمور في ديسمبر من نفس سنة 1541 في حين ان أعمال التحصين قد شرعت في مازكان مباشرة ، وذلك لاتخاذ هذه القاعدة مركزا لمقاومة التوسع السعدي . وتؤكد الوثائق بأن أعمال التحصين في مازكان قد استمرت دون انقطاع منذ الصباح الباكر حتى المساء ، وحتى ايام الاحاد والاعياد (50) .

وجميع هذه التطورات اظهرت السعديين في المغرب كتادة محررين للسواحل المغربية من الاحتلال الاجنبي ، والابطال الذين ستم على يدهم وحدة البلاد . نازدادت شعبيتهم وأصبح الجميع يتطلع اليهم لانقاذ البلاد من الاوضاع الفاسدة التي أصبحت عليها في الداخل والخارج . ويدلنا على ذلك الاحداث التي حصلت

(49) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الثالث - ص 560

(50) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال - المجلد الرابع - ص 9

في شمالي المغرب خاصة حيث يسود نفوذ الوطاسيين ، ولما يمض غير قليل على تحرير القواعد الجنوبية : (ميساسة الزواج) التي حاول أحمد الوطاسي استغلالها لتقوية حكمه قد فشلت ، لان المولى عمر قد ثار في دبدو ضد اخيه صهر السلطان الوطاسي ، واستولى على الحكم ، ثم اخذ في التقرب من المولى أحمد السعدي في مراكش (51) . ولان المولى محمد بن علي — أخ الوزير المولى ابراهيم (المتوفى في صيف 1539) قد ثار في شنشاون ضد السلطان الوطاسي مطالباً بفسخ المعاهدة التي للوطاسيين مع البرتغاليين (52) . وحتى بطوان خرجت عن فاس اذ حدثت بها ثورة اطاحت بحكم السيدة الحرة زوجة المولى أحمد الوطاسي ، بينما تولى الامر القائد حسن (المسن) احد افراد أسرة المنصري (53) . بل والأكثر من ذلك أن الحكم الوطاسي قد أصبح يعاني صعوبات بفاس نفسها مما شجع السعديين على مواصلة هجوماتهم لتوحيد مجموع البلاد وللوقوف بالمغاربة صفا واحدا ضد الاعداء المحتلين .

-
- (51) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — ص 137
(52) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الثالث — حاشية ص 375
(53) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الرابع — ص 105

القضاء على الحكم الوطاسي في فاس

كان من المتوقع ان يكون سقوط حصن سانتاكروز والجلء عن آسفى وأزمور ، بداية تطور هام للحركة السعدية ، التى أصبح جميع المغاربة يرون فى زعمائها القادة الذين تتمثل فيهم امانى الشعب : فى توحيد البلاد بالقضاء على ما تبقى لبنى وطاس فى فاس . ومن هم على شاكلتهم من حكام الامارات الشمالية ، وتحرير بقية المناطق التى تحتلها القوات البرتغالية والاسبانية ، لولا ان خلافا نشأ بين الاخوين : المولى أحمد فى مراكش ، والمولى محمد فى تارودانت لم تكن الايام لتزيده الا شدة وحدة ، مما اثر على تطور الحركة السعدية وبالتالي على مجموع الاحداث الجارية بالمغرب ، حيث استفاد من ذلك والى حد ما بنو وطاس فى فاس الذين حاولوا ان ينقذوا صروح مملكتهم المتداعية باستغلال فرصة النزاع بين الحاكمين السعديين والحروب القائمة بينهما .

وعند البحث عن أسباب الخلاف بين الاخوين نجد بأن المولى محمد الذى نجح فى تحرير بعض المراكز الاجنبية بالسواحل الاجنبية . قد بدأ اكثر شعبية من اخيه المولى أحمد ، وأجدر منه بحمل لقب « المحرر » سيما وان المولى أحمد بانتقاله الى مراكش واستقراره بها . قد ابتعد فى الواقع عن مناطق الخطر الاجنبى . وأصبح من جهة ثانية أكثر اعتدالا سواء فى معاملاته مع البرتغال المحتلين او مع الوطاسيين . واعتادا على الرسالة التى بعثها (Henrique de Noronha) الى الملك جان الثالث بتاريخ 4 يونيه 1541 فان الخلاف بين الاخوين قد تفاقم بسبب غنائم سنناكروز اذ ادعى حاكم مراكش بأن له نصف الغنائم ، فى حين أن المولى محمد رفض الاعتراف له بذلك ، وتضيف الرسالة بأن حاكم تارودانت قد منع كل تصدير للبضائع الى مراكش ، وكذا ارسال الاسرى ، وانه صادر كل ممتلكات التجار المراكشيين بتارودانت ، كما اقام حرسا قوامه ستون رجلا عند الممر الجبلى الوحيد الذى يصل بين مراكش وتارودانت . على ان المولى أحمد قد طلب من اخيه ان يقدم الى مقابلته للتفاوض معه فى ايمنانوت ، الا ان المولى محمد رفض ذلك بدعوى

انه يخشى مجيء حملة برتغالية في غيابه ضد سوس (1) . والى جانب الخلاف حول الغنائم هناك سبب آخر يظهر وكأنه أكثر أهمية ، وهو مسألة ولاية العهد : اذ يبدو ان المولى احمد قدحاول تولية ابنه بدل اخيه المولى محمد ، مخالفا بذلك الطريقة التى سنها المولى محمد القائم بان لا يتولى الحكم الا كبير العائلة (أما مولانا محمد الاكبر فقد عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمد الشيخ واخواتهما الا يتولى الخلافة منهم ولا من اولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى ان كبر اولادهم فطلب (المولى محمد) من (المولى احمد) الوفاء بذلك فامتنع . فقاتله على ذلك (2) ولا شك ان استيلاء المولى محمد على مجموع غنائم سانتاكرروز من شأنه ان يعزز مكانته المادية والمعنوية ، ويساعده في نفس الوقت على استغلال الموائء للاتصال مع التجار الاجانب الذين كانوا يرغبون في المتاجرة مع اهالى سوس ولشراء السكر والمعادن بشكل خاص ، مما يعود على المولى محمد بفوائد مختلفة . وان الاطلاع على تقرير بعثه من تارودانت (Sebastiao Alvares) الى جان الثالث بتاريخ الخامس من يناير 1542 ليدلنا على مدى استغلال المولى محمد للموائء المغربية الجنوبية المحررة للاتصال مع الاجانب ، ويطلعنا في نفس الوقت على اوضاع هذه المدينة خلال أزمة النزاع بين الاخوين : فقد وصلت الى تارودانت حمولة تسعة مراكب ، معظمها ثياب مختلفة ، وذلك مقابل السكر والنيلة والشمع والعنبر والجلود : وان المدينة لملوءة بالبضائع الاجنبية رغم ان حركة البيع والشراء كانت غير مزدهرة بسبب المجاعة وظروف الحرب (3) . وببشأ استغلال حاكم تارودانت للسواحل الجنوبية في توسيع عمليات التبادل مع الاجانب ما جاء في أحد التقارير من أن الفرنسيين الذين هم في اشد الحاجة الى معدن النحاس لصب المدافع قد وجدوا في معادن المغرب النحاسية رغبتهم ، حيث أخذوا نسي استثمارها مقابل تقديم الاسلحة والعتاد الحربي (4) . وبديهي ان النصر سيكون حليف المولى محمد الذي الى جانب سمعته في البلاد ، يتمتع بإمكانيات لم تكن لآخيه في مراكش : فقد جرت معركة بين قواتهما على وادي نفيس في موضع تنيل (Tinnel) بين مولاي ادريس وعلى بن بوزيد قواد حاكم مراكش ، وبين العليج قائد حاكم

(1) م. ص. ت. م . المجموعة الاولى البرتغال ج 3 - ص 416

(2) الانراني : نزهة الحادى . ص 65 .

(3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 6

(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 133

تاروانت ، انتهت بانتصار قوات هذا الاخير (5) . على ان محاولة قد جرت من قبل الاولياء ورجال الدين لازالة الخلاف بين الاخوين ، حيث انتهت بأن اقتسما بالتساوي الاراضى التى احرزوها فى حروبهم ضد الوطاسيين (6) . ولعل الحاكمين السعديين قد أدركا بأن تحاربهما من شأنه أن يضعف قواتهم ، ويمكن خصومهم البرتغال والوطاسيين من اغتنام الفرصة للقيام ضد السعديين المتنازعين . والواقع هو ان البرتغال او الوطاسيين لم يكن بإمكانهم أن يستغلوا هذه الفرصة ، لان الحروب بين الاتراك العثمانيين وفرنسا من جهة ، والاسبان والبرتغال من جهة أخرى ، كانت لاتزال قائمة فى البر والبحر ، حيث لم تنته الا بعد أن كان المولى محمد قد احرز النصر النهائى ضد اخيه فى معركة وادي الكاهرا على وادي العبيد خلال شهر يونيه لسنة 1544 ، بينما التجأ المولى أحمد الى زاوية سيدي عبد الله بن ساسى هو وجميع عائلته (7) ، ومنها فر نحو الجنوب المغربى الى (بلاد سجلماسة التى امتن بها عليهم كان عند استقلاله بالدعوة الكريمة ومغالبتهم على كرسى الخلافة بمراكش) (8) .

وقد صفا الجو بعد ذلك للمولى محمد الذى انتقل الى مراكش وجعلها مقرا لدولته التى تدين لها بالطاعة كل البلاد الجنوبية من المغرب . ولقد كان لانتصار المولى محمد الشيخ فى معركة الكاهرا اثر كبير فى تطور الاحداث التاريخية ، سواء بالنسبة لما حدث بداخل المغرب أو خارجه . اذ على اثر هذا الانتصار استقر الحاكم السعدي فى مراكش وجعلها مقرا لدولته الناشئة التى اصبحت سلطتها تعم كل البلاد الجنوبية ، فى حين أن البلاد الشمالية كانت تعرف الفتن والانقسامات مع نفوذ ضعيف للوطاسيين الذين انحصرت رقعة دولتهم فى فاس وما حولها .

وقد اقلق هذا التطور لشبونة ومدريد وادخل الرعب على قوات الاحتلال الاجنبى التى كانت منبثة على طول الساحل المتوسطى والقسم الشمالى من الساحل الاطلسى ، خصوصا وأن المولى محمد الشيخ ما فتىء ينادي بالجهاد لتحرير الوطن

-
- (5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الثالث - ص 452
(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الثالث - ص 121
(6) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 121
(7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 144
(8) بنامل الصفا . للفشتالى . ص 74 .

وانقاذ البلاد من الغوضى الداخلية والعودة بالناس الى مبادئ الدين الصحيح .
وقد اتخذ لذلك لقب المهدي (9) لها لهذا اللقب من تأثير ديني لدى عامة المسلمين
هذا في الوقت الذي كانت حركة التوسع العثماني الرامية الى جمع شتات المسلمين
في مشارق الارض ومغاربها آخذة في الانتشار بمجوع الشمال الافريقي ، مما يشكل
في مجموعه خطرا كبيرا على المسيحية بأوربا الغربية وعلى اسبانيا والبرتغال بوجه
خاص . الامتين المسيحيين اللتين نذرنا نفسيهما لغزو المسلمين واعلاء كلمة
الصليب .

ولن نجد بين الوثائق التاريخية لتصور الاوضاع السياسية التي أصبح عليها
المغرب اثر استقرار محمد الشيخ بمراكش اهم من رسالة حاكم أصيلا
(Bastiao de Vargas) الى جان الثالث : فالمولى محمد بعد انتصاره على
أخيه عازم على التوجه الى فاس ، وقد أصبح لا يهاب الهزيمة بفضل تفوق قواته
العسكرية وفرق مدفعيته . اما سلطان فاس أحمد الوطاسي فهو أشد حرصا من
اي وقت مضى على المحافظة على السلم مع البرتغال والاسبان(10)
وكادت هذه الاتصالات أن تنتهي باتفاق العواصم الثلاث لولا قيام محمد الشيخ بحملة
عسكرية ضد فاس، وذلك للقضاء على ما تبقى من حكم الوطاسيين وجرت هكذا معركة حربية
على درنة في سبتمبر 1545 م انتهت بانتصار محمد الشيخ وأسر ملك فاس أحمد
الوطاسي ، حيث أصبحت طريق فاس مفتوحا أمام قوات السعديين .

ويحق لنا هنا أن نتساءل عن الاسباب التي جعلت الحاكم السعدي لا يتوجه
نحو فاس اثر انتصاره في المعركة الاخيرة ما دامت الظروف أصبحت جد مناسبة للقيام
بذلك ؟ فمن جهة : ما أن علمت فاس بنبا انهزام أحمد الوطاسي ووقوعه أسيرا حتى
أعلنت بيعة محمد القصري بن أحمد الوطاسي . وأصبح أبو حسون ملك بادس
وزيرا له ، حيث ظهر وكان الامراء الوطاسيين قد تناسوا خلافاتهم أمام الخطر
السعدي الذي يهدد دولتهم بالزوال . فقاموا اليوم متعاونين لرد هذا الخطر ، وقد
يدفعهم الخوف الى الاستنجاد بالعدو مما يزيد الامر تعقيدا ؟ ومن جهة أخرى فان
المولى محمد الشيخ لم يطمئن بعد لأخيه المولى أحمد الذي فر نحو الجنوب عتب
معركة الكاهرا وأخذ ينظم هناك المقاومة ضد أخيه كما دخل في اتصال مع

(9) النزمة ص 23 (ويلقب من الالغاب السلطانية بالمهدي)

(10) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 144

الوطاسيين وغيرهم من الخصوم لتنسيق العمل ضد المولى محمد الشيخ المهدي (نلبثوا بها الى ان اسفوه بمظاهرة بنى مرين اعدائه واتصال اليد معهم على محاربه وتجهيز المدد مع المولى الامير زيدان لاستنقاذهم من يده ايام جنومه عليهم بظاهر فاس محاصرا لهم الحصار الطويل . . واجلابهم ايضا في مغيبه بالمسافر على الناجحة من اعمال الحضرة ليشغلوه من ورائه وياخذوا بحجزته عن حصار بنى مرين لها كان بينهم من العهد على ذلك) (14) .

وهكذا لم يقم محمد الشيخ بأي عمل ضد فاس بل نراه يطلق سراح الملك الوطاسي بعد سنتين من الاسر خلال شهر غشت من سنة 1547 م . بعد ان تنازل له هذا الاخير عن مكناسة وبلاد الغرب ، وقبوله زواج مولاي عبد القادر بن محمد الشيخ مع ابنته ، وعلى ان يصبح الامير السعدي وزير صهره الاكبر في فاس (15) . وغير خاف بان المولى محمد الشيخ كان يرمى من اخذ مكناسة القريبة من فاس الى مراقبة كل حركات الوطاسيين ، ومن اخذ بلاد الغرب الى الحيلولة دون حصول اي تعاون بين المراكز البرتغالية والوطاسيين . اي انه كان يسعى الى عزل خصومه في فاس ووضعهم تحت رحمته ، هذا بالاضافة الى ان ابنه سيصبح الوزير الاول لاحد الوطاسي ، الذي بيده كل مقاليد الامور . ويبدو ان الامر لم يتم للحاكم السعدي وان الوطاسيين لم يقبلوا بوضع انفسهم تحت رحمة المولى محمد الشيخ ، وانهم لذلك قاموا بتنظيم المقاومة والاتصال بخصوم السعديين ، وحسب الرسالة التي بعثها من تطوان بتاريخ 15 ماي 1548 م (Jeronimo diez Sanchez) الى جان الثالث : فان معركة دارت رحاها في اليوم الثاني ماي على وادي سبو قرب فاس واجه خلالها المولى محمد الشيخ حلفا ضم ملك فاس وملك بادس ومولاي زيدان بن المولى احمد - اخ الحاكم السعدي - وان المعركة انتهت بانتصار المتحالفين في حين ان محمد الشيخ قد فقد الكثير من قواه (16) . ومع ذلك فان هذا الانهزام لم يفت في عضد المولى محمد الشيخ الذي صمم العزم على انزال الضربة النهائية بخصومه الوطاسيين ، اذ عند مطلع السنة التالية اي 1549 م كان محمد الشيخ سيد كل البلاد ما عدا فاس وتازة ، كما جاء في رسالة موجهة من تطوان ، وقد

(14) مناهل الصفا - للشنتالي - ص 74 .

(15) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابعة - ص 223

(16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - البرتغال - المجلد الرابع - ص 268

كاتب أحمد الوطاسى طالبا منه البيعة على ان لا يصيبه بأذى . ويعده ببلاد سجلماسة التى ستبقى وراثية فى سلالته ، وقد جاء فى مكتبة الحاكم السعدي للملك الوطاسى قوله : (كيف لا نضع معك خيرا وانت عاملتنا بخيرك واعطينا نخائر ونحن مقرون باحسانك الينا ، فلا تظن فينا الا خيرا ومع هذا حتى متى هذا القتال بيننا) (19) . كما كاتب اهالى فاس للدخول فى طاعته (فلما طال حصار الشيخ لفاس وجه المال لاشياخها وكان الشيخ الونشريشى والقاضى الطروق الاموي واخوه احمد يحرضون اهل فاس على حرب الشيخ ويقولون لهم ان بيعة السلطان احمد فى اعدائكم وبيعة ولده كذلك فلا يحل لكم نقضها) (20) . وقد استمر حصار فاس بضعة اشهر وسقطت اولاً فاس البالى يوم الثلاثاء 18 يبرابر 1549 بينما فر احمد الوطاسى وابو حسون الى فاس الجديد . ولم يجد احمد الوطاسى اخيرا بدا من تسليم نفسه للمنتصر السعدي فى حين ان ابا حسون توجه نحو الشمال . وما ان دخلت فاس جميعها فى طاعة محمد الشيخ حتى بعث يوم 14 مارس من نفس السنة احمد الوطاسى مع اولاده ونسائه واخوانه وكل اعضاء عائلته الذين قبلوا الذهاب معه الى مراكش (ولكن بعد اربعين يوما من وصوله الى مراكش قتل ومعه نحو اربعين من رجاله بالسم) (21) . وهكذا استولى محمد الشيخ اخيرا على فاس مما زاد فى شهرته وساعد على توطيد اسس الدولة السعدية الناشئة . ويدلنا على مدى الشعبية التى اصبحت للمولى محمد الشيخ داخل المغرب وخارجه : كون الكثير من الحكام والقبائل قد اعلنوا تأييدهم للدولة السعدية : كعلى اعراس قائد نواحي مليلية (22) . ومحمد بن رشيد حاكم شفشاون الذى اسرع الى محاصرة اصيل وطنجة واتلف المحاصيل الموجودة بضواحيهما (23) . ثم حاكم تطوان الحسن المنظري الذى ثبته المولى محمد الشيخ على ولايته (24) . وقائد تازوفا ببلاد الريف الذى جمع الاشياخ العرب وجعلهم يؤيدون السعديين (25) . وايد السعديين ايضا القائد العروسى حاكم القصر الكبير (26) . اما القبائل فقد توالى تأييدها

-
- (19) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 10 .
(20) الزياتى : الفرجان المغرب . مخطوط . ص 346 .
(21) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 15 .
(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 183
(23) نفس المصدر . ص 254
(24) نفس المصدر . ص 337
(25) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 381
(26) نفس المصدر . ص 337

للدولة الناشئة كتبائل بنى يزناسن . وتبائل مديونة ، وعرب غيائة (27) . ولقد حصلت ثورة في بادس ضد أبى حسون واعلن اهاليها طاعة المولى محمد الشيخ السعدي (28) . وهكذا ذاع صيت المولى محمد الشيخ في مجموع البلاد الشمالية والشرقية ، مما سهل على السعديين احتلال كرسيف (29) والسيطرة على امارة بدو التي فر عنها أميرها مولاي عمر والتجأ الى مليية (30) .

أما في خارج المغرب ، فبدلنا على مدى الشهرة التي وصلت اليها الدولة السعدية الناشئة كون (المور يسكوس) أصبح لهم أمل قوي بأن يأتي المولى

(27) نفس المصدر . ص 208

(28) نفس المصدر . ص 244

(29) نفس المصدر . ص 264

(30) نفس المصدر . ص 423

من الشعراء الذين مدحوا محمد الشيخ الشاعر محمد الهوزالي . ومطلع القصيدة :
بيض السيوف وسمر العوالي توطد أركان أس المال

ويصف الشاعر أحوال الاحتلال الاجنبي للسواحل المغربية :

يزيد توى جـمـوة ودلال
وفتك بيممة واغتيال
له من جند ومكر مـذال
يمرك مـرك الرهي للقتال
كان لهم يكن بينهم من رجال
ودب المدو لسوب الجبال

لماك عشوا عظيميا فلا
على كل يوم له طـلـوة
تجبح هذي البلاد بـمـا
تكنن في الناس اجمعهم
واصبح الناس في ذمول
وقد استبيحت بساططهم

ثم يخاطب السعديين :

سول مدامسة والنزال
تمادون بالتبـمـا والال
بحرب زيون وكبد مطـال
وراي مطاع ونسج احتيال
تصيد الاسود بحوك السلال

هناك بدا منكم يا بنى السر
تبانون اهل الصليب كما
نرد الى نهرهم كيدهم
وجند توى وبس شديـد
واس الحروب على خـدع

ويخاطب المولى محمد الشيخ :

بمزم بنى المصطفى خير آل
وابنائنا وخدور العيرال
يجازى بهما من يقيم البتال
تصون مهبتكم والجلال
(سوس العالة . ص 68 - 69)

ظهرت الارض من رجسهم
فلنا الامان على ديننا
جزيتم بنى المصطفى بالنسى
فلا زلتهم في ذرى عـزة

ومدحه الشاعر سعيد العايدى ايضا :

وذو العزم لم تفرغ له سن نادم
سلويا لاسلاب الاسود الفواشم
جهارا وكان السيف اعدل قائم
مسة قد امت الى مستفاتم
تصوذ ملك أرضه بالتمائم
فنت بمظلم في مبيون العظام
جمال تمسى في سلاله هاشم
(سوس العالة ص 69 - 70)

أخو العزم ان نزع ثلاث هومـه
لنت ترى في الشرق والغرب مظـه
ملك على الامداه بالسيف سيلهم
ناى حى لم تبيح عرض فريننا
كان يلك الروم وانك رسله
اذا مظاه الروم تعنو فاننا
لقد هزت بين الناس خير مدالـه

محمد الشيخ يوما ما لنجدتهم وخلصهم ، على اساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى ما شعروا باقتزابه من اسبانيا : كما ورد في مذكرة الاسباني Ignacio Kunes Oato الذي ابدى تخوفاته من ذلك (31) . وكانت هجرة (الموريسكوس) من اسبانيا الى المغرب مستمرة حيث كان المولى محمد الشيخ يستخدمهم في قواته المحاربة (32) .

اما صدى وقوع فاس بيد محمد الشيخ وتأييد معظم مناطق المغرب في لشبونة ومدريد : فالوثائق التاريخية تثبت بأن البرتغال والاسبان قد ارسلوا النجادات المستعجلة الى مراكز الاحتلال بالمغرب ، وأخذوا يترقبون تعاون السعديين والأتراك ضد المراكز المسيحية في شمالي نريقيا أولا ثم في غربى المتوسط ثانيا . خصوصا وقد تأكد لديهم تواطؤ محمد الشيخ مع الأتراك : اذ الرسالة التى بعثها من جبل طارق (Luis de Rueda) بتاريخ 6 يراير 1549 م بعد أن تعلن خبر استيلاء الشريف محمد الشيخ على فاس تشير الى أنه على اتفاق مع الأتراك . وانه يسعى لبناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية وللجهاد ضد المسيحيين بل وللعمل على استعادة اسبانيا (33) . وفي رسالة أخرى نجد بأن الشريف محمد الشيخ يملك العرائش ومعمورة وسلا وآسفى وكلها مراكز هامة على المحيط ، وبإمكانه بناء السفن في مدينة فاس وحملها الى معمورة عن طريق وادي سبو ، ولن يجد صعوبة في ذلك سيما والتجار الاجانب والفرنسيون خاصة يمكنهم أن يزودوه بمختلف المواد اللازمة لذلك (34) . وهكذا ازدادت مخاوف الاسبان والبرتغال ولم يكتفوا بتعزيز مراكز احتلالهم بالمغرب بل منعوا كل اتصال تجاري مع موانئ الشريف السعدي ، كما جاء في المرسوم المؤرخ بالتاسع والعشرين من مارس لسنة 1549 م . فالتجارة محرمة مع موانئ الشريف الا باذن خاص . ويمنع منعاً باتاً المتاجرة في البضائع المحرمة كالذهب والفضة والسلاح ، ويشترط في الأشخاص الذين يقومون بالتجارة مع المغرب أن يكونوا من أصل مسيحي وعليهم لاثبات ذلك أن يدلوا بشهادة قاضى مدينتهم وعليهم أن لا يقيموا بالمغرب أكثر من سنة ولن يسمح لهم بالعودة اليه الا بعد أن يقضوا في وطنهم شهرين على الأقل . أما البضائع فتسجل لدى قضاة الموانئ عند وضعها في السفن ليجرى تفتيشها من قبل ضباط

(31) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب - المجموعة الاولى - اسبانيا - المجلد الاول - ص 294

(32) نفس المصدر . ص 321 .

(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 451

(34) نفس المصدر . ص 229 .

الموانئ . وعلى التجار أخيرا بعد الابحار أن يقصدوا بلاد المغرب رأسا ومن خالف ذلك تنزع منه البضاعة ويحاكم (35) . ورغم كل هذه التدابير فان حركة الجهاد ضد العدو التي ما فتىء السعديون ينادون بها قد استمرت ، ومضايقة المراكز الاجنبية وتشديد الحصار عليها لم تنقطع . مما اجبر الملك البرتغالي جان الثالث على اتخاذ قرار التخلي عن مركزين آخرين هما أصيلا والقصر الصغير (36) على ان يتم الاحتفاظ بالمراكز الثلاث الباقية : سبتة ، طنجة ، ومازكان . ولا ننسى ان هذه السياسة الجديدة تتمشى وفكرة تكتيل القوى الاسبانية - البرتغالية الموجودة على ساحل المغرب الشمالي لمقاومة الخطر العثماني الذي يهدد شبه جزيرة ايبيريا وجميع غربى أوروبا ، وحتى لا تتكرر مأساة الامبراطورية البيزنطية التي نسح انهزامها المجال امام الاتراك المسلمين للسيطرة على شرقى أوروبا وبسط لواء الاسلام عليها . وهكذا كانت سنة 1549 بداية تطور هام في تاريخ الدولة السعدية الناشئة . فقد تم خلالها القضاء على الحكم الوطاسى في فاس ، واحتلال امارة دبدو ، كما سيطر في نفس السنة المولى محمد الشيخ على مجموع بلاد المغرب الغرب الشمالية والشرقية ، أي أصبحت له السيطرة على سائر بلاد المغرب . وليس معنى هذا أن الامر قد خلس له نهائيا ، اذ لا يزال هناك بعض المنافسين لحكمه ولدولته . كاخيه المولى احمد الاعرج الذي استقر بالصحراء الجنوبية وأبى حسون ومولاي عمر اللذين التجأ الى الاسبان والبرتغال وطلبا المساعدة منهم ضد السعديين .

ومما يجعل لسنة 1549 م أهمية كبرى : أن الاتراك العثمانيين أخذوا في بسط سيطرتهم على امارة تلمسان ، وبالتالي أصبحت لهم نقط اتصال وتماس مع السعديين بالمغرب .

(35) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 475

(36) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الرابع - ص 350

السعديون والقوى المجاورة

دخلت الدولة السعدية الناشئة في طور جديد من تاريخها ، اثر السيطرة التي أصبحت لها على معظم بلاد المغرب عند منتصف القرن السادس عشر ، ذلك ان القادة السعديين وجدوا انفسهم وجها لوجه امام قوى مجاورة لم يكونوا قد احتكروا بها ن قبل ، وكانت اولها الاتراك العثمانيون الذين بعد ان اتهموا السيطرة على معظم الجزائر ، اخذت انظارهم تتوجه نحو امارة تلمسان وبالتالي نحو المغرب الاقصى اتماما لاتجاههم نحو توحيد القوى الاسلامية تحت قيادة واحدة ، لهجابهة الاخطار المسيحية المتزايدة على بلاد المسلمين . اما القوة الثانية فكانت تتمثل في الاسبانيين الذين يحتلون مراكز هامة منبثة على اجزاء مختلفة من سواحل افريقيا الشمالية ، هي قواعد ضرورية ومراكز لغزو المناطق الداخلية ولتقاومة الزحف العثماني ، وصده عن هذه البلاد ، وبالتالي عن الحوض الغربى من البحر المتوسط ، حتى لا تقع الطريق التجارية الجديدة تحت رحمة الاتراك العثمانيين ، وحتى لا يقع تهديد اسلامى جديد ، لشبه جزيرة ايبيريا وغربى اوربا المسيحية .

فما موقف القادة السعديين من هاتين القوتين المتصارعتين ؟ وما هدف السعديين من اتخاذ سياسة او اخرى ؟

فعند منتصف القرن السادس عشر ، كان المولى محمد الشيخ ، قد اتم السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقى ، وكان الاتراك العثمانيون نسي التاريخ نفسهم أخذوا يبسطون سيطرتهم على تلمسان والمناطق المحيطة بها على يد الوالى حسن باشا بن خير الدين بارباروسا ، اي ان مناطق نفوذ السعديين قد أصبحت تجاور الاراضى العثمانية في الجزائر ، مما ادخل الرعب على الاسبان والبرتغال ، وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد مراكز الاحتلال المسيحى في كل من الجزائر والمغرب ، كما تكشف لنا عن ذلك التقارير والرسائل التي بعثها

حاكم وهران الاسباني comte d'Alcaudete (1) الى حكومته : فالمولى محمد الشيخ قد كتب الى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير ، وبعث بهدايا الى طرغوث باشا Dargut يقترح عليه الدخول في حرب ضد اسبانيا . ويضيف الكونت الاسباني : بان كثيرا من رؤساء البحر الجزائريين سينضمون الى امير البحر هذا ليدخلوا جميعا في خدمة المولى محمد الشيخ . وحسب رسالة اخرى نفهم بان المفاوضات التي جرت بين الحاكم السعودي وباشا الجزائر التركي كانت تتم بواسطة القائد صفا بك صديق الشريف (2) .

وتظهر جميع اتصالات محمد الشيخ بأترك الجزائر أن الحاكم السعودي كان يهدف الى قيام تعاون مشترك ضد المسيحيين الاسبان والبرتغال لتحرير المناطق المحتلة بشمالى افريقيا وخاصة الموجودة منها ببلاد الجزائر والمغرب ، مع احتفاظ السعوديين بكامل سيادتهم على المغرب . في حين ان الاتراك العثمانيين كانوا جادين في ضم المغرب بدعوى توحيد القوى الاسلامية بشمالى افريقيا ضد الاخطار الاسبانية والبرتغالية ، الامر الذي عجل باصطدام قواتهما خصوصا بعد أن بسط الاتراك نفوذهم على مدينة وجدة باب المغرب الشرقى ، في محاولة لتطويق امارة تلمسان التي كانت تعيش ايامها الاخيرة ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق ضد المغرب في قابل الايام .

ولما كان المولى محمد الشيخ حريصا على ضم المنطقة الشرقية من المغرب لاستراتيجيتها في صد كل تدخل خارجي ، فانه لم يتوان عن الاستجابة لطلب النجدة الذي تقدم به الامير الزياني اللاجيء بالمغرب احمد بن عبد الله ، من أجل مساعدته على استرداد حكمه بتلمسان والدخول في مفاوضات مع اهالى تلمسان وأشياخ قبائلها لتنظيم وسائل التعاون بينهم (3) .

وحسب الوثائق المعاصرة فان الحاكم السعودي قد استقبل خمسة عشر وجيها من اشياخ قبائل مديونة ، ووفدا يمثل اهالى تلمسان والجماعات الاندلسية المقيمة بها ، وقد أكدوا له انضمامهم اليه ومساعدته على فتح تلمسان كرها منهم للاتراك (4) .

(1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 246
(2) المصدر السابق نفسه ص 244 .
(3) م . ص . ت . م المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 1 ص 208
(4) المصدر نفسه .

وفي شهر أبريل 1549 انطلقت القوات المغربية نحو شرقي البلاد ودخلت خلال الشهر نفسه الى مدينة وجدة بقيادة محمد الحران بن محمد الشيخ ، في حين تراجعت القوات التركية عن المدينة (5) . ومن وجدة تقدم المغاربة نحو تلمسان التي دخلوها يوم 9 يونيو 1550 م والتي القبض على الامير الزياني الحسن حليف الاتراك وارسل الى فاس بينما فر اخوه عمر الى الجزائر طلبا لمساعدة العثمانيين (6) .

يعتبر الفتح المغربي لتلمسان بداية مرحلة جديدة في العلاقات السعدية - التركية لان كلا من الفريقين كان يقدر استراتيجية المنطقة واهميتها في توطيد النفوذ الداخلي والانطلاق نحو ما جاورها من البلاد .

واذا كان السعديون يرون في ضم تلمسان عاملا قويا في توطيد سيطرتهم على كل المغرب الشرقي وبالتالي لصد كل تدخل تركي في المغرب ، فان الاتراك بدورهم كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب ، لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من دور رئيسي وفعال في تهديد المواصلات البحرية الاسبانية - البرتغالية وغزوهم في عقر ديارهم .

ولهذا السبب كان رد فعل الاتراك قويا ، فقد بعث والي الجزائر حسن باشا قوات حربية تحت قيادة حسن كورسو لاجراج السعديين من تلمسان ، كما ارسل محمد الشيخ من جهته نجدات عسكرية لابنه . ونجد تفاصيل المعارك التي جرت بين الفريقين في الرسالة التي ارسلها من وهران Don Martin وفيها ان الاتراك تحاربوا مع قوات الشريف التي كانت مرابطة خارج مدينة تلمسان في اليوم الرابع من سبتمبر لسنة 1550 م : وقد انهزم المغاربة وتحصنوا بالمدينة الا ان وصول النجدات التي بعثها محمد الشيخ جعلت القائد العثماني حسن كورسو ينسحب ليلا دون ان يشعر به أحد (8) . على ان العثمانيين اعادوا الكرة ضد تلمسان حيث انهزم المغاربة وقتل أحد أبناء محمد الشيخ ، بينما أسر الثاني وقطعت يد الابن الثالث ، كما لاحق العثمانيون قوات الشريف السعدي حتى مدينة دبو (9) . ولما

(5) المصدر السابق ص 267 .

(6) المصدر السابق ص 441 .

(7) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 441

(8) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 471

(9) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 532

استولى العثمانيون على تلمسان من جديد ولوا عليها كملك مولاي عمر أحد امراء بنى زيان . اما صدى انهزام قوات محمد الشيخ امام العثمانيين في شرق المغرب الاقصى فقد كان عميق الاثر سواء بالنسبة للتوسع العثماني في شمالي افريقية او فيما يرجع لوضع الدولة السعدية الناشئة فرغم استرجاع العثمانيين لمدينة تلمسان فانهم لم يكتفوا باتخاذها كحد أقصى لممتلكاتهم : بل جعلوها نقطة انطلاق لاعمال الغزو المقبلة ، خاصة وأن قوات السعديين قد تراجعت عن كل المغرب الشرقي نحو مدينة فاس لحمايتها ولصد الخطر العثماني (10) : مما جعل احوال هذه الناحية في فوضى وفتن ، وشجع بالتالي العثمانيين على مواصلة التوسع لضم المغرب ، الجزء الذي لا يتجزأ من الشمال الاريقي .

على أن المولى محمد الشيخ لم يفت في عضده انهزام قواته امام العثمانيين فقد نظم أمره من جديد واستعد لمواجهة زحفهم ، ولم يهتم بعودة مولاي عمر الى دبدو ، الا بمقدار ما كان يرى في ذلك من تسرب لخطر خارجي وقد استطاع أن يسترجع دبدو بحملة عسكرية قادها المزوار المنصور وعبد الله بن محمد الشيخ وأن يطرد مولاي عمر الذي التجأ ثانية الى مليلية (15) . ولم يرعبه أيضا استفحال ثورة أخيه المولى احمد الاعرج بالجنوب المغربي ولا اتصالاته المريبة بالاسبان اذ ارسل حملة ضد أخيه المولى احمد الاعرج بقيادة ابنه عبد الرحمن انهزم على اثرها المولى احمد وفر نحو الصحراء وخُدمت بذلك فتنته .

وهكذا استرد المولى محمد الشيخ هيئته وظهر لخصومه مدى القوة والمكانة التي لا يزال يتمتع بهما في سائر جهات المغرب . ولعل هذا هو السبب الذي امتنعت من أجله اسبانيا عن مساعدة أبي حسون رغم اتصالاته بالامبراطور في أكسبورغ واطهار استعدادده للتخلي عن حصن (Penon) (7) (جزيرة بادس) ذي الموقع الهام بالنسبة لشمال المغرب وغربي حوض المتوسط . وعندما فشلت كل مساعي

-
- (15) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 1
(16) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الاول - ص 313
(17) جزيرة باديس او (Penon de Vallez) جزيرة صغيرة امام شاطئ المغرب الشمالي قريبة من مدينة بادس التاريخية يبلغ طولها 360 مترا وعرضها 100 متر ، وقد أصبحت اليوم شبه جزيرة لاتصال احدي جهاتها بالشاطئ المغربي . احتل الاسبان الجزيرة سنة 1508 م اثناء عمليات عزو المغرب وللحد من عمليات القرصنة التي اشتهرت بها هذه المنطقة . الا ان المغاربة استعادوا الجزيرة سنة 1522 م واتمام بها أبو حسون بعد استقراره في بادس عقب خلعه عن عرش لاس حابية قوية ، فلم تستطع السفن الاسبانية احتلالها سيما وان الاتراك قد أخذوا يترددون عليها منذ أن توجهوا الى المغرب عقب الجوادث التي جرت لهم مع السعديين .

أبى حسون في اسبانيا اتصل بلشبونة عند مطلع 1552 وطلب نجدة الملك جان الثالث الذي وجد بذلك الفرصة المناسبة لبيسط نفوذه في المغرب من جديد بعد أن انحصر النفوذ البرتغالي في بعض المراكز الساحلية اثر ظهور حركة الجهاد التي تزعمها الحكام السعديون . وقد أنجد البرتغال في النهاية أبا حسون بقوات بحرية نزل بها في خليج الحسيمة عند أوائل سبتمبر من نفس السنة ، غير أن الاسطول العثماني سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين (18) ، وسيق الجبيح كأسرى الى الجزائر ، مما أجبر أبا حسون على الذهاب الى الجزائر للملاقة واليها أمير البر (صالح رايس) والدخول معه في مفاوضات للعمل ضد المولى محمد الشيخ ..

أبدى السلطان العثماني سليمان القانوني اهتماما خاصا بالموقف السعدي من التدخل التركي بشمالى افريقيا ، واعتمادا على رسالتين مؤرختين بأول رجب 959 هـ الموافق ليناير 1552 أرسلها الباب العالي الى محمد الشيخ ، فان السلطان العثماني قد عزل حسن باشا عن ولاية الجزائر وعين مكانه صالح رايس الذي سيبدأ مع الحاكم المغربى عهدا جديدا من التعاون والتفاهم (ولما بلغ الى سمعنا الشريف أن أمير الامراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع الجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية .. صالح باشا .. ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة) (19) .

وتؤكد الاحداث أن السلطان العثماني كان يسعى الى تطمين المولى محمد الشيخ وأن الوالى صالح رايس كان مكلفا في الواقع بوضع حد لامارة بنى زيان بتلمسان وبتصفية المشكل المغربى بوجه خاص :

فما أن وصل الباشا الجديد الى الجزائر في ابريل 1552 حتى دخل في مفاوضات سرية مع أبى حسون الوطاسى وتظاهر بمساعدته بقوات عسكرية لاسترداد عرشه بفاس ، وتكشف لنا رسالة حاكم وهران المؤرخة بيوم 31 ماي 1553 م النقاب عن الصدى الذي أحدثه في اسبانيا نبا المساعدة العثمانية لآبى حسون ،

(18) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثانى - ص 36
(19) اصطباول - مصر طوبقيو - مكتبة فوغوشلر - دفتر الامور المهمة - رقم 888 - ص 9

اذ بعد ان أخبر الحاكم الاسباني حكومته بالاستعدادات الجارية في تلمسان لمساعدة ابي حسون ضد المولى محمد الشيخ ، حذرهما من مغبة التدخل العثماني في المغرب لان وصول العثمانيين الى بادس يضمن استيلائهم عليها واستقرارهم فيها ، مما سيكون شديد الخطورة في المستقبل (20) واخيرا وصلت القوات العثمانية التي جاءت لنجدة ابي حسون الى بادس وعلى رأسها والي الجزائر وما أن نزل ابي حسون في بادس حتى تلقى طاعة القبائل المجاورة للمنطقة وأخذ في اعداد قوات محاربة ، كما انضم اليه مولاي عمر ملك دبدو الذي كان لاجئا في مدينة مليبية (21) . وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني (22) ، الا ان الهزيمة لحقت بالقوات السعدية ، مما افسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل .

وقبل ان تنتهي سنة 1553 م احتلت القوات التركية مدينة تازة واشتبكت مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالي من ساحة فاس (حتى اذا كان زحف صالح رايس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور ابي حسون المريني مستغفريهم على حين ما كان الامام رضى الله عنه منفردا عن جنوده انصار الدولة بما كان اطلقهم منذ فتح مدينة فاس لمواطنهم بالسوس ومراكش . . واكتفى بجنود بنى مرين الذين اصطنعهم بمعرفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الاعراب ممن عليه المدار منهم فزحف بهم من فاس تلقاء العدو معولا عليهم في الدفاع ومعتمدا بغنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشأن الاعور بوحسون مستغفر الاتراك . . . وعندما التقى الجمعان بكدية المخالي من ساحة فاس ودارت رحى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للامام رضى الله عنه فزحزح الاتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم لم ينشب ان انفضت كتائب بنى مرين من حوله قاطبة لانطوائهم على النكث وتواطئهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقتلوا ظهر المجن للامام رضى الله عنه وقد تركوه في حومة الوغى وحده في الفئة القليلة من انصاره فكان خذلان العصاة المرينية سبب نكوصه رضى الله عنه ولحاته بمراكش) (23) .

(20) المصادر اصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 95
(21) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 41
(22) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 88
(23) الشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشريفا . ص 109 .

وتقدمت القوات التركية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها يوم 8 يناير 1554 م وحسب رسالة (Paulo Ragusso) الذي كان أسيرا بفاس وحرر بعد دخول الاتراك إليها فان دخول صالح رايس الى فاس كان بفضل انضمام انصار أبي حسون من أهالي فاس وكذا بسبب تخلى ستمائة جندي تركي كانوا في خدمة المولى محمد الشيخ (24) ، كما يطلعنا تقرير (Miguel Ortiz) على الاتفاق الذي تم بين صالح رايس وأبي حسون والذي يجعل للباشا العثماني جميع الاسرى المسيحيين بفاس وكذا كل كنوز السعديين بما في ذلك اموال أهالي سوس ومراكش (25) . ومن مجموع ذلك وجه صالح رايس للسلطان العثماني سفينتين مع العلي على (26) في حين وضعت قوات عثمانية في أهم الموانئ المغربية (27) .

أما استقبال أهالي فاس لأبي حسون فقد كان عظيما ، وقد جاء في الخطبة التي القاها العالم الزقاق قوله (هذا بقية أمرائكم الذين شيّدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس والقناطر وقاموا بأمر الدين والدنيا) (28) .

وباستقرار مولاي عمر في دبدو وأبي حسون بفاس ، ساد النفوذ التركي في شرقي المغرب ومناطقه الوسطى ، وازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) الى الامبراطور الاسباني (شارلكان) ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد الاتراك لاقدامهم في هذه البلاد ، لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الامتئين (29) .

ومن جهة أخرى لقد حرص الاتراك وهم بفاس على اغتنام الفرصة للاطاحة بأبي حسون الوطاسي واعلان بيعة السلطان سليمان القانوني (ولما رأى الترك محاسن البلاد ومنعتها . فلما اجتمعوا بفاس الجديد ادعوا لانفسهم وقبضوا على السلطان أبي حسون المريني وقبضوا على خاصته وسدوا أبواب فاس الجديد

24 م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 160

25 المصدر السابق . ص 139

26 المصدر السابق . ص 148

27 المصدر السابق ص 151 .

28 المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة التيمورية . ص 19 .

29 م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ، ص 171

وأخرجوا أهلها فبلغ الخبر لاهل فاس البالى فخرجوا واطلعوا بالشواقر والنيسان
والسلامم لفاس الجديد فاشرف الترك من اسوار المدينة . . فخافوا . . فعند ذلك
فتحوا الباب ودخل الناس الى السلطان ثم أرسل الى كبراء الترك والرؤساء منهم
وأمرهم بالخروج وتبعتهم محلثهم (30) .

وبجلاء القوات التركية عن فاس ورجوعها الى الجزائر أصبح أبو حسون
يواجه خصمه المولى محمد الشيخ الذي جمع قوات من (الحوز والسوس وأتى بجر
الامم الى أن نزل براس الماء فخرج له أبو حسون بأهل فاس وعرب أهل الريف
ووقع الحرب بقرب عميرة أياما ثم ان الشيخ رتب له بالليل كميناً من الرجال مع
الوادي ولما وقع الحرب خرج الكمين خلفهم فانهزموا وقتل أبو حسون وأكثر من معه
من أهل فاس (31) وأهل الغرب والريف ثم دخل فاسا الجديدة وقدم عليه فتهاء
فاس وأشرفها يطلبون الامن فأمنهم وقبض على من تعين له فساده . . كالزقاق
والونشريسى وعلى حرزوز فقيه مكناسة فقتلهم (. وقد قال بعد قتلهم : الآن
تمهد لنا الملك فى المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة الونشريسى والزقاق بفاس
وحرزوز بمكناسة ، فانهم كانوا يقطعون امعانا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة
عند الاكابر (32) .

وقد تم للمولى محمد الشيخ فى هذه السنة أيضا اعتقال أخيه المولى احمد
الاعرج الذي لم يفتأ قائما بالثورة فى الجنوب المغربى منذ انهزامه (الى ان كان من
اجلاب عرب اليمن أهل مجالاتها عليهم باغراء الامام والنياب احوالهم الى حين القبض
عليهم وخمود ذبالتهم باستئصالهم) (33) ، كما استعاد مدينة دبدو التى فر عنها
مولاي عمر والتجأ من جديد الى الجزائر (34) . وبمقتل أبى حسون الوطاسى وأسر
المولى احمد الاعرج استقرت الاوضاع الداخلية نسبيا للمولى محمد الشيخ (حتى
إذا أتحت له الكرة على أبى حسون فقتله واستاصل جموع بنى مرين . . وفتح
فاسا فتحا نانيا واستولى على كرسياها) (35) .

30) الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 20 .

31) المصدر السابق ص 21 .

32) المصدر السابق ص 31 .

33) مناهل الصفا ، ص 74 .

34) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، اسبانيا ، ج 2 ص 327

35) مناهل الصفا ، ص 109

التقارب السعدي - البرتغالي - الأسباني

يمكن القول بأن حادثة استعادة فاس الى حكم السعديين في 23 سبتمبر 1554 م ، كانت نقطة تحول هام في تاريخ الدولة السعدية الناشئة : فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للاتراك العثمانيين ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب ، بل والاكثر من ذلك انه أعلن اثر دخوله فاس متنصرا بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة الاتراك هناك (1) ، فهذا التناغم السعدي - العثماني على شمال افريقية - بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الاسبان والبرتغال ، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقاربا بين هؤلاء جميعا ضد الاتراك العثمانيين . وأول وثيقة في النصوص التاريخية نستدل بها على هذا التقارب هي الرسالة التي وجهها الملك جان الثالث الى ضابط مازكان البرتغالي (Alvaro de Carvalho) في شهر يونيه 1554 : جوابا على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لهده بقوات عسكرية ضد الاتراك (2) . وفي هذه الرسالة أيضا نجد تحديدا لبعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين : كتسليم بعض المراكز المغربية البحرية : كبادس، وبنين ، والعرائش . ثم تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته . وأخيرا يختم الملك رسالته بضرورة اخبار الامبراطور الاسباني بذلك (3) .

ونتيجة لهذا التقارب ، فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع سنة 1555 : وان ظل في الواقع مفعول هذه الهدنة زمنا طويلا (4) .

-
- (1) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 181 - اسبانيا
 - (2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 270 - اسبانيا
 - (3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 20 - البرتغال
 - (3) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الخامس . ص 20 - البرتغال

وإذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين ، فإن المزوار المنصور بن بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بهذه المهمة، وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد : تلك التي بعثها الى حاكم وهران الاسباني (Comte d'Alcaudete) عند مطلع يناير 1555 : وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله وأنه اعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه المولى عبد الله اللذين اعربا عن سرورهما لمقدم وفد اسباني الى فاس للتفاوض معه (5) . وقد ارسل حاكم وهران فعلا الى فاس وفدا يتألف من ثلاثة اشخاص (6) جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول تهيب حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد الاتراك (7) وقام العثمانيون كرد فعل على التقارب السعدي الاسباني البرتغالي بتشديد الحصار ضد وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان اداة الاتصال بين فاس ومدريد الا أن جميع جهودهم فشلت نتيجة للنجادات المتواصلة التي كانت اسبانيا تبعثها الى المدينة المحاصرة . وبعد أن فشلت خطة الاستيلاء على وهران فكر الاتراك في ارسال وفد الى فاس ليقترح على المولى محمد الشيخ الهدنة والسلم (11) .

ويؤكد هذا ما جاء في الرسالة التي أرسلت من مازكان الى لشبونة بتاريخ العاشر من مارس 1557 م . وفيها بأن الشريف السعدي قد استقبل في مراكش سفيرا تركيا جاء يقترح عليه السلم ويعدده بمساعدة السلطان العثماني لمحاربة المسيحيين ، بشرط أن يعترف الحاكم السعدي بالسيادة العثمانية وأن يضع اسم السلطان في سكوته (12). وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول نجد تفاصيل السفارة التركية المذكورة (فانه لما كان محمد الشيخ بفاس وفد عليه رسول للسلطان سليم ليهنئه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والمحبة والخدمة والميل اليه والرغبة فيه وأنه في نصرتهم . فسكت ولم يجبه بشيء وبقي عنده الى أن طال جلوس الرسول فطلب منه أن يسرحه فقال له محمد الشيخ : سلم على أمير القوارب سلطانك وقتل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر والسلم (13) .

(4) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . المجلد الثاني . ص 220 - اسبانيا

(5) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني ص 181

(6) كان الوفد الاسباني مكونا من ثلاثة أفراد هم :

نفس المصدر السابق . ص 208 .

(11) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 382

(12) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الخامس - ص 55

(13) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول ، ص 27

ومن هذا الجواب نستدل على الاستياء الذي كان يشغره به المولى محمد الشيخ من جراء التوسع التركي في شمالي افريقية ، ونرى فيه دليلا قويا على ان الحاكم السعدي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية . كما يعكس لنا الجواب ايضا مدى طموح المولى محمد الشيخ الذي كان يحلم بامامة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها . وقد أكد هذا الجواب للسلطان العثماني أخيرا صحة تواطؤ السعديين مع الاسبان والبرتغال : الامر الذي جعله يرسل قوات عسكرية الى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب ، وذلك كما جاء في رسالة موجهة من سبتة الى لشبونة بتاريخ الثالث من يونيه 1557 م (14) . غير أن الباب العالي سرعان ما عدل عن فكرة غزو المغرب عسكريا ولعل ذلك بعد التأكد من الهدنة السعدية - الاسبانية - البرتغالية ، والتجأ الى تدبير مؤامرة اغتيال محمد الشيخ، سيما وأن هذا الأخير كان قد اتخذ حرسه الخاص من الاتراك (ولما كان محمد الشيخ بفاس سمع بخبر الفرقة الذين تخلفوا من محلة الترك فجمعهم وضمهم الى عسكره وكانوا نحو الاربعمائة فقدم عليهم كبيرهم صالح اغا وأعطاهم السلاح والكسوة وكلفهم بالسير مع قببه وأثقاله فكانوا اذا نزلوا يدورون بمبانيه ويمسكون عليه في السفر . ولما بلغ مراكش أنزلهم بجوار قصره وفوض اليهم في حرس بابيه وبالغ في الاحسان اليهم لما ظهر له من نجدهم وصدقهم فصاروا أقرب الناس اليه وكلما رأى من احدهم نباهة تريبه اليه حتى كان الكثير منهم في خدمته بداخل القصر ويجالس انسه وجعل منهم أصحاب مراكبه وحجاب أبوابه وأخص الناس به) (15) ولأجل هذا سهل على الباب العالي تنفيذ مؤامرة اغتيال محمد الشيخ عن طريق ارسال جماعة من الاتراك وصلت الى المغرب وانضمت الى الحرس الخاص مظهرة الطاعة والاخلاص الى أن سنحت الفرصة فاعتالت محمد الشيخ خلال احدى الاسفار التفقدية لتارودانت زوال يوم الاربعاء 27 ذى الحجة عام 964 للهجرة الموافق 23 اكتوبر 1557 م . ولم يكن المولى محمد الشيخ قد عقد بعد اتفاقية التعاون مع الاسبان حول الحملة المشتركة ضد الاتراك العثمانيين بشمالى افريقية (16) .

(14) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 420

(15) الترجمان المغرب . للزياتى . مخطوط ، ص 347 .

(16) دولردان : مراكش . ص 83

ولقد كان اغتيال المولى محمد الشيخ من قبل حرسه الخاص التركي بداية تطور هام للأحداث المقبلة بالمغرب ، وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية الناشئة، إذ لم يعد هناك أي مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب ، لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الإفريقي فحسب ، بسبل ولاهيمته الاستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد إسبانيا والبرتغال ، وقد دفع هذا الملك السعدي الجديد إلى التقرب من جديد من أعداء العثمانيين ، كما أن الإسبان والبرتغال تمد ازدادوا تقريبا من المولى عبد الله لصد الخطر التركي الداهم . وإذا علمنا زيادة على ذلك بأن المولى عبد الله كان الساعد الأيمن لوالده المولى محمد الشيخ ، وأنه شارك في جميع المفاوضات السرية التي دارت بين الإسبان والبرتغال وبين والده لاقرار السلم ولتهدئة حملة مشتركة ضد العثمانيين ، أدركنا منذ الآن الخطوط البارزة للسياسة التي سينهجها المولى عبد الله بالنسبة لعلاقاته مع الإسبان والبرتغال وكذا مع بقية دول أوروبا ، هذه السياسة التي يسعى من ورائها إلى توطيد أسس دولته وتثبيت دعائمها ، والعمل على رد أي غزو عثماني للاراضي المغربية في المستقبل .

بويح المولى عبد الله بفاس عندما بلغه خبر نعي والده ، واتخذ كلقب له الغالب بالله ، وقد كان عليه لتستقر له الأحوال الداخلية أن يأخذ ثأر أبيه من قتلته الأتراك وأن يخضع بعض الثورات التي أخذت تظهر في بعض نواحي البلاد عقب نبا اغتيال والده المولى محمد الشيخ . وقد قصد فعلا مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من الأتراك الذين دبروا مؤامرة اغتيال والده (17) . كما قضى على ثورة بسوس تزعمها أخوه المولى عثمان خلال يراير من سنة 1558 م (18) . ثم عاد سريعا إلى فاس لتهدئة القوات المحاربة لصد الحملة العسكرية التي يقودها حاكم الجزائر الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد ، سيما وأن ملك دبدو مولاي عمر الملتجئ إلى الجزائر لم يفتأ يحث الوالي على غسزو المغرب والسيطرة عليه (19) . وقد جرت أخيرا معركة حاسمة بين قوات الطرفين يوم السبت الثاني من أبريل لسنة 1558 م قرب وادي اللبن حيث دارت الدائرة على

-
- (17) الدولة السعدية للمؤرخ المجهول . ص 32 .
(18) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . البرتغال . المجلد الأول - المقدمة
(19) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . إسبانيا . المجلد الثاني - ص 433

القوات العثمانية التي فرمت نحو الجبال المجاورة الا ان المغاربة اقتتوا اثرها وهزموها في جبال الورا كما استولوا على غنائم كثيرة . واما باشا الجزائر وملك بدو فقد انسحبا مع بعض القوات نحو مدينة بادس (20) . ويظهر ان حاكم وهران الاسباني قد حاول اغتنام فرصة انهزام القوات العثمانية بالمغرب لكسب نصر عسكري في الجزائر ، فقد قام بهجوم مفاجيء على مدينة مستغانم الا ان محاولته بساعت بالفشل اذ تكبدت القوات الاسبانية المهاجمة خلال غشت 1558 م خسائر فادحة وكان الكونت الاسباني من بين قتلى المعركة (21) . ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فان العثمانيين لم يعد لديهم ادنى شك في تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الاسبان : الشيء الذي جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين .

فعندما ثار المولى عبد المومن اخ المولى عبد الله وخليفته على مراكش خلال ديسمبر من سنة 1558 م واستنجد به بالجزائر فان الحاكم لم يمد يده باية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه باحدى بناته ثم ولاه على مدينة تلمسان (22) .

وهكذا تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية الى مقاومة التوسع العثماني في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك باعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم والمحافظة على احوال السلم معهم . وقد دعت سياسة المهادنة هذه مع المسيحيين الى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض دول اوربا الغربية كالمملكة الفرنسية التي استقبل سفيرها (23) وحمله الى الامير Antoine de Bourbon رسالة يعبر له فيها عن استعدادها للاستجابة للمطالب الفرنسية (24) ثم عقد مع هذا الاخير معاهدة في يولييه 1559 م تقضى بتنازله عن مرسى القصر الصغير للفرنسيين مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربي وارسال

20 المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 445

21 المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . اسبانيا . المجلد الثاني - ص 470

22 المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . البرتغال . المجلد الاول - المقدمة

23 كان السفير الفرنسي Melchoir d'Azvedo من اصل برتغالي ، وقد كان كوكيل لملك ناسار في المغرب . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا ، حاشية ص 177)

24 م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 170

فرقة عسكرية تكون بمثابة الحرس الخاص للغالب بالله — ولعل ذلك راجع الى عدم الثقة التي أصبحت له في الحرس التركي بعد اغتيال والده ، كما تنظم المعاهدة التجارة بين البلدين وتقر حال السلم بينهما (25) . ونحن اذا تساءلنا عن السير الذي دفع فرنسا الى التقرب من المغرب ومطالبة الغالب بالله بالتنازل للفرنسيين عن ميناء القصر الصغير ، نجد بأن ذلك يرجع في مجموعه الى ما كانت عليه العلاقات بين دول اوربا الغربية بوجه عام والعلاقات الفرنسية — الاسبانية بوجه خاص ، فمعاهدة (Cateau - Cambrésis — 3 أبريل 1559 م) التي أنهت الحرب الإيطالية وان أوقفت النزاع بين البلدين لفترة من الوقت فان فرنسا لم تقفنا بعيداً عن حلفاء يمكنها الاعتماد عليهم اذا ما تجدد النزاع مع اسبانيا ، خصوصاً وان فيليب الثاني الذي خلف والده شارلكان على عرش اسبانيا ومستعمراتها قد أصبح له نفوذ قوي في اوربا : لان المعاهدة السابقة قد دعمت نفوذ اسبانيا في ايطاليا وجزر الاراضي المنخفضة مما يهدد في كل آونة فرنسا التي أصبحت مطوقة تقريبا بممتلكات التاج الاسباني . وقد تقربت لاجل ذلك فرنسا من بريطانيا عن طريق مشروع زواج بين الاسرتين الحاكمين كما أخذت في التقرب من المغرب البلد الاسلامي ، مستغلة الروابط الحسنة التي تربط فرنسا والسultan العثماني منذ عهد فرانسوا الاول وسليمان القانوني . وما من شك في أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه ضد اسبانيا ، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الاستراتيجي الذي لا يبعد الا ببضع كيلومترات عن جبل طارق وعمس الاراضي الاسبانية منطقة هامة يمكن اتخاذها لغزو اسبانيا في اراضيها ولتهديد المواصلات الاسبانية في حرب قادمة .

والوثائق التاريخية لا تحفظ لنا في هذا الموضوع الا رسالة موجهة من فرانسوا الثاني ملك فرنسا الى عمه انطوان دوربون ملك نافار ، يخبره فيها بأنه اطلع بواسطة السفير الاسباني على الاستعدادات القائمة من قبل القراصنة في موانئ Guienne وأنه يلح عليه بشدة لئبذل كامل جهوده حتى لا يقع أي ضرر ضد الاملاك الاسبانية (26) . ويظهر بأن هذه الرسالة لم تكن الا تطيناً للسفير الاسباني في فرنسا لان فرانسوا الثاني كان يعلم مقاصد عمه الرامية الى اتخاذ مراكز

(25) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 178
(26) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول — ص 199

هامة في المغرب كما كان يؤيد ذلك سرا (27) . وأن مسألة العلاقات الفرنسية المغربية لتزداد وضوحا اذا ما علمنا بأن انطوان دوبوريون احد افراد الاسرة المالكة في فرنسا ، قد اعتنق المذهب البروتستانتي وأصبح زعيم البروتستانت في فرنسا ، فلا عجب اذا راينا انطوان هذا يقوم بمحالفة المسلمين والتعاون معهم من مغاربة وغيرهم ضد الامبراطور فيليب الثاني الذي نصب نفسه حامى الكاثوليكية في أوروبا وعزم على القضاء على المذاهب المخالفة لها .

وكما عقد المولى عبد الله الغالب بالله مع الفرنسيين معاهدة قبل فيها بالتنازل لهم عن مرسى القصر الصغير ، فقد تخلى فعلا للبرتغال عن مازكان بعد أن كاد المغاربة أن يفتحوها . وتحدثنا احدي الوثائق التاريخية عن حصار القوات المغربية للبرتغاليين في مازكان فتشير الى أن الغالب بالله كان قد جمع قوات جرارة وجعل على رأسها ابنه مولاي محمد الذي وصل يوم الرابع من مارس لسنة 1562 م أمام المدينة المذكورة وقام بحصارها نحو شهرين لم تحدث خلالها اية مناوشة بين الطرفين ولكن في اليوم الثلاثين من ابريل هاجم المغاربة المدينة ووقعت معركة دامية ، ونضيف الوثيقة بأن المجلس الملكي البرتغالي كان قد عزم على اخلاء مازكان عندما علم بأمر حصارها ، لولا أن القوات المغربية قد انسحبت في آخر لحظة (28) . وفي تاريخ الدولة السعودية للمؤلف المجهول نجد السبب الذي تراجعت من أجله القوات المغربية عن مازكان : (فالقائد على بن تودة كاد احتلال البريجة فأمر السلطان بالتراجع عنها فعاد اليها التصارى بعد ما ركبوا البحر وأدوا له بعد رحيل المحلة عنهم مالا عريضا وهدية جميلة وكانهم اشتروها منه) (29) .

أما بالنسبة لاسبان فقد أطلق الغالب بالله يدهم في احتلال جزيرة بـادس Penon de Vallez التي كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته ضد المولى محمد الشيخ السعدي . وهذه الجزيرة كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق ومالقا وانها كانت بالنسبة للقراصنة ميناء هاما حيث كانت الخسائر التي تلحق التجار الاسبان والبرتغال من قرصنة جزيرة بادس تتجاوز العد كل سنة ، وهذا ما دفع الاسبانيين الى احتلال الجزيرة

(27) نفس المصدر . حاشية صفة 199 . وحسب المعاهدة السابقة فان الامر يتعلق بملك نامار وملك فرنسا ايضا

(28) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - ص 231

(29) تاريخ الدولة السعودية للمؤلف المجهول ، ص 37

المذكورة . والرسالة التي وجهها السفير الفرنسي في مدريد Saint Sulpice الى الملك شارل التاسع تعد أهم وثيقة تكشف لنا حال جزيرة بادس زمن احتلال العثمانيين لها (1558 — 1562 م) ومدى الدور الذي قام به قراصنتها ضد السفن التجارية الاسبانية والبرتغالية . فبعد ان أشار السفير الفرنسي الى أهمية الجزيرة وموقعها الاستراتيجي سواء بالنسبة لساحل المغرب الشمالي او بالنسبة للسواحل الاسبانية تطرق الى الاعمال التي كان يقوم بها يحيى رايس الذي عينه حاكم عام الجزائر حسن باشا واليا على الجزيرة : فيحیی رايس أصبح يلقب بسيد المضيق Seigneur de Détroit ولم تكن أية سفينة لتستطيع العبور دون اذن منه . وقد عم الخوف سكان الساحل الاسباني لدرجة ان هؤلاء لم يكونوا يزرعون اراضيهم الا بكل حذر ، وغالبا ما كان القراصنة العثمانيون يحاصرونهم اثناء عملهم ويأخذونهم كاسرى ، وكذلك الصيادون فلم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيرا عن الشاطئ .

ويضيف الدبلوماسي الفرنسي في رسالته بانه خلال الخمس سنوات التي تولى فيها يحيى رايس امر الجزيرة أسر عددا كبيرا من السفن وسلب الكثير من المسند الاسبانية الساحلية وجمع نحو اربعة آلاف أسير من المسيحيين . وعندما عاد الى الجزائر حمل معه اربع سفن محملة بالغنائم واربعمائة مسيحي ومائتي الف دوكة (30) . وجزيرة بادس بالاضافة الى ذلك كانت مثار رعب وخوف لدى الغالب بالله (اذ خاف السلطان أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد الى المغرب : فاتفق مع سلطان النصارى أن يخلي لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنتطع مادة الترك من تلك الناحية ، وعندما جاء النصارى الى بادس استنجد سكانها بالسلطان لعدم علمهم بصنعه سرا وقد نادى بالجهاد ولكنه عندما جاءهم خبر احتلال النصارى بادس تراجعوا وارتحل السلطان الى مراكش وتنهأ من الترك من تلك البلاد) (31) .

وقد فشلت المحاولة الاولى التي قام بها الاسبان لاحتلال الجزيرة خلال سنة 1563 م ، فالاسطول الاسباني غادر مالقا يوم الثاني والعشرين من يولييه (1563 م) ووصل الجزيرة يوم 28 منه ، فانضم اليه حاكم مليلية بقواته العديدة، وما أن رأى سكان بادس ذلك حتى فروا الى الجبال في حين ان القوات الاسبانية

(30) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، برنسا ، ج 1 ، ص 243
(31) تاريخ الدولة السعدية . ص 37

المؤلفة من أربعة آلاف رجل قد نزلت على بعد ميلين من الجزيرة وتوجهت نحو بادس التي وجدها خالية . وقد ظل نحو ثلاثمائة جندي اسباني يحرسون الاسطول حيث فاجأهم ستون مغربيا وهزموهم كما أن فرقتين أعيدتا من بادس نحو الاماكن التي يرسو بها الاسطو فهزهما المغاربة أيضا ، وعندما كان اليوم التالي تجمع المغاربة حول المناطق المجاورة في حين أن القوات الاسبانية لم تجد بدا من الانسحاب ، وقد عادت الى مالقا في الثاني من غشت بعد أن خسرت نحو ثلاثمائة رجل (32) . على أن الاسبان قد أعادوا الكرة ضد الجزيرة في السنة التالية واستطاعوا بمؤازرة قوات برتغالية من احتلالها في اليوم السادس من سبتمبر لسنة 1564 م حيث عم الفرح كل بلاد اسبانيا والبرتغال ، لان قراصنة الجزيرة كانوا يتسببون للملكتين الاسبانية والبرتغالية في خسائر فادحة (33) .

ومن الجدير بالذكر هو أن البحرية المغربية قد عرفت نشاطا متزايدا منذ الاحتلال الاجنبي للسواحل المغربية ، هذا الاحتلال الذي لم يكن في الواقع سوى سلسلة من غزوات النهب والتخريب فانقلبت معه الحركة البحرية المغربية الى كفاح وطني ضد المعتدين وادت مقاومتها الى فشل السياسة الاسبانية — البرتغالية في افريقية ، مما كان له كبير الاثر في تغيير مجرى تاريخ القارة الافريقية خلال مطلع عصور التاريخ الحديث (34) . الا أن احتلال الاسبان لجزيرة بادس انزل ضربة فاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لاساطيل الغزاة المسيحيين سيما وقد تبع ذلك اقدام اسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطوان خلال نوفمبر من نفس سنة 1564 م وقيامها باغلاق مصب نهر تطوان عن طريق اغراق سفن محملة بالحجارة حيث أصبح من المتعذر على السفن التطوانية اجتياز المصب (35) وبديهي أن عملا كهذا من شأنه أن يؤثر على وضعية تطوان التي ازدهرت منذ نشأتها لاعتمادها على النشاط البحري (36) .

وفي نطاق التقرب من دول أوربا ، نجد الغالب بالله يسمى الى توطيد علاقاته مع ايليزابيت ملكة انجلترا التي سرعان ما استجابت لذلك خصوصا وأن التجار الانكليز كانوا يجنون من وراء التجارة مع المغرب أرباحا طائلة منذ عهد

-
- (32) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ج 1 ، ص 55
(33) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - ص 264
(34) تطوان العدد 2 ، ص 65
(35) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول ، هاشية صفة 284
(36) تطوان العدد 2 ، ص 127 .

مبكر (37) . ولان انجلترا آتتذ كانت في حالة حرب ضد اسبانيا بسبب اقرار ايليزابيت العتيدة البروتستانتينية في بلادها وللتأييد المطلق الذي اظهرته الملكة الانجليزية اتجاه البروتستانت في فرنسا وفي الاراضى المنخفضة التي ثارت لطلب الاستقلال عن اسبانيا وحكم فيليب الثانى خصم ايليزابيت اللدود . وليس مسن المستبعد ان تكون ايليزابيت التي كانت تنشد العزة والمجد لبلادها قد ادركت مدى اهمية المغرب ومدى الاستفادة من موقعه سواء في حروبها ضد اسبانيا أو للمتاجرة مع بلدان غربى افريقيا ذات الموقع الستراتيجى المشرف على طريق التجارة العالمية آنذاك . فقد كتب الغالب بالله الى الملكة ايليزابيت يوصيها باحد التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة في موانئ المغرب حتى لا تتعرض السفن الانكليزية لتجارته ، واغتنم هذه الفرصة ليعبر للملكة الانجليزية عن استعداده لتلبية جميع رغباتها (وكل ما يتعرض لكم من المآرب والاغراض يقضى لكم على اكمل المراد ان شاء الله) (38) . وقد استجابت الملكة الانجليزية لطلب الغالب بالله وبدا بذلك عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المغرب وانكلترا .

وهكذا اندفع الغالب بالله في سياسة التقرب من دول أوربا الغربية

37) ترجع العلاقات التجارية بين المغرب وانكلترا الى وقت مبكر : فقد كان التجار الاوربيون عامة والانجليز خاصة يقومون بالمتاجرة مع المغرب وغربى افريقيا رغم ادعاء البرتغال حق احكار التجارة مع هذه المناطق واضطهادهم للذين يحدونهم في عرض المحيط الاطلسى او بالسواحل الافريقية الغربية بل واحراق سفنهم او اغرقها احيانا (في طلب التوابل ص 280) . وقد كانت لشاطيء المغرب الاطلسى خلال القرن 16 م اهمية كبرى لوتوعه على طريق التجارة العالمية ولان الاساطيل العائدة من الشرق الاتصى والمحملة بالتوابل والكنوز الثينة الى اسبانيا والبرتغال كثيرا ما كانت تنعرض للقراصنة الذين كانوا يجدون في هذه الشواطى مكان لا نظير لها (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب المجموعة الاولى فرنسا . المجلد الاول . ص 285) . وبالإضافة الى ذلك فقد اشتهرت بلاد سوس بزراعة قصب السكر الذى كان التجار الاوربيون يتهاثرون على اقتنائه ، وتجارة السكر لعبت دورا هاما في توطيد دعائم الدولة السعدية حيث ان الحكام السعديين الاولين كانوا يشجعون هذه التجارة التى تدر عليهم نحو 7500 مثقال زهبا كل سنة ويشترون بثمنها الاسلحة وذخائر الحرب التى طلبها استعملوها في حروبهم ضد البرتغال والاسبان (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول . ص 303) . فالقيام بالقرصنة وشراء سكر سوس شجعنا التجار الاوربيين ومنهم الانكليز على المجيء الى الشواطى المغربية الاطلسية والمتاجرة مع البخارية سيما وان وضعية البرتغال بالمغرب قد أخذت تضعف منذ منتصف القرن 16 م . وحسب الوثائق التاريخية فان الانكليز كانوا يجنون الارباح الطائلة من تجارتهم مع المغرب اذ كانوا يشترون من المغرب السكر واللوز والذهب المسحوق الذى يستعملون منه النقود الذهبية مقابل بيعهم الاسلحة والثياب الملونة (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول - ص 62) ، ورغم احتياج البرتغال على أعمال التجارة التى كان الانكليز يقومون بها مع المغرب فان الملوك الانجليز لم يكونوا يعبئون بذلك بل على العكس فقد شجعوا التجارة مع الخارج وبناء الاساطيل البحرية . وقد اجابت مرة الملكة ايليزابيت السليبر البرتغالى في لندن بانها تستغرب كثيرا من ادعاءات البرتغال بخصوص التجارة مع المغرب لان الجميع يعلم بأن الممالك الثلاث نفاس ومراكش وسوس تخضع كلها لحاكم مستقل سمح هو نفسه للتجار الانكليز بالمتاجرة مع بلاده . (المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . بريطانيا . المجلد الاول - ص 123)

38) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 98

المسيحية والعمل على مهادنتها ، بدافع الخوف من الخطر العثماني الذي كان يهدد في كل آونة المغرب من جهة حدوده الشرقية . واتجاهه هذا هو الذي يفسر لنا موقفه الحقيقي من الثورة التي أعلنها الموريسكوس بجمال البوشرات بغرناطة بعد أن أعلنوا بيعة محمد بن أمية ملكا عليهم (39) .

فالعالم بالله وان بذل الوعود لرسول الثوار بأن يناصر ثورتهم فقد ظل في الواقع محافظا على الروابط الودية التي كانت له مع فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وعلى العكس من ذلك فقد عمل في الخفاء ضد الموريسكوس (وأما أهل الأندلس وغشاه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه مثل ذرة من الإيمان .. فقد أمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصارى تراخى عنهم وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم منه بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه) (40) . وانتهت ثورة الموريسكوس أخيرا بتوقيع اتفاق يسمح لهم بموجبه بالخروج إلى المغرب أو غيره من بلدان شمالي أفريقيا ، وقد جاز منهم عدد كبير إلى المغرب كما جاء في رسالة السفير الفرنسي في مدريد إلى الملك شارل التاسع (41) .

أما بالنسبة لموقف العثمانيين من المولى عبد الله ، فقد اكتفوا بإسواء المعارضين لحكمه بعد أن فشلت الحملة العسكرية التي قاموا بها ضد المغرب

(39) الموريسكوس : Moriscos هم المسلمون الذين ظلوا بإسبانيا بعد ذهاب دولة الإسلام عنها ، وقد كانوا مثالا للنشاط والعمل ، وبعد سقوط غرناطة أظهر فرديناندو وإيزابيلا بعض التسامح معهم إلا أن ذلك لم يدم طويلا إذ ما أن تأسست محاكم التفتيش حتى تعرض هؤلاء لأشد أنواع التعذيب والإضطهاد . الشيء الذي جعلهم يفتنمون كل الفرص للثورة ومكاتبه الأتراك في الجزائر والسعديين في المغرب لمساعدتهم (تطوان المجلد الأول ، ص 165) . وقد قاموا بثورة دامية في نهاية 1568م بغرناطة ونادوا بالدون Don Fernando de Valor الذي تلقب بمحمد بن أمية ملكا عليهم . وأهم الوثائق التاريخية التي تتحدث عن ثورتهم هي الرسائل التي بعثها سفير فرنسا في مدريد إلى حكومته : فقد جاء في أحدها بأن الموريسكوس في غرناطة قد ثاروا وأن فيليب الثاني قد هيا قوات لخماد ثورتهم كما تعرض للمساعدات التي يطلقها الموريسكوس من باشا الجزائر وسلطان المغرب (المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . فرنسا . المجلد الأول - ص 286) وفي الثانية أن ثورة الموريسكوس قد سادت نجاحا عظيما وأن فيليب الثاني قد سلح ثلاثين سفينة لبرابرة شواطئه غرناطة قصد منع أية مساعدة قد ترسل إلى الثوار (نفس المصدر ص 288) . وفي الثالثة لقد اغتيل محمد بن أمية وتولى مكانه عبد الله بن عبو (نفسه ص 290) .

(40) تاريخ الدولة السعوية . ص 38 .

(41) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الأولى . فرنسا . المجلد الأول - ص 318

غداة تولية الغالب بالله ، وبعد أن ثبت لديهم تعاونه مع المسيحيين والروابط القوية التي أصبحت له معهم . ومن بين أولئك الذين عارضوا المولى عبد الله والتجأوا الى العثمانيين بعض اخوته الذين رفضوا التسليم لابنه محمد بولاية العهد ، مما دنع الغالب بالله الى التخلص منهم عن طريق الاغتيال ليرث ابنه العرش بعده ، وقد قتل فعلا ثلاثة من اخوته بينما فر الباقون الى خارج المغرب (42) .

واذا تساءلنا عن الاسباب التي حالت دون اغتنام السلطان العثماني فرصة استنجاد اخوة المولى عبد الله به لبسط السيطرة التركية على المغرب ، نجد ان ذلك يرجع الى تعاون الغالب بالله مع الدول المسيحية الحديثة من جهة ، والى الهزيمة الكبرى التي لحقت القوات البحرية العثمانية في معركة ليبانتسو (Lepanto) من جهة اخرى . فقد عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني وجمهورية البندقية معاهدة يوم 20 ماي 1571 م للقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين الذين يرجع لهم الفضل في احياء مجد الاسلام وتأسيس امبراطورية اسلامية واسعة الارحاء تضم قسما كبيرا من اوربا ومعظم الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، والذين ما فتئوا يهددون المسيحية في عقر ديارها . لسعيهم المتواصل الى اتمام السيطرة على الحوض الغربي من البحر المتوسط ، حتى يسهل عليهم تطويق اوربا الغربية وانزال الضربة الحاسمة بها . وقد جرت معركة حربية كبرى خلال اكتوبر من نفس السنة بخليج كورنت بالجزر اليونانية انتهت بانهزام الاسطول العثماني . وما ان علمت اوربا المسيحية بنبا النصر العظيم حتى اقيمت الحفلات وكل معالم البهجة والفرح . وهذه المعركة تعد حقا نقطة انطلاق بالنسبة لاوربا الغربية المسيحية التي لن تجد في قابل الايام قوة تناهضها وخاصة في العالم الاسلامي ، لان معركة ليبانتو كانت بداية النهاية بالنسبة للعثمانيين الذين دخلوا منذ هذه الواقعة في مرحلة جديدة اخذوا معها موقف الدفاع بعد ان كانوا يقومون بالهجوم .

(42) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب . المجموعة الاولى . فرنسا . المجلد الاول - حاشية صفحة 477

وإذا كان الحلف المسيحي لم يستمد من انتصاره في (ليبانتو) بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد الاتراك ، فان الاسبانيين والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمالي افريقيا ووضع حد للوجود التركي بها ، وحسب هذا المخطط هاجم الاسبان تونس 1573 وتمركزوا بأهم قواعدهما الا ان التدخل العثماني وم ابداه المجاهدون في تونس انتهى بانهزام الاسبانيين في معركة حلق الوادي عام 1574 م ودخلت تونس نهائيا في طاعة السلطان العثماني .

وقد وافق انتصار العثمانيين بتونس وفاة المولى عبد الله الغالب وتولية ابنه محمد المتوكل فازداد تطلع الباب العالي الى ضم ما تبقى من شمالي افريقية التي ابراطورية خاصة وأن عمى المتوكل : عبد الملك وأحمد اللاجئين بالجزائر يلحان في طلب المساعدة لاسترداد حقهما في العرش المغربي .

معركة وادي المخازن وبسعة المولى أحمد المنصور

بوفاة المولى عبد الله الغالب بالله وتولية ابنه المولى محمد المتوكل على الله ، دخل المغرب في مرحلة حاسمة من تاريخه ، بعد الهدوء النسبي الذي عرفه من قبل زمن الملك الراحل ، فقد ازدادت رغبة العثمانيين في ضم المغرب ، بعد الظفر العظيم الذي نالوه عقب انتصارهم على الاسبان في تونس ، ودخول هذه البلاد في حوزة الامبراطورية العثمانية ، وبعد التجاء عمى المتوكل عبد الملك وأحمد الى الجزائر طلبا لمساعدتهم .

وما من شك في أن انتصار العثمانيين في حروب تونس ضد الاسبان ، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي ، لبسط نفوذهم على البلاد ، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ويوطد اقدام الاتراك في مجموع الشمال الانريتي . علاوة على أن ضم المغرب من شأنه ان يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في اسطانبول .

اما المتوكل على الله فقد تابع خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد خطر العثمانيين حيث لم يعد لديه أي شك في أنهم سينجدون عمه بتوات عسكرية كما عقد اتفاقا مع ايليزابيت ملكة انجلترا (1) التي كانت ترغب في تنمية التجارة الانجليزية مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء

1. مجلة تطوان . العدد الثاني . ص 51

ذلك ، زيادة على انها كانت تدرك الاهمية العظمى التى للمغرب ، خصوصا وقد كانت انجلترا فى حالة حرب ضد اسبانيا .

وتوقع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز يعد العمل الوحيد الذى قام به خلال حكمه القصير ، وقد فعل ذلك باعتبار ان الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر واسلحة للمغاربة منذ امد بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل فى هذه الآونة الى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمسه المطالب بالعرش .

وفيما يرجع للامتين المسيحيتين : اسبانيا والبرتغال وموقفهما من انباء المساعدة العثمانية للمولى عبد الملك ضد المتوكل فرسالة (Giovanini Battista) (Gesio) المؤرخة بيوم (24 مارس 1576 والمرسلة الى فيليب الثانى تشرح لنا انه كان من الضروري ان يقوم ملك اسبانيا بجمع القوات فى الموانئ المجاورة لافريقيا لان العثمانيين عازمون على الاستيلاء على المغرب وبالتالي غزو اسبانيا ، وان رمضان باشا (الوالى التركى على الجزائر) والمولى عبد الملك واخاه المولى احمد يريدون السير ضد المتوكل الذى سينهزم امام الاتراك مهما كانت قواته ، خصوصا وان لمولاي عبد الملك عددا كبيرا من الانصار فى داخل المغرب ، ومن الممكن ان يطلب المتوكل النجدة من فيليب الثانى وستكون هذه فرصة ثمينة ليتدخل ملك اسبانيا فى المغرب بل وليطرد الاتراك من شمالى افريقيا (2) . غير ان انشغال فيليب الثانى بثورات الاراضى المنخفضة ضده والحروب الدينية القائمة بين الكاثوليك والبروتستانت فى غربى أوروبا حال دون اهتمامه باحداث شمالى افريقيا ، خصوصا وان انجلترا كانت تتدخل فى هذه البلدان لمساعدة البروتستانت ضد اسبانيا الكاثوليكية الشىء الذى كان ينذر بقرب اصطدام خطير بين المسيحيين الكاثوليك تحت زعامة فيليب الثانى والبروتستانت بزعامة ايليزابيت . وانشغال فيليب هذا هو الذى منعه فى نفس الوقت من الاستجابة للنداءات المتكررة التى بعثها اليه ملك البرتغال الشاب (دون سباستيان) للتدخل فى المغرب والحيلولة دون احتلاله من قبل العثمانيين . وقد جاء فى رسالة وجهها ملك البرتغال الى سفيره Don Duarte de Castelbranco انه من الواجب التدخل لوقف التقدم التركى فى المغرب ومنعهم من الاستيلاء على الموانئ المغربية،

(2) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 163

وجاء في رسالة ثانية له اقتراح على فيليب الثاني باغتنام فرصة اوضاع المغرب المضطربة والقيام بحملة مشتركة لاحتلاله (3) .

لقد وجد العثمانيون في انشغال ملك اسبانيا باحداث اوريا الغربية فرصة مناسبة للتدخل في المغرب ، فأمدوا المولى عبد الملك بقوات عسكرية بقيادة والي الجزائر رمضان باشا وأحرز المولى عبد الملك بفضل انضمام رؤساء الجيش الاندلسي انتصارا عظيما في معركة الروكان ضد المتوكل (اشخصه المعتصم الى المغرب عيناه له وسفيرا عنه الى اشياعه ومن كان يداخله في امره .. فكان يطوف على منازل الاكابر توصلا الى مكالمه اشياخ المعتصم وايصال كتبه اليهم .. وهو في كل ذلك حاطب في جبل المعتصم برسله والمتوكل .. في غفلة من امره وكان في خلال ذلك يسري مع الدغالي في الغدر ويلحم حتى اذا كان يوم الركن الذي تحيناه لما تعاندا من الغدر والخلاف نزعنا بقرمهما مكرًا ومخادعة الى الخليفين لاول اشتعال الحرب) (4) وذلك (لانهم كانوا يكرهون مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم) (5) فأصبح طريق فاس بعدها مفتوحا امامه ، ومن مدينة فاس توجه المعتصم الى مراكش التي فر عنها المتوكل نحو بلاد سوس .

أخذ المولى عبد الملك الذي تلقب (بالمعتصم بالله) منذ أن بدأت الاحوال تستقر لصالحه ، يعمل على اعادة الامن والهدوء الى المغرب ، بدون أن يتوان عن ملاحقة المتوكل الذي ما فتىء يؤلب القبائل ويهئ القوات المحاربة لاسترداد عرشه المسلوب . وقد خاض ضد عميه أربعة وعشرين معركة خلال سنتين انهزم فيها جميعها (6) .

والمولى عبد الملك المعتصم الذي عرف بالاطلاع الواسع على الحضارة الاوربية المعاصرة شاء ان ينهج بالمغرب سياسة جديدة تكسبه احترام جميع الدول وتوفر له الامن والاستقرار اللازمين لتقدم البلاد وازدهارها ، ولهذا السبب نجده يتوعد الى السلطان العثماني ويرضى القوات التركية التي جاءت لمساعدته على استرداد الحكم ويرسل الى ملك فرنسا هنري الثالث مع الضابط Luis Cabrette الذي كان من اصدقاء المولى عبد الملك في الجزائر ليطلع على احوال المغرب وليخبره

(3) المصدر السابق . ص 172

(4) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 47 .

(5) المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 48 .

(6) الانراني : نزعة الحادي . ص 65 .

بتوليته حكم البلاد ، وقد كلف هذا الضابط بنفس المهمة لدى ملك اسبانيا فيليبس الثاني (7) . كما أرسل ثانية الى فرنسا ولدى هنري الثالث نفسه سفيرا آخر هو Guillaume Berard لابرام حلف بين المغرب وفرنسا . ونحن وان كنا نجعل فيما اذا كان هذا الحلف قد تم بين البلدين أم لا ، الا أننا نعلم بأن (غيوم بيرارد) قد أصبح منذ سنة 1577 قنصلا لفرنسا في المغرب ، فكان بذلك اول ممثل سياسي فرنسي في المغرب عند مطلع العصور الحديثة (8) .

وفي نطاق هذه السياسة كاتب المعتمد الملكة الانكليزية (ايليزابيث) ليخبرها بتوليته السلطة وانه مستعد لتلبية كل مطالبها (الى السلطانة المعظمة .. زبيبة بنت السلطان المعظم .. كتبناه اليك من حضرنا العلية مراكش .. وموجه أننا نعرفك ان الله تبارك وتعالى مكنى من ملك والدي .. واستوليت على جميع بلاده .. فلتتعرنى انت على محبتك وكلما يعرض لك في بلادنا من الاغراض فانه مقص على ما يوافق غرضكم ومرادكم) (9) .

كما استدعى التجارين الانكليزين Jhon Williams و Jhon Bampton واكد لهما رغبته في احترام جميع الاتفاقيات التي كان ملوك المغرب قد عقدها مع الدولة الانكليزية واعرب للتجارين في الوقت نفسه عن عواطفه ومتمنياته نحو الملكة الانكليزية وبانه يؤمل في ان تزدهر تجارة المغرب في المستقبل وذلك بعد ان يقوم التجار الانكليز بنقل منتوجات البلدان الاوربية الى الشرق الاسلامي عبر الاراضي المغربية عوضا عن نقلها عن طريق المانيا وايطاليا (10) .

وحسب مذكرة Edmund Hogan الانكليزي الى ايليزابيث ، والمؤرخة في مارس 1577 نعلم بأن المولى عبد الملك كان يريد ان يجعل من المغرب سوقا رائجة للثياب الانكليزية ، لانه يرغب في ان يكون لباس رعاياه حسب الزي التركي (11) ، ونرى في هذه المذكرة أيضا كيف أخذ المعتمد يتقرب من الانجليز وقد سمح لهم وهدم بتصدير ملح البارود متقابل (قنابل) للمدافع وأسلحة أخرى ، وقد استجابت الملكة ايليزابيث وبعثت تشكر المولى عبد الملك على نواياه الطيبة نحو التجار الانجليز ، ثم أرسلت Edmund Hogan سفيرا في المغرب وكلفته بأن يرجو المعتمد

(7) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ص 350

(8) المصدر نفسه ، ص 355 .

(9) مجلد تطوان . العدد التاسع . ص 32

(10) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 199

(11) المصدر السابق ، ص 239 .

بأن يترك أمر اتفاته معها في طي الكتمان (12) .

استقامت مدريد ولشبونة للتقارب بين المغاربة والانجليز ، وحدثت المؤن والذخائر التي أخذ التجار الانجليز يحملونها الى المغرب قلعا عظيما لدى ملك البرتغال خاصة ورغم السفارة التي كان المعتمد قد وجهها الى فيليب الثاني منذ أن تولى امر المغرب فقد أرسل اليه للمرة الثانية رسالة مع حاكم وهران الاسباني Martin Diego بتاريخ ابريل 1577 تتضمن مشروع معاهدة مغربية اسبانية ، وقد بدأ المولى عبد الملك رسالته مذكرا الملك الاسباني بأنه دائما يبحث عن صداقته ، وكدليل على ذلك مراسلته السابقة له ، ثم استعرض أهم بنود مشروع المعاهدة التي تنص على اقرار السلم بين البلدين وحرية التجارة لرعاياها ، وعدم مد يد المساعدة ضد بعضها البعض (13) . ولم تثبت الوثائق التاريخية فيما اذا جرت محاولات بين مدريد ومراكش لمناقشة مشروع المعاهدة الذي تقدم به المعتمد ، أم أن الاحداث التي جرت بالمغرب من جراء انهزام المتوكل والتجائه الى الملك البرتغالي الشاب الذي استجاب لطلبه قد حال دون ذلك وجعل فيليب الثاني يتريث في جوابه انتظارا لما سيؤول اليه تدخل (دون سباستيان) ملك البرتغال من تطورات وأحداث .

تعرض المغرب لاهوال ومحن شديدة بسبب الحروب الاهلية التي جرت بين المتوكل وعبيه وانعكست مضاعفاتها بصفة خاصة على أحوال البلاد العامة (التي نفتت فيها اسواق الفتن وأظلم الجو فيها بالهرج في سائر اقطار المغرب حتى ثمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطفى الجند .. وتمطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتالذ .. وكاد سلك الدولة ينتثر) (14)

وقد شجعت هذه الاوضاع السيئة القوى الخارجية المتريبة على الاسراع الى الاستفادة من الظروف الملائمة للغزو والاحتلال وتمثلت في استعدادات البرتغال للتدخل العسكري وفي الجهود المتواصلة للاتراك لفرض سلطاتهم على البلاد .

ونحن وان كنا نجعل ما التزم به المعتمد للاتراك سامة معاونته ضد المتوكل، الا أن بقاء زوجته وابنه اسماعيل رهيئتين بالجزائر يؤكد لنا تراجع المعتمد عما

(12) المصدر السابق ص 350 .

(13) المصدر السابق ص 214 .

(14) مناظر الصفا للشنتلي . ص 39 .

وأعددهم به كما ان انضمام بعض القوات الانكشارية التي قدمت مع المعتصم الى المتوكل بسوس ومحاولة القائدين الدغالي والغري — وهما على ما كانا عليه من صلات قوية مع الاتراك — الثورة ضد المعتصم ، لا يترك مجالاً للشك في ان العلاقات بين المعتصم والاتراك قد دخلت مرحلة من التوتر وتربص الفرص (..) وارتاده المتوكل .. ومن معه من الاتراك الفازعين اليه .. فأنزلهم بمنازل القرب والاختصاص لديه فأحضروا له النصيح والمخالصة وعضوا على خدمته والاستماتة دونه بنواجدهم وكانوا أحد شوكته في الحروب السوسية) (15) .

ولقد وصل التوتر مرحلة جعلت رمضان باشا يتدخل عسكريا في شرمقى المغرب (وكان أخونا رحمه الله عرض في رمضان بهذا السبب للديار العثمانية فامتعض لذلك السلطان .. امتعاضا عزل به رمضان من الجزائر) (16) .

فهل يمكن القول بأن تخلى المعتصم عن وعوده للاتراك دفعتهم الى التدخل عسكريا في شرمقى البلاد كنوع من التهديد ؟ وهل كان التهديد التركي عاملا رئيسيا في تقرب المعتصم من الاسبان ودخوله في مفاوضات لعقد تحالف عسكري معهم ؟ أم ان المعتصم قد وجد في الهدنة التي وقعتها اصطامبول ومدريد في يراير 1578 سببا قويا لالتزام الحياد بين قوى الشرق والغرب ومسالمة الاسبان كما سالهم السلطان العثماني .

وكيفما كان الامر لقد كان عزل السلطان لرمضان باشا عن الجزائر من قبيل تظمين المعتصم ريثما تسنح الفرصة المناسبة للتخلص منه .

بعد التجاء المتوكل الى شمالي المغرب علم بالاستعدادات التي يقوم بها الملك البرتغالي لغزو المغرب ، فأرسل اليه نبيلا برتغاليا كان أسيرا عنده هو Don Antonio de Cunha ليطلب منه حمايته ومساعدته ؟ وانتقل المتوكل الى سبتة التي ظل بها اربعة أشهر ومنها الى طنجة في انتظار وصول (دون سباستيان) على رأس القوات العسكرية ؟ ومن طنجة وجه المتوكل كتابا الى علماء المغرب يبرر فيه فعلته الا أن العلماء استنكروا تصرفاته وأجابوه بخطاب طويل وهام (17) .

وبالتجاء المتوكل الى طنجة عند البرتغال ، خضعت معظم البلاد للمعتصم ، ولم يبق خارجا عنه غير منطقة الغرب التي كانت تضم القصر الكبير وأصيلا والعرائش

(15) مناهل الصفا للشتالي . ص 34 .

(16) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط تحت رقم ك 285 ص 7 .

(17) الامرائى : نزمة الحادى . ص 65 .

والتي كانت تحت حكم عبد الكريم ابن تودة صهر المتوكل الذي طلب النجدة من البرتغال مقدما لهم مدينة أصيلا التي سرعان ما وقع احتلالها من طرف القوات البرتغالية (من نزوع ابن تودة قائد الفحص وبلاد الهبط الى أرض الشرك ومجاجاته بالنصارى الى أصيلة على حين غفلة من أهلها واجهاض المسلمين عنها الى القصر نملكها المشركون) (18)

اما موقف المولى عبد الملك من التجاء المتوكل الى طنجة وطلبه مساعدا (دون سباستيان) فالوثائق المعاصرة تحفظ لنا رسالة وجهها المعتمض الى لشبونة بذكر فيها الملك البرتغالي بأن الحروب التي يسعى لها غير عادلة ، وانه يرمى من ورائها احتلال المغرب ، وليس بسبب تأييد مغربي ضد آخر سيعرض ملك البرتغال نفسه وجيشه للخطر ، ثم ينبهه الى ان عهود المتوكل لا قيمة لها ، وفي الختام يشعر المعتمض ملك البرتغال بأن عليه ان لا ينسى بأن المولى عبد الملك صديق حميم للسلطان العثماني (19) .

غير ان تمادي ملك البرتغال في خطته الرامية الى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة ، جعل ملك اسبانيا الذي كان منشغلا بأحداث اوربا الغربية وبالنزاع مع بريطانيا ، يبعث الى قريبه دون سباستيان عدة سفارات ليحدره من مغبة أعماله ، ولا ننسى بأن المعتمض كان في هذه الاوتة قد تقدم بمشروع المعاهدة المغربية — الاسبانية التي لا زالت تحت الدرس في بلاط ملك اسبانيا بالاسكوريال ؟ ومن السفارات التي وجهها فيليب الثاني الى لشبونة Don Juan de Silba ثم Don Luis de Silba كما بعث اليه سفيرا فوق العادة هو Don Medina Sidonia في مارس 1578 ، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل لاصرار ملك البرتغال الطموح على اغتنام الفرصة الراهنة للتدخل في المغرب واستعادة نفوذ البرتغال في هذه البلاد (20) وقد واتته الظروف المناسبة عندما جاء المتوكل الى طنجة وطلب مساعدة لشبونة ضد عمه المعتمض مقابل التنازل للبرتغال عن سائر السواحل المغربية ، ثم عندما التجأ عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل الى طنجة ايضا وتنازل للبرتغال عن أصيلا . فهذان العاملان كانا بالنسبة لملك البرتغال سببين كالمبين ليتدخل في المغرب سعيا وراء تحقيق الامنية المنشودة . وبدأت بذلك صفحة جديدة في تاريخ المغرب وتاريخ الدولة السعدية بوجه خاص .

(18) النشائي : مناهل الصفا . ص 114 .

(19) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 370

(20) المصدر السابق . ص 465 .

قاد الملك البرتغالي قوات جرارة بلغ تعدادها نحو عشرين الف محارب وأرست جميع قطع الاسطول بمدينة أصيلا التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب ، وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم الاثنين 12 يوليويه 1578 حيث عسكرت بضواحي مدينة أصيلا ، علاوة على قوات المتوكل التي كانت تقدر بنحو خمسمائة فارس (21).
أما المولى عبد الملك الذي كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة يوم 25 يونيوه 1578 فقد خرج من مراكش في اليوم التالي وقصد سوس ، وربما كان ذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية، ثم عاد الى مراكش وخرج منها ثانية باتجاه الشمال حيث عسكر في منطقة الخميس يوم 3 يوليويه ، ولّى يوم 6 يوليويه وصل تامسنا فسلا يوم 14 منه . ثم المعمورة في اليوم السادس عشر ، وقد نضب بها بعض قطع المدفعية . ولما وصل المعمورة علم بنزول الحملة البرتغالية في أصيلا (22) .

وتحفظ لنا المصادر التاريخية مراسلات المعتصم مع سباستيان قبيل خوضها المعركة فنجد ترجمة لرسالة وجهها المولى عبد الملك الى الملك البرتغالي يوم 23 يوليويه 1578 يذكره فيها ثانية بان الحرب التي يقوم بها غير شرعية وانه جاء لمساعدة محمد المتوكل الذي طالما الحق الاضرار بالبرتغال والذي لن يستطيع الوفاء لها تعهد به للبرتغال من ان يتنازل لهم عن قسم من الاراضى المغربية (23) .

وفي تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول يذكر بان المعتصم كتب الى ملك البرتغال بعد نزوله بأصيلا ، وكان مما قاله له : (ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر الى عدوة المسلمين فإن انت تبتت في الساحل الذى ان تقدم عليك فأنت نصرانى حقيقى وشجاع وان انت رجعت الى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك امير مثلك فأنت يهودي بن يهودي (24) .

فالبلاذ كانت تعيش اوضاعا داخلية سيئة نتيجة الحروب الاهلية ، وتعرض في الوقت نفسه لمؤامرات خارجية خطيرة ، غير ان نزول الحملة البرتغالية بأصيلا يوم 12 يوليوز 1578 م ومناداة المعتصم في جميع انحاء المغرب بالجهاد المقدس غير بسرعة من ظروف البلاد الداخلية وجعل صفوف المجاهدين تتقدم لمواجهة الخطر الخارجى (ولما سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه من العرب والعجم .. حملتهم

(21) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 1 ، ص 293

(22) المصدر السابق . ص 536

(23) المصدر السابق . ص 392

(24) تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول . ص 60 .

الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية وتجدد لهم نور الايمان واشرق عليهم شعاع لا يناس ... عقد الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها اهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين) (25) .

وإثناء استعدادات المعتمص لمواجهة البرتغاليين ، اغتتم الفرصة بعض القادة الأتراك ومن والاهم في حاشية المولى عبد الملك ، وأقدموا على تسميته (ان قائد الأتراك الذي كان معه بعث لبعض قواده أن يلتاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جوازهم عليهم قصد بذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم نبيها) (26) .

بقيت قوات الحملة البرتغالية بضواحي أصيلا ما بين 12 و 28 يوليه 1578 م حيث كان المعتمص في هذه الآونة قد عسكر بسوق الخميس على بعد ستة أميال جنوبي وادي القصر الكبير . وكاتب المعتمص سباستيان ثانية (باني قد جنك من مراكش ورحلت اليك ستة عشر مرحلة وأنت لم تدن الى مرحلة واحدة) (27) . ويديهي ان الغاية التي كان يهدف اليها المولى عبد الملك هي التدرج بالحملة البرتغالية والابتعاد بها عن قواعدها ومراكز تموينها ليسهل القضاء عليها . وقامت القوات البرتغالية بالفعل بالزحف نحو الداخل يوم الثلاثاء 29 يوليه وعسكرت أخيرا على الضفة اليسرى لوادي المخازن يوم الاحد الثالث من غشت 1578 م .

اما قوات المولى عبد الملك فمن الصعب تحديدها لانها كانت تضم عددا كبيرا من المجاهدين بالاضافة الى الجؤود النظاميين والقوات التي بعثها باشا الجزائر لصد الغزو البرتغالي (28) .

وأخيرا التقى الجمعان قرب وادي المخازن وجرت معركة حاسمة في تاريخ المغرب يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م عرفت بمعركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة .

واعتمادا على ما دونه وزير المنصور عبد العزيز الفشتالي في (مناهل الصفا) :
ان المعتمص قد اشتد عليه المرض ليلة المعركة (الى أن كان من زحف طاغية

(25) نزعة الحادي للآرائى . ص 65

(26) ابن العاضى : درة الملوك . مخطوط بدار الوثائق برباط تحت رقم د 1428 .

(27) الملوك الجهورل : تاريخ الدولة السعدية . ص 61 .

(28) م. ص. ت. م ، المجمومة الاولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 452

كفت القوات التركية التي حاربت في معركة وادي المخازن الى جانب البخارية تتكون من : (6000 من رماة النار و 1000 من قبائل زاوية و 800 فارس) ومزودة بثنى عشر مقلما .

برتقال في جموع الشرك لوادي المخازن وأرجاف الناس بمرض أخى المعتمصم ما بلغ به الحزام الطبيين فارتبك الأمر وأرعدت سماء الهول وأبرقت بقوالى زخوف العدوتين وأحزاب الملتين الى اللقاء للغد واضطربت أحوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين منهم) (29)

وفي صبيحة يوم المعركة مات عبد الملك (لا نقضاء أخيه المولى عبد الملك أمير المؤمنين رحمه الله لأول المصطدم وعند ما اقتدح زناد الحرب فكان في موته ساعتئذ وأحزاب الطاغوت فاعرة الانواه لالتهام أنصار الملة كجوة للإسلام) (30) ، فتولى المولى أحمد القيادة (ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت أخيه ولا زاد إيداه الله على أن وكل برعى محفته من وثق بمكانه) (31) وتوجيه الأوامر الى مختلف وحدات القتال (ورأى قائد القواد كان عند المنصور حينئذ أبو عبد الله محمد بن سليمان من تلك الأهوال ما هاله ، قال أمير المؤمنين المنصور إيداه الله ولم أشعر يومئذ حتى استأذن على الدخول بالفسطاط مذعورا فوصف لي من اضطراب أحوال الناس لهول اليوم وانحلال عزائم المسلمين ما شاهده وأذهله) (32)

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين (وناهيك من يوم أجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريق وفائض النفس حنف الانف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل وأسير) (33) .

كلف المولى أحمد الكاتب محمد بن عيسى بكتابة نص بيعته ثم جمع كبار الجيش والشرفاء والوجهاء وأخبرهم بموت أخيه المولى عبد الملك المعتمصم وتوليته أمور البلاد ، فأسقط في أيدي القادة الأتراك والمتآمرين معهم وارتكوا للمفاجأة ولكنهم سرعان ما حاولوا استغلال السمعة التي كانت للمعتمصم الملك الشهيد بين أوساط الجند والعامّة لبث روح التفرقة والخروج على المولى أحمد بأن نادوا بأحقية المولى إسماعيل بن عبد الملك في العرش المغربي مما اضطّر معه المولى أحمد الى الفرار . (.. خوفا من أن يقتلوه) (34) الا أن المغاربة أصروا على بيعته أخيرا والتمسك بها مما لم يجد معه الأتراك ومن على رأيهم بدا من القبول بالأمر الواقع (.. فلم يقبل ذلك أهل مراكش فنجى بمولاي أحمد أينما كان في الساعة فولوه فكان مولاي أحمد أميراً) (35)

(29) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 17

(30) المصدر السابق ، ص 37 .

(31) المصدر السابق ، ص 38

(32) المصدر السابق . ص 27

(33) المصدر السابق . ص 39

(34) عبد الرحمن السعيدى : تاريخ السودان . ص 208

(35) المصدر السابق . ص 208

ولان المولى عبد الملك المعتمصم كان قد أوصى بالامر لآخيه المولى أحمد منذ ان شعر بالمرض (فأعلم انى لا أحب أحدا بعد نفسى محبتي لك ورغبتى فى انتقال هذا الامر بعدى الا اليك لا لغيرك) (36) وهكذا نسجل هذه السابقة الخطيرة بين المولى أحمد والاتراك مما سيكون له كبير الأثر على مستقبل العلاقات المغربية التركية طوال عهد المنصور (بويغ له ايده الله عشية الاثنين الآخر من جمادى الاولى بمشهد الفتح .. على رأس الثلاثين من ولادته) (37) واتخذ لقب الخليفة المنصور تخليدا لهذا الانتصار العظيم .

كان أول عمل قام به المنصور بعد اتمام بيعته هو ارسال جثة أخيه المعتمصم الى ناس فى نفس الليلة لتدفن بها وذلك فى موكب رهيب ، اذ حمل نعشه كبار فقهاء ناس وقضائها وشرفاء القوم ، فى حين ان جثتى المتوكل ودون سباستيان أمر المنصور (بسلخ جلد بن أخيه مولاى محمد وحشوه تبنا وأرسله الى مراكش لطيف به به ليمانيه الناس على تلك الحالة ويعتبرون به ، فمن يومئذ سمي المسلوخ) (38) و (بدفن سلطان النصرارى بموضع معين ليعرف عند الاحتياج اليه) ، وقد وجد بجثة دون سباستيان آثار جروح : اثنان برأسه وأخرى بساعده (39) (لكن صدقته أمواج الفتنة مجهولا وجدلته حملتها بين حصى الموت مقتولا وبعد حين رفع الينا من طاف على صرعى المعركة خبره وانه أوقع عليه بين تلك الجثث نظره فأمرنا فى الساعة بحمله وايداعه أصون مستودع) (40) .

ومن ساحة المعركة وجه المنصور سفارة الى اصطامبول برئاسة أحمد بن يحيى الهوزالى (لسلطان الروم والمشرق وايفاد رسائله عليه فى مشهد الفتح الى القسطنطينية يخبره بما هيا الله من نصر دينه واعلاء كلمته والاستيلاء على احزاب الشرك وطواغيث الكفر) (41) ، وقد حملت نفس السفارة رسالة خاصة الى والى الجزائر حسن باشا البندقى وهدية للمولى اسماعيل بن المعتمصم الموجود بالجزائر

(36) الامرائى : نزعة العادى . ص 71

(37) الشفلى : مناهل الصفا . ص 25

(38) المؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 66 .

(39) م. ص. ت. م المجموعة الاولى ، بريطانيا ، ج 1 ، ص 297

(40) من رسالة المنصور الى الملك الاسباني فيليب الثانى

بتاريخ 2 رمضان 986 هـ .

المكتبة الوطنية بدمرد - مخطوط - رقم 257 .

(41) الشفلى : مناهل الصفا ، ص 61

(وأشرتم ولدي الى ما كنا اتحنفناكم به صحة خديمنا .. أبى العباس أحمد بن يحيى الهوزالى) (42) .

ثم توجه المنصور الى مدينة فاس (ثلاثة الفتح من مخيمه بوادي المخازن يوم الاربعاء الثانى من جمادى الثانية ووصل لفاس للنصف منها فدخل فى يوم مشهود عند اهلها دخولا فخما لكثرة ما استاق من سبى المشركين واقتاد من جنود الله .. ولايام من مقامه واناها وفد مراكش دار الخلافة ببيعة اهلها جنديهم وحضريهم .. ثم انتالت عليه بيعات سائر المدن والامصار) (43) .

وعند ما كان المنصور بفاس اثارته ضده جماعة من قواد الجيش بزعامة الكاهية محمد زرقون قائد قواد عساكر النار (الغوغاء من الاجناد .. وأسرى فى تنفيق سوق الشقاق لذلك والتغريب بين الجند والخليفة والحكم حتى تفاتم الامر .. وجمع كلمة الاجناد كافة على افساد فاضطربت الاحوال وتحقق امير المومنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجدته فى هدم بناء دولته وسعبه فى فساد ملكه وتفريق أمر الجماعة) (44) .

ويبدو ان المؤامرة كانت تهدف الى تولية الامير داود بن عبد المومن لصلاته القوية بالكاهية وللتأييد الذي كان يحظى به من قبل الاتراك باعتبار ابيه التركيصة ونشأته بظلمسان ، غير أن المنصور عرف كيف يتخلص من المناوئين بالقضاء عليهم (وقتل النفر الاربعة جميعا ليوم واحد من شهر رجب عام ستة وثمانين واصبحت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من ابواب فاس الجديد) (45) ، ويفرض فى الوقت نفسه نوعا من الاتامة المحروسة على الامير داود بن عبد المومن (وتوتى لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراه وحذر مغبته فرأى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة) (46) .

لهذه الاسباب ضاعت على المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد فى الشواطىء المغربية واجبر على الاستجابة للطلب الذي تقدمت به سفارة اسبانية — برتغالية (يرغبونه فى الامتنان بشلو الطاغية بستيان الموارى بالقصر فى تابوته ووانوه ايام مقامه بمعسكره من ساحة فاس بين يدي

42) من رسالة للمنصور الى اسماعيل بن الممتصم — بتاريخ محرم 987 هـ .
دار الونائق بالرباط — مخطوط ك 278 ص 37 .

43) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 40

44) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 45

45) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 47

46) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 56

ارتحاله لمراكش فتطارحوا عليه متضرعين وخاضعين لعز الاسلام فرأى ايده الله ما في اسلام الشلو لهم والذهاب به الى ارضهم من مزيد الفخر للاسلام وتجدد الاحزان لعبدة الاصنام .. فامتن لذلك به عليهم واسلمه اليهم من غير عوض بعد أن كانوا مدعنين لبذل الاموال العظيمة فيه) (47) .

والعبارات التي جاءت في اول خطاب من المنصور الى فيليب الثانى تؤكد الاتجاه الجديد لسياسة المغرب الخارجية (وصل الينا خطابك . وفى ضمن ذلك توجيهكم الرغبة فى تسريح جثة السلطان دون سبشطيان .. فأهلا بها من غرض ما أوسع له عندنا ساعة الاسعاف والاسعاد .. واذا وصل كتابك فيه فما نحن سرخناه مكربا ورفعنا لاهتمام غرضك فيه علما .. فلا يمنعكم من اغراضكم بهذا المقام العلوي مانع) (48) .

لقد حرص المنصور غداة توليته على الحفاظ على نوع من الصلات الودية مع الاتراك والاسبان ، وكاتب لاجل ذلك مراد الثالث مخبرا بالانتصار فى المخازن وبتوليته الحكم فى المغرب ، كما سلم جثة دون سباستيان لفيليب الثانى ملك اسبانيا ، وبحفاوة كبرى استقبل الوفود السياسية التى وصلت الى مراكش من اصطامبول ومدريد وغيرها لتهنئة المنصور وتقديم انفس الهدايا عربون المودة والتقدير . (فقد وصلوا مراكش بهدايا رسلهم وكان يوم بلوغهم اليها يوما مشهودا عند أهلها تحدث عنه الناس) (49) ، ومما جاء فى هدية الوفد البرتغالى (ثلاثة مائة الف دقا من ريال الفضة واما ما يرجع الى احوال السلع النفيسة من كل جنس وغريب كل نوع من الحرير والخز والديباج والسندس . الى غير ذلك من السترة الهندية مذهبة بستورهاها وارطبتها من رقيق الديباج والموشى وكراسى مكللة من طرف الهند وبلادهم وتحف ارضهم واوانى صنعمهم وذخائر ملكهم فبحر لا ساحل له ..) (50) .

اما هدايا الوفد الاسبانى فقد اشتملت على كل نفيس من حجر الياقوت الكبير الحصبات المنتقى لذخائر الملوك انتزعها من تاج آباءه .. وربعة مملوءة من حصياء الذر الفاخر وقصب الزمرد وكانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوق سائر الاحجار مقداراً وشكلاً وعلقت بها زمردة اقل منها جرماً وأشبه بها حسناً وكلاتها من ذخائر الملوك العظيمة ..) (51) .

47) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

48) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى . المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257

49) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

50) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 49

51) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 50

وبالنسبة للوفد العثماني فقد ضم عددا من علية القوم وكبار الاسلام (أوفدهم مراد خان من حضرته وأوعز الى مفتى الجزائر من ايالته الشيخ العالم الصدر الكبير الخطيب الشهير أبى الطيب البسكري بصحابتهم الى المغرب واختاره لشهرته ومكانته في العلوم والرياسة ليحسن أداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما في الضمائر وليدل بارساله على علو فهمه وشرف مقدار المرسل اليه) . وقد حمل الوفد الى المنصور هدايا ثمينة (من الملابس الفاخرة .. وسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلى والزينة) (52) .

ووصل الى مراكش أيضا الوفد الفرنسي لنفس الغاية (وكان وصل أيضا على تهنئته وذلك عامئذ ارسال طاغية الافرنجة ويقال لهم فرنصة وبه يعرفون اليوم) . وقد قام بالسفارة الفرنسية التي بعثها الملك هنري الثالث وقد يترأسه : Guillaume Berard الذي كلف من طرف حكومته بتهنئة المنصور وتذكيره بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين المعتمض وفرنسا ، وبأن يسعى لجعل الموانئ المغربية مفتوحة في وجه السفن الفرنسية ، ولتحرير الاسرى الفرنسيين بالمغرب ، كما كلف السفير الفرنسي بالعمل على تصدير نحو خمسة وعشرين الف قطار من ملح البارود وجعل المنصور يقرض الحكومة الفرنسية مائة وخمسين الف دوكة (53) .

ورغم مظاهر الود التركية — الاسبانية فان المولى أحمد لم يطمئن لاي من الجانبين : فالقادة الاتراك ومن والاهم ناوؤه ساعة توليته وكادوا الاطاحة به في فاس، والوالى التركى بالجزائر حسن البندقى تزوج ارملة المعتمض وأصبح يحتضن الامير الصغير المولى اسماعيل لغاية بعيدة يهدف اليها السلطان العثماني . والاسبان تدخلوا عسكريا بعد المعركة في سبتة وطنجة واصيلا والجديدة بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، فانتسعت لذلك مناطق النفوذ الاسباني بالشواطئ المغربية وازدادت بالتالى اخطارهم على المغرب .

وقد اشتدت مخاوف المنصور من التدخل التركى عند ما استطاع داود بن عبد المومن الفرار من مراكش وعلان الثورة ضد عمه بسوس في شعبان 987 هـ الموافق لآكتوبر 1579 (اتصلت به الشرذمة .. من أصحاب المعتمض فأظهروا له الميل الى جانبه ومتوا اليه باسباب الانتهاء الى حزب عمه المعتمض وجعلوا يوسوسون

(52) الشتالى : مناهل الصفا . ص 50

(53) م. ص. ت. م ، المجموعة الاولى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 22

اليه ويثون في آذانه .. بما كانوا مرضى القلوب على الدولة .. فتمكنت منه
وساوسهم (54) .

ومن دراستنا للاحداث نصل الى حقيقة هامة وهى ان كلا من مراد الثالث
وفيليب الثانى قد حرص على الاستفادة من ظروف الهدنة بينهما لتوضع حد لاطماعهما
في المغرب والبرتغال :

فقد توفى الكاردينال هنري في يبرابر 1580 واستفحلت بموته أزمة وراثية
العرش البرتغالى ، والملك الاسبانى يعد من اقوى المطالبين بالعرش .

واشتدت في المغرب ثورة داود بسوس ضد عمه المنصور فبعث الوالى التركى
رمضان باشا يؤكد للامير داود استعداده لمدته بكل المساعدات (ولما عزمنا الآن
بقدمنا الى مدينة تلمسان فأول ما سألنا عن احوالكم .. لكى ننشىء معكم عهدا
تقادم لنا مع اسلافكم فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلموننا في جوابكم لنا بما عندكم
من مأمول ومرغوب) (55) .

الا ان نجاح المنصور في القضاء على ثورة سوس في جمادى الاولى 988 الموافق
ليوليوز 1580 م في الوقت الذي اخذت القوات الاسبانية تكتسح الاراضى البرتغالية
وتلحق الهزائم المتوالية بمقاومة الامير البرتغالى دون انطونيو Don Antonio
دفعت السلطان مراد الثالث الى التفكير في وسيلة اخرى يبرر بها تدخله في المغرب،
فانتزع على المولى احمد في رسالتيه المؤرختين برجب عام 988 هـ - سبتمبر 1580 م
عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على اساس امداده باسطول
حربى وقوات عسكرية (فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومثاعرنا الخقانية المنيفة خبر
طاغية ثشالة وانه احتوى على سلطنة برتقال أو كاد وانه جعل اهلها في الاغلال
والاصفاد وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية .. لظاهر الالفسة
الازلية .. ان نخذ عهدا .. ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب .. ونعلق العهد
بالكعبة المنورة والحوضه المعظمة فاذا تم هذا الشأن .. نوجه نكم ثلاثمائة غرابيا
سلطانية وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس) (56)
وقبل في نفس الوقت زواج المنصور من احدى بناته (عهدنا الى امير الامراء .. ان

54 الفشتالى : مناهل الصنا . ص 56

55 من رسالة بمثها رمضان باشا الى داود بن عبد المومن بتاريخ ربيع الاول 988 . سيمانكاس - اسبانيا رقم 160

56 من رسالة للسلطان مراد الى المنصور المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257 .

يصهر لكم على احدى بناتنا .. اسعانا لغرضك المنيف) (57) غير ان المنصور (تناقل عن رد الجواب) (58) لتأكده من عدم صدق نوايا الاتراك اتجاهه وبأنهم غير جادين في محاربة الاسبان بعد أن جددوا معهم اتفاقية الهدنة يوم 25 يناير 1581 م ، اي ان الامر لا يخرج عن كونه وسيلة لغزو المغرب وضمه الى الامبراطورية العثمانية كما تخوض اسبانيا في نفس الوقت حروب البرتغال لتوحيد شبه جزيرة ايبيريا .

وبسبب اصرار المنصور على موقفه أعطيت الاوامر الى علوج على قائد الاسطول العثماني لغزو المغرب ، وقد وصل علوج الى الجزائر في جمادى الثانية 989 الموافق لشهر جوان 1581 م بينما كان المولى أحمد يرابط بقواته الجرارة عند نهر تانسيفت بدعوى اخذ البيعة مصانحة لابنه المولى محمد المأمون منذ شهر صفر (وبلغ اليه خبر اجتهاده في ذلك من قبل انحداره في الاساطيل بستة اشهر) (59).

وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل التركي (فشمز ايده الله لتجهيز مساركه الهاشمية وكتائبه المظفرة الامامية .. الى تخوم المملكة لسد فروعها وحياطة ثغورها مخافة أن يفاجئ على بعضها على حين غفلة وأرصدت له العساكر على كل ثنية بالمغرب وجلست للوثبة على براثنها) (60) .

والى جانب الاستعدادات العسكرية ، وجه المنصور لاصطامبول سفارة خاصة تضم القائد ابا العباس أحمد بن ودة والكاتب ابا العباس أحمد بن يحيى الهوزالى بعد ان توصل، الى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسباني — الذي كان قد أنهى بدوره المشكلة البرتغالية بدخوله العاصمة لشبونة فاتحا يوم 31 يوليوز 1581 م — على اساس المساعدة العسكرية للمغرب لمواجهة التدخل التركي مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات مهمة أخرى .

وأمام تطور الاحداث لم يجد السلطان العثماني بدا من قبول الامور الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن امر علوج على بالعودة الى الشرق .

من نتائج الضغط التركي على المنصور أنه أجبر على التقرب من الاسبان منذ الشهور الاولى لتوليته ، وكانت حادثة المطالبة بجثة دون سباستيان بداية عهد جديد من العلاقات الودية بين المغرب واسبانيا ، فقد اطلق المنصور سراح السفير الاسباني في لشبونة (فككنا عن خديكم ذي شلبا قيود الاسر وعاملناه مراعاة

(57) المصدر السابق

(58) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 61 .

(59) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 62 .

(60) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 63 .

لمقامكم بالتسهيل واليسر) (61) . واستقبل بمراكش سفارة اسبانية تتكون من القسيس Pedro Venegas - Diego Marin وسلم اليهما الدوق الصغير De Varcelos كما اكد لهما استعداداه لتلبية كل مطالب الملك فيليب الثاني .

وفي نطاق التقارب الجديد منح المنصور امتيازات خاصة لبعض التجار الاسبان (هذا الظهير السلطاني .. بيد حامله المتسك به التاجر افرنسسشوق بريد - Francisco Varredo يصوغ له ايراد بلادنا والتصرف بتجارته في مدننا وحدود ملكنا .. وابحنا له الاختلاف لبلادنا .. محفوناً باماننا برا وبحرا) (62)

ولم يغفل المنصور من جهة اخرى عن اطلاق الملك الاسباني على ثورة ابن اخيه داود بن عبد المومن بسوس وكيف تم القضاء عليها في نهاية الامر ، وقد الح المولى أحمد في احدى رسائله هذه على عودة الاستف (مرين) لاتمام المفاوضات معه خاصة ان حملة علوج على البحرية كانت في طريقها نحو المغرب .

ومن العوامل التي زادت من تقارب المنصور مع اسبانيا تخوفه من وجود الاميرين السعديين الناصر بن الغالب والشيخ بن المتوكل بين يدي فيليب الثاني بعد توحيد شبه جزيرة ايبيريا ، وفي الوثائق التاريخية ما يبرر حذر المنصور وتخوفه نقد وجه الناصر الى الملك الاسباني رسالة مؤرخة بيوم 26 سبتمبر 1580 يطلب فيها مساعدته على استرجاع الحكم في المغرب (63) .

استقبل المنصور القسيس مرين بمعسكره بتانسيغت ودخل معه في مفاوضات لوضع مشروع معاهدة عسكرية ضد الاتراك على اساس التنازل للاسبان عن مدينة المرائش التي كان الملك الاسباني يقدر اهميتها الاستراتيجية في القيام بالعمليات العسكرية ضد القراصنة الذين كانوا يزلون بالتجارة الاسبانية في عرض الشواطئ المغربية الاطلسية اندح الخسائر (حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملـة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش سفيرا الى حضرة امير المومنين من عند ملكه) (64) .

وقبل أن يعود السفير الاسباني حمله المنصور رسالة الى فيليب الثاني يطلعه فيها على الرحلة التي سيقوم بها الى فاس في قابل الايام .

61 من رسالة للمنصور الى فيليب الثاني - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط - 257 .

62 يوجد نص الظهير في المصدر السابق .

63 مجلة الاندلس عدد 23 ص 19 .

64 الفشالي : مناهل الصفا ص 60 .

وفي فاس تابع المنصور مع السفير مرين المفاوضات التي ابتدأت بتانسييفت هذه المفاوضات التي دامت زهاء السنة تقريبا ، فماذا حصل والمنصور بفاس ؟

لقد استقبل غداة وصوله الى فاس سفارة تركية أرسلها مراد الثالث لتخبر المنصور بالانتصارات العثمانية في ايران ضد الصفويين ولتؤكد له عودة العلاقات بين المملكتين الى سالف عهدا بعد حادثة الغزو الفاشلة (ثم نظر في مخاطبة خاتان صاحب القسطنطينية السلطان مراد خان وايفاد ارساله عليه نما تقرر من سوابق الالفة والمهادات السالفة بينهما وبما كان السلطان مراد الاخير مهتما في اتحافصاحبه بالهدية) (65) .

وفي جواب المنصور الذي حملته سفارة مغربية تتكون من قاضى القضاة بهراكتش أبى القاسم الشاطبى والعالم أبى زيد عبد الرحمن بن منصور الشياظمى تذكير بال البيت واشادة بالروابط بين الدولتين المسلمتين ثم التهئة بما حققته القوات العثمانية في ايران ، ويختم المنصور خطابه بالتاكيد على دور المغرب في الجهاد بالغرب الاسلامى (ولا طارئ بحمد الله عدا ما نحن فيه بن الاهتبال بمصالح العباد .. ثم مواصلة البكر والاصال .. باقامة فريضة الجهاد الذي هو الدثار لهذه الملة الاسلامية والشعار .. فنحن بحمد الله دائما في الاهبة والاستعداد له وارتباط الصافنات الجياد لارهاب اعداء الله اهل الكفر والعناد) (66) .

وقد حملت السفارة المغربية ايضا الى كل من والى الجزائر حسن باشا البندقى وقبطان البحر علوج على باشا جوابين عن رسالتين لهما للمنصور يعترفان له عما حصل من أحداث (لما وفد على مقامنا العلى خدينا .. انهى الينا ما امحبتموه من كتابكم الذي ابدتيم فيه لعلائنا وجه الاعتذار سائرا .. فقد قبلنا عذركم) (67)

وجاء في جوابه لعلوج على (ورد على بابنا رسولنا الاثب من تلکم الابواب العثمانية .. فانهى الينا بما تلقاه منكم .. وان تحرككم ذلك على ما حكيتم ما كان منكم لباعث نفسى .. وانكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار) (68) .

فهل كانت المحاولات التركية الجديدة ترمى الى بعث الطمانينة في نفس المنصور وبالتالي للحيولة دون سيره بعيدا في تنازلاته للاسبان ؟

(65) نفس المصدر ص 64 .
(66) من رسالة للمنصور الى مراد الثالث - رسائل سعية . ص 18 .
(67) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى حسن باشا . رسائل سعية . ص 278 .
(68) من رسالة جوابية بعثها المنصور الى علوج على . رسائل سعية ص 68 .

ان ما قام به المنصور وهو بغاس يؤكد حذره ويقظته وسعيه في الوقت نفسه لى تقوية اوضاعه الداخلية : فقد حصن مدينة العرائش حتى لا يفتاجا بهجوم اسباني للامال العريضة التى اصبح الاسبان يعلقونها عليها ، ووجه قوات عسكرية لتدعيم سلطانه على الريف وكل الشمال المغربى باعتبار ان هذه المناطق كانت محط اطماع القوتين الكبيرتين وعندها تلتقى حدودهما (كان اول شىء قدمه من اعماله .. بعض الزيادة مما يلى البحر فى الحصن العظيم .. بالعرائش المعروف بحصن الفتح .. ثم نظر ايده الله فى تثقيف اطراف البلاد .. فسرح كلا الى مكانه فثقت بهم الجهات وسد الثغور والمسالح .. وجهز القائد .. فى جيش عرمرم من الاسل والنار الى بلاد الريف والهبط وجبال غمارة) (69) .

ومن جهة اخرى ، ظل المنصور يماطل السفير الاسبانى ويعتذر بين الاوتئة والاخرى لفيليب الثانى عن هذا التأخير بحجة القيام باعمال مستعجلة وجد هامة (ثم عنت لنا بعض امور تجددت لدينا تقتضى متامنا هذه المدة بهذه البلاد فاشغلنا تقاصيها وتدبرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشجيعه لكم فى الفور كما هو المراد ، فكان المقتضى لتأخيره ما عن لنا من هذه الاسباب كما انها ايضا سببت فى تأخر هذا الجواب) (70) .

ولم ياذن للسفير مرين بالعودة الى اسبانيا الا بعد رجوع السفارة المغربية من اصطامبول وتأكده من النوايا الجديدة للسلطان العثمانى (وكان من خبرهم انه لما وندوا على القسطنطينية حضره بنى عثمان وادوا رسالتهم الى السلطان مراد خان اهتز سرورا من اعداده لمقدمهم ولقاهم مبرة التكريم .. وكان القاضى أبو القاسم صنع له كلاما اعرب فيه عن حق الدولتين واطرى فيه السلطان وقرر فضل اهل بيت النبوة .. وحض على اتحاد كلمة الاسلام .. ووقف السلطان على قدم البر لرسالة امير المؤمنين .. بان تولى جوابها بخط يده فأعرب فى ذلك بما لم يسمع قط عن ملك من ملوكهم الى ملك) (71) .

لقد كان للتهديد التركى خلال المرحلة الاولى من عهد المنصور اكبر الاثر فى تقاربه مع الاسبان وبذل الوعود المختلفة للحصول على مساعداتهم العسكرية ومن خلال ما تتوفر عليه من وثائق معاصرة فان الاتصالات بين الجانبين قد مرت بالمراحل التالية :

(69) الفشالى : مناهل الصفا . ص 65 .

(70) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257 .

(71) الفشالى : مناهل الصفا . ص 66 .

اولا - الظروف التي مهدت لمشروع التحالف العسكري (3 شعبان 990 / 2 غشت 1581) فقد استغل الاسبان اوضاع المنصور الداخلية وتخوفه من التدخل التركي وما ابداه من استعداد لتلبية مطالبهم (فلرغبتمكم بهذا المتام العلوي على الرحب والاكرام واغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ولـو توجهت فيما هو اكثر للقتل وجه القبول مشرق الجبين والتيسير .. فلا يمنعم من اغراضكم بهذا المتام العلوي مانع) (72) وسعوا الى الحصول على امتيازات تتلخص في :

1 - الوعد بالنزول عن مدينة العرائش لاهيتها الاستراتيجية ودورها في مواجهة القرصنة التي تكبد التجارة الاسبانية مع العالم الجديد والشرق الاقصى اندح الخسائر في الاموال والارواح .

2 - افتداء اسرى معركة المخازن حتى لا يستفيد المنصور منهم ويستغل اليد اليد الخبيرة بوجه خاص في مشروعاته العسكرية والصناعية والعمرانية وغيرها .

3 - الحصول على امتيازات تجارية بما يشبه احتكار التجارة المغربية ليتمكن الاسبان من اغلاق الاسواق المغربية في وجه خصومهم ومهربى الاسلحة الانجليز خاصة .

ثانيا - التطورات الجديدة واثرها على سير المفاوضات المغربية - الاسبانية : من ابرز العوامل التي كان لها الاثر الاول في هذه التطورات : تراجع الاتراك عن تهديدهم للمغرب ودخولهم في نوع من المسالمة وتبادل الود مع المنصور اي ان المولى احمد قد اصبح يشعر بنوع من الاطمئنان النسبي اتجاه الاتراك العثمانيين وهذا العامل اعطاه فرصة ثمينة للتريث والتدبر وعدم التسرع في اتخاذ ما من شأنه ان يخلق مضاعفات لا تحمد عتها .

ويؤكد المؤرخ الجديد للمنصور تصرفاته منذ ان عادت سفارة الشاطبى والشياظمى من الباب العالى ، والاعذار التي بدا يتذرع بها لمحاولة الاسبان وتسويتهم (ان رسولكم الاثير المرعى القسيس مرين الذي هو الآن بدارنا .. كنا عازمين كما عرفناكم على اشخاصه نحوكم .. ثم عنت لنا بعض امور تجددت لدينا تقتضى مقابنا هذه المهدة بهذه البلاد .. فكان المقتضى لتأخيرها ما عن لنا من هذه الاسباب .. لكن

(72) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257 .

ما نحن ان شاء الله على حال اشخاصه في الفور (73) . وقبل ان يعود السفير الاسباني من فاس التي اقام بها سنة كاملة حمله المنصور مختلف الوعود والاماني بتحقيق رغبات الملك الاسباني في قبال الايام .

والعنصر الثاني الهام الذي اثر على سير المفاوضات بين المغرب واسبانيا : ظهور انجلترا على مسرح الاحداث وما ابدته الملكة ايلزابيث من جدية في تسليح الجيش المغربي وامداد المنصور بكل الحاجيات العسكرية البرية والبحرية بالاضافة الى العائدات المختلفة التي (ستستفيد) منها خزينة المنصور من جراء التجارة بين البلدين وذلك للحيلولة دون تقاربه مع الاسبان والتنازل لهم عن العرائش وتمكينهم من احتكار التجارة المغربية .

ونتيجة التقارب الجديد مع الانجليز ، حمل مبعوث الملكة ايلزابيث (هوجن Hogan) الى المولى احمد رسالة خاصة وهدية ثمينة وهي اسلحة نارية ومعدات حربية مختلفة . وفي الخطاب الذي اجاب به المنصور الملكة الانجليزية بتاريخ 20 جمادى الاولى 988 هـ / 3 يوليوز 1580 نجد الخطوط الكبرى التي سارت عليها العلاقات المغربية - الانجليزية .

فقد بادله المنصور الود والتقدير (ولقد وصل كتابك مشكور الاشارة والتصريح بمشتملا على الود الثابت والحب الصريح) (74) .

وتعهد لها بالسماح للتجار الانجليز الذين يتوفرون على اذن خاص منها بالتجارة مع المغرب (وكذا التجار الذين لهم من خطابك الجليل حظ الايضا فلم عندنا بمقتضاه من الحظ ما يدل لهم من حقوقهم كل تمنع واستعصى) (75) .

كما ابدى كامل استعداده لتلبية جميع رغباتها معاملة بالمثل (وقد ذكرتم .. ما عندكم من حسن القيام بما يعرض لنا من الاغراض هنا لكم والاهتمام بما يتيسره باعمال اشارتكم واقوالكم .. فاعراضك بهذه الحضرة العلية محمولة على كاهل التيسير والتسهيل) (76) .

وفي نطاق هذه الاتصالات تطورت العلاقات المغربية - الانجليزية وبلغت مرحلة خاصة لوجود عوامل اساسية تقاربت بين البلدين :

(73) المصدر السابق .
(74) رسالة المنصور الى ايلزابيث - م. ص. ت. م ، انجلترا ، ج 1 ص 335
(75) المصدر السابق .
(76) المصدر السابق .

1 — في المجال الاقتصادي : وجد الانجليز في المغرب أسواقا تجارية هامة بعد ان سدت اسبانيا امامهم اسواق أوروبا الغربية .

ووجد المغرب في التجار الانجليز زبناء رئيسيين لبيع السكر وملح البارود ومختلف المزروعات والبضائع .

2 — في المجال السياسي : ادرك الانجليز ما لبناء القوات المسلحة المغربية من دور أساسي في الوقوف في وجه الاسبان وبالتالي لاحكام تطويق اسبانيا وتهديدها متى ما ضمنوا في المستقبل انضمام المغرب للمعسكر البروتستانتي . وما كان للمولى أحمد وهو الحريص على تقوية سلطانه وتعزيز وسائله الدفاعية ان يتراجع عن عروض مشجعة كهذه تمده بكل انواع المعدات العسكرية الحديثة .

3 — وفي المجال الاستراتيجي : التقت مصالح البلدين في عدم تسليم العرائش للاسبان ، لان من شأن هذا التنازل ان يزيد من نفوذ الاسبانيين في الشواطئ الاطلسية المغربية ويحول بالتالي دون قيام المبادلات التجارية بين المغرب وانجلترا ومد المغرب بأسلحة النار ومعدات القتال . ويدخل في هذا المضمار دور الخبراء العسكريين الانجليز وفي مجال الصناعات المغربية المختلفة .

اما العامل الثالث الذي شجع المنصور على التراجع عن تحالفه مع الاسبان ومماطلتهم في الوعود التي تعهد لهم بها من قبل فهو انشغال الملك الاسباني فيليب الثاني بالحروب التي تجري في الواجهات الاسبانية العديدة برا وبحرا ، وما كان للاسبان ان يغامروا بحملة عسكرية ضد المغرب قد يكون مصيرها نفس مصير الحملة البرتغالية في وادي المخازن قبل اعوام قليلة ، وحتى لو حاول القيام بذلك فان الاتراك لن يقفوا مكتوفي الايدي امام التهديد الاسباني ، وفي هذه الحالة قد يحقق السلطان العثماني ما عجزت عنه حملة علوج على باشا من قبل .

ورغم ان المنصور استطاع التوصل في المفاوضات مع الاسبان الى الوعد ببيادة العرائش بالبريجة (الجديدة) بدلا من التنازل لهم عنها كما كان الامر من قبل (وكذلك تامروا لاصحابكم يقبضون لاصحابنا البريجة مثل ما امرنا نحن للقائد ابراهيم يقابض لاصحابكم العرائش) (77) . ورغم الاوامر التي تظاهر باعطائها للمفاوضين المغاربة من أجل افتداء الاسرى (ان مسألة الاساري التي ذكرتم هي أحق من كل

(77) رسالة من المنصور لملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257 .

ما تكلمنا به وهى التى تعملون عليها ان شاء الله (78) . فانه لم ينجز شيئا من ذلك
معذرا باعذار مختلفة منها :

ا - انتظار عودة ترجمانه الخاص (فتمذر علينا لاجل ذلك السبب فهم ما فى كتبكم
الواردة بخطوطكم من حيث اننا لا نريد ان نناولها لمن يقربها خشية افشاء ما
فى مضمونها وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخدمتكم متامنا العلى .. ليتولى كتبها
الينا بخطوطنا لكى نفهمه (79) .

ب - عدم كتمان السر من قبل الاسبان (وما ذكرت من امر المماطلة التى وقعت فى
تلك المسألة فذلك ليس سببه الا منكم لاننا كلمناكم مرارا بعد مرارا واوصيناكم
الاتذكروا شيئا من ذلك ثم ان الكلام خرج من عنديكم) (80) .

ج - التجاؤء الى طريقة تترك نوعا من الامل لدى مفاوضيه الاسبان ، كان يوعز
الى المفاوضين المغاربة باطلاع الاسبانيين على الاوامر التى يرسلها اليهم
لتنفيذ ما اتفقوا عليه مع الاسبان (الى السلطان المعظم .. دون فيليب ..
نما نحن بصدد .. قضاء تلك المسالتين على احسن المراد .. حسبما تطالع الاوامر
العلية التى تصلكم) (81) .

وتاكيدا لمواقف المنصور الجديدة من مفاوضيه الاسبان عمد الى تحصين مدينة
العرائش وامدادها بقوات عسكرية للدفاع عنها (الحصنين الضخمين اللذين خيم
بها على انف عدو الدين بمرسى العرائش .. وابطل بها كيد عدو الدين ودفع بها
ن صدر طاغوت الشرك) (82) .

كما ازداد تمسكا بالاسرى لمشروعاته المختلفة فى النواحي الاقتصادية
والعسكرية والعمرانية ، وتطورت علاقاته مع الانجليز الى حد السماح لهم بتأسيس
(الشركة البربرية) عام 1585 التى اصبحت تنظم شؤون التجارة الانجليزية مع
المغرب وتحتكر اهم الاسواق التجارية المغربية (بما امدها به من النحاس لتفريغ
مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن
التي اعوزتها ببلادها) (83) متقابل امداده بكل حاجياته من الاسلحة النارية ووسائل
القتال وقطع الاسطول ولوازمه .

78 رسالة من المنصور لملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

79 رسالة من المنصور لملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

80 من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

81 من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط 257

82 النشتالى : مناهل الصفا . ص 265

83 النشتالى : مناهل الصفا . ص 193

لقد انعكست علاقات المنصور مع الانجليز على سير اتصالاته مع الاسبانيين ولم يعد للملك فيليب الثانى اى شك فى عدم جدية المولى احمد فى الوعود التى يتعهد بها للمفاوضين الاسبان (ورد علينا كتابكم وانت تعير علينا فيه وتقول ما من حق رجل كبير مثلكم يأتى لحاجة وبتربص عليها هذا التربص كله ، اعلم ان تربصنا لاجل مصالح كثيرة .. فانف عنك ما تتوهم به من هذه المسألة فانها مقضية .. وابد من ملاقاتنا معكم عن عجل ان شاء الله لنتكلم فيما يؤول نفعه على الجانبين) (84) فقرأ رايه على سحب السفير المكلف بمفاوضة المنصور (Perdo Venegas) وقد ابدى المولى احمد استغرابه لذلك (واستستم مبانى خطابكم عليه من استدعاء توجيه رسولكم بذر بنيغييس ذي قرطبة اليكم واشخاصه نحوكم) (85) ووجد صدق نواياه ووعوده للملك الاسبانى (لذا كان لا ينفصل خديمكم الانباشدور هذا عن دارنا ومقامنا الا مكمل الاغراض من عندنا على التمام .. لانه على حال استكمال مآربه من هنا وجميع اربه على حال مصافطته اليكم بجميع أوطاره واسبابه راجعا ان شاء الله بكل مرغوب اليكم) (86) .

ولكن بدون جدوى لان الاوامر صدرت الى جميع الدبلوماسيين الاسبان بالعودة الى اسبانيا (والذي اوجبه الى تلك المكانة المكيئة ان ولد اخى التسييس مريسن خديمكم المتوفى الذي هو الآن بحضرتنا وفى كنف ايلاعتنا انهى الينا انه جاءه أمركم بالقدوم على تلكم البلاد والتجائه بذلكم الند ولما اخبرنا عنكم بذلك ولم يكن وصل الينا فى شأنه خطاب من عندكم من هنالك (87) .

وأول حدث يعكس التوتر الذي أصبحت عليه العلاقات المغربية — الاسبانية ان الملك الاسبانى لم يستجب لطلب المنصور بالسماح للقائد عبد الكريم بن تودة اللاجئ فى اسبانيا بالعودة الى المغرب (ولما تقرر لدينا وعلما ان ما تقادمون الينا فيه انتم بشفاعتكم ووسائلكم وتبعثون من اجله نحونا بارادتكم أو رسائلكم نسعفوا فيه رغبتمكم .. فالمراد منكم ان شاء الله ان تصدقوا ظننا الحسن فيكم باطلاق ذلكم الرجل الينا) (88) .

وخلاصة القول اذا كان التهديد التركى قد ضيع على المنصور فرصة القيام بتحرير قواعد الاحتلال البرتغالى فى الشواطى المغربية (سبتة ، طنجة ، اصيلا ،

-
- (84) رسالة لآد اعوان المنصور — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(85) رسالة المنصور الى فيليب الثانى — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(86) المصدر السابق
(87) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257
(88) من رسالة للمنصور الى ملك اسبانيا — المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط 257

والبريجة) وأجبره على التقارب مع الاسبانيين ، فان تدخل الانجليز في سير المفاوضات المغربية — الاسبانية قد اثر على مجرى الاحداث بما امدوا به المنصور من اسلحة وعتاد مكن المولى احمد من مطاطلة الاسبانيين وتسويغهم .

وإذا كانت هناك من صفات خاصة لسياسة المنصور خلال المرحلة الاولى من حكمه اتجاه قوى الشرق والغرب فأبرزها :

1 — السعى الى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع احدى القوتين الرئيسيتين ويؤدي به الى الاصطدام والمجابهة ، في الوقت الذي كان يرى في تربص بعضهما للآخر اقوى الضمانات التي تحول دون تعرض المغرب لاي هجوم خارجي ، وقد أدرك مراد الثالث وفيليب الثاني هذا الجانب في سياسة المنصور وارغما تحت وطأة المشاغل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الامر الواقع ، فأصبح المغرب لذلك بلد الحدود بين الامبراطوريتين الكبيرتين : العثمانية والاسبانية .

3 — من دهاء المولى احمد — وحفاظا على موقفه الجديد هذا — حرص على اطلاع كل من الاتراك والاسبان على ما يببته كل منهما للآخر .

3 — لقد وجد المنصور في استعداد الانجليز لتلبية حاجياته من أجل بناء قوات عسكرية في البر والبحر ولتطوير اقتصاديات البلاد ما جعله يندفع بعيدا في التعامل معهم الى الحد الذي يمكن معه القول بأن اتصالاته المتزايدة مع الانجليز قد عادت على المغرب بأعظم الفوائد سياسيا وعسكريا واقتصاديا وجعلت المولى احمد ينحاز تدريجيا الى المعسكر البروتستانتي الذي تنزعه انجلترا للوقوف في وجه الهيمنة الاسبانية على اوربا الغربية وشمالى المحيط الاطلسي .

وهكذا استغل المنصور الظروف الخارجية المساعدة :

وانسد على الاتراك العثمانيين محاولات التدخل عسكريا في المغرب .

وحال دون اغتنام الاسبان لفرص تقاربه معهم للحصول على مكاسب جديدة كما استفاد من تعامله مع الانجليز في بناء قواته المسلحة وتجهيزها باحدث وسائل القتال ، الامر الذي ساعده على توطيد دعائم حكمه في الداخل وبالتالي في الحفاظ على استقلال المغرب اتجاه الاطماع الخارجية .

المنصور والنزاع الانجليزي - الاسباني

ان تدخل الملكة (ايليزابيت) لدى المولى احمد المنصور لصالح الامير البرتغالي (دون انطونيو : Don Antonio) قد صادف هوى في نفس الحاكم المغربي الذي وجد في مشكلة العرش البرتغالي فرصة لتحقيق الكثير من آماله (ونجا الى ملكة بلاد نكلطيرة ايزبيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته ثم نظر في امره فرأى ان جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى الا على يد أمير المؤمنين الذي في ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم (1) . واذا حاولنا أن نشرح الاهداف التي كان المنصور يرمى اليها من وراء تدخله في المشكلة البرتغالية وعلان تأييده للامير البرتغالي المطالب بعرش لشبونة ، نجد لاول وهلة ان المنصور كان يحرص على اغتنام هذه الفرصة للاستفادة منها .

1 - في تحرير مراكز الاحتلال الاجنبي بالشواطىء المغربية :

ا - بدعوى مساعدة دون انطونيو ، خاصة وان بعض مراكز الاحتلال كانت لا تزال تحت السيطرة البرتغالية .

ب - عن طريق مساومة الملك الاسباني فيليب الثاني الذي يهيمه الى حد بعيد ببناء المنصور على الحياد في النزاع الاسباني - الانجليزي .

2 - تنفيذ سياسته التوسعية في السودان وجنوب غربي افريقية :

(1) الفتاحي : مناهل الصفا ص 101

ان تدخل المنصور في المشكلة البرتغالية فيه الكثير من المعاني : تصريحه العلني بعبادة اسبانيا ، وانضمامه الى المعسكر البروتستانتى الذي تتزعمه ايليزابيت ويضم انجلترا وهولندا وفرنسا . والذي كان في حروب قاسية مع اسبانيا . ثم سعيه الى الضغط على خصمه اللدود الذي طالما ابدى المنصور تخوفاته منه باستغلال ظروف اسبانيا الحرجة . خصوصا وان الموريسكوس كانوا لا يزالون يكونون قوة داخلية لا يستهان بها .

فما هي العوامل التي دفعت المنصور الى السير قدما في تنفيذ سياسة الجديدة ؟ سياسة الاعتراف بأحقية دون انطونيو في عرش لشبونة ، والمجاهرة بمساعدته على استرداد عرشه ؟

من الناحية الداخلية : كان المنصور قد وطد أركان دولته بمجموع البلاد ، فعم الامن والاستقرار ، وازدهرت بالتالى سبل الحياة (فالدولة اسفحلت واستنطال جناحها واتسع نطاقها وضاعت حواضر ممالكها وثغورها القاصية والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحامية) (2) .

ومن الناحية الخارجية اهم ما يلاحظ :

التطور الذي طرا على الادارة العثمانية بالجزائر وشمالى افريقية : فهذه البلاد كانت منذ الفتح العثمانى تخضع لحاكم تركى برتبة (بيلرباي : بكريك : اي امير الامراء) الذي كان مقره بالجزائر باعتبارها الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية ، والذي كان نفوذه المطلق يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر ومصر .

وفي سنة 1587 م توفي العليج على (3) امير البحر ، فاستدعى السلطان العثمانى حسن فنزيانو (4) (البندقى) من الجزائر الى اصطامبول وولاه اميرا على البحر . اما شمالى افريقية فقد جزئت الى ثلاث ولايات هي : الجزائر ، تونس

2 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 75 .
3 العليج على اولوج على : القرطاس (الاترع) من أسرى نصارى كلابر بصطية ، تربي ، في أحضان القراصنة ووصل أعلى مراكز البهرية عند الأتراك ، وولد السلطان بكلكريك افريقية ورحل الى الجزائر يوم 8 غشت 1568 ، وقد عرف ببطلونه وشدة حروبه في البر والبحر كما شارك في معركة ليبانو الشهيرة سنة 1571 وفي فتح تونس 1574 . عين أخيرا قائدا عاما للاستيلاء العثمانى .

4 حسن باشا : حسن البندقى (حسن فنزيانو) من الأسرى الايطاليين تولى بكلكريك افريقيا في يونيو 1577 عرف بجده وحزمه ، وقد دعاه السلطان مراد الثالث الى اصطامبول للاحداث الداخلية التي عرفها الشرق الاسلامى سنة 1580 الا أنه أعيد الى الجزائر سنة 1583 رقام بدور هام في اخذ اضطرابات داخلية بشمالى افريقيا . ومما عرف به أعمال القرصنة الواسعة التي قام بها في غرب المتوسط ومساعدة الموريسكوس المضطهدين باسبانيا على الانتقال نحو شمالى افريقيا . بعد وفاة العليج على سنة 1587 عين السلطان مراد الثالث حسن باشا اميرا عاما للبحرية العثمانية .

وطرابلس على أساس أن يولى على كل منها وال برتبة باشا لمدة ثلاث سنوات . وهذا التغيير يدل من جهة على أن السلطان العثماني قد سعى الى تقوية نفوذه بشمالى فريقيّة عن طريق تجزئتها ، ويدل من جهة أخرى على أن الباب العالى قد سلم بالوضع القائم بالمغرب ، ولم يعد السلطان كالسابق يسعى الى بسط نفوذه على الجزء الغربى من الشمال الاريقي ، لما ابداه السعديون والمولوى احمد المنصور من حرص شديد على استقلالهم مستغلين الظروف الدولية لابعاد التهديد التركى عن بلادهم .

وكنتيجة لتجزئة الادارة العثمانية بشمالى فريقيّة ، دخلت هذه الولايات فى مرحلة جديدة من تاريخها تتميز بانتشار الفوضى والفتن والاضطرابات (5) . اى ان الامر فى مجموعة كان فى صالح المولى احمد المنصور الذي لم يعد منذ اليوم يحسب للخطر العثماني حسابا كبيرا كالسابق .

فالتخفيف من حدة الضغط التركى على حدود المغرب الشرقية جعل المنصور يغير من موقفه اتجاه فيليب الثانى الذي كانت الظروف تجبره على التقرب منه فيها مضى لرد العدوان التركى ، اما وقد خفت وطأة هذا الضغط ، فان المنصور قد وجد الفرصة السانحة للانطلاق فى سياسته الخارجية ، وخصوصا فيما يتعلق بعلاقاته مع الانجليز الذين طالما عملوا على استماتته للتدخل لصالح الامير البرتغالى دون انطونيو ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا (ثم نظر فى امره فرأى أن جبر صدهم وبناء ما ت هدم من ملكهم لا يتأتى الا على يد امير المؤمنين) (6) ، هذا التدخل الذي وجد فيه المنصور فرصة للضغط والتدخل ضد الاسبان ، فتغيرت بذلك سياسة المنصور ، وبدلا من أن يطلب وده كالسابق أرغفه على التقاهم معه على أساس التنازل له عن بعض مراكز الاحتلال الاسباني بالمغرب ، بحيث لم يكن هذا التنازل ليزيد المنصور الا امانا فى تأييد القضية البرتغالية سعيا منه فى الحصول على مكاسب اعظم .

(5) خير من يحدثنا عن اضطرابات شمالى افريقيا بعد تجزئتها سفير المنصور الى السلطان مراد الثالث : ابو الحسن على بن محيد التجروتى الذى دون رحلته من تطوان الى اسطابول (غشت 1588 — نوفمبر 1590) فى كتابه : النخبة المسكية فى السفارة التركية . هناك نسخة مخطوطة بـدار الوثائق بالرباط (د 795) :

فى صفحة 99 يتحدث من ثورة بطرابلس بليبيا (ورد هذا الباشا بما معه من الجند بسبب قائم قام فى بلاد طرابلس وعاش فيها وفسد اوطانها واضرم فيها نار الحرب واجتمعت عليه العرب وحشدها واستولى سوى المدينة من القرى والبادية والاطوان ... واقام له ملكا فى ديارهم .. وقد كان يزعم انه يقوم بتغير مفاكر الترك وفسقهم وبسط العدل) ثم فى صفحة 70 يذكر ، هكذا اهل افريقيا كلمهم من الدل والاهانة لوجب ذلك استنابهم لكل ناعق واتباعهم بكل قام رجاء ان يجد الفرج معهم) .

(6) الشتالى : مناهل الصفا . ص 101

ازدادت تدخلات الملكة ايليزابيث لصالح دون انطونيو ، وانتهى الامر بارسلان
وفد برتغالى الى المغرب فى شهر ماي 1587 م حيث استقبله المنصور واولاه عناية
خاصة وقدم لاعضائه جوائز سنوية (7) ، ويبدو أن الامير البرتغالى قد حاول
اغراء المنصور للتصدي فى مساعدته ، او أن المنصور قد حاول منذ اليوم الاول أن
يستغل تقرب دون انطونيو منه للحصول على مكاسب هامة ولا سيما فيما يرجع الى
تحرير بعض قواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء المغربية : فقد حاول حاكم سبتة
بايعاز من الملكة ايليزابيث والامير دون انطونيو ، تسليم هذه المدينة الى
المنصور (8) ، لولا أن هذه المحاولة قد فشلت .

بعث المنصور سفارة الى لندن لتقدم الى الملكة اليزابيث مقترحاته حول
التعاون المغربى - الانجليزى والمشكلة البرتغالية ، واعتمادا على وثيقة معاصرة
بتاريخ يناير 1588 فان المنصور قد اقترح على اليزابيث أن يساعدها بالرجال والمال
والمؤن ، وأن يفتح موانئه فى وجه سفنها ، وأن يقاتل بكل نواه الى جانبها ضد
عدوها المشترك ملك اسبانيا ، ولتأمين نجاح الحملة المشتركة ضد البرتغال ،
رسم المنصور لاييزابيث خطة حربية خاصة تنبنى على الخديعة بالدرجة الاولى :
فهو يرى مجيء قطع من الاسطول الانجليزى الى موانئ المغرب الشمالية ، لايهام
فيليب الثانى ولدفعه الى توزيع قواته الدفاعية على شواطىء اسبانيا الجنوبية ،
وبذلك تخف مقاومة الاسطول الاسبانى فى السواحل البرتغالية وتنجح بالتالى حملة
غزو البرتغال ويستعيد دون انطونيو عرش لشبونة (9) .

أما فيليب الثانى الذى أصبح متأكدا من انحياز المنصور ضده ، فقد وجد
فى قيام ثورة بجمال غمارة فرصة للضغط على المنصور ولدفعه الى التراجع عن
مواقفه الجديدة : ونحن وان كنا لا نملك وثائق معاصرة تؤكد بأن لفيليب الثانى
يدا فى قيام ثورة (بن قرقوش) فى منتصف صفر 996 هـ الموافق يناير
1588 م ، الا أن :

1 - قيام اللائر بجمال غمارة (واغترب عن بلده وذهب يتقلب فى الارض . . حتى
وصل الى جبال غمارة) (10) ، وقرب هذه الجبال من مراكز الاحتلال
الاسبانى : سبته ، طنجة وأصيلا .

(7) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 2 ص 131

(8) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 1 ص 489

(9) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - فرنسا - ج 1 ص 513

(10) الفشتالى : مناهل الصنا . ص. 93 .

2 - العدد العظيم من الانتصار الذين تبعوه (ثم سرى خبره في سائر بلاد الهبط وجبالها فانثالت عليه غوغاؤها من كل فج عميق) (11) وقد أصبحت ثورته لذلك خطيرة خاصة بعد أن ادعى أنه من أبناء المولى عبد الله الغالب (فلبسشارة الملك واتخذ الآلة وتسمى في كتبه بأبير المومنين فاضطربت به سائر بلاد الهبط نارا وفتنة) (12) .

3 - عدد القوات المحاربة التي أرسلها المنصور ضد الثائر وما كانت تحمل من أسلحة نارية فتاكة (وكانت زهاء ستة آلاف بين الأسل والنار) (13) .

4 - محاولة ابن قرقوش بعد انهزامة أمام قوات المنصور ، الفرار نحو إحدى المراكز الإسبانية القريبة (طالبا منجاةه إلى بعض ثغور المشركين بسيف البحر) (14) .

5 - بعد القضاء على ثورة ابن قرقوش ، شنت القوات المحاربة حملات متواصلة ضد قبائل جبال غمارة وكل جبال الريف ، أي أن المنصور قد وطد دعائم سلطانه على كل الشمال المغربي حيث توجد قواعد الاحتلال الإسباني (ثم جاست العساكر خلال ديار سائر قبائل الهبط . . حتى استوعبتها . . فنصلوا إلى بلاد الريف وقد دوخوا سائر الجبال تدويخا) (15) .

كل ذلك لا يترك مجالاً للشك في أن ابن قرقوش قد وجد من الأسباب كل عون وتأييد والا من أين له الأموال والوسائل التي تمكن بها من جمع العدد العظيم من الانتصار وتسليحهم بل وادعاؤه الخلافة أيضاً ؟ والوقوف ضد المنصور وهو ما عليه يومئذ من قوة وحزم فهل كان الإسبان يرمون إلى احتلال ما عجزوا عنه بالمفاوضة مع المنصور ؟

وتأييدا لما ذهبنا إليه ، نشير إلى أن المنصور ولما يقض على ثورة ابن قرقوش بعد ، بعث إلى الملكة الإنجليزية اليزابيت ودون انطونيو بتاريخ 28 أبريل 1588 م يعرب لهما عن حرصه الأكيد واستعداده التام لمساعدة دون انطونيو إلى أن يسترد عرشه مما يدل على أن المنصور لم يشك قط في مساعدة الإسبان لثورة ابن قرقوش وأن ذلك مما زاد من تدخله في القضية البرتغالية ودفعه إلى العمل

(11) اللشالي : مناهل الصفا ص 93 .

(12) المصدر السابق

(13) المصدر السابق ، ص 94

(14) المصدر السابق .

ضد اسبانيا وفيليب الثانى ومما جاء فى رسالة المنصور الى دون انطونيو (هذا وان كتبكم الاثيرة ورسائلكم هذه الاخيرة قد اتصلت بحضرتنا الشريفة . . على يد رسولكم المقيم من قبل هذا فى حريم دارنا والمستقر منذ اعوام فى جوارنا . . فكل ما يبت لديكم عنا وينهيه من الخبر اليكم من لدنا فثقوا به ان شاء الله وشدوا عليه يدكم وعمرؤا به فؤادكم) (16) .

على ان التطورات التى عرفتها أوروبا الغربية ، جعلت المنصور يتريث فى مواقفه من المشكلة البرتغالية ، خاصة وان فيليب الثانى ملك اسبانيا كان قد اخذ فى التهيؤ للقيام بحملة بحرية عظيمة لغزو بريطانيا التى كانت فى نظره السبب الرئيسى فى معظم الاحداث التى عرفتها أوروبا الغربية ، وتلك هى حملة الارمادا Armada التى ترجع فى واقعها الى عوامل دينية وسياسية واقتصادية : فيليب الثانى اعظم ملوك أوروبا الكاثوليك كان قد دخل فى صراع حاد مع ايليزابيت ملكة انكلترا وزعيمة المعسكر البروتستانتى ، واشتبكت قواتها فى مناطق مختلفة من أوروبا الغربية ، كما ان البحرية الانجليزية كانت تلحق الأضرار الفادحة بالبحرية الاسبانية عن طريق القرصنة والمنافسة .

انتهت حملة الارماد بالفشل (30 يوليوز — 10 غشت 1588) وعجلت الملكة ايليزابيت بارسال كتاب ترف فيه البشرى الى المنصور ولما تمض غير خمسة ايام على انتهائها ، ومما جاء فى رسالتها : شكرها الخالص لما يعرب عنه المنصور من استعداد لمساعدة دون انطونيو ، ثم تخبره بأن الامير دون كريستوف بن دون انطونيو سيبتى رهينة عنده فى المغرب مقابل المساعدة المادية والقرض المالى الذى سيقدمه لدون انطونيو والمتدر بمائة الف دوكة (17) .

اما المنصور فتد سر للبشرى كثيرا ، وكتب بدوره الى ولاته يطلعهم على الامر ، مما يؤكد انشراح المنصور لزوال الخطر الاسبانى الذى كان يهدد المغرب ، ويبرز اهتمامه بكل التطورات الجارية بأوروبا الغربية ، وقد تضمنت رسالة المنصور الى ولاته معلومات قيمة قل أن نجد لها مثيلا فى الوثائق التاريخية المعاصرة عن معركة الارمادا وانهزام الاسطول الاسبانى العتييد (18) .

(15) المصدر السابق .

(16) رسالة من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالى م. ص. ت. م. انكلترا ، ج 1 ، ص 492

(17) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى — فرنسا ج 2 — ص 151

(18) يوجد نص الرسالة فى (رسائل سعدية ص 150) وقد بعثها المنصور الى سوس وهو فى طريقه من مراكش الى فاس عام 1588 م

اثر نتائج الازمادات على الاحداث التي عرفتها أوروبا والمغرب بوجه خاص : فعلاوة على الثورات التي ازدادت ضد الاسبان بأوروبا لفقدهم بعض المكائنة التي كانت لهم كاعظم دولة في العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم ، يصارحونهم العداء ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وابعاد خطرهم أو للانتقام منهم . واذا كان هذا القول يصح بالنسبة لمجموع دول أوروبا الغربية البروتستانية والسلطان العثماني ، فانه ينطبق بصفة خاصة على المولى احمد المنصور الذي طالما انتظر سنوح فرصة ثمينة لتحرير مراكز الاحتلال الاجنبي بالمغرب ، ولنصرة المسلمين بالاندلس (الموريسكوس) (19) (وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام (97) سبعة وتسعين (20 نوفمبر 1588 — 9 نوفمبر 1589) واقف على قدم الاهبة والاستعداد . . الى التفرغ لها صرف اليه ايده الله عزمه وجعله تصده وهمه من جهاد المشتركين واغزاء اراضهم . . بعساكره الامامية وموالاة البعوث الى اقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في اعلاء كلمة الحق (20) دخل المنصور في مفاوضات سرية مع الانجليز حول تنظيم تعاون عسكري ضد الاسبان او بعبارة اخرى ، لقد استجاب المنصور للتدخلات الانجليزية ولرسائل ايليزابيت وبعثاتها الدبلوماسية حول مساعدة الامير البرتغالي دون انطونيو ضد خصمه فيليب الثاني ، خصوصا وان عداوة فيليب الثاني قد جمعت بينهما ، ولان الظروف كانت جد مساعدة اثر انهزام الاسبان في الازمادات وما أحدث ذلك من صدى وتأثير داخل اسبانيا وفي مستعمراتها ومناطق نفوذها .

والسياسة التي سلكها المنصور ظهرت في المجالين العسكري والدبلوماسي ، بل وسارا جنبا الى جنب : فقد جرب المنصور استعمال القوة وبالاخص ضد مناطق الاحتلال بالمغرب ، اذ امر احمد النقسييس جاكم تطوان بالهجوم المسلح على سبتة ، وتم ذلك يوم 11 ديسمبر 1588 (22 محرم 1997) حيث فاجأت القوات المغربية ضواحي هذه المدينة التي كان معظم اهاليها الاسبان قد خرجوا للنزهة بها ، فقتلوا واسروا عددا عظيما منهم (وكادوا ان يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور باستئصال عامة اهلهما وانتهاز الفرصة في حمايتها) (21) وعندما علم المنصور الخبر (اهتزله سرورا من أعواده) (22) ، مما لا يترك مجالاً للشك في أن المنصور

(19) قام الموريسكوس (الغرباء) بثورة في ربيع 1588 باراغون ، فهل كان للمنصور يد في ذلك .

(20) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 81 .

(21) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 96 .

(22) المصدر السابق

هو المدبر لهذا الهجوم الذي كان القصد منه اغتنام وضعية الاسبان الحرجة عقب الانهزام في الارمادا لتحرير مراكز احتلالهم في المغرب ، وللضغط على فيليب الثانى واشعاره بمدى قوته وحزمه وليظهر لطفائه الانكليز الدور الهام الاستراتيجى والعسكري الذي يمكنه القيام به في حرب مقبلة ضد اسبانيا .

واما الناحية الدبلوماسية ، فلاهية الامر ، ارسل المنصور سفارة برئاسة مرزوق السيد ، وصلت الى لندن يوم 12 يناير 1589 لتتقدم الى ايليزابيت وحكومتها مطالب المنصور واقتراحاته ، وقد جاء فيها : تزويده بالسلاح والذخائر وآلات الحرب وكل ما يلزمه لبناء الاسطول ، والسماح له باستخدام المهرة الانجليز في صناعة السفن ثم الاستعانة بالبحارة الانكليز والسفن الانكليزية حالة كونه في حروب ضد امير غير مسيحي .

اما اهم اقتراحاته فهى : عقد حلف انجليزي - مغربى ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا واعرب السفير المغربى عن استعداد المنصور لتقديم القروض اللازمة لتجهيز الحملات العسكرية التى ينوي دو انطونيو القيام بها لاستعادة عرشه ، بل واكد لاييليزابيت عزم المولى احمد على التوجه على راس القوات المغربية الى اسبانيا متى وصلت اليها القوات الانكليزية (23) .

والذي يلفت النظر في هذه الاقتراحات هو حرص المنصور الاكيد على بناء قوى بحرية عظيمة وخلق اسطول مغربى مسلح ، للدور الهام الذى يقوم فى الميدان العسكري دفاعا وهجوما ، ولاهيمته الاقتصادية والسياسية ايضا (وهو بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . وفتح الاندلس . . والاتطار البعاد) (24) .

والمنصور وان لم يتوصل الى عقد اتفاق مع الانجليز ، فانه سعى مبدئيا الى نقل دون كريستوف الى المغرب ، شعورا منه بالدور العظيم الذى سيلعبه فى المجال الخارجى متى كان الامير البرتغالى بين يديه وفى بلاطه ، وقبل ان يصل دون كريستوف الى المغرب عمل المنصور على تحصين الموانئ وخاصة العرائش والمعمورة وعلى بناء السفن وتهيء القوات المسلحة (25) . وقد غادر كريستوف لندن يوم 23 ديسمبر 1588 .

(23) البحر المتوسط (ميرناندو بروديل) ص 590

(24) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

(25) م. ت. م. المجموعة الاولى - بريطانيا - ج 1 - ص 476

كما تؤكد رسالة معاصرة ذلك (26) ، الا اننا نجهل كيف خرج والطريق التي سلكها من لندن الى المغرب للسرية التامة التي احيطت بها رحلة الامير البرتغالي ، واذا رجعنا الى الوثائق التاريخية نجد بأن المنصور قد بعث مع السفير الانجليزي في المغرب سفيرا من لدنه الى ايليزابيث حيث خرج السفيران من اسفى يوم 2 نونبر 1588 ووصلا لندن يوم 12 يناير 1589 وان السفير المغربي قد عاد مصحوبا برسول من انطونيو وبعض الجنرالات الانجليز (27) ، ولا يستبعد ان يكون ذلك الرسول هو كريستوف للاهمية التي اعطيت لهذه السفارة ، حيث جعل من بين اعضائها عدد من كبار الضباط الانجليز . واعتمادا على ما اثبتته الفشتالي وزير المنصور فان دون كريستوف قد وصل الى اسفى اوائل ربيع الاول 997 هـ الموافق اوائل يراير 1589 (واؤفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخا وضارعا فنزل باسفى قاعدة البحر وبلغ الى امير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوي ، فسرح الى ابنه المولى الامير ابي فارس بالحضرة يهره بارسال كبير الموالي المعلوجى ببابه القائد محمود لصحابته فوصل به وأنزل بسهرج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة واقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم امثاله) (28) .

هل كان المنصور جادا في انجاز وعوده اتجاه الانجليز ودون انطونيو ؟ وهل كان صادقا في عزمه على قرض الامير البرتغالي مبلغ مائة الف دوكة لتهيء الحملة العسكرية ضد البرتغال لاسترجاع عرش لشبونة ؟ ان الاحداث التاريخية تثبت لنا بأن المنصور قد ظل حذرا يقظا ، ولم يندفع خطوات واسعة في تأييد انطونيو والانجليز ضد فيليب الثانى ، ولعلنا نجد لذلك اكثر من سبب واحد :

فرغم وصول الامير دون كريستوف الى المغرب ، ورغم تعهد المنصور بتقديم القروض والمشاركة في الحملات العسكرية ضد البرتغال ، فانه لم يف بذلك عندما هاجمت القوات البريطانية الشواطىء البرتغالية بقيادة الضابطين (Drake) Norris - حيث خربت Peniche - Corogne وانطلقت للهجوم على لشبونة ، فانهمزت امام القوات الاسبانية جون 1589 (29) ، الامر الذي جعل

(26) المصدر السابق

(27) المصدر السابق ص 482 .

(28) الفشتالي : مناهل الصفا ص 101 .

(29) م. ص. ت. م - الهجوم الاول - بريطانيا - ج 1 - ص 527

الانجليز يلومون المنصور على عدم تقديمه المساعدات المتفق عليها ويحملونه مسؤولية انهزامهم في حملتهم ضد البرتغال (30) .

والدافع الذي جعل المنصور لا يقوم بتنفيذ ما وعد به من مساعدة مالية وعسكرية هو ان فيليب الثانى ملك اسبانيا ، قد دخل مع المنصور في مفاوضات سرية ، مبديا استعداده للتنازل عن بعض مناطق الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بعد ان كان الملك الاسبانى يطالب بالمزيد من هذه القواعد كالعرائش مثلا . ونعلا فقد تم التفاهم بين الطرفين وجلت القوات الاسبانية عن مدينة اصيللا يوم 13 سبتمبر 1589 م (31) اي بعد ان تأكد فيليب الثانى من ان المنصور لم يشارك في الحملة الانجليزية السابقة ضد البرتغال وبأنه لن ينضم الى خصوم اسبانيا في المستقبل .

على ان المولى احمد قد كتب الى قائدي الحملة الانكليزية من مراكش بتاريخ 10 سبتمبر 1589 مجيبا عن الرسالة التى كانا قد بعناها اليه لاستفساره عن عدم تدخله عسكريا ومديد المساعدة للحملة الانجليزية ، وقد برر المنصور فى جوابه عدم تقديمه المساعدة : كونه لم يكن على علم بموعد الحملة ، لان السفير المغربى مرزوق السيد قد غادر المغرب الى لندن فى مطلع سنة 1589 (هذا وكتابتكم قد اتصل بمقامنا العلى صحبة رسولكم المكرم . . وتلقينا منه ما ذكرتموه عن استطلاعكم الى الاشياء التى وعدكم رسولنا ان تأتيكم من مقامنا العلى والمال للسلطان دون انطونيو والطعام والبارود لعمارتكم ، اعلموا ان رسولنا هذا الذى ذكرتم كان انفصاله عن حضرتنا العلية تجاهكم من قبل ان تتحرك عمارتكم او نسمع لها خبرا أصلا . وبعد بلوغه بلادكم تعينت حركتكم وسفر عمارتكم وكيف اذ اتفوترون بهذا القول ويصح لديكم اننا نعدكم بشيء ولم يتقدم لنا به علم ولا حصل لنا به خبر) (32) . فهل كان المنصور صادقا فى تعليقه هذا ؟ وهل لم يسمع قط بخبر الحملة الانجليزية ضد البرتغال ؟ ان الوقائع يؤكد عكس ذلك : لقد تراجع المنصور عن عوده بالمشاركة فى الحملة ضد الاسبان ، والتقى مسؤولية عدم المشاركة على السفير مرزوق السيد ، مع ان سر تراجعه يكمن فى مفاوضاته السرية مع فيليب الثانى الذى عجل بالتخلى عن مدينة اصيللا يوم 13 سبتمبر 1589 م ، اي بعد ثلاثة ايام فقط من توجيه المنصور لهذه الرسالة الى القائدين الانجليزين .

(30) م. ص. ت. م المجموعة الاولى - بريطانيا - ج 2 ص 34
(31) فصل الفشتالى القول فى جلاء الاسبان عن اصيللا . مناهل الصفا . ص 114
(32) يوجد نص رسالة المنصور الى الضابطين الانجليزين - فى مجلة تطوان عدد 9 ، ص 76

ورغم ذلك فان المنصور لم يتوان عن تقديم الوعود لمساعدة دون انطونيو والانجليز في المستقبل (غير انه اذا كان قد وعدكم بشيء من ذلك للمستقبل فلا شك في أن هذه الامور التي ذكرتم والاشياء التي طلبتم هي كلها بحول الله أسهل علينا وأيسر مطلوب لدينا وليس فيها بحول الله ما يشق علينا أو يصعب أمره على متامنا لما بيننا وبينكم من المحبة) (33) .

ان مواقف المنصور واستغلاله للنزاع الاسباني - الانجليزي قد ساعدته على تحرير مدينة أصيلا ، احدى قواعد الاحتلال الاسباني بسواحل المغرب الشمالية على المحيط الاطلسي ، الم يكن المنصور يهدف من جملة ما يهدف اليه من تأييد دون انطونيو دفع هذا الاخير الى تحريض حاكم سبته على التنازل عنها للمنصور ؟ لقد ادرك فيليب الثاني هذا الجانب في سياسة المنصور ، فلم يكف بالسكوت عن المطالبة بالعرائش ، بل تنازل للمنصور عن أصيلا ، وهل كان المولى احمد يطمح الى أكثر من استعادة مدينة هامة وقاعدة رئيسية من قواعد الاحتلال الاجنبي بالمغرب دون خوض معارك حربية واراقة دماء ؟ من هذا يتجلى لنا جانب هام من جوانب السياسة التي كان المنصور ينهجها : سياسة الحذر واستغلال الظروف لتحقيق المزيد من الانتصارات ولا سيما التي تعود بالفوائد العظيمة ودون تكاليف تذكر (فلم يزل أمير المؤمنين يسدي في أمرها ويلحهم . . ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من الكياسة) (34) .

ان موقف المنصور اتجاه انطونيو والانجليز ، لم يترك لديهم اي مجال للشك خصوصا بعد الجلاء عن أصيلا ، بأن التفاهم قد حصل بين فيليب الثاني والمنصور وان الامر يحتم عليهم وضع تخطيط جديد في محاربة الاسبان ، والبحث عن حليف آخر غير المنصور الذي اثبتت الايام بأنه غير صادق في وعوده ، وكانت المطالبة بارجاع دون كريستوف الى لندن أولى بوادر هذه السياسة حيث اشعر المنصور في شهر اكتوبر 1589 م بضرورة تنفيذ وعوده او ارجاع الامير البرتغالي (35) ، الا ان المنصور الذي ألقت الظروف بين يديه اميرا برتغاليا لم يكن ليترك الفرصة الثمينة لتقلت من يديه دون ان يستغلها استغلالا كبيرا لمصلحه ولصالح بلاده فنى الداخل والخارج :

(33) المصدر السابق .

(34) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 114

(35) م. ص. ت. م. المجموعة الاولى - بريطانيا - ج 1 - ص 530

فالتجاء أمير برتغالى الى بلاط المنصور بمراكش قد أشعر المنصور بقوته ، واضفى عليه صفة الحاكم القوي العظيم اتجاه خصومه فى الداخل ، وزاد من قيمته فى الخارج بالنسبة للعالمين والاسلامى والمسيحى على السواء ، وفى ذلك اكبر ضمان للمنصور لكسب شهرة واسعة فى الشرق والغرب (ومن البشائر العظيمة . . ما اتفق من ورود ولد طاغية برتغال الذى عبر البحر الى حضرنا الشريفة . . مؤملا النصر من سيوفنا المظفرة بالله على سترداد ملكهم الداثر) (36) .

كما أن فى ذلك فرصة عظيمة لتحقيق الكثير من آمال المنصور وطموحه ، واكبر هذه الآمال التوسع نحو الجنوب بما يعرف (بالسياسة السودانية) ، هذه البلاد الاسلامية المترامية الاطراف ، المشهورة بفناها ووفرة منتوجاتها والتي كانت بعض سواحلها تخضع بالامس القريب للبرتغاليين الذين ضعفت دولتهم وانقرضت امبراطوريتهم منذ انهزامهم فى معركة وادي المخازن .

لقد كان المنصور وهو يعد العدة لفتح السودان مطمئنا الى ان الظروف الدولية لن تسمح لاي من خصميه العنيدى فى الشرق والغرب بالتحرك ضده :

فالاسبان كانوا منشغلين برد الهجومات الانجليزية ضد البرتغال واسبانيا (فكان اشدهم تكالبا عليه (اي على فيليب الثانى) واكثرهم جراة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والخذ بمخنته ايزابيل سلطانة ممالك بلاد نكلطيرا لاغراء مولانا امير المؤمنين اياها بمناواته وشحد عزائها على عداوته ومظاهرتها على مغالته بما ادها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة التي اعوزتها ببلاها ونصبها ايده الله فى وجه عدو الدين وقبض له منها ايده الله بمقتضى عظيم حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياطه شاغلا يشغله تفرغا واستجماعا . . واعتزت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرتيه وطاوعته على ما اغراها به وتوكانت على منسات الاسناد الى جانبه والاعتضاد بعظيم سلطانه) (37) . ولم يكن فيليب الثانى يطلب ود المنصور فى وقت اكثر مما هو عليه الحال ، للحيلولة دون انضمامه الى الانجليز ومساعدة دون انطونيو . وللحروب القاسية التي كانت تخوضها الجيوش الاسبانية بأوروبا الغربية ثم لتدخل فيليب الثانى المسلح بفرنسا بدعوى تأييد الحزب الكاثوليكي ضد البروتستانت

36 رسالة من المنصور الى سوس وهو فى الطريق من مراكش الى فاس (رسائل سعية) ص 160

37 الفتخالى : مناهل الصفا . ص 193

اووافق ذلك ما كان من تحويل جمهورا هل تلك الممالك الى الدين الحادث في الامم النصرانية المعروف بلاتريان « نسبة الى مارتن لوتر » فكان ذلك اعون على خذلان ملك الانرنج لاطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين . . وليس له مع ذلك وارث ملكه . . فلم يكن اقرب اليه واحق بارثه من ابن عم له سلطان اهل نبارة (مملكة ناتار) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة وكانوا كلهم على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة في ملك الانرنج لانقطاع وارثه وتحويل دين اهله فاعتمل في التضريب بين سلطانهم وقومه واغرى بعض اهل باريس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت الفترة بينهم وبين سلطانهم . . فانتقل عن باريس الى روان . . ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نبارة ثم عاود باريس منا زلالها فندس اليه اولياء طاغية قشتالة من اهلها بالفدر على يد قسيس نطعنه . . فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة انرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نبارة وصارت باريس بعد خروج صاحب انرانصة عنها ليجيه ومعناه جماعة تدير الامر وصاحب قشتالة معهم فسى تلك الليجة كاندت تلك الجماعة وكان يمدهم بجيشه الذي بافلانضس « لفلاندر » (38) . وهكذا دخلت فرنسا في حرب اهلية دامية واحتدم الصراع المسلح بين البروتستانت والكاثوليك ، وبالتالي بين انجلترا واسبانيا فازدادت مشاغل نيليب الثانى وازداد تسكه بمسالمة المولى احمد المنصور .

واما الاتراك العثمانيون فعلى اثر الانتصارات العسكرية والدبلوماسية التى حققتها في ايران عقب تولية الشاه عباس الثانى في يونيه 1587 الذي اضطر امام خطر الازبك في خراسان ، الى التفاوض مع السلطان العثمانى والاعتراف بجميع الفتوحات التركية بايران اى في جورجيا وشيرفان ولورستان وشيرزول ونيرزواذ ريجان . . (39) فوجهوا نحو اوروبا الشرقية واخذوا منذ سنة 1589 يهيئون القوات والعتاد برا وبحرا لمهاجمتها ، يشجعهم على ذلك تصدع الجبهة المسيحية بأوروبا الشرقية ، والحروب القائمة بينها ، وانهزام الاسبان في الارمادا وتوالى الحروب الدينية بأوروبا الغربية .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نجد بأن العلاقات المغربية - التركية قد عرفت تحسنا في هذه الفترة ، ومن مظاهر ذلك استقبال المنصور بفاس خلال ربيع الاوّل 997 هـ / يناير 1589 (كانت الارسال الواندة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية

(38) المصدر السابق .

(39) البحر المتوسط : (البروديل) ص 1012

مقيمة بفاس لانتظار بلوغ أمير المؤمنين إليها (40) وقد جاء الوفد التركي (خاطبا
لسلمنا وراغبا في عقد الصلح والمهادنة معنا) (41) . ولم يخف المنصور الدواعى
التي قاربت بينه وبين الأتراك (ولعل في ذلك اجتماع كلمة الإسلام ان شاء الله
بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عوننا على
صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين) (42) اي استغلال انهزام الاسبان
في الارمادا للتدخل ضدهم ، ثم للتوسع في السودان (حتى ينجز الله لهذا الامر
العزیز وعده في الاستيلاء على الاقطار ان شاء الله دانيها وقاصيها) (43)

وبالمقابل ، فقد بعث المنصور سفارة الى مراد الثالث مع على التجريوي
ومحمد الفشتالى (فتوجهنا . . سفيرين بهديته المباركة مع الرسل ووردنا على
الابواب العثمانية بالقسطنطينية قاعدة الملك بأقصى بلاد الروم وهى المعروفة عند
المغرب بصطنبل) (44) ، وذلك في شوال 997 / غشت 1589 حيث استقبل
السلطان العثمانى السفارة بكل حفاوة (ولما حان وقت السفر وتيسر اذن لنا في
الدخول على السلطان للوداع . . وناولنا اجوبة كتب الخليفة السلطان مولاي احمد
وهدية عظيمة مكافأة وبعثوا معنا رسولين منهم) (45) . لقد هيا الاستقرار الداخلى
بالمغرب فرص التطور والازدهار الاقتصادي والاجتماعى ، وامكن المنصور من
استغلال الظروف الخارجية المضطربة للتأثير في مقدرات حفظ التوازن الدولى وتمهيد
الجو المساعد على التوسع الخارجى بالسودان وغربى فريقيية ، مما جعل لهذه
الفترة من تاريخ المغرب الحديث طابعا مميزا خاصا ان لم نقل بأنها الفترة التى
كانت تمثل الاوج بالنسبة لعهد المولى احمد المنصور .

وأبرز ما اتصفت به سياسة المنصور الخارجية خلال هذه الفترة : الدهاء
والحنكة والحزم ، الامر الذي يفسر لنا وجود اميرين في بلاط المنصور بمراكش
كلاجئين سياسيين اهدهما من أوربا الغربية هو دون كريستوف بن دون انطونيو
المطالب بالعرش البرتغالى والآخر من السودان هو على بن داود المنافس الخطير
لاخيه اسكيا اسحق بكاغو وكلاهما يلحان على مساعدة المنصور وعونه الهادي
والمعنوي لاسترجاع حقوقهما في عرشى البرتغال والسودان .

(40) الفشتالى : مناهل الصفا ، ص 99

(41) رسالة المنصور الى سوس - رسائل سعديّة - ص 160 .

(42) المصدر السابق

(43) المصدر السابق

(44) التاجروتى : النفحة السكية . ص 12

(45) المصدر السابق ، ص 68 .

فهل كان المنصور جادا في بذل المساعدة التي كان يعدها كلا من الاميريين البرتغالي والسوداني ؟ ام انه استغل وجودهما في بلاطة وبين يديه للمساومة وتحقيق ما كان يصبو اليه من توسيع خارجي في السودان منذ امد بعيد ؟

ان المنصور وهويأوي في بلاطة الاميريين اللاجئين لم يكن يرى فيها اكثر من وسيلتين هامتين لخدمة مصالحه الخاصة اولا ومصالح بلاده ثانيا ، كما انه لم يخرج في نفس الوقت عن السياسة التقليدية التي سار عليها كل من خصميه ومنانسيه السلطان العثماني مراد الثالث وفيليب الثاني اتجاهاه بوجه خاص والمهم في الامر هو براعته واتقانه لهذه الادوار المتناقضة ونجاحه اخيرا في فتح السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغربي افريقية .

فبالنسبة لعلاقته مع الدولتين الاوربيتين : اسبانيا وانكلترا ، نذكر بأن تراجع المنصور عن نجدة دون انطونيو كان له اثر كبير في تطور الاوضاع بأوروبا الغربية : فقد كان الانجليز يعتقدون اكبر الآمال على هذه المساعدة لمهاجمة الاسبان وغزو بلاد البرتغال بصفة خاصة غداة انهزام الاسطول الاسباني في الارماد ، وبديهي ان حل المشكلة البرتغالية من شأنه ان يساعد الى حد بعيد على وضع حد للحروب الدامية القائمة بالاراضي المنخفضة وفرنسا وعلى العكس من ذلك فان نجاح فيليب الثاني في استمالة المنصور ودفعه الى الوقوف على الحياد في النزاع المسلح مع الانجليز بالتنازل له عن مدينة اصيلا ، قد ضيع على الانجليز وكل خصوم اسبانيا من المعسكر البروتستانتى فرصة ثمينة ، مما خفف من وطأة الانهزام في الارمادا ومكن الاسبان من الحاق هزيمة كبرى بالانجليز عند هجومهم على لشبونة ، ولما تمض غير سنة واحدة على الارمادا حيث اعتبرت مدريد ذلك كانتقام لانتهزامهم السابق امام الانجليز ، كما شجع فيليب الثاني على مواصلة حروبه في الاراضي المنخفضة وعلى التمادي في تدخلاته العسكرية بفرنسا ضد هنري الرابع البروتستانتى ، بدعوى احقية ابنته في العرش الفرنسى وان كان في الواقع يرمى الى ضم العرش الفرنسى كما سبق له العمل في البرتغال قبل عشر سنوات .

فلاسبان قد استفادوا كثيرا من مواقف المنصور الحيادية ، وهل كان في مقدور المنصور ان يتمادى بعيدا في تأييد دون انطونيو وفي مجارة الانجليز فسى مشروعهم الرامى الى غزو البرتغال والتدخل ضد الاسبان ؟

لقد كان المنصور يدرك جيدا ان بوسع الاسبان اثاره العديد من الاضطرابات ضده بالمغرب ، فبالاضافة الى قواعد الاحتلال الاسباني بالسواحل المغربية كان

فيليب الثانى ياوي أميرين سعيدين من أشد المناهسين للمنصور هما : الناصر بن عبد الله الغالب ، والشيوخ بن محمد المتوكل وقد كانا بلشبونة ثم نقلهما فيليب الثانى الى (Carmona) قرب اشبيلية فى شهر ماي 1589 م ، محاطين بكل مظاهر العناية والتقدير ، مما أكد للمنصور نوايا الملك الاسبانى الحقيقية والاهداف البعيدة التى كان يسمى اليها بايوائه الاميرين السعيدين وتأييدهما ، وجعله بالتالى يقف من دون كريستوف موقفا صوريا لا يتعدى التأييد الظاهري المعنوي .

وبالاضافة الى ذلك فان المنصور لم يغفل يوما عن الدور الهام الذي يلعبه الاسبان فى رد الخطر التركى عن المغرب ، كما أن الاسبان بدورهم كانوا يقدررون دوما أهمية المغرب الاستراتيجية والعسكرية فى الوقوف امام الزحف التركى وللدفاع عن ايبيريا وأوربا الغربية المسيحية ، الى حد أن الخوف من التهديد التركى قد قارب بين حكام مدريد ومراكش وجعل لسياستهما الخارجية ثابعا تقليديا خاصا ، ودوره الاقتصادي لاشرافه على ملتقى التجارة البحرية بين الغرب والشرق علاوة على القواعد الاسبانية المنبته بسواحل المغرب الشمالية والغربية .

اما بالنسبة للانجليز فالمنصور ظل يؤكد للملكة اليزابيت محافظته على الروابط الودية القائمة بينهما واستعداده التام للتدخل لصالح الامير دون انطونيو (واعزت صاحبة بلاد انجلترا بمظاهرتة وطاوعته على ما أغراها به وتوكتت على منساة الاسناد الى على جنباه والاعتضاد بعظيم سلطانه) (47) ، وحسب المذكرة التى بعثها جيمس دون انطونيو فى المغرب Jhon de Cardonas بتاريخ 18 أكتوبر 1589 فان المنصور لم يخف عنه استعدادة التام لتقديم القروض لدون انطونيو ، الا أنه اشترط اطلاعه مسبقا على موعد الحملة المزمع القيام بها ضد الاسبان (48) . الامر الذي يصعب تنفيذه من جهة ، ويؤكد من جهة أخرى مراوغة المنصور وعدم صدق نواياه ، وما كان للانجليز ، وقد خبروا المنصور من قبل أن يثقوا به من جديد ويركنوا الى وعوده والتزاماته ، وأن يطلعوه على أسراهم وحقائق نواياهم ، فلا شىء يضمن لهم عدم تسرب هذه الاسرار الى فيليب الثانى الذي كان لهم بالمرصاد .

ان بواذر الشك وعدم الاطمئنان قد بدت فى عدد من التقارير التى أرسلت من المغرب الى انجلترا وفى بعض الرسائل التى تبودلت بين الانجليز : فالانصار

(47) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 193

(48) م. ص ت. م - الهجوم الأولى - بريطانيا - ج 1 ص 530 .

المباشر والقوي الذي حصل بين المغاربة والانجليز في الميادين الاقتصادية والتجارية ثم السياسية ، قد مكن المبعوثين الانجليز المستقرين في المغرب من الاطلاع عن كثب على كثير من الاوضاع الحقيقية للمنصور سواء فيما يرجع لعلاقاته مع الاتراك أو مع الملك الاسباني فليبي الثاني ، وجعلهم يدركون بعض نواياه الحقيقية ، انما الجدير بالملاحظة هو ان بعض هؤلاء المبعوثين قد بالغوا في تشويه سمعة المنصور مدفوعين بعوامل كثيرة : اما للفشل الذي منوا به في ماموريتهم لدى المنصور أو لعدم الاخلاص فيما ائتمنوا عليه ، لان التقلبات وعدم الوفاء والاخلاص كانت من سيم ذلك العصر المضطرب .

ولاجل ذلك دخلت العلاقات المغربية – الانجليزية في حالة من التوتر :

- 1 – لما أبدته اليزابيت من حرص والحاح شديدين على المنصور في ان يقوم بالتزامات القروض المالية والمساعدات العسكرية لدون انطونيو .
- 2 – التعجيل باعادة دون كريستوف والسماح له بمغادرة المغرب الى انجلترا حالة تراجعه عن وعوده السابقة .
- 3 – مطالبة المنصور بتحسين اوضاع التجار الانجليز في المغرب .
- 4 – تهديد المنصور بعرض الحال على السلطان مراد الثالث .

أكد المنصور للسفير الانجليزي Edward Prynne عند استقباله بمراكش خلال ابريل 1590 (49) عزمه على مساعدة دون انطونيو عند تدخل الانجليز عسكريا ثم وجه الى اليزابيت سفارة خاصة ومعها كتاب بتاريخ 19 شعبان عام 998 هـ الموافق 23 يونيو 1590 اهم ما جاء فيه محاولة المنصور تبرير تماطله ، وذلك بسبب انشغاله بفتح السودان (هذا وانه اتصل بمقامنا العلى كتابكم الواصل صجة رسولكم المكرم . . نحيطكم اننا كنا لا شك واعدنا رسول السلطان دون انطونيو الذي هنا بحضرتنا الشريفة بانكم اذا مددتموه انتم لهذا العام بما يطلب منكم من العساكر والاجناد وقمتم بنصرته لذلك على ساق الجد والاجتهاد نبعث انجاهكم رسولا من قبل مقامنا العالى وواغى رسولكم الواصل في حال الابهة والاحتفال بهذه الحركة السعيدة التى أخذنا في تجهيزها ان شاء الله الى جهة السودان وهى على قدم السفر بجول الله في هذه الايام . . وبسببه قبضنا رسولكم

(49) م. ص. ت. م بريطانيا – ج 2 – ص 18

. . على وجه العز والكرامة بينما نفرغ ان شاء الله من تجهيز هذه الحركة السعيدة عن قريب وتنصرف بسلامة الى قصدها وسبيلها فنلتفت اليه حينئذ ان شاء الله في اغراضكم واغراض السلطان دون انطونيو ولكن بودنا ان تكتبوا لنا وتعرفون بما عندكم عن هذا الامر واي وقت عزمتم عليه لنكون ائى بصيرة نأنا واياكم في هذا الامر واحد) (50) .

وسيتخذ المنصور من موضوع فتح السودان وانشغاله به سبيلا للمهاملة والتحايل لعدم تقديم اية مساعدة الى دون انطونيو ضد الاسبان .
لقد تاكد الانجليز بأن المنصور غير صادق فيما يدعيه من حرص على انجاز وعوده لدون انطونيو ، وانه انما يسعى الى هدفين اثنين :

1 - التظاهر بمصادقة كل من لندن ومديرد في آن واحد : وذلك من خلال ما يؤكده للسفراء الانجليز وفي مراسلاته للملكة اليزابيت من رغبة صادقة وحرص اكيد على التعاون العسكري لصالح القضية البرتغالية والامير دون انطونيو ولما يقوم به من جهة أخرى من اتصالات مستمرة مع فيليب الثانى تتم جميعها عن جو الصداقة القائمة بينهما في الوقت الذي كان يسعى الى دفع الانجليز للدخول في حروب ضد الاسبان دون ان يشترك فيها ، ليشغلها ببعضها البعض وليضعف من شوكة الاسبان وفيليب الثانى بوجه خاص أو العمل على توسيع رقعة الخلاف الاسبانى - الانجليزى والحيلولة دون حصول أي تفاهم أو تقارب بينهما (51) ، لان ذلك ليس في صالح المنصور ومن شأنه ان يحول بينه وبين التوسع بالسودان بل ويعرض المنصور للخطر الاسبانى وتهديد فيليب الثانى بوجه خاص (وقيض له منها ايده الله بمقتضى حزمه وواسع تدبيره . . شاعلا يشغله تفرعا واستجماعا الى ما كان ايده الله صرف اليه . . من تجهيز العساكر الى بلاد السودان (52) .
ب - الدخول مع فيليب الثانى في مفاوضات سرية لتبادل الخارجين عليهما ومساومته على الاميرين السعديين اللاجئين باسبانيا الناصر والشيخ بالامير - البرتغالى الموجود بمراكش دون كريستوف (53) .

ومما زاد في شكوك الانجليز اتجاه المنصور ما تعرض له بعض التجار الانجليز في المغرب من معاملة سيئة ، خاصة وان الكثير من التقارير التى وصلت الى لندن

(50) رسالة المنصور الى ايليزابيت - مجلة تطوان عدد (3 - 4) . ص 55

(51) م. م. ت. م - بريطانيا - ج 2 ص 36

(52) الفشتالى : مناهل الصفا - ص 193 .

(53) م. م. ت. م بريطانيا - ج 2 ص 89

تد اطنبت فى وصف المعاملة القاسية التى اصبح التجار الانجليز يلقونها من قبل المنصور ومن رجاله المسؤولين .

وقد استجابت الملكة اليزابيت اخيرا لنداءات مبعوثها وتجارها فى المغرب وكتبت الى المنصور تستنكر معاملته للتجار وتستوصيه بهم خيرا وتطلب منه الاعتناء بهم واطلاق سراح المعتقلين منهم ، متهمة اياه بانزال الاذى بهم والتعدي عليهم لا لجرم اقترفوه بل ابتغاء لمرضاة الانسبان وملكهم فيليب الثانى (54) .

فهل كان الانجليز صادقين فى ادعاءاتهم ضد المنصور ؟ ان الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة تؤكد بان التجار الانجليز والجالية الانجليزية بوجه عام هى التى عرضت نفسها لنقمة المنصور وغضبه .

اننا نعلم الصلات القوية التى كانت بين الحكام السعديين والتجار الانجليز منذ عهد المولى محمد القائم وابنه احمد الاعرج ، هذه الصلات التى عادت على الفريقين بأعظم الفوائد اذ استفاد السعديون من الاسلحة الانجليزية خاصة ، واستفاد الانجليز من متاجرتهم مع المغرب (بما امدها به من النحاس لتفريغ مدافع التار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالك الشريفة وامدادها بالمعادن التى اعوزتها ببلادها) (55) . ويكنى الاشارة الى ان التجار الانجليز قد اسسوا سنة 1585 (الشركة البربرية) التى اصبحت بعد زمن تحتكر بالدرجة الاولى تجارة السكر المغربى ، فهل يعقل اضطهاد المنصور للتجار الانجليز او لبعضهم دون ارتكابهم ما يستلزم ذلك ؟ (اما ما كنا عليه من العهد معكم فى امر كل من يخرج بسواحلنا من خدامكم ويصل لبلادنا من تجار بلادكم فمازلنا على عهدكم فى رعيهم واحترام جانبكم فيهم ومعاملتهم بجميل العدل وحسن الانصاف فى سائر احوالهم وعمامة شؤونهم) (56) .

لقد اخذ بعض التجار الانجليز بالمغرب يثيرون مشاكل خطيرة بعد الارمادا ، نشرت الفوضى فى الداخل وشوهت سمعة المغرب فى الخارج ، مما اضطر معه المنصور الى اتخاذ مواقف صارمة ضد الخارجين على القانون ، ومن ذلك تنظيمهم بهراكشى لمظاهرة عداوية ضد الاسبان حيث قصد المتظاهرون اللذين كانوا يتكونون

54 المصدر السابق ، ص 34

55 الفشقالى : مناهل الصفا . ص 193

56 رسالة من المنصور الى ايليزابيت - دار الوثائق بالرباط ، مخطوط ك 278 . ص 195 .

علاوة على الاتجليز من هولانديين واندلسيين بيت السفير الاسبانى بالمغرب
Diego Marin وقاموا باضرام النار فيه ، مما اجبر السفير الاسبانى ومن معه
على استعمال الاسلحة النارية ضد المهاجمين (57) .

ولما كان المنصور حريصا اشد الحرص على اقرار الامن وتوطيد دعائمه
بالمغرب ، لما يترتب عن ذلك من ازدهار سياسى وتطور اقتصادي وعمرانى ، فانه
لم يتوان عن عقاب المذنبين وانزال الاذى بهم لردعهم وليكونوا عبرة للاخرين (ومما
نعرفكم به ان رجلا هنا ينتسب الى التجارة الى اهل بلادكم قد تعدى طوره ودخل
امورا لا تعنيه من اسباب الفساد والخوض فيما لا يعنى من الفضول التى خرج بها
عن حالة التجار الواقفين عندما يعينهم فبسبب ذلك امرنا بسجنه وعرفناكم بحقيقة
حالته) (58) .

التجات الملكة اليزابيت أخيرا الى مكاتبات السلطان العثمانى مراد الثالث
فى اول سبتمبر 1590 وطلبت منه التوسط لدى المولى احمد المنصور ، وحثه على
نجدة دون انطونيو وانجاز ما وعده به من قروض مالية ومساعدات عسكرية ضد
فيليب الثانى الذى ينوي امتلاك العالم والسيطرة على شعوبه (59) وقد وجد
وجد السلطان العثمانى فى ذلك فرصة مناسبة للتدخل فى القضية البرتغالية واستغلالها
ضد الاسبان وفيليب الثانى ، وفى المغرب ضد المولى احمد المنصور :

لقد اتسمت علاقة السلطان العثمانى مراد الثالث بالمنصور بنوع من التحسن
اخيرا لما راينا من تبادل السفارات وعبارات الود والتقدير ، دون أن تغفل عين
المنصور عن ابن أخيه الامير اسماعيل ابن عبد الملك ، اللاجئ عند الاتراك والذى
كان يلتمس من السلطان العثمانى كل عطف وتأييد وقد كانت مشاغل المنصور بالمشكلة
البرتغالية والحرص على اغتنام فرصة النزاع الاسبانى - الانجليزى لفتح السودان
من عوامل التقارب المغربى - التركى اذ أبدى المنصور حرصا كبيرا على مسالمة
الاتراك بالشرق وفى شمال افريقيا بصفة خاصة رغم الظروف المساعدة على التدخل
ضدهم : فالدالى احمد باشا قد خاض غمار حروب داخلية بشمال افريقيا وفى
طرابلس انتهت بمقتله سنة 1589 ولم يتمكن خلفه خضر باشا من اخماد هذه
الفتن الا بعد جهد جهيد ، ومما تحفظه لنا الوثائق التاريخية الرسائل التى وجهها

(57) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 97
(58) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت - فى مجلة تطوان عدد 8 . ص 81
(59) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 40

المنصور الى الوالى خضر باشا وجميعها تؤكد ما ذهبنا اليه من حرص المنصور على مسالمة الاتراك والتمسك بحسن الجوار معهم فى الجزائر (التى بمسامعنا الكريمة ما ذكرتم انكم حظيتم مقامنا العلوي قبل هذا التاريخ وتشوقتم للجواب فلم تصدر لكم مراجعة ما من علائنا فتمعجبنا من ذلك ونحن قد أنفذنا اليكم الجواب على سبيل الفور . . لما تقتضيه حرمة الجوار فتقوا بأن وداكم عندنا محفوظ) (60) والاعراب عن تأييدهم المادي والعسكري (ثم اعلموا ان آنستم من جانب الكفرة دهرهم الله عمارة تنشأ أو أسطولا يؤم ناحيتكم واحتجتم الينا فنحن بحمد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودين بنصرتكم على اتم اهبة واستمداد) (61) .

على أن السلطان العثمانى الذى كان قد أنهى المشكلة الايرانية على حساب الدولة الصفوية قد جرب استغلال تقرب الانجليز منه للتدخل فى المغرب ، خصوصا وأنه لم يفتا بين الفينة والاخرى يلوح للمنصور بالامير اسماعيل ابن عبد الملك ، واعتمادا على وثائق معاصرة فان أمير البحر حسن باشا الوصى على المولى اسماعيل قد تحركت آماله غداة اتصال الانجليز بالسلطان العثمانى لحث المنصور على العمل لصالح دون انطونيو ، وأنه قد أخذ يسمى لدى مراد الثالث للتدخل فى المغرب ضد المنصور بطريقتة أو أخرى ، ومن ذلك ما جاء فى رسالة السفير الانجليزي فى اصطانبول Edward Barton بأن السلطان يهيء حملة عسكرية ضد المغرب بحجة محاربة الاسبانيين (62) ، وهذه الرسالة مؤرخة بيوم 24 يونيه 1590 اي فى نفس السنة التى وصلت الى المنصور سفارة تركية تحمل طلب السلطان فى أن يمكن المنصور ابن أخيه الامير اسماعيل من مدخول بعض الاقاليم المغربية ، ويلح عليه فى ارسال ثلاثين الف دوكة عاجلا كتعويض عن السنوات الماضية (63) .

وبالإضافة الى ذلك طالب السلطان العثمانى مراد الثالث المولى أحمد المنصور بارسال (دون كريستوف) الى اصطانبول ، كما جاء فى الرسالة الجوابية للسلطان الى ايلزابيت (64) .

(60) رسالة من المنصور للوالى العثمانى بالجزائر - دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 21

(61) المصدر السابق .

(62) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 26

(63) المصدر السابق ص 46

(64) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 201

وامام اصرار الملكة الانجليزية على عودة الامير البرتغالى الى لندن ، وليقطع المنصور الطريق على الباب العالى ، سمح له بالسفر الى بريطانيا (وانكم تطلبون حيث لم يتمكن امر المال الذي كان طلب امداده به على جهة السلف ولم تظهر فائدة لجلوس ولده المستقر الآن بكريم جوارنا وفي كنف عزنا وايثارنا ، نبعث به اليكم لاجل انكم انتم الذين بعثوه الى جانبنا العلى) (65) . وقد وصل (دون كريستوف) الى لندن اواخر مارس لسنة 1592 (66) .

هكذا استفاد المنصور الى حد بعيد من قضية النزاع الاسبانى — الانجليزي حول العرش البرتغالى : فبين وصول دون كريستوف الى المغرب وخروجه منه (1589 — 1592) اي خلال ثلاث سنوات بلغ المنصور شأوا عظيما في الداخل والخارج وتحكم في توجيه الاحداث وفق مصالحه واهدافه ، كما اصبح في وسعه التأثير على حفظ التوازن الدولى بين قوى المعسكر الكاثولى والبروتستانتى من جهة ، وبين قوى الشرق الاسلامى والغرب المسيحى من جهة اخرى ، فأصبحت له بذلك شهرة عالمية تردد صداها في الشرق والغرب ، وذلك اسمى ما كان يهدف اليه ويعمل على تحقيقه كما استفاد من التجاء على بن داود أخ اسكيا اسحاق بكاغو للتدخل عسكريا في بلاد السودان وتأسيس امبراطورية عظيمة بغرب افريقيا لا تقل اهمية وغنى عن الامبراطوريتين المعاصرتين : العثمانية والاسبانية الشيء الذي رفع من قدر المنصور وجعله في مصاف الملوك العظام الذين عرفهم الربيع الاخير من القرن السادس عشر للميلاد .

65 رسالة من المنصور الى ايلزابيث مجلة تطوان — عدد (3 — 4) . ص 55

66 م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 70

فتح السودان وتأسيس الإمبراطورية المغربية

تمتد بلاد السودان على مساحة واسعة من غربى القارة الإفريقية ، بين منطقتين متباينتين طبيعيا وبشريا واقتصاديا ، هما : الصحراء الإفريقية الشاسعة الاطراف فى الشمال حيث لا تتم الحياة الا فى الواحات وحيث تكثر انماط حياة الترحال والتنقل ، والغابة الاستوائية المكتظة الاشجار موطن القبائل الزنجية البدائية ، فى الجنوب ، وقد اشتهرت منذ القديم بنهرها العظيم (نهر النيجير) الذى يبعث الخصب والحياة فى جميع المناطق التى يمر بها (وحسبها ببلاد آثرها الله واثرها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة . . وارض كرم الله ترتبها وابان فضلها) (1) ، وبزراعتها الواسعة (فقد طم بها بحر الحبوب والاقوات والادم وسال بها سيل النعم المسائلة المنبثه للتناسل فى المرج النضر الممتد على ضفتى النيل جناحا أخضر موسى البرود بوشيح النبات مفدق السقيا بالفيض المتراكب المزج الى محاسن لا تحصى) (2) ، ثم بمعدن الذهب (الابريز وحد النضار الذى فغرت اليه اقطار الارض انواعها) (3) ، علاوة على (اصناف الرقيق المنيف على الذر) (4) اذ ان السودانيين كانوا ينظرون جميعهم الى القبائل الزنجية بالغابات الاستوائية كوثنيين كثره ، تجب مماثلتهم وشن الفارات ضدهم ، فكان ان اتخذوا منهم بضاعة

(1) المشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفاء . ص 117

(2) المصدر السابق . ص 118 .

(3) المصدر السابق . ص 168 .

(4) المصدر السابق . ص 117

للمتاجرة ازدهرت مع الايام الى حد ان مناطق الغابات الاستوائية اشتهرت بتجارة الرقيق بالدرجة الاولى الى جانب الذهب والعاج وبعض التوابل .

ولهذه المزايا العظيمة ازدحم الناس واتسع العمران (فما شئت من مدن تاهرة وقرى متراصفة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة) (5) ، يقصدها التجار من جميع انحاء العالم وخاصة من شمالي افريقيا ومن اوروبا الغربية حيث كانوا يحملون المنسوجات والمصنوعات المختلفة والاسلحة والمشروبات وغيرها (. . .) لكثرة من ينتابها من جميع زوايا المعمور من ركاب التجار وارباب البضائع الثقيلة الذين يضربون اليها اكباد الابل من كل فج عميق) (6) .

كما عرفت بلاد السودان بتاريخها السياسي ودولها العديدة التي بلت السودان في عهدها مراحل هامة من التطور السياسي والازدهار الحضاري .

ومنذ ظهور الاسلام وانتشاره في شمالي افريقيا ، اخذ نور الدين الحنيف يشرق بين جنبات بلاد السودان الى ان عم القسم الاعظم منها ، لدرجة ان مدن السودان غدت من اعظم المراكز الاسلامية بغربي افريقيا خاصة زمن حكم اسرة اسكيا المؤسسة لدولة سنغاي في مدينة كاغ على النيجر الاوسط ، وبحكم وضعية السودان الجديدة دخلت هذه المنطقة في عداد بلاد الاسلام وازدادت الروابط الروحية والمادية بين سكانها وياتى المسلمين في الشرق والغرب ولا سيما بشمالي افريقيا بحكم موقعها القريب من السودان ، ومن اهم مدن السودان . . . العاصمة كاغ وتمبكتو ودجيني وغيرهما . . .

ودولة سنغاي في كاغ يرجع تأسيسها الى محمد اسكيا الملقب باسكيا الكبير ، الذي تمكن بعد ضعف امبراطورية مالي وانحلالها من تأسيس دولة مسلمة سنة 1493 م ، توارث حكمها ابناؤه من بعده ، وقد قاموا بأعمال هامة في بلاد السودان سواء من حيث نشر الاسلام والعروبة او في ما يرجع لتنظيم البلاد وضبطها وخاصة فيما يتعلق بتوسيع حدود الدولة التي اصبحت بعد زمن تحكم امبراطورية مترامية الاطراف ، من مناطق نفودها : اجاديس مدينة القوافل المزدهرة ومركز الاتصال بين السودان وتونس وليبيا ومصر ، ثم امارات الحوصة الخصبة علاوة على مناجم الصحراء المختلفة .

5، المصدر السابق من 117
6 المصدر السابق من 117

وخلال القرن السادس عشر للميلاد ، حصل تطور سياسى ببلاد السودان نتيجة قيام دولة اسلامية فى برنو ، وقد ازدهرت هذه الدولة خلال حكم ادريس الثانى وادريس الثالث (الوما) ، الذين وسعا حدود دولتهما لدرجة اصطدم معها نفود امراء بورنو بنفود آل اسكيا فى المنطقة الخصبة التى اشتهرت بالرخساء الاقتصادى ، فقد تتاسمها الحكام الاقطاعيون وأسسوا بها شبه امارات صغيرة من اهمها . . كانوا ، دورا ، جويبر ، رانوا .. وقد اشتد نفود برنوا وكاغ فى هذه الامارات الطائفية ، مما زاد من حدة الصراع بينها وجعلها تعيش فى اوضاع مضطربة ، ودفع كلا من الحاكمين فى برنوا وكاغ الى البحث عن الوسائل المختلفة التى تحقق له القوة وتكفل له الظفر والنصر .

أما العلامات المغربية — السودانية فترجع فى تاريخها الى عهد بعيد وان تطورت بعد انتشار الاسلام وازدادت قوة الاتصالات التى كانت مستمرة بينهما طوال العمر الوسيط حيث كانت السودان (مراث العديم ومجلبة التبر الى المشارق والمغرب فى الحديث والتقديم (7) .

ومنذ ظهور السعديين وقيام دولتهم بالمغرب ، سعوا الى البحث عن موارد ثابتة تمكنهم من توطيد اقدمهم وتساعدهم على تطوير الاقتصاد المغربى لما فيه رهاية البلاد وازدهارها وكما استغل السعديون قصب السكر بسوس وغيره من الثروات الزراعية والمعدنية فقد سعوا الى استغلال ثروات الصحراء المغربية الجنوبية كمعادن الملح بتغازي (الذى تمتاز منه سائر بلاد السودان) (8) .

فالمولى أحمد الاعرج وهو الحاكم الثانى فى السلالة السعدية ، تدخل سنة 1526 فى توات وكاتب آسكيا اسحق الاول فى أن (يسلم له فى معدن تغاز) (9) ، الا أن الملك السودانى اجابه (بأن أحمد الذى يسمع ليس هو اياه وان اسحق الذى سيع ليس انا اياه ما زال ما حملت به أمه) (10) .

وعندما تولى محمد الشيخ أرسل سنة 1544 الى اسحق فى شأن التنازل له عن معادن تغازي حيث يستخرج الملح ولكن آسكيا اسحق رفض للمرة الثانية بل وأرسل (الفين ركابا من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة الى جهة

7 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 117

8 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 118

9 عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان . ص 99

10 المصدر السابق .

مراكش بلا اخراج روح احد فيرجعون على اثرهم فغاروا على سوق بينما أصبح
كيفما قام وثبت فاكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الاموال فرجعوا كما
امرهم وما قتلوا احدا وما ذلك الا ليرى السلطان قوته (11) .

اما رد الفعل المغربي فقد جاء قبيل مقتل محمد الشيخ ، اذ ارسل سنة
1557 م حملة عسكرية قوامها نحو الف وثمانمائة فارس وصلت الى واد ان
حيث توجد سبخة اجل الشهيرة التي يستغل السودانيون ملحها ويدر عليهم ارباحا
طائلة ، وقد تقدمت منها نحو تغازي وقضت على مظاهر السلطة السودانية بها (اجلب
الامام رضى الله عنه على تغازي فانتزعا من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد
عليه لرجاله) (12)

قاطع السودانيون ملح تغازي والقوافل التي تمتاز منه ، مما اجبر المولى
محمد الشيخ على التفاوض مع الحاكم السوداني على أن ينخلى المغربي عن
(بعض خراجها لسكية مقابلة تسريح بيع الملح الذي تستامه العير الى بلاده من
هذا المعدن فكان سكية يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له تبض
ولا بسط في أحكام البلد والمعدن) (13) .

غير أن الاوضاع كما يبدو قد تغيرت اثر مقتل محمد الشيخ من قبل الاثراك
وبسبب الظروف الداخلية الصعبة التي عرفتها بلاد المغرب بعد مقتله ، اذ استأثر
أسكيا بمناجم تغازي لمد بعيد .

لما تولى المولى أحمد المنصور وأخذت أوضاعه الداخلية والخارجية تعرف
نوعا من الاستقرار ، بدأ في رسم سياسة توسعية خاصة ، أساسها التمرکز في
مواقع استراتيجية هامة في الصحراء المغربية تشتت بواجاتها ومعادنها وبأهبيتها
في المواصلات ، ثم اتخذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورعا أولا ثم بلاد
السودان ثانيا .

وأولى خطوات هذه السياسة كانت عام 990 هـ عندما وهدت على
المنصور بفاس سفارة من برنو أرسلها ادريس الوما (ادريس الثالث) ، وقد حملت
اليه (ما جرت به عادتهم أن يجلبوه في مهادنتهم من فتيان العبيد والاماء المختلفة الاسنان ؛
وكان من ذلك عدد كبير ناهز المئين) (14) ، وذلك ليقتدم الى المنصور خطاب

-
- (11) المصدر السابق . ص 100 .
(12) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 114 .
(13) المصدر السابق . ص 120 .
(14) المصدر السابق ص 67 .

ادريس الثالث المتضمن لطلب النجدة والمساعدة (بالعساكر والأجناد والعدة من البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم فيما زعوا بقاضية السودان من الكفار) (15) .

وما من شك في أن التنافس السياسى والاقتصادي ببلاد السودان بين برنو وكاغ قد كان له أثر كبير في توجه ادريس الثالث الى طلب هذه النجدة العسكرية من المنصور ، بعد أن فشلت المحاولات التي قام بها من قبل مع السلطان العثماني (وكان هذا الرسول قد وفد قبل هذا على سلطان الترك بالاسطنبول مراد يطلب منه المدد) (16) .

كان وصول وفد برنو الى فاس واتصاله بالمولى احمد ، بداية تطور هام في التاريخ المغربى الحديث ، لان اطلاق المنصور على احوال بلاد السودان عامة وبرنو خاصة ، قوى عزمه على الشروع في تنفيذ سياسته السودانية (فقد قارن ذلك ما كان من عزم امير المومنين قبل مجيء هذا الرسول على تجهيز العساكر يومئذ الى تدويخ بلادتوات وتيكورارين وامل ان يجعلها ركابا الى استفتاح اقطار السودان والاستيلاء على ممالكهم) (17) .

ولهذا السبب فان المنصور لم يجد ادريس الوما ملك برنو بالاسلحة والعتاد الحربى من مدافع واسلحة نارية وغيرها ، اذ لم تكن دول السودان قد تعرنت على هذا النوع من الاسلحة الفتاكة بل ان محافظة السودانين على استعمال الاسلحة التقليدية قد كانت من العوامل التي حفزت المنصور على تنفيذ خطته التوسعية خاصة وان الظروف كانت جد مساعدة حيث (نهض بالدولة حتى استتقلت لعهد . . بما تراكم فيها من الجند وتوفر من الحاميه) (18) .

وقد اشترط على ادريس الثالث كأساس لمساعدته اعلان بيعة الخلافة السعدية ، ورغم قبول ملك برنو الدخول في الطاعة (19) فانه لم ينجده بالاسلحة النارية ، وانما التجأ الى سياسة المماطلة والتسويف باتخاذ الاعذار المختلفة ، ولا شك في أن المنصور سيجد من طاعة ملك برنو عاملا مساعدا للاندفاع في سياسته التوسعية بالصحراء وبلاد السودان

15) المصدر السابق ص 67

16) المصدر السابق ص 68 .

17) المصدر السابق ص 68 .

18) الفتاوى : مناهل السنن ص 40 .

19) في مناهل السنن للفتاوى يوجد نص بيعة امير برنو للمنصور (ص 69)

كانت الخطوة الاولى لتحقيق سياسة التوسع : الاستيلاء على منطقتين رئيسيتين بالصحراء الجنوبية – الشرقية المغربية هما : توات وتيكورارين ، فما الداعى الى القيام بالسيطرة على المنطقتين قبل غيرهما من المناطق الصحراوية ؟ الم يكن بوسع المنصور مهاجمة المناطق الصحراوية بجنوبى المغرب والنفوذ منها الى السودان ؟ لقد وجد المنصور امامه طريقتين للوصول الى السودان : الاولى توات وتيكورارين فى الجنوبى الشرقى ، والثانية عبر الصحراء الجنوبية ، غير انه اتجه صوب الطريق الاولى وارسل حملة عسكرية لاحتلال توات وتيكورارين شعورا منه بالدور الهام الذى ستقوم به هاتان المنطقتان لتحقيق اطماعه التوسعية ببسلاد السودان (فالقطران عالم من عوالم الارض . . بما جمع من الامم وتراكم فيه من التصور واتصل من العمران وتخلله من العيون) (20) .

فاحتلاله لهاتين المنطقتين يمكنه من قطع الطريق على الاتراك بالجزائر اذا ما فكروا فى التوجه نحو غربى افريقيا وبلاد السودان بوجه خاص : لغنى المنطقه الاقتصادى ووفرة ترواتها ولمركزها الاستراتيجى الهام كبلد له سواحل طويلة على المحيط الاطلسى – اداة المواصلات الاولى بين اوربا الغربية والشرق الاتمى – يمكن استغلالها لتهديد المواصلات البحرية الاسبانية ، ولن يعدم السلطان العثمانى ما يبرر به تدخله فى هذه البلاد التى تدين بالاسلام بصفته خليفة المسلمين ، خصوصا اذا ما توصل من اسكيا ملك السودان بطلب النجدة والمساعدة ضد المنصور ، خصم السلطان العثمانى العنيد (لها كان صقع بلاد توات وتيكورارين من دون سائر الاقطار القاصية بالمحل القريب من جواره راي ايده الله ان يبدا امره بانفتاحه ويجعله ركبا لها وراه وسلمها لها يليه) (21) . وفى هذا يكمن سر الموقف السلبي الذى انخذه المنصور ازاء طلب المساعدة الذى تقدم به ادريس الوما ملك بونو . خرجت حملتان عسكريتان لفتح توات وتيكورارين عام 991 / 1583 م من تماس ومراكش : الاولى بقيادة ابنى عبد الله محمد بن بركة ، والثانية بتيادة ابنى العباس احمد بن الحداد العمري المعتلى ، وبعد ان التقت القوات الفاتحة بسجلماسة قصدت (تينهميون) قاعدة قصور تيكورارين وغرقت عليها حصارا بعد ان رفض اهاليها اعلان الطاعة والولاء للمنصور (وكانوا قدموا الى اهلها كذب امير المؤمنين بالاعذار والبراءة والدعاء الى الطاعة

(20) الفشخالى : مناهل الصفا . ص 73 .

(21) المصدر السابق .

والإرشاد والدخول في حيز الهدى فأساءوا الرد ولادوا بالمنع واستعدوا للحصار (22) وبعد معارك حربية طاحنة فتحت المدينة عنوة بفضل الاسلحة النارية الفتاكة التي تتوفر عليها القوات المغربية (فانقاد بانقياد تينجبون سائر قطر تيكورارين وأتوا طاعتهم راهبين) (23) .

وبعد تيكورارين قصدت القوات المغربية (تمطيط) قاعدة قصور تـوات نأسرع رئيسها الشيخ عمر ابن محمد بن عبد الرحمان الى اعلان طاعة المنصور اذ (علم انه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر . . فكان استئزال عمر رئيس البلاد وزعيمها مفتاحا لانقياد سائرها (24) .

هكذا حقق المنصور الخطوة الاولى من سياسته السودانية ، واعتبر هذا النصر بمثابة عامل مشجع على الثمادي في طريق التوسع والفتح .

اما الخطوة الثانية فقد جاءت عقب وناة الملك السوداني أسكيا داود في رجب 990 هـ الموافق لغشت 1582 م ، الذي كانت تربطه بالمنصور روابط حسنة ، فتد سبق للمنصور أن بعث اليه يطلب منه التنازل له عن خراج معدن تغازي ، وقد اجاب أسكيا داود بان (بعث له عشرة آلاف ذهبا هدية وعطية خير . . فكان سبب المحبة والوصلة بينهما وبينه) (25) .

ارسل المنصور وفدا الى كاغ عام 991 / 1583 (ومعه هدايا عجيبات) (26) لتقديم التمازي الى الملك الراحل ولتهنئة الملك الجديد ، ثم للاطلاع على احوال البلاد كلها والتعرف على أسكيا الحاج محمد وموقفه من قضية معادن الملح الصحراوية في تغازي التي كان المنصور يرى احتية استغلالها بحكم ان والده محمد الشيخ كان قد انتزعاها من السودان وضمها الى المغرب سنة 1557 م ولكنه تراجع عن بعض خراجها لملوك السودان اللذين أصبحوا يسيطرون على كل المعدن وعائداته الوافرة (فرأى نصره الله أن المعدن لبيت المال وان اباحة ملحه بغير قيمة فيه تضيع لمال المسلمين وحقوقهم فيه (27) . وقد كان على رأس الوفد المغربي الشيخ مؤمن بن موسى العمري المعقلى (تمس زمنه في الفصاحة وطلاقة

22 المصدر السابق ص 74.

23 المصدر السابق .

24 الفشتالي : مناهل الصفا . ص 74 .

25 السعدي : تاريخ السودان . ص 111 .

26 المصدر السابق . ص 120 .

27 الفشتالي : مناهل الصفا . ص 122 .

اللسان . فسرحه بهدية ورسالة الى سكية بكاغو (28) ، واهم ما تضمنته الرسالة مخاطبة أسكيا (فى شأن معدن الملاحة الكائن بتغازي) . وتقدر له فيها ما اقتضاه سديد النظر الكريم من فرض متقال للحمل على كل ما ينتابه من التوافل (29) .

أرجع أسكيا الحاج محمد الوفد المغربى مكرما وارسل معه للمنصور (أضعاف ما ارسل هو من الهدايا من خدام وسنانير الغالية وغير ذلك ومن جملة ما أرسل ثمانون خصيا (30) . وأكد له فى نفس الوقت عن عزمه على عدم التنازل له عن معدن الملح فى تغازي . اما الوفد المغربى فانه (لم يدع من تقيير ولا قمطير الا وأحاط به فهماوفتله علما فتقص ذلك على امير المؤمنين أيده الله وشحد به غرار عزمه) (31) ، وانتهى الامر بأن قرر المنصور التدخل عسكريا لانتزاع المعدن المذكور انما مهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة بين سوس ودرعة شمالا ونهر سينغال جنوبا حتى (يستعين بفتحها وبما تستاق العساكر من الكراع والظهر المجلوب . . . على امر الحركة الى جهة الجنوب) (32) .

خرجت حملتان من سوس : الاولى بقيادة محمد بن سالم ، والثانية بقيادة عبد المولى بن عيسى اواخر عام 1584/992 (وخاضوا القفر مع الساحل الى السودان فوصلوا اليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العسرب القبلية) (33) ، فاذعنت جميع القبائل للثوات الفاتحة وكان من الذين دخلوا فى الطاعة من مشايخ المنطقة (كبيرهم الموفى على الغاية فى السن والهمم ابراهيم ابن رضوان يأمر فلان وموسى جوب وغولى اخويا مرفال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان ... وكان الذى استجاب لهم ودان بالطاعة والانتقاد من عرب الفلاة فقط وأمهم اللذين ينتجعون الكلا فى مجالات القفر الممتد من شعوب المغرب القبلية الى ممالك السودان بالجنوب نيفا واربعين الف خيمة فحصل امير المؤمنين من ذلك على ما أراد وفوق ما كان يأمل من الاستعانة بكثرة الظهر على ما اجمع عليه من الحركة الى سكيا بجهة الجنوب) (34) .

(28) المصدر السابق .

(29) المصدر السابق ، ص 123 .

(30) السعيدى : تاريخ السودان . ص 120 .

(31) الفشتالى : مناهل الصنا . ص 123 .

(32) المصدر السابق . ص 78 .

(33) الفشتالى : مناهل الصنا . ص 78 .

(34) المصدر السابق . ص 79 .

أصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم في المنغذين الهامين نحو السودان خير مشجع ومساعد في آن واحد على رسم سياسة توسيعية بالسودان ، خاصة وأن أسكيا الحاج محمد قد رفض كل نوع من التفاهم مع المنصور حول استغلال ملح نغازي . والسياسة التي مضى المنصور في تنفيذها ترمى :

اولا : مهاجمة نغازي والاستيلاء عليها وتحصينها ثم اتخاذها قاعدة انطلاق للتوسع في السودان .

ثانيا : التدخل في السودان عن طريق استمالة بعض الثوار والخارجين على حكم أسكيا ، واستغلالهم لمهاجمة السودان عسكريا .

وهكذا وجه المنصور قوة عسكرية مسلحة باعثة النار لاحتلال نغازي ، وبعد السيطرة على المنطقة (بنى على ذلك المعدن حصنا انزل به من جيش النار من يحبيه) (35) وقام بفرض مثلث على كل حمل (على جميع الإبل التي تردده) (36) ، وقد تم ذلك خلال عام 994 هـ .

أما موقف أسكيا في كاغ فقد كان سلبيا ، شعورا منه بضعف إمكانياته المسلحة بالنسبة للقوات المغربية المجهزة بكل وسائل النار ومدافع البارود ، وكل ما قام به أسكيا هو اعلان مقاطعة المغاربة بنغازي وعدم التعامل معهم (37) ، فرأى صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة في ذلك لأمير المؤمنين . . نسعى في تعطيل ذلك وإفساده ونادى في سائر بلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن ومنع العير التي تمتاز منه من الورد الى بلاده) « (38) .

ويبدو أن هذا الموقف قد أغضب الكثير من السدانين مما أدى الى قيام ثورة أطاحت في شهر ذي الحجة عام 994 : نوفمبر - ديسمبر 1586 بحكم أسكيا الحاج محمد وجعلت البلاد تدخل مرحلة من الفوضى الداخلية ، إذ تولى أسكيا محمد وهو أخ الملك المعزول في محرم 995 / يناير 1587 إلا أنه توفى في نفس السنة وخلفه أخوه أسكيا اسحاق الذي تمت بيعته يوم الأحد 3 جهادى الأولى عام 996 الموافق 10 أبريل 1588 .

35 المصدر السابق ص 120 .

36 المصدر نفسه .

37 (وفى سنة أربعة وتسعين وتسعمائة في شوال جاء الخبر بأن لا يذهب أحد الى نغازي ممن مشى إليه بماله هدر) - السعيدى : تاريخ السودان . ص 121 .

38 الفشتالى : مناهل الصفا ص 121 .

قضى أسكيا اسحاق الفترة الاولى من حكمه في اخضاع الفتن الداخلية ولا سيما ثورة محمد الصادق بلمع احد الولاة بالسودان ، فقد أعلن نفسه أسكيا بمدينة تنبكتو ولكنه انهزم أخيرا أمام أسكيا اسحاق الذي انتقم من اهالى تنبكتو وانزل بهم سوء العذاب وذلك في شهر جمادى الاولى عام 996 هـ (39) .

ومن الذين ثاروا على أسكيا اسحاق ، اخوه على الذي التى عليه القبض وابتعد عن السودان منغيا الى تغازي ، واعتمادا على ما أورده الفشتالي وزير المنصور في (مناهل الصفا) فان عيون المنصور بالسودان (منصور بن الفيلاى) هو الذي اشار على أسكيا اسحاق بنفى أخيه على الى تغازي . وعلى كل فقد ابتعد على الى تغازي حيث (وكل به من أوصله الى ولى الامر من قبل أمير المؤمنين بتغازي مقيدا فأغد به من حينه الى مراكش) (40) ، التى وصلها في جمادى الاولى عام 997 هـ وقد كان المنصور في زيارته الثانية لفاس (اتصل خبير ووصله بأمير المؤمنين بفاس فاهتز له من أعواده سرورا باتمام حيلته واستبشارا بفتح البلاد) (41) .

كان وصول على بن داود الى مراكش في جادى الاولى عام 997 / مارس ابريل 1589 فرصة عظيمة مكنت المنصور من الاطلاع على خبايا الاوضاع بالسودان وما كانت عليه البلاد من فوضى وانقسام داخلى فقد اطلع على بن داود المنصور على (اخبار أهل سنغى وبما كانوا عليه من الاحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة ، وحضه على أخذ الارض من ايديهم) (42) . وطلب منه مساعدته العسكرية ضد أخيه أسكيا اسحاق (بأن يكتب الى أمير المؤمنين يرغب بامداده بالعساكر ليجلب بها على أخيه السلطان اليوم بكاغو) (43) .

عجل المنصور بارسال وفد الى أسكيا لتبليغ مطالبه المستعجلة :

اولا : اطلع أسكيا اسحاق على فتاوي العلماء والفقهاء وأحقية الامام في النظر وحده في شؤون المعادن (وما نحن قد انفذنا اليكم بما لائمة المذهب في هذه المسألة على الخصوص وما لعلماء السنة من الحجج لتعلموا ان للامام فيها النظر

-
- (39) السميدي : تاريخ السودان . ص 121 .
(40) الفشتالي : مناهل الصفا ، ص 122 .
(41) المصدر السابق .
(42) السميدي : تاريخ السودان . ص 137 .
(43) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 122 .

والاجتهاد (44) علاوة على قيامه بالجهاد ضد العدو الذي لولا المنصور وقواته المسلحة لتمكن من الوصول الى السودان (وهى جنود الله التى لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة . . لفاض عليكم طوفانه السائل) (45) .

ثانيا : لتبليغه أمر المنصور (بتسريح العير تمتاز الملح من هذا المعدن الذى بلاده) (46) وتمسكه بفرض مثقال على كل حمل .

ثالثا : مطالبة أسكيا اسحاق بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية (فانا ندعوكم الى ما فيه ان شاء الله الخير العاجل . . والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا والائتمام بشريف امامتنا) (47) .

رابعا : اطلاقه على طاب النجدة الذي تقدم به أخوه على اللاجئ بهراكش (وهنا نحن امهلهنا فى الجواب . . حتى نرى ان شاء الله ما يبدو منكم) (48) ، اى ان المنصور اخذ يلوح لاسكيا اسحاق بإمكانية مساعدة أخيه على الذى هو مستعد بطبيعة الحال لاعلان طاعة المنصور وللاستجابة لرغبته متى ما استقر له الامر بالسودان

رفض اسكيا اسحاق الاستجابة لمطالب المنصور (والتسليم فى ذلك المعدن بل فتح له الكلام فى الجواب وبعث له صحبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد) (49) اشارة الى انه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما فى رجليه مما اثار المنصور ودفعه الى التعجيل بالتدخل فى السودان ضد أسكيا اسحاق .

عقد المنصور مجلسا للشورى (ضم الملا من طبقات الاجناد وذوى الحل والربط وأولى البصيرة والحكمة وذوى الخبرة والنباهة بالامور الشداد . . فصعد لهم ايده الله بذات صدره وفاتحهم بعزيمته وما اجتمع عليه من تجهيز العساكر الى هذه الاقاليم السودانية والاصقاع الجنوبية معلنا لذلك الملا الا يدخر احد رايابا . . وانه ايده الله غير مستكف من حق يوضحونه بحجة ولا متوقف عن الرجوع الى صواب يثبتونه ببرهان) (50) .

44) رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (مناهل الصفا . ص 123 .

45) المصدر السابق .

46) المصدر السابق .

47) المصدر السابق .

48) المصدر السابق .

49) السعيدى : تاريخ السودان . ص 138 .

50) النشألى : مناهل الصفا . ص 126 .

وقد اتخذ المنصور من امكانية استغلال خيرات السودان للجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله وضد اعداء الاسلام وانتقاد الاندلس وارجاعها الى حظيرة العرب والمسلمين سببا قويا لتبرير فتحه لهذه البلاد (. . . للاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله في عقر داره) (51) .

واثناء المداولة ، ابدى بعض المستشارين شكوكهم في امكانية تحقيق غزو السودان بحجة :

اولا : صعوبة اجتياز الصحراء التاحلة و (اعتراض المناور البيد والمجاهل الثغار التى لا تشتتها الرفاق التلائل الا بعد عصب الريق والانمات من مخالاب الهلكة) (52) .

ثانيا : عدم تفكير اية دولة من الدول المغربية السابقة بغزو السودان على الرغم مما اتصف به بعضها من (وغور الاجناد وامتداد ظل السلطان . . ولو تان ذلك في طوق امكانهم لكان مهمم الذي يسرع اليه هو ابتدارهم) (53) .

وبعد تبادل الراي استطاع المنصور ان يقنع الحاضرين بوجهة نظره الرامية الى غزو السودان والسيطرة على اقاليمه او ان المستشارين لم يجدوا في النهاية بدا من موافقة المنصور على ما صمم العزم عليه . وكان المنصور قد بنى خطته هذه على :

اولا : تفوقه العسكري بما يتوفر عليه الجيش المغربى من تدريب حديث واسلحة نارية فناكسة . . خلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التى لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرمات الناشبة) (54) ونفس ذلك التنظيم والعتاد كان عند السودانيين اما قواته فانها (عساكر تناذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجييه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة) (55) وبامكان مجموعة منها ان تحقق الكثير من الفتوحات في بلاد السودان للفارق العظيم بين قوى المتحاربين (الحصنة منها تدوخ اقمصى تلك الامطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها) (56) .

(51) المصدر السابق . ص 190 .

(52) المصدر السابق . ص 126 .

(53) المصدر السابق .

(54) المصدر السابق . ص 127 .

(55) المصدر السابق . ص 128 .

(56) المصدر السابق .

ثانيا : غنى السودان وضخامة مواردها وامكانية الوصول اليها لما يتوفر عليه المغرب من اقاليم صحراوية كتوات وتيكورارين وبلاد الطوارق الساحلية ، وجميعها تعتبر منافذ هامة نحو بلاد السودان وقواعد انطلاق للقوات الفاتحة ، وقد اتخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان ويقطعون الفيافي والقنار للوصول اليه مثلا يمكن الاقتداء به (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (57) .

وبالرجوع الى الوثائق المعاصرة نتأكد من أن منافسة قوية قد أبدتها الاسبان في السواحل الغربية لبلاد السودان لاجل استغلال خيرات هذه البلاد ، خاصة وأن الوضعية في سزاحل افريقيا الغربية قد اضطرت بانهزام البرتغال في وادي المخازن وزوال امبراطوريتهم . وحسب الرسالة التي وجهها الاسبان Melchoir de Petoney الى Miguel de Moura فان جزيرة Arguin لقريبة من الرأس الابيض وعند مصب نهر السينغال في المحيط الاطلسي والمناطق الافريقية المجاورة لها بلاد غنية جدا بالتمح والشعير والماشية والفواكه وبمعادن الذهب وان أهالي المنطقة يجلبون ذهب بلادهم الى المغرب او تيمبوكتو ، فلو قام فيليب الثاني ملك اسبانيا وارسل سفنا محملة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والاجراس والثياب والمرايا وغيرها لمبادلتها مع الاهالي بالذهب لعاد ذلك بالنفع العميم على اسبانيا بدلا من ترك هذه الخيرات للمولى أحمد . وقد استولى الاسبان فعلا على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة (58) الامر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور بغربى افريقيا وبلاد السودان ومن العوامل التي جعلت المنصور يعجل بالتدخل العسكري في السودان لقطع الطريق على الاسبانيين (وهو الآن إيدته الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الابهة والاستعداد ... من جهاد المشركين واغراء ارضهم في الجنوب بعساكره الامامية) (59) .

ثالثا - توحيد المسلمين بغربى افريقية :

فالمولى أحمد المنصور كأمير للمؤمنين يسعى الى جمع كلمة المسلمين بغربى افريقيا وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا امام التهجمات الخارجية التي يمكن أن

(57) المصدر السابق . ص 127
(58) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 2 ص 67
(59) البشتالي : مناهل الصفا . ص 81 .

يقوم بها الاسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الاوربيين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الاستراتيجية التي تتحكم في طريق الهند البحرية (وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه ان شاء الله في سبيل الغزو والجهاد وفي ارزاق ما لنظرنا العلى من العساكر والاجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدناها للدب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد) (59)

أخذ المنصور في الاستعداد لغزو السودان واهتم شخصيا بالاشراف على ما تتطلبه الحملة بالوسائل والمعدات (انتضى مولانا الامام صارم العزيمة للاحتفال وشمر للجلوس له بنفسه . . وذهب في مذهب الاحتفال ابعده شأو) (61) فأمر بجمع الابل (اذ هي ملاك السفر البعيد ومركز مداره) (62) حيث وجهت الاوامر الى جميع ولاته في الاقاليم الصحراوية خاصة (لاعتيام كل فندية ارحبية من البزول الشديد الاسر مضطلة بشق المفاوز البيد) (63) وصنع الرحال ومستلزماتها حيث جمع لها ايدي العملة من صناعات النجارة) (64) وتهىء الذخيرة من (السلاح الشاك الظاهر . . وخزائن البارود المتراكمة . . وخزائن الرصاص المعدة لحصى القذف وبندق الرى من الانفاض) (5) وبناء السفن لعبور نهر النيجر (آلة السفن والاساطيل برسم اتخاذ الفلك والجواري المنشآت لعبور النيل) (66) ثم باذخار (الازودة والاقوات) (67) اللازمة لذلك والاستعداد لهذه الحملة يبرز بصفة خاصة الامكانيات الضخمة التي كان المنصور يتوفر عليها الى حد انه لم يدون في (بطون القراطيس حديث عسكر بلغ في الاحتفال والانتقاء والانضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما بلغت هذه العساكر المنصورة) (68) .

والى جانب هذه الاستعدادات حرص المنصور على استمالة علماء السودان والتعاون معهم وخاصة قاضى تنيكتو عمر بن محمود بن عمر (المسموع الكلمة في اجيال السودان) الذي بعث اليه في شوال 998 هـ يعرض عليه الدخول في طاعته التي (اوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة) وليطلب منه دعوة

(60) من رسالة المنصور لاسكيا اسحاق (رسائل سمعية ص 132)

(61) انفتالي : مناهل الصفا ص 128 .

(62) المصدر السابق ص 129

(63) المصدر السابق .

(64) المصدر السابق .

(65) المصدر السابق .

(66) انفتالي مناهل الصفا ص 130

(67) المصدر السابق .

(68) المصدر السابق ص 130 .

السودانيين الى امامته (لتكون اول من لبي داعيها . . ولترفعوا بها عقيرتكم فسى
تلك الاقطار) (69) وقد نوه المنصور في هذه المراسلة بمقام القاضي الربيع فسى
بلاد السودان وانه اعلم من آسكيا اسحاق بما يدعوه اليه (وانكم بالاثار الشريفة . .
اعرف من سواكم) (70) كما اعلمه في ختام الرسالة بقرب وصول الحملة المسلحة
المغربية الى السودان وأن (كل من أمنتوه من عساكرنا . . فقد أمناه . . اظهر
لمزيتكم وأشعارا بمزيتكم لدينا) (71) .

انتهى الاستعداد للحملة وجرى احتفال استعراضها يوم الاثنين 16 ذى الحجة
998 هـ بحضور الخليفة المنصور والجمهور العظيم (وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم ..
واسترسلوا في مذاهب الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة امور هذه
الحركة) (72) . وفي مطلع شهر محرم لعام 999 هـ أخذت الحملة طريقها نحو
السودان بقيادة (جودر باشى . . مملوكه الشهم .. الناشئ بتهديب الامامة الكريمة
.. المنقطع القرين) (73) . الذي جعل له المنصور هيئة استشارية عليا من كبار
التواد (وشد مولانا الامام .. ازر مملوكه .. بتقات من كفاته .. أولى الدهاء
والراي ودوي النجدة في مضايق الحروب .. يرجع اليهم في مخض زبدة الآراء
ومجال المناوضة) (74) .

سلكت الحملة المسلحة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد (بطريق
جودر) ، وكان من بين افراد الحملة عدد من التجار كادلة ومرشدين (الذين اخلقوا
بردة الفبر وأنفتوا عينها في التردد في هذه الطريق جيئة وذهابا) (75) . فبعد
مراكش اتجهت الحملة نحو وادي درعة حيث ودعمهم حاجب المنصور أبو محمد عزوز
ابن سعيد بن منصور الوزكيتي (لتثقيف أحوال المساكين ومراقبة امورهم عند
منتهى العمران) (76) . وفي يوم 24 صفر 998 هـ اخذوا في اختراق الصحراء
المغربية الجنوبية متجهين نحو لكتاوا فتندوف وتغازي ثم كارابارا على نهر النيجر
(وعندما وصلت الحملة الى البحر عند قرية كيرير فنزلوا هناك وعمل الباشا

(69) المصدر السابق . ص 122 .

(70) المصدر السابق .

(71) المصدر السابق .

(72) المصدر السابق . ص 130 .

(73) المصدر السابق .

(74) المصدر السابق .

(75) المصدر السابق .

(76) المصدر السابق .

جودر صفرة كبيرة لاطعام الطعام فرحا لوصولهم البحر سالبين لان ذلك امارة ظفرهم بمرادهم ونجاحهم لسعيهم . . وكان ذلك يوم الاربعاء الرابع من جمادى الاولى في العام التاسع والتسعين بعد الهجرة (77) .

وهكذا تكون الحملة قد اجتازت مسافة تقدر بنحو الفى كيلو متر خلال اربعة اشهر تقريبا منذ خروجها من مراكش اوائل محرم الى ان وصلت نهر نيجر اوائل جمادى الاولى ، وبعد ان قامت بنحو ستين مرحلة (وقطعوا هذه المنارز من لدن الثغور القبلية الى ان وردوا النيل في قريب من ستين مرحلة) (78) .

كانت بلاد السودان — الحوض الاوسط لنهر النيجر — خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة (90 — 999 هـ / 81 — 1591 م) تعيش اوضاعا داخلية سيئة ، بسبب عوامل مختلفة اهمها : استبداد الحكام وتمرد الولاة في المناطق المختلفة وعدم تحديد مبدأ لوراثه العرش ، الامر الذي جعل الخروج والثورة على الحاكم الطريق الوحيد لتولى السلطة ، فكان (الاسكيا) بحق (المختصب) وكانت عهودهم (ايام بؤس ومجاعة) (79) لكثرة الحروب الداخلية المستمرة وما رافقتها من تخريب وتدمير . وقد ترتب عن ذلك ان اصبحت البلاد تتعرض لسلسلة من الاحداث والنكبات لم يكن الامير السوداني على بن داود مبالغا عندما وصف للمنصور احوال السودان (بالاحوال الذميمة والطبايع الرذيلة مع ضعف القوة) (80) .

وفي تاريخ السودان للسعيدي ما يؤكد ذلك (ثم بدلوا نعمة الله كثيرا وما تركوا شيئا من معاصى الله تعالى الا وارتكبوها جهرا) (81) اي ان السودان عندما وصلت اليها الحملة المغربية لم تجدها (من اعظم ارض الله تعالى نعمة ورفاهية وامنا وعافية في كل جهة ومكان) (82) ، بل كانت تن للانقسام الذي جزا القوى الوطنية وجعل العاصمتين الرئيسيتين تتزعمان حروبا اهلية طاحنة بين اسكيا اسحاق في كاغو واسكيا محمد الصادق بلع في تبكتو ، ولم يتمكن اسكيا اسحاق من القضاء

(77) السعيدي : تاريخ السودان ، ص 139 .

(78) المشتالي : مناهل الصفا ، ص 82 .

(79) السعيدي : تاريخ السودان . ص 122 .

(80) المصدر السابق . ص 133 .

(81) المصدر السابق . ص 144 .

(82) المصدر السابق . ص 142 .

على خصمه الا بعد معارك حربية عرفت بعدها تمهكتو الكثير من الاهـوال
والمحـسن (83)

منذ ان وصلت الحملة المغربية الى (كارابار) على نهر النيجر ، جددت نداءات
الامان للسودانيين (واعتقدوا مع ذلك ان كل من امنتهموه من عساكرنا الطالعة بريايتها
البيض على تلكم الاقطار السودانية . . فتد امانه ومن اجرتموه فقد اجرناه) (84)
واتام الباشا جودر حفلا كبيرا بمناسبة وصولهم (وصلوا البحر عند قرية كبر
فزلوا هنالك وعمل الباشا جودار سفرة كبيرة لاطعام الطعام مرحا لوصولهم البحر
سالمين) (85) اي ان الحملة لم تصادف اية مقاومة من عامة السودانيين الى ان
اقتربت من العاصمة كاغو حيث راسل - كما يبدو - جودر باشا أسكيا اسحاق
لمعرفة رايه الاخير في مطالب المنصور ، فعتمد اسحاق مجلسا للشورى ضم (قياده
وكبراء مملكته في المشاورة في الرأي والتدبير فكلما اثاروا اليه من الراي السديد
يرمونه وراء ظهورهم) (86) وهذا يؤكد حرص البعض من مستشاريه على مسالة
الحملة التي لا قبل لهم بمواجهة اسلحتها الفتاكة (وانه لا يدلّه بمقاومة قتالهم
بالنار) (87) غير ان عناد اسحاق وجهله وبقته ببعض المشعوذين ممن يدعون
السحر جعله يطمئن من ارهبتهم اسلحة النار بأنه (أعد لذلك همسا بسحر ونفثا في
عقد يبطل عملها ويبعث خلها) (88) ومع ذلك فقد تخلى عنه البعض من اتـسرب
خواصه امثال : (على بن عيسى وكان لذلك العهد في اشياح سكية المصطنعين
لديه) (89) .

وعلى (ثلاث مراحل من كاغو) (90) جرت المعركة في موضع (يقال تنكدبغ
وهو في قرب تندبي) (91) حيث توجد (غابة ملتفة الشجر صعبة المسلك من
اشتبك ادواحها فلم يات لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلكوها زرامات
ووجدانا وما مرقوا منها الا وقد الفوا العدو اخذ مراكزه بحومة الوغى التي بين

-
- 83) المصدر السابق . ص 127 .
84) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 133 .
85) السعيدى : تاريخ السودان . ص 139 .
86) المصدر السابق .
87) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 137 .
88) المصدر السابق .
89) المصدر السابق . ص 137 .
90) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 144 .
91) السعيدى : تاريخ السودان . ص 140 .

يديها ونظم تعبئته فعاجل المساكير الامامية بالقتال من قبل انتظام التعبئة وترتيب المصاف لئنت بذلك في عضدهم) (92) .

لم تدم المعركة اكثر من يوم واحد ، اذ انتهت بانتصار القوات المغربية المسلحة بالنار والحديثة التنظيم ، وذلك يوم الثلاثاء 17 جمادى الاولى 99 هـ / 12 مارس 1591 م ومن ميدان المعركة اتجهت الحملة ضد العاصمة كاغو التي فر عنها اسكيا اسحاق (وجائشت المساكير الامامية خلال تلك الديار واجفلوهم عن قاعـدة ملكهم .. مدينة كاغو واحتل بها الاجناد المنصورية على الطائر الميمون واقلع عنها العبد وحاشيته) (93) وكان دخول جودر باشا الى كاغو يوم 20 رجب 999 هـ / 13 ماي 1591 ، حيث خرج منها معظم سكانها (ولم يبق من سكانها الا الخطيب محمود درانى وهو شيخ كبير يومئذ والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهروب من التجار) (94) .

ولما وصلت البشرى الى مراكش اقيمت الافراح وكتب المنصور الى الجهات المختلفة يزف اليها النبا العظيم ، ومن ذلك الرسالة التي ارسلها من مراكش يوم الجمعة 7 شعبان 999 هـ / 31 ماي 1591 والتي تضمنت اخبارا مفصلة عن الاستعداد للحملة الى ان تحقق الظفر والنصر (95) .

اما القوات المغربية الرابطة بكاغو ، فان طبيعة المناخ وتقلباته لم ترقهم (ثم الفوها مستوئبة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة الا بشرك علاج) (96) وبيئنا القيادة تبحث عن مخرج اذا بوند سودانى ارسله اسكيا اسحاق يصل الى كاغو ليعرض على جودر باشا الصلح مقابل الاعتراف بطاعة المنصور والتعهد بارسال خراج سنوي (في تقبل فئة على خراج ثقيل يضرب عليه التزامه مسانئة .. ونظم نفسه في طاعة مولانا الامام .. وقدم بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور .. تشتمل على عشرة آلاف مئقال ذهباً ومائتى من الرقيق) (97) .

(92) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 137

(93) المصدر السابق . ص 139 .

(94) السعيدى : تاريخ السودان . ص 141 .

(95) رسالة المنصور مبشرا بفتح السودان (مناهل الصفا . ص 143) .

(96) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 146 .

(97) المصدر السابق . ص 147 .

ويبدو أن الظروف قد أجبرت جودر باشا ومن معه على قبول المفاوضات مبدئياً للتعب الذي حل بالقوات المحاربة من طول المساندة وخوض المعارك ، وللأمراض التي أصبحت تتعرض لها من جراء المناخ السيئ علاوة على اعلان أسكيا اسحاق طاعة المنصور وتعهده بالخراج السنوي ، وهكذا (انبرم هذا العقد على شرط القبول من مولانا الامام المنصور .. وامضائه لعقدته وان المصير لرايه الكريم فيرد وقبول) (98) ثم تراجعت القوات المغربية من كاغو الى تنبكتو ، وكان دخولهم مدينة تنبكتو يوم الخميس 6 شعبان 999 / 30 ماي 1591 . واثناء انتظار جودر باشا لجواب المنصور عمد الى (انشاء الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصى . . مخافة أن يفاجئهم الراي الكريم بنقض ما أبرموه مع العبد سكية) (99) .

ولما وصل (بشوط على العجمي) الى مراكش حاملا كتاب جودر باشا (نعم عليهم التتئيس من مخنق العبد سكية والافراج عنه .. وترعهم بالتوييخ على ما اتوه .. ووقع أيده الله للعبد .. اتمدونى بمال الآية الكريمة الى قوله . . اذلة وهو صاغرون) (100) .

ترك المنصور جودر باشا على ادارة شؤون البلاد المفتوحة من السودان ، وعين على رأس القوات المحاربة بها محمود باشا بن زرقون الذي أرسله على وجه السرعة الى تنبكتو التي وصلها يوم الجمعة 26 شوال 999 / 17 غشت 1591 وشرع حالا في تنظيم القوات المسلحة لمتابعة الحرب ضد أسكيا اسحاق حتى الاستسلام أو القضاء عليه .

ومن الوسائل التي اتخذها محمود باشا بناء الاساطيل والسفن لعبور نهر النيجر ولملاحقة قوات أسكيا اسحاق ، وقد اصطدم الفريقان في منطقة (بنب) شمالي نهر النيجر بين مدينتي كاغو وتنبكتو يوم الاثنين 25 دي الحجة 999 / 14 اكتوبر 1591 وانتهت المعركة بانهزام اسحاق وفراره فتوجهت القوات المغربية نحو كاغو ومنها (تصاعد محمود باشا مع النيل وبقية العساكر اثر العبد سكية امعانا في استئصاله) (101) ، خاصة وقد أخذت مقاومته تضعف لتخلى الكثير الكثير من السودانيين عنه ومن ذلك (أخوه في نحو ثلاثمائة من اخوته ووجوه

(98) المصدر السابق .
(99) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 147
(100) المصدر السابق .
(101) المصدر السابق .

عساكره ورؤساء دولته) (102) الذي أخذ يتعاون مع محمود باشا ضد أخيه أسكيا اسحاق . تابعت القوات المهاجمة مطاردة اسحاق وانتهى بها السير الى (القاعدة الشهيرة الصريت المدعوة كوكية) (103) ، أما اسكيا اسحاق فقد التجأ الى (تنفى عند كنفار كرم . . وما تبعه أحد من أهل سفسى) (104) . غير أن التهديد باستعمال القوة ضد الذين آووه ، قد أجبرهم على قتله ، أو لعل اسحاق انتحر بتجرعه السم خوفا من أن يسلمه هؤلاء الى محمود باشا (فان رؤساء عساكر مولانا . . تقدموا لطواغيث الشرك الذين آووه بالوعيد والاذار ان لم يسلموه ماستبصروا في أمرهم . . وسقوه كأس الحمام) (105) .

واعتمادا على ما أورده وزير المنصور الفشتالى فى المناهل فقد (انتظمت ممالك السودان فى سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنو) (106) .

ولما كتب محمود باشا الى المنصور بجميع انتصاراته وفتوحاته وبالقضاء على أسكيا اسحاق (أمر بالخرجات غدوة وعشيا ثلاثة أيام) (107) وتقدم الشعراء الى تهنئته وتبشيره بقرب دخول العالم العربى الاسلامى تحت طاعته ، وبتحقيق الامنية الغالية : استعادة الاندلس فردوس الاسلام المفتود (108) .

اثناء دراستنا للفتح المغربى للسودان تعترضنا تساؤلات عديدة منها :

- 1 — مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة .
- 2 — والى اى حد حافظ المغاربة على مقومات السودان الرئيسية وما مدى عدالة حكمهم .
- 3 — ومن المسؤول عن خراب البلاد ؟

كان لنداءات الامان وحسن المعاملة كبير الاثر فى تعامل الفئات المختلفة من العامة فى السودان مع الفاتحين (وأخذوا فى التمهيد وتسكين الشارد وتأمين الطريد

(102) المصدر السابق . ص 150 .

(103) المصدر السابق .

(104) السعيدى : تاريخ السودان . ص 149 .

(105) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 152 .

(106) المصدر السابق .

(107) المؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية . ص 67 .

(108) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 159 .

وبسط الهدر وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستتة في مجال القلق واستقرت
الانثدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملا احشاءهم وازاغ ابصارهم
وانسكت لرحبه مسامعهم من أجل جدة الدولة وثقل الوطاة وجلال السلطان (109)
وبتوالى الايام ازدادت الصلات بين المغاربة والسودانيين وتعدد مجالات تعاونهم
(وانحسرت عوالم من دهائمهم لمشاهدتها وارتاع لها اقصيهم رادانيهم) (110) .

والى جانب الفئات الشعبية هناك العديد من حكام المناطق الذين رحبوا
بالتاحين وتعاونوا معهم (وجاز هو على حاله اليهم ومعه جنكى عبد الله بجيشه
وسلطان ماسته وسلطان سنقربوبول بجيشهم) (111) . كما اعلنت العواصم
الكبرى بيعة المنصور كتمبوكتو (دخلوا في بيعة السلطان مولاي احمد بسبب هذا
الصلح (112) ودجيني (فقام جنى مندبكرن وهو حاكم أسكيا على البلد والقاضى
بنب كنانى . . واعيان البلد من الفقهاء والتجار فكتبوا بقبول تلك البيعة للقائد
المصطفى) (113) .

وايد الفاتحين أيضا عدد من العلماء السودانين وفي مقدمتهم قاضى تمبوكتو
عمر بن محمود بن عمر ، وخطيب كاغو محمود رامى (وهو شيخ كبير يومئذ . .
وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام واضافهم ضيافة فاخرة كبيرة) (114) .

اما المتعاونون مع المغاربة من افراد عائلة الاسكيا فكثر من بينهم عدد من
اخوة اسكيا اسحاق (وكان ممن انخذل عنه في هذه الوثيقة اخوه (محمد كاغ) في
نحو من ثلاثمائة من اخوته ووجوه عساكر ورؤساء دولته . . راسل اجناد المنصور
ليصل يده بأيديهم موريا بالمظاهرة على اخيه . . واجتمعوا به) (115) .

أما عن مدى عدالة الحكم المغربى بالسودان ، فاعتمادا على ما اورده المؤرخ
السودانى عبد الرحمن السعيدى في (تاريخ السودان) ، فان سلوك اغلبية
المسؤولين المغاربة كان محمودا : فعندما رفع عبد الله بن شين الحمودى شكواه الى
المنصور فى شأن ابل له صادرها جودر (ووافقوا بابل عبد الله بن شين الحمودى

-
- (109) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 147 .
(110) المصدر السابق . ص 148 .
(111) السعيدى : تاريخ السودان . ص 162
(112) المصدر السابق . ص 157 .
(113) المصدر السابق ص 158 .
(114) المصدر السابق ص 141 .
(115) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 153 .

فاخذ منهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب الى الامير مولاي احمد في مراكش
اشتكاء بما ناله منهم من الظلم . . وكتب له ان يعطوه قيمة ما أخذوا من ابله) (116)
ولما اخذت الامور تستقر نسبيا للفتاحين المغاربة حرصوا على الحفاظ
على مقومات البلاد ونظمها العامة ، فقد مكنوا أسكيا محمد كاغ من الاساطيل
السودانية التي غنمها المغاربة من قبل (من جملة ما وقع الاستيلاء عليه الاساطيل
البحرية . . ان احتال على استرجاعها من العساكر واستخلاصها من ايديهم وأدلى
بأنها ملك للرعية الذين شملهم كنف الامان وانه لا يحسن ان يهتضم لهم جناب ولا
ينقض عليهم الامان المبذول لهم) (117) كما ابدوا احتراما للاسكيا (وأكرم الباشا
سليمان غاية الاكرام حتى جعله أسكيا عليهم (118) الذي كان يتمتع بحرية التصرف
(اخذ في تقليد الاعمال وتفريقتها على رجاله وقسمتها بين خدامه) (119) .

ومن الذين اشد بهم المؤرخ السوداني السعيدى من الحكام المغاربة : الباشا
منصور (كان رجلا مباركا عدلا ذا حكم شديد في الجيش وامسك ايدي الظلمة
والفسقة عن المسلمين فصار يحبه الضعفاء والمساكين ويبغضه الفسقة
والظالمون) (120) .

الباشا محمد طابع (وهو شيخ كبير من قياد السلطان مولاي عبد الملك ذو
معرفة وذو رأي وتدبير) (121) .

الباشا سليمان (كان ذاهمة عالية ورأي غائق وتدبير عجيب وحكم شديد
وسار بذلك في ذلك الجيش كله) (122) .

والقائد مامى في جنى (ثم جاء القائد مامى بنفسى الى جنى . . وولى عبد الله
بن عثمان سلطنة جنى واصلح من امور البلاد ما اصلح) (123) وفي تمبوكتو (ثم
رجع القائد مامى لتنبكت وقد استقام الحال بحيث لم يبق في تلك الناحية ما يشوش
البال وأحمد لله الكبير المتعادل) (124) .

-
- (116) السعيدى : تاريخ السودان . ص 139 .
(117) الفتالى : مناهل الصفا . ص 155 .
(118) المصدر السابق . ص 152 .
(119) المصدر السابق ، ص 155 .
(120) السعيدى : تاريخ السودان . ص 177 .
(121) المصدر السابق .
(122) المصدر السابق . ص 190 .
(123) المصدر السابق . ص 158 .
(124) المصدر السابق ، ص 162 .

وعن المسؤول عن خراب البلاد التي (صار الامن فيها خوفاً والنعمة عذاباً وحسرةً والعافية بلاءً وشدةً ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الامكنة طولا وعرضا بالاغارة والحرابة على الاموال والنفوس والرقاب نعم ذلك الفساد وانتشر واشتهر) (125) هنال :

1 - عناد الاسكيا (اسحاق ونوح) والمحاولات اليائسة التي قاما بها اثناء الحملة المغربية ، ومن ذلك تخريب اسحاق للعاصمة كاغو (وقد كان لما صرف الوجهة لتقاء الاجناد المنصورية سولت له نفسه من عمل العزم ان امر باخلاء كاغو ونسف اتمواتها ولم يدع بها عدا نزر من عجة الرعايا فتركها أفقر من جوف عبر خاوية على عروشها) (126) .

2 - قيام بعض الحكام المجاورين للسودان بالهجوم على اطراف البلاد في محاولة للتوسع ، ومن هؤلاء (سنبل لمد صاحب دنك فأهلك كثيرا من بلاد راس الماء واكل أموالهم على الاطلاق وقتل من قتل وكسب ما كسب من الاحرار ، وكذلك الاغرائيون ائلفوا بلاد بر وبلاد درم كذلك ، واما ارض جنى فقد ائلفها كفار بنبر شرقا وغربا يمينا وشمالا ائلفا قبيلتا شنيعا وخرّبوا جميع البلادات ونهبوا جميع الاموال . . . ومن رؤساء اولئك الكثر الذين يسوقهم مع هؤلاء الفاسدين القطاعين منس سام في ارض فدك وناي قاب في ارض كوكر هؤلاء في جهة كل واما في جهة شيلي وجهة بنديك فغلان وغلان) (127) .

3 - المجاعة التي كانت تنتاب البلاد بين الآونة والاخرى ولا سيما في السنوات العشر الاخيرة من القرن العاشر للهجرة والمضاعفات الخطيرة التي تخلفها في شتى مجالات الحياة .

4 - لم تكن بلاد السودان على مستوى عال من التطور الحضاري (فدار شيخ الحمار في المغرب خير من دار اسكيا التي طالعوها) (128) .

لقد اظهر المغاربة منذ اليوم الاول لفتح السودان حرصا كبيرا على اقرار الامن في البلاد ، ولم يتوانوا عن ملاحقة الخارجين عنهم ، الذين حاولوا بث الرعب

(125) السعيدى : تاريخ السودان ، ص 143 .

(126) النشألى : مناهل الصفا . ص 150 .

(127) السعيدى : تاريخ السودان . ص 143 .

(128) المصدر السابق . ص 141 .

والقيام بأعمال القتل والتخريب (فانتبذوا لبعض الاطراف الشاسعة من هذه الممالك فكان منهم بعض عيث شبوا ناره) (129) .

ولواجهة هذه الاحداث قاموا بتفتيش المناطق وبعض المنازل بحثاً عن المتمردين والاسلحة (ثم برحوا في البلد ان الباشا يدخل في ديار الناس غدا فاي دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربها الا نفسه . . فدخلوا ديار البلد وفتشوها جميعا) (130) .

ويبدو ان هذا التصرف قد أغضب بعض السودانين وخاصة العلماء بمدينة تمبوكتو ، وان تذرهم قد قوبل بنوع من الشدة لما ادرك الحكام المغارية ان الأمر سيتطور الى ما لا تحمد عقباه . (فقال لم يبق الا الفقهاء . . فلما اجتمع الناس في الجامع غدا، اغلقت الابواب وخرج الناس الا الفقهاء . . قبضهم الباشا محمود . . وأسرههم وأمر بهم الى القصبه . . ثم شرع في تسليط الفقهاء الى مراکش) (130) .

ومن جهة أخرى واجه الفاتحون الهجومات الخارجية على اطراف السودان والحقوا بالمهاجرين خسائر متوالية ، ومن هؤلاء (سلطان محمود صاحب ملو تجهز لغزو اهل مدينة جنى فبعث مرسوله لكل ساع بكر يعلمه بذلك وطلب منه المساعدة عليها وهو في بلد كنتى يومئذ . . فهزموا ملو وعسكره في طرفة عين . . ثم قام الجيش المغربى بملاحقتهم) (131) .

وخلال قيام القوات المغربية بعمليات اقرار الامن ، اظهر البعض من المغاربة نوعا من الشدة والصرامة استنكرها المنصور نفسه لما اطلع عليها وسعى الى معاقبة مرتكبيها (فآخبر السلطان مولاي أحمد بما يفعل محمود من التعديت حتى قال انه لا يعرف الا سيفه . . فغضب السلطان غضبا شديدا فمات رجعت لا انصر في السودان الا بسيف هذا الملعون . . ثم ان السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمن الى ارض السودان برسوم قبض محمود بن زرقون وقتله) (132) . ولم يغفل الفاتحون المغاربة عن دورهم الرئيسى في حماية الاسلام والقيام بنشره في المناطق النائية من بلاد السودان وخاصة تلك التى كانت تتعرض لغزو التبشير المسيحى (هؤلاء اهل كذا لما انتهى الفتح في الجنوب الى من يليهم . . لم نزل لذلك في كل اوان نقدم اليهم مقدمات الاعذار . . ولما رايناهم قد

(129) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 157 .
(130) السعيدى : تاريخ السودان . ص 170 .
(131) المصدر السابق . ص 182 .
(132) المصدر السابق . ص 175 .

اتوا من الفواية .. من النزوع الى دين النصرانية واستبدال الملة التوحيدية بالملة
التثليلية ..) (133) وبانتهاء أعمال الفتوحات (اجتمعت اليوم بحمد الله بانتظام
هذه الممالك كلمة الاسلام وارتقى الامر بحول الله الى الكمال) .

* * *

الحكم المغربي للسودان :

1) التنظيم الاداري المغربي بالسودان :

اوجد المنصور بالسودان ادارة خاصة لا تخلو في مجموعها من تأثيرات تركية :
فقد جعلت بلاد السودان باشوية ، وتولى حكمها ولاة يحمل كل منهم لقب باشا ،
كما تم الفصل بين السلطات الادارية والعسكرية والمالية وانتضائية سعيا من
المنصور الى تنظيم البلاد واطرار دعائم الحكم المغربي بها ونشر الامن في ربوعها ،
لها للاستقرار من اثر في المجالين الاقتصادي والعمرائي ، وحرصا منه على التبعية
السياسية وعدم استبداد الولاة بالمنطقة من جهة اخرى .

وخلال عهد المنصور تولى الحكم بالسودان سبعة باشوات هم : جودر ،
محمود ، منصور ، طابع ، عمار وسليمان : منهم من تولى السلطة الادارية وحدها
ومنهم من جمع الادارة ورئاسة الجيش مثل جودر وعمار وسليمان . وقد فرضت
طبيعة الفتح ومواجهة المتمردين ظهور القادة العسكريين واتسام الادارة المغربية
بالطابع العسكري ، وكثيرا ما كان استمرار حكم الواحد منهم يتوقف على مدى
نجاحه في مامورياته العسكرية بالدرجة الاولى .

وجميع هؤلاء الباشوات اتخذوا مدينة تنبكتو عاصمة لهم : لموقعها
الستراتيجي كمنطقة انطلاق نحو جهات السودان ولتوسطها المدينتين الرئيسيتين
بالنيجر الاوسط كاغوو دجيني . والى جانب الباشوات هناك في كل مدينة :

الوالى او القائد : ينوب عن الباشا ومهمته السهر على الشؤون السياسيـة
والادارية في المدينة : فالباشا محمود قبل توجهه الى محاربة اسكيا اسحاق عين على

(133) من رسالة مبتورة للمنصور .
دار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 187 .

تنبكتو (القائد مصطفى التركي فخلفه محمود على تنبكت) وعلى كاغو (القائد حم بركة وقد خلفه على ذلك البلد) وعلى دجيني (على المعجمى دجيني) (134) .

الامين : وقد كان مكلفا بأمور المال في المدينة ، والمنصور هو الذي كان يعين هؤلاء فهم مسؤولون أمامه وحده ، ومن الامناء : (حم بن عبد الحق الدرعى نسي تنبكت) وخلفه (الحسن بن الزبير) و (انفاس الدرعى في دجيني) (135) . وهؤلاء الامناء كانوا يضبطون الموارد والمصروفات في دفاتر خاصة (فلما وصل القائد حم حق عرض عليه الجرائد راي فيها كثيرا من الاموال) (136) .

القاضي : للفصل في أمور الشرع ، ومن القضاة المغاربة في دجيني (أحمد الفيلالى) (137) .

الحامية العسكرية : أوجد المنصور بكل مدينة حامية عسكرية مهمتها الدفاع عن المدينة ضد الهجومات الخارجية ، وقد كانت الحاميات تقيم نسي تلاح وحصون خاصة .

والى جانب حاميات المدن ، هناك حاميات اخرى منبثة في مناطق السودان الخاضعة للمغاربة : وهى تحرص على تأمين المواصلات وتوطيد أسس الحكم المغربى ، وتسهر في نفس الوقت على حماية بعض المناجم والمعادن الثمينة التى كان المغاربة يستغلونها بالسودان (138) .

وخلال حكم المنصور للسودان لم تخل سنة من السنوات الثلاث عشرة (99 — 1012 هـ) من ارسال القوات المسلحة المغربية الى تنبكتو ، وقد تفاوت عددها اعتبارا للظروف الداخلية ، ومدى الحاجة الماسة اليها ، واعتمادا على ما أورده الشيخ أحمد بابا السودانى المعاصر ، نقلا عن الامير زيدان بن المولى أحمد المنصور (فان نهاية الرجال الذين صرفهم والده في المحلات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرين الفا من خيار جيشه وهى مقيدة نسي الزمام) (139) . وقد تمكنت القوات المغربية من اخضاع أهم الاتاليم

134 (السعيدى : تاريخ السودان . ص 162 .

135 (المصدر السابق . ص 174 .

136 (المصدر السابق .

137 (السعيدى : تاريخ السودان . ص 159 .

138 (الفشتالى : مناهل الصفا . ص 197 .

139 (السعيدى : تاريخ السودان . ص 191 .

السودانية وضمتها الى الامبراطورية المغربية (جالت العساكر خلال الاقطار
السودانية واثبتت راياتها في آفاقها الشاسعة والدائبة وسارت تطوي ممالكها
بسيف التدويخ والتمهيد أرضا وغورا ونجدا وسهلا وحزنا حتى استوعبت التمهيد
. . واقتضت الخراج وانتظمت ممالك السودان في سلك الطاعة ما بين البحر المحيط
من أقصى المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنو . . وتنهى مملكة برنو
هذه . . الى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر) (140) .

الاستغلال الاقتصادي :

ان من العوامل الرئيسية التي دفعت المنصور الى فتح السودان : استغلال
موارده الطبيعية (المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في
الانفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا) (141) ، والبشرية (وبالسودان الاعظم
المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل) (142) ، وذلك من
اجل (أن يبلغ أهل الاسلام في الجهاد ويفتح من ارض الاندلس اقصى البلاد والاقطار
البعاد) (143) ، اي ان المنصور لم يكن يخفى عن حاشيته أمانة البعيدة فسي
استغلال موارد السودان العظيمة لتأسيس امبراطورية واسعة الارجاء وغنية بغربي
افريقية ، بما في ذلك العمل على استرجاع الاندلس الى حظيرة الاسلام : فما مقدار
استغلال المنصور لبلاد السودان ؟ والى اي مدى وصل المنصور في تحقيق أمانيه؟
تؤكد المصادر والوثائق المعاصرة بأن المنصور وادارته بالسودان ، قد
استغلت مورد البلاد وخيراتها استغلالا واسعا :

فعلى اثر انهزام اسكيا اسحاق للمرة الاولى وتقدمه بعروض الصلح لجودار
باشا (قدم بين يدي نچواه هذية مولانا الامام المنصور . . تشتمل على عشرة آلاف
منقال ذهباً ومائتين من الرقيق) (144) .

وبعد دخول محمود باشا الى تنبكتو قام بجمع (الاموال والمتاع والاثاث التي
لا يحصيها الا الله ما بين املاكهم واملاك سائر الناس من الودايح . . وائسد الباشا
محمود جميع المال فشتتها شذر مذر وتكرم بها للرماة ولم يبعث للسلطان مولاي

(140) الفتنالى : مناهل الصفا . ص 164 .

(141) الفتنالى : مناهل الصفا . ص 197 .

(142) المصدر السابق .

(143) المصدر السابق .

(144) المصدر السابق . ص 147 .

أحمد الـامئة ألف ذهباً) (145) . كما بعث (اثني عشر مائة مملوك من الجـواي والغلمان وأربعين حملاً من التبر وأربعة سروج من الذهب وأحمالاً كثيرة من العاج والينوز وكور غالية وقطوط الغالية وذخائر السودان فتدخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوى ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (146) .

وفي عام 1006 هـ / 1598 (رجع الامين القائد الحسن بن الزبير الى مراكش بحال عظيم الذي حصل من خراج الارض في ثلاثة اعوام) (147) .

اما جودار باشا فقد حمل معه من السودان سنة 1007 / 1599 (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن في سن البلوغ وأربعمائة حمل من التبر والـم حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطرفه وأربعة أفيال . . فكان دخول جودار باشا لمراكش يوماً مشهوداً) (148) .

ولما تولى الباشا منصور بن عبد الرحمن وهزم أسكيا نوح عام 1003 هـ ، فسبى القائد منصور ذكورا واناثا كبارا وصغارا قنين وقنينات فرجع بالجبيح الى تنبكت) وبعد أن كاتب المنصور بذلك أمره بتوجيه السبايا الى مراكش (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوح واثاته ، وبجميع امتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة ، وتسديه لمثابنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . وأولاد سكية فالذکور منهم أبعث بهم كافة لمقامنا العلى واما الاثاق فابحثوا في أمر آل سكية فان صح عنهم ما قرع اسماعنا الشريفة من كون أصلهم ممالك تحت الرق وان ذلك صحيح ورقمهم عند الناس صريح وكان فيهم من تليق بمقامنا العلى أبعثها والا فلا) (149) .

وفيما يتعلق بالاستثمار الفلاحي : فالمنصور كان يرمى الى تنمية الزراعة وتطويرها في بلاد السودان بتحسين وسائل الري واستثمار الاراضى الخصبة (وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلجان والانهار المفلقة المشعبة المذانب والجداول وأعلى البساتين المناسبة الاراقم خلال الاباطح والوهاد التى تفل ضروب المزارع وتنظم عليها الحدائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والادواح الاثيبه

(145) السعيدى : تاريخ السودان . ص 171 .

(146) المصدر السابق .

(147) المصدر السابق . ص 178 .

(148) المصدر السابق .

(149) رسالة المنصور الى القائد منصور باشا بالسودان . (رسائل سمعية . ص 172 .

ملتفة الاغصان والرياض المخوفة الخمائل الموشعة البرود بضروب الزهر الغضى والرياحين الانيقة التي يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتعفى على واسطة الاتالييم زكاء نبت وكرم تربة وجوم اقوات وحبوب وفواكه جنبة قطفوها دانية) (150) ، وقد شرع المغاربة فعلا في تنفيذ ذلك (فمحمود باشا اخذ في انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطعه من تياره ويمكن ذلك غير ما موضع منه ، وعى قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهو على جلق وشط الفرات ويطير صيتها في الخصب فتمير القاصى والدانى من اقاليم السودان) (151) .

اما الاهالى فقد بدأ استخدامهم في المرافق المختلفة المدنية والعسكرية (دفع المنصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه ويخدمون معهم ليتدربوا على سفره والنصف الآخر أعطاهم السلاح والخيل وزوجهم بالجواري) (152) .

وهكذا سار المنصور بعيدا في استغلال ثروات السودان وخيراتها فقد (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى في الرواتب الا النضار الصافي والدينار الوافى . وكانت ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معدود لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ، ولاجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه) (153) .

واعتمادا على الوثائق المعاصرة فان مجموع ما كان يتوصل به المنصور من ذهب السودان قد بلغ نحو الستين قنطارا في كل سنة (154) .

(150) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 166 .

(151) المصدر السابق . ص 167 .

(152) المصدر السابق .

(153) الامرانى : نزعة الحادى . ص 125 .

(154) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 ص 367

تطور العلاقات الخارجية للإمبراطورية المغربية

أصبح المولى أحمد المنصور ،مبراطورا تدين لطاعته بلاد واسعة من شمالي غربى افريقيا : وهذه الامبراطورية تميزت بأهمية الموقع بالنسبة لقلب القارة الانريقية ، وبستراتيجية السواحل التى تمتد مئات الكيلومترات على ضفاف المحيط الاطلسى ، الامر الذى جعل المنصور يشرف على اعظم طرق المواصلات البرية والبحرية الواصلة بين أوربا الغربية والشرقتين : الاوسط والاقصى :

ففتح السودان ونشر النفوذ المغربى فى بلاد الحوصا وبرنو حتى تشاد قد وضع طريق القوافل الواصلة بين السودان والمغرب من جهة وبين افريقية الشرقية ومصر من جهة أخرى تحت رحمة المنصور ومراقبته وشجعه على التمادي فى فتوحاته بالصحراء الانريقية وبلاد السودان وعلى امتداد هذا الطريق التجارية الهامة ، التى أصبحت أساسية لضعف الطريق البحرية المتوسطة بسبب انتشار القرصنة وغداة التوسع التركى فى الشمالى الانريقسى .

وأما استراتيجية السواحل فتبدو بكل وضوح عندما نعلم بأن المحيط الاطلسى قد أصبح الادارة الاولى للمواصلات البحرية بين أوربا الغربية الناهضة والشرق الاقصى وان الاساطيل الاوربية فى ذهابها وايابها كانت تمر محادية للسواحل الانريقية الغربية بما فى ذلك سواحل بلاد السودان والمغرب .

وقد كان لامتداد امبراطورية المنصور على المحيط الاطلسى اثر كبير فى خلق اسطول مغربى ، وفى ضرورة دخول المغرب عالم البحار الذى كان الاوربيون يحتكرون عالمه الفسيح وكل ما يتعلق بالمواصلات وحركات الكشوف البحرية ،

وكذا فيما يرجع الى دور الاسطول في حماية الشواطئ والدفاع عن البلاد والتوسع
فيما وراء البحار . وزاد من رغبة المنصور هذه ، انهزام الاسبان في الارمادا وفقدهم
لمعظم قواتهم البحرية ، ثم صلاته القوية مع الانجليز الذين اشتهروا بصناعة السفن
وركوب البحار علاوة على ما يتوفر عليه المغرب من امكانيات ضخمة مادية وبشرية
لتحقيق ذلك (وهو اليوم ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل .. قسى
الاسر بحمد الله .. بما أتيج لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية
المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها
على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كأجنحة الطير خفتانا وسرعة وطيرانا) (1).

والاهتمام بخلق القوى البحرية تجلى في نواح عديدة أهمها : بناء الدور لصناعة
السفن وتحصين القواعد البحرية المهياة لرسوها (ولما كمل بناء حصن الفتاح . . من
مرسى العرائش نقله اليه وأنزله به) (2) .

ثم اصدار الظهائر التنظيمية لقيادة الاسطول وطرق العمل في البحر (هذا
ظهير كريم رفع للجهاد اعز مئار . . وهيا للجواري المنشآت ثبج البحار أمر
به عبد الله تعالى امير المؤمنين .. للرايس .. ابراهيم الشط .. ولما كان ممن علمت
كفايته ، واشتهرت في الجهاد عنايته .. راء ايده الله أن يقلده قيادة الاسطول) (3) .

وقد كان الاسطول المغربي الناشئ يتكون من عدد كبير من القطع البحرية
أهمها : (القطائع والشوانى) (4) وهى مراكب معدة للجهاد في البحر لما كانت
تتوفر عليه من اسلحة نارية وقوات محاربة .

والجدير بالاشارة هو أن المنصور قد حاول اغتنام فرصة تقرب الانجليز منه ،
وتقدم اليهم بمطالب تهدف جميعها الى تعزيز الاسطول المغربي وتقويته فقدم
طلب منهم مساعدته بالخبراء والصناع المهرة الانجليز) ، الا أن البريطانيين قد
سكتوا عن هذه المطالب ، وما كان لهم أن يساعدوا المنصور على خلق اسطول
مغربي يدركون قبل غيرهم عواقب وجوده سياسيا واقتصاديا ، وسكوتهم هذا دفع

(1) الششالي : مناهل الصفا . ص 197 .

(2) الششالي : مناهل الصفا . ص 197 .

(3) الششالي : مناهل الصفا . ص 204 .

(4) الششالي : مناهل الصفا . ص 197 .

المنصور الى الاعتماد على امكانياته الخاصة ، وكان من العوامل الاساسية في تراجع المولى احمد عن سياسة التعاون معهم ضد الاسبان .

* * *

واما الرفاهية الاقتصادية التى اصبحت عليها دولة المنصور بعد فتح السودان ، فقد كانت نتيجة الموارد الضخمة التى اصبحت خزائن المولى احمد تتلقاها بين الفينة والاخرى من مناطق الامبراطورية وبلاد السودان بوجه خاص ، وكثرة الغنى ولشيوخ الذهب اصبحت المنصور (الامبراطور الذهبى) : فانفتحت امامه آفاق واسعة وظهرت مشروعات ضخمة كان من اهمها الاعتناء بالاسطول وتقويته ، كما ازداد عدد المتقربين منه والراغبين فى التعاون معه ، وكل هذا زاد من اهمية المنصور ورفع من قيمة دولته وامبراطوريته وجعل له وزنا خاصا فى العالم الخارجى (وهو اليوم ايدى الله لهذا العهد . . وانظر العدد والمدد مرائش الجناح بما أتبع له . . من معادن الذهب على التوسع فى الانفاق الذى لا يخشى عيلة ولا فقرا) (5) واعتمادا على وثيقة معاصرة ارسلها المبعوث الانجليزي Lawrence Madoc فى مراكش خلال سبتمبر 1594 ، فان المنصور قد اصبحت اغنى حاكم فى العالم (6) .

وكان الرفاه الاقتصادي ايضا نتيجة السيطرة التى اصبحت للمغرب على الطريق التجاري الصحراوي الواصل بين السودان غربا وبحيرة تشاد ومصر شرقا عبر نيسيت وتيكوات واكاديس وبرنو ونشاد والسودان ، وقد اشار الفشتالى وزير المنصور الى الامال العريضة التى اصبحت المنصور يعلقها على استغلال السودان وتصريف منتوجاته عبر هذا الطريق (وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهر على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتهمير القاصى والدانى من اتاليم السودان) (7) .

على ان تنوع اتاليم الامبراطورية المغربية وتعدد منتوجاتها من شأنه ان يساعد على خلق رواج تجاري عظيم فى الداخل ، ويزيد من تمتين الروابط بين اجزاء الامبراطورية واحكام الصلات بين مناطقها ، ويرغب بالتالى التجار الاجانب على الاقبال على المغرب للمتاجرة معه ، وكل هذه التطورات فى صالح الاقتصاد المغربى ومن

(5) المصدر السابق .

(6) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 86

(7) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167 .

عوامل ازدهاره ونموه ، اذ من شأنها أن تجعل امبراطورية المنصور صلة الوصل وحلقة الاتصال بين القارة الامريقية الفئنة وبين شعوب ودول العالم فى الشرق والغرب ، فتزداد غنى واهمية ويزداد المولى أحمد بالتالى قوة وعظمة .



وبالنسبة للتطور الحضاري والعمرانى : فشيوع الفنى والرفاهية قد فتح مجالات واسعة للعمل أمام طبقات العامة فى ميادين الفلاحة والصناعة والتجارة ومختلف الحرف اليدوية ، او كجنود نظاميين فى قوات المنصور المحاربة ، وترك اعظم الاثر فى طبقات المجتمع وفى انماط الحياة المغربية الى حد أن دولة المنصور امتازت عن غيرها بأنها الدولة التى (اثرت العديم واكسبت المحروم) (8) ، وبديهي أن شيوع الامن والاستقرار وانتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية من شأنه ان يهئ الجو المساعد لتطور ثقافى وفكرى عظيم .

ورغم اننا لسنا فى معرض الحديث عن المظاهر الحضارية فى عصر المنصور الا ان التعرض الى مختلف هذه النواحي من شأنه أن يساعد الى حد كبير ، ولا سيما عند دراسة وضعية الامبراطور المنصور ، على التعرف على كثير من حقائق هذا العهد من حيث الوقوف على امكانيات المنصور المادية والبشرية العظيمة ، والمراى البعيدة التى كان يهدف الى تحقيقها فى الداخل والخارج .

اهم ما يلاحظ على سياسة المنصور الخارجية منذ نجاحه فى فتح السودان وتأسيس امبراطورية واسعة ، السعى الى المحافظة على روابط الود مع قوى الشرق والغرب ، بدافع الرغبة فى التوسع وبسط النفوذ فى المناطق الامريقية الداخلية ، ولاستغلال خيرات البلاد المفتوحة ، ثم العمل فى نفس الوقت على تقوية الدولة المغربية وتوطيد دعائم قوتها ليظهر المولى أحمد المنصور دائما بمظهر الحاكم القوي الذى يخشى هيئته وترجى مساعدته .

على أن ظروف المنصور الجديدة قد فتحت امامه آفاقا واسعة اذ أصبح فى وضعية استلزمته تخطيط سياسة خارجية خاصة ، تتمشى والحدود الجديدة لامبراطوريته سواء فيما يرجع الى علاقاته مع الاتراك العثمانيين او فيما يتعلق بمواقفه من النزاع بين المعسكرين البروتستانتى والكاثوليكي بأوريا الغربية .

(8) المصدر السابق . ص 178

اولا - العلاقات المغربية - الاسبانية :

انحصرت مشاغل فيليب الثانى ملك اسبانيا منذ انهزامة فى اليرمادا ، فى نقطتين رئيسيتين :

1 - الحيلولة دون قيام تعاون عسكري مغربى - انجليزى ، اذ كان الاسبان يدركون جيدا الاضرار التى ستلحقهم بانضمام المغرب الى المعسكر البروتستانتى، وتعاونهم مع الانجليز والفرنسيين والهولانديين ، فمن شأن هذا التعاون ان يفتح عليهم واجهة جديدة للقتال بجنوبى اسبانيا ويهدد قواعد احتلالهم -بشمالي المغرب للخطر ، وان يعرض سفنهم لاعمال السطو والقرصنة اثناء عبورها لشواطئ المغرب الاطلسية ، وقد كان الاسبان يخشون ايضا حصول اتصال وتعاون بين المغاربة و (الموريكسوس) المنتشرين فى جميع انحاء اسبانيا والذين كانوا على استعداد دوما للثورة وحمل السلاح لروح التعصب الدينى التى طغت على الحكام الاسبانيين ، ولاعمال الاضطهاد والتعسف التى كانوا ينزلونها بالموريكسوس وبكل الطوائف الغير الكاثوليكية .

ولاجل ذلك سعى فيليب الثانى ونجحت مساعيه فى التفريق بين المغاربة والانجليز وابقاء المنصور على الحياد بالتنازل له عن مدينة اصيلا دون قتال وعدم خلق اية مصاعب ضده فى الداخل رغم ايوائه لاميرين سعديين يقدر المنصور جيدا خطورتها عليه . وبث عواهل الشك فى نفس المنصور وتحذيره من نوايا الانجليز الحقيقية ، خصوصا بعد التجائهم الى السلطان العثمانى الذى وجد فى ذلك فرصة سانحة للتدخل فى المغرب ، ثم بالاعراب له دوما عن الاستعداد الكامل لمساعدته ضد اى تدخل تركى . ولما كان المنصور حريصا على التوسع بالسودان وغربى افريقية بالدرجة الاولى ، فقد اكد للاسبان تمسكه بحسن الجوار معهم ومحافظته على الروابط الودية القائمة بينهما ، ولم يكن فيليب الثانى يأمل من المنصور يومئذ اكثر من ذلك حتى ينطلق بعيدا فى حروبه الدينية بأوروبا الغربية .

2 - السعى الى الانتقام من خصومه بأوروبا الغربية والثار لهزيمة اليرمادا : فقد تبلورت الحروب الدينية فى أوروبا الغربية بين المعسكرين الكاثولوكسى والبروتستانتى واتخذت صفة صراع مسلح مرير وقاسى بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وزعيم المذهب الكاثوليكى من جهة ، وبين الملوك البروتستانت :

إليزابيث ملكة إنجلترا ، وميريس ناسو زعيم هولندا وهنري الرابع ملك فرنسا من جهة أخرى ، ولم يتوان كل من المعسكرين في البحث عن الوسائل الداخلية والخارجية التي تضمن له الفوز والنصر ، ومن ذلك اتصالاتهم العديدة مع المولى أحمد المنصور بهراكش .

وأهم الميادين التي اصطدمت فيها قوى الجانبين : الأقاليم الشمالية من الأراضي المنخفضة (هولندا) بعد سيطرة القوات الإسبانية على الأقاليم الجنوبية منها (بلجيكا) ، حيث اتخذ المقاومون الهولنديون من الطبيعة وتضاريسها الصعبة عوامل مساعدة لمحاربة الأسبان ، كما أن قرب هولندا من إنجلترا ساعد الإنجليز على مد الثوار بالأسلحة والمؤن والرجال .

وفي منطقة نورماندي الفرنسية التي كانت تمر منها مختلف المساعدات الإنجليزية العسكرية إلى هنري الرابع ملك فرنسا . ثم الأراضي الجنوبية من فرنسا لجاورتها لاسبانيا . ورغم تظاهر القوات الإسبانية التي كانت تحارب في فرنسا تحت قيادة Alexandre Fornès بمساعدة العصبة الكاثوليكية الفرنسية ضد هنري الرابع وأتصاره البروتستانت فاتها كانت تعمل في الواقع على إقرار دعائم الحكم الإسباني بهذه البلاد وبالتالي ضم العرش الفرنسي إلى التاج الإسباني بدعوى توحيد الجبهة المسيحية الكاثوليكية بأوروبا الغربية ضد بدعة الإصلاح الديني البروتستانتى .

وتنفيذا لذلك وضعت منذ سنة 1591 حاميات عسكرية إسبانية في فرنسا ولا سيما في العاصمة باريس وانتشرت القوات الإسبانية في مختلف المناطق الفرنسية لمحاربة البروتستانت والقضاء عليهم .

وكوسيلة لإحباط مساعى فيليب الثانى ، أطلع هنري الرابع في شهر ماي 1593 (بسان دونيس) عن العقيدة البروتستانتية وأعلن عودته إلى المذهب الكاثوليكي فأيد معظم الفرنسيين الذين كانوا يرغبون في تأسيس ملكية قومية وقوية بفرنسا موقف هنري الرابع في حين أن فيليب الثانى قد أمر قواته بمواصلة القتال مما يؤكد بأن العاطفة الدينية عند العامة قد استغلت من قبل الساسة ورجال الحكم في أوروبا الغربية إلى حد بعيد ، لتحقيق الكثير من الأغراض السياسية والأهداف التوسعية .

ثانيا - العلاقات المغربية - الانجليزية :

كان الانجليز يعتقدون آمالا عريضة على تدخل القوات المغربية الى جانبهم في محاربة الاسبان : اذ سيضمنون بانضمام المنصور حليفا قويا ويحصلون على قواعد استراتيجية قريبة من الاراضى الاسبانية ، ويفتحون بالتالى ضد فيليب الثانى جبهة جديدة ، مما يضمن لهم الانتصار على الاسبان ويحقق لهم التدخل خاصة في بلاد البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو الى عرشه بلشبونة . وقد خابت كل هذه الآمال لان المولى احمد لم يكن جادا في التدخل لصالح أي من الفريقين المتحاربين بقدر ما كان يرى في ذلك الفرصة المناسبة للتوسع في افريقية الغربية وبمسلاط السودان .

ورغم تدخل الانجليز لدى السلطان العثماني للضغط على المنصور ودفعه الى محاربة الاسبان ، فان المولى احمد لم يغير من موقفه الخارجى ، وكل ما نجح فيه الانجليز هو ارغامه على ارجاع الامير دون كريستوف الى لندن بعد ان ذهب بهم الظنون بعيدا او خشوا ان يدخل المنصور في مساومة مع فيليب الثانى على حساب اللجوء البرتغالى .

واعتمادا على رسالة المنصور الى ايليزابيت في منتصف ربيع الثانى عام الف للهجرة الموافق ليناير 1592 م ، فان المولى احمد لا يزال مستعدا لتلبية كل مطالب الملكة (والى هذا الذي يتقرر لديكم وتشدون عليه بكلتا يديكم ان مسائلكم عندنا كلها جليلها وحقيرها واموركم بأسرها كبيرها وصغيرها متلقاة عندنا بوجه الاعتناء والاهتبال ومقابلة من على مقامنا بجميل الترحيب والاقبال بحيث تثقون كل الوثوق بأن هذا الجناب ما لكم فيه الا الخير والرضى والموالة بالوجه الجميل المرتضى) . وان في فتح السودان قوة للمغرب حليف بريطانيا (ولا يخفاكم ان زيادتها زيادة ايضا في قوتكم وعائدة ان شاء الله بمصلحتكم) ، وعاملا مساعدا على تحقيق ما يسعى المغرب وانجلترا الى تحقيقه (ومدد من الله معين على المسألة التي اهتمنا واهتمكم) .

ومن مقترحات المنصور تحديد خطة مضبوطة (ونحن لم نزل على ما عملنا معكم لكن على ان تعينوا السلطان المذكور الاعانة التي نثق بها ونعتد بحصانة سبيلها اذ لا يحسن ان نجتمع نحن وانتم على امر ولا ينتج ويقع تظاهرها على مسألة ولا تستفتح من مقلتها) (9) .

(9) رسالة المنصور الى ايليزابيت . تطوان عدد (3 - 4) - ص 55 .

ويختم المنصور رسالته مخبرا بلقائه القريب مع ابنه محمد الشيخ بنفاس
وبانه سيوجه سفارة خاصة الى لندن لتطلعها على تفاصيل ذلك .

على ان خيبة امل الانجليز في المنصور قد احدثت لديهم ردود فعل عديدة سواء
نميا يرجع الى علاقات ايليزابيث مع المنصور او فيما يتعلق بمناجرتهم مع المغرب
وقد قلت لاجل ذلك التقارير السياسية في الوثائق الانجليزية عن المغرب وحصل نوع
من الضعف في العلاقات بين البلدين استمر عدة سنوات ، خاصة وان كلا من
الحاكمين قد اتجه الى معالجة قضايا الداخلية ومشاغله الخارجية : ولئن انشغل
المنصور بالسودان وتوطيد حكمه بها ، فان الانجليز قد وجهوا كامل عنايتهم الى
تقوية اسطولهم وتطويره ليصبح قادرا على تحمل الاسفار البعيدة الى حيث الغنى
والذهب في العالم الجديد ، والتوابل والمنتجات الثمينة في الشرق الاقصى ، كما
اولوا اهتماما متزايدا بتنمية بلادهم الاقتصادية بعد الهجرة الواسعة التي عرفتها
انجلترا للصناع والتجار والعمال من مختلف جهات الفلاندر ، بسبب الحروب
القائمة هناك وما اعقب ذلك من اقامة للمصانع والمعامل ودور للتجارة الداخلية
ما اثر على اقتصاديات انجلترا وأهلها لتصبح المركز الاول للمنتجات الصوفية
وغيرها في اوربا ، وساعدها أيضا على تأسيس الشركات التجارية الواسعة في
مختلف مناطق العالم . وقد كانت حصيلة ذلك كله ان مظاهر الترف والغنى قد
اخذت تم مختلف نواحي المجتمع الانجليزي الى الحد الذي جعل سفير البندقيه في
لندن يكتب الى حكومته بان البلاد مجهزة بكل ما هي بحاجة اليه وان الحقيقة تلزمننا
القول بأنه لا مجال للفقر بالبلاد (10) .

ثالثا -- العلاقات المغربية - التركية :

حصل نوع من التطور في سياسة المنصور الخارجية اثر اندفاعه في التعاون
مع الانجليز ضد الاسبان ولصالح القضية البرتغالية ، فقد أخذ يلوح في الامق بان
تقاربا تويا وتعاوننا فعلا سيحصل بين المنصور ومراد الثالث ، وأن الانجليز
سيلمعبون دورا هاما في تقريب وجهات النظر المغربية - التركية ، للروابط الودية
والمصالح الاقتصادية التي كانت تربطهم مع كل من الاتراك في المشرق والسعديين
في المغرب ، الا ان المنصور الذي كان يسعى جاهدا الى اغتنام ظروف انهزام الاسبان
في الارمادا وفقدتهم لمعظم قواتهم البحرية المسلحة ، وتقرب الانجليز منه لصالح

(10) م. م. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 257

لامير دون انطونيو البرتغالي ضد الاسبان ، ثم تظاهره بمسألة الاتراك ، من اجل التوسع فى افريقيا الغربية والسودان وبناء اسطول مغربى قوى ، قد خيب آمال الانجاز وجميع قوى المعسكر البروتستانتى بأوروبا الغربية ، ودفع ايليزابيث ملكة إنجلترا ، وهنري الرابع ملك فرنسا ، الى الالتجاء الى مراد الثالث السلطان العثمانى وتمتين علاقتهم به ، املا فى وساطته لدى المنصور وللضغط عليه ودفعه الى العمل ضد الاسبان بطريقه أو اخرى ، غير أن ظروف السلطان العثمانى لم تساعده على اغتنام الفرصة المناسبة للتدخل من جديد فى المغرب ووضع حد لنفوذ الملك المغربى الذي أصبحت امبراطوريته الافريقية تحدى الاملاك التزكية فى الشمال الافريقى ، فى وقت ازدادت اضطرابات هذه الباشويات وتعددت اصطدامات الاهالى مع الحكام الاتراك بسبب سوء تصرف الحاميات الانكشارية عماد الحكم التركى فى الباشوية والمضاعفات الخطيرة التى أوجدها نظام الالتزام ، ولاستبدال العناصر التركية بالمناصب الرئيسية فى مجموع الامبراطورية .

وقد زاد من خطورة الاوضاع التحول التدريجى لطريق التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى منذ اكتشاف اوروبا الغربية للعالم الجديد (امريكا) والطريق البحرية المؤدية الى الهند والشرق الاقصى ، فقد أخذت مع السنين مضاعفات هذا التحول تظهر فى مختلف نواحي الحياة بالامبراطورية العثمانية ولاسيما فى العالم العربى لامتداده على الضفاف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط الذى دخل فى مرحلة جديدة من تاريخه تنقسم بنوع من الضعف والركود وتتصف باضطراب الامن وانتشار القرصنة ، مما زاد احوال البحر المتوسط سوءا وتتسبب فى انفصام عرى الاتصال بين شعوبه واقطاره بما فى ذلك المناطق العربية التى كانت تخضع للاتراك العثمانيين .

وهكذا أخذت مظاهر الامن والاستقرار فى الامبراطورية العثمانية خلال اواخر القرن السادس عشر للميلاد تضعف وبدأت بالتالى نواحي الحياة الاقتصادية تعرف نوعا من التدهور كما اضطربت وسائل المواصلات الداخلية ، مما كان سببا رئيسيا فى التأثير على المجتمع العربى وانتشار نوع من الجمود والركود الفكرى أو بعبارة اوضح لقد أخذت عوامل الضعف والانتحاط تبدو فى مختلف نواحي الحياة بالعالم العربى والشرق الاسلامى (11) . ومع الايام ، أخذ الاستياء والتذمر فى البلاد العربية

(11) اكد الرحالة المغربى المعاصر احمد بن الفاضى فى مخطوطه (المنتقى المنصور) الاوضاع السيئة التى اصبح عليها الشرق الاسلامى الخاضع للاتراك العثمانيين . ص 67 :

يشمل سائر الطبقات ويتحول تدريجيا الى اصطدام وثورة مسلحة ضد الحاكم التركي والحامية التركية التي لم تكن تتورع عن القيام بجميع انواع القسوة والتنكيل ، كما اخذت بعض الحركات الاستقلالية في العالم العربي تبرز بين الاونة والاخرى وتسمى جاهدة الى الخروج عن الاتراك والحكم التركي .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : لقد اضربت دمشق عام 1000 هـ / 1591 — 1592 احتجاجا على تصسف الدفتر دار محمود وتزعم الحركة القاضي مصطفى بن سندان (12) . وفي لبنان ظهر الامير فخر الدين الثاني الذي اخذ يعمل على توطيد دعائم سلطانه بلبنان والاستقلال عن الاتراك (13) .

وفي مصر (حصلت الفتن وتحركت العساكر . . ومنعت اولاد العرب من الدخول في العسكر) (14) .

اما في ليبيا فقد ثار زعيم عربي في طرابلس و (اجتمعت عليه العرب وحشدها واتام له ملكا في ديارهم . . وقد كان يزعم انه يقوم بتغيير منابر الترك وفسقهم ولبسط العدل) (15) .

وفي الجزائر ثارت قبائل زواوة ضد الاتراك ولم يتمكن احد من البشوات اخمادها واخضاع القائم بينها (16) .

ومن جهة اخرى ، حرصت الكنيسة الشرقية التي كانت تتزعم الحلف المسيحي باوروبا الشرقية ضد الاتراك ، على استفلال الظروف الصعبة للسلطان العثماني وانطلقت في حملاتها العسكرية ضد الحكم التركي : فمنذ سنة 1594 م ثارت (ترانسلفانيا وفالاشي ومولدافيا) بزعامة (ميشيل الشجاع) وقد وجدت هذه الثورات الدينية المسلحة كل عون وتأييد من اوريا الغربية وروسيا القيصرية في الوقت الذي اخذ السلطان مراد الثالث يشكو المرض وبدأت نهايته تقترب .

وجميع هذه الاوضاع لم تكن تخفى على المنصور الذي كانت له معرفة (بأخبار

(12) (يدخل القرن الحادي عشر والبلاد في حالة شديدة من البؤس والشقاء بسبب ظلم الولاة المتعاقبين وظلم الجند في حلهم وترحالهم وشقاء البلاد بصغار امرائها) — خطط الشام لـ محمد كرد علي . ج 2 ص 247 .

(13) ليلب حتى : تاريخ سوريا ولبنان . ج 2 . ص 350 .

(14) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول ، مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .

(15) التاجروني : النخبة المسكية . ص 77 .

(16) عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر العام . ص 359 .

الآفاق الشاسعة والاططار البعيدة واطلاع على انباء الملوك من اضداده واوليائه (والذذي (" يكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخير على بر أو بحر) . (17) .
فالى اى حد استفاد المنصور من الاوضاع المضطربة للحكم العثمانى فى الشرق العربى ؟

اتخذت محاولات تدخل المنصور فى الشرق العربى مظاهر عديدة ابرزها :
اولا - احكام الصلات مع كبار العلماء والفتهاء بالعالم الاسلامى شعورا منه باهمية الدور الذى يقوم به العلماء والفتهاء ، ولدى عامة الناس بوجه خاص .
(اردنا كى تجتمع الكلمة وانتم فى بلادكم من اعيانها فان اذعنتم اذ عن غيركم) (18) .
وقد تبادل المراسلات العديدة معهم بدافع :

1 - الترغيب فى التاليف لخزائنه (وها خدام بابنا العلى وارديون على تلکم الديار برسم جلب ما لعلکم تستفرغون فيه الوسع من الكتب لخزائنا العلية) (19) .

2 - ائتماس اجازتهم له (ثم مما يكون لهذه المخاطبة الختام ؟ . استدعاء اجازة من ذلكم المقام الصديق يوجز عليها المجيز ويشرف بها المجاز) (20) .

3 - اطلاعهم على اوضاع المغرب الخارجية والداخلية واماله وامانيه للرفع من شأن الاسلام والدفاع عن المسلمين .

4 - ارسال المزيد من المعلومات عن الدولة السعدية والخلافة المغربية (اشرنا على بعض كتبة انشائنا . . بتجريد اخبار الدولة موجزة .. ويتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب . . يعتمد عليه الفضلاء امثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه) (21) .

وقد اعدق الهبات الجزيلة على من ساعدته الظروف على الوصول الى المغرب امثال محمد بن العقاد المكى وامام الدين الخليل المقدسى والشريف المدنى ومثل احمد المقرئ التلمسانى :

-
- (17) الفتالى : مناهل الصفا . من 207 .
(18) من رسالة المنصور لغاضى تيبوكتو (مناهل الصفا . ص 131 .
(19) من رسالة المنصور للعالم المصرى بدر الدين القرانى (رسائل سعدية . ص 33) .
(20) من رسالة المنصور للعالم المصرى زين العابدين البكرى (رسائل سعدية . ص 167) .
(21) من رسالة المنصور لغاضى حلب مصطفى الجنابى (رسائل سعدية . ص 236)

(ولما تقرر عند أعيان البلاد الشرقية حب مولانا نصره الله في العلماء وبره بهم وأجزاله عطاياهم نسلوا اليه من كل حدب ومن لم يمكنه الاتيان خدمه نصره الله بالتأليف ، فالف تاريخ دولته نصره الله جماعة من اكابر علماء القسطنطينية العظمى وكذا جماعة من اعلام مصر وغيرهما مما لا يحصى عدده) (22) .

وأغدق الامواق على العلماء مكافاة لهم على تأليفهم التي وجهوها الى خزائنه (هذا وقد وصل لعلى مقامنا كتابكم الذي اورد من الادب عيونه . . وانتهى لمقامنا العلى رسولنا الاثب من تلك الابواب العثمانية . . المجلدين الذين اتحنهم بهما هذا الجناب الكريم) (23) ولشراء الكتب العلمية ولنسخ المؤلفات التي عز وجودها (هذا وانه ينتهى اليكم ان شاء الله على ايدي خدمتنا دفتر قيدنا فيه بعض ما تذكرناه في الوقت من الكتب . . ان تصرفوا وجه اعتنائكم بجعلها لنا مما يتيسر ابتياعه عجل على ايديكم تحصيله . . وما لم يتفق سوى استنساخه فتوكلوا فيه على الله) (24)

وهؤلاء العلماء كانوا ينتمون الى مختلف الاقطار الاسلامية وخاصة من مصر والشام وفارس والجزائر ، ومن اشهرهم : البكري والقرايى ومصطفى الجنايى والمقري وأبو بكر الشنوانى ومحمد أمين الدفتري العجمى وغيرهم .

ثانياً — ارسال الدعاة الى الشرق الاسلامى بصفة سفراء وتجار وطلاب علم وحجاج ورحالة وغير ذلك ، ومن هؤلاء : احمد بن القاضى ، على التامجروتى ، عبد العزيز الثعالبي ، أحمد الماسى ، أحمد بن عبد الجليل ، الحاج الوجانى ، سعيد الماغوسى . . واكثر ما تحفظ لنا المصادر التاريخية معلومات كثيرة عن أحمد ابن القاضى الذي (تاب له راي في معاودة البلاد الشرقية . . وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا الامام . . في الامايق فجمع من مفاخر الدولة وامداحها وفتوحها ومناثرها ما امل بثه في الاقطار ونشره في المشارق واستأذن مولانا الامام . . فاذن له ووصله) (25) وعن التامجروتى الذي توجه الى اصطامبول في سفارة مغربية الى مراد الثالث (26) .

وقد قام هؤلاء الدعاة بالاتصال بعدد كبير من العلماء والوجهاء وكبار القوم في الشرق العربى وفي مختلف المدن والعواصم مبشرين بدعوة المولى احمد المنصور

22 البكرى : روضة الاس . ص 18 .
23 من رسالة للمنصور (رسائل سعديّة . ص 65)
24 المصدر السابق . ص 79
25 الفتالى : مناهل الصفا . ص 230 .
26 التامجروتى : النعمة المسكية من السفارة التركية .

وداعين الى خلافته العربية الهاشمية (ولقد حضرت مجالس ذكر فيها من مصر والاسكندرية والصعيد وجدة ومكة والمدينة على ساكنها افضل الصلاة وأزكى السلام لما طنت في آفاق العالم حصاته . .) (27) . ولم يتوانوا عن نشر دعوتهم بالعاصمة العثمانية نفسها ، الى جانب بعض مهامم الدبلوماسية ، كالسفير التاجروتى (. . تالله لقد كان من تحدثنا معه من خيار أهل تونس وأعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية) . (28) وعلى ما يبدو فان هؤلاء الدعاة والمبشرين قد كانوا يتخذون من بيوت بعض علماء المشرق وفقهائه أماكن لنشر الدعوة ، اذ تعددت توصيات المنصور لبعض العلماء المشاركة برسله وبمساعدهم على ما هم بصدد القيام به (ثم لا تزال ان شاء الله على دابك المشكور تتعاهد من يرد هناك من قبل هذه الابواب . . بما يحمل من المساعي المرضية . . فانك اليوم ممن تقرر لهذا الجناح الكريم وداده وخلص لهذه المثابة الحسنية اعتقاده) (29) ، وبالاخذ بأيديهم (وحاملها الفقيه المذكور هو وديعة فضلكم وحفيظة سركم . . تفسحون له في كنفكم وتجعلون القيام بما يمرض له هناك من جملة اعبائكم وكلفكم) . (30) وهكذا تمكن هؤلاء من استمالة عدد كبير من عرب المشرق الى حد ان الكثير (من أهل المشرق الذين عليهم العقيد والضبط واليهام الحل والربط ، حلف لى بالايمان اللازمة المغلظة الجازمة التى لا يمكن نقضها ولا ينكث بعضها ، انه لو رأى جارية من جوارى مولانا ايده الله اقبلت بالدعاء لطاعته والانقياد اليه فى امارته ، لكان أول مطيع لها هو واهله فى لحظة من غير مهلة . .) (31) ، والى درجة ان العرب فى المشرق قد أصبحوا يفخرون بالمولى أحمد المنصور (. . وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم . .) (32) ، وانهم أخذوا ينتظرون ساعة الخلاص من الحكم التركى على يديه (. . فكادت قلوب الناس أن تنفطر شوقا اليه وودوا أن لو كانوا عنده ولديه أو يكونوا تحت رايته والويته . . وبالجملة فأهل المشرق قلوبهم بأجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة لديه واحداقهم ناظرة اليه نفذ الله به كسادهم وأصلح به فسادهم (33) .

(27) أحمد بن القاضى : المنتقى المنصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 101

(28) التاجروتى : النفحة المسكية . ص 70

(29) رسالة المنصور الى العالم المصرى (البكرى) - رسائل سمعية . ص 33 .

(30) المصدر السابق .

(31) ابن القاضى : المنتقى المنصور . ص 101 .

(32) المصدر السابق .

(33) المصدر السابق . ص 102

ولم يعد بعض عرب الشرق يقرّون بشرعية الخلافة العثمانية (. . لاشتياقهم الى امارته العربية العلوية) (34) ولان العثمانيين (من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم مواليها وساداتنا الشرفاء) (35) وازداد بذلك تبرم هؤلاء بالحكم التركي وازدادت رغبتهم في أن تساعدهم الظروف على الانتقال الى المغرب (نسال الله تعالى ان يزجنا عاجلا الى حضرته المقدسة الطاهرة من ادناس الجور والحيث) (36) وأن توفقه العناية الالهية الى بسط سلطانه على كل العالم العربي (ايد الله دولته الطيبة الاعراف وملكه من السوس الاقصى الى اقصى العراق) (37) .

ومن جهة أخرى ، عكست اشعار الكثير من شعراء بلاط المنصور هذه الاماني وما كان يهدف اليه المولى احمد من بعث للخلافة الهاشمية العربية التي تنظّم شمل العرب في المشرق والمغرب (38) .

على أن المنصور قد وجه عناية كبرى بمصر ، لمركزها الاستراتيجي ودورها الرئيسي كجباب للمشرق الاسلامي ، وسعى بشتى الوسائل الى توطيد نفوذه بها، يدفعه الى ذلك :

1 - علاقاته القوية مع العديد من كبار علمائها وتبادلته واياهم العديّد من المراسلات التي تضمنت - من جملة ما تضمنته - الكثير من :

-
- (34) ابن القاضي : المنتقى المقصور . ص 101 .
(35) النابجوتي : النفحة المسكية . ص 147 .
(36) البقري : روضة الاس . ص 111 .
(37) المصدر السابق .
(38) من قصيدة للشاعر محمد بن علي الهوزالي : (مناهل الصفا : للشنتالي . ص 142)
لئن اسلمت ارض الجنوب مقادها
واغناق العدا خضع صغرا
وتخفق بالوادى المقدس رايبه
ومن اخرى لعبد العزيز الشنتالي : (مناهل الصفا للشنتالي . ص 157)
نأدرك مصر والمراق ويهم
ان شرق البلاد يرجوك شوقا
وجاء في قصيدة الشاعر الحسن بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 159) .
وما دون بغداد المراق سوى فتر
ويزور دجلة والفرات بمسكر
وماوى لجنك ذى السجايا الطهر
وفي قصيدة الشاعر علي بن أحمد المسفيوي (مناهل الصفا . ص 161)
وهذي الشام وهذي المراق
تسمى لكم وهي دار القرار

1 — تمجيد المنصور لخلافته العربية (. . ومقر هذه الايالة العلمية ومتبوا
خلافتنا الهاشمية الحسنية . .) (39)

ب — مطالبته العلماء بالدعاء له ولخلافته (. . فالمطلوب منكم ان لا تزال السننكم
منطلقة لهذا المقام الفاطمي واللواء النبوي بصالح الحال وبلوغ المراد . .
(والدعاء لهذا الامر العلى العلوي بما يزيد عزا وظهورا . . ويضاعف
انصاره ويظهر حماته وانصاره) . . (فأنتم احق الناس بموالاة هذا المقام
وأولاهم بالاعتناء والاهتمام) .. (والدعاء لهذا المقام العلى الاملى بعضد
تشدت به أواخى الاسلام وأواصره) (40) .

ج — تصريح بعض كبار علماء مصر كالبركي بمعادة الاتراك والاعراب عن
رغبته في أن يكون الخلاص على يد المولى أحمد المنصور (. . وواعجبا من
طلوع الشمس من المغرب امانا للعالم وحفظا . . استطار ذكره بين تفتى
الشروق والغروب ، وحشرت لدعوته أفئدة الموحدين نكل ينادي البدار
البدار . . غرة مولانا أمير المؤمنين وقبلة الموحدين .. فأصبح الاسلام متوجا
منه بعزة الحى القيوم .. وتشرف به تخت الخلافة على الممالك .. يناصرهم
من فتاك الاتراك ..) (41) .

2 — محاولة المنصور الاستفادة من اضطراب الحكم التركى بمصر واستيلاء
المصريين من الاتراك . فاعتمادا على ما دونه أحمد بن القاضى احد دعاة
المنصور بمصر فان ظلم الاتراك قد بلغ اشدده وان الحال أصبح يهدد بالانفجار
(لما يجدونه في قلوبهم من ألم افعال الترك واحكام حكامهم الطاغوتية فى
النفوس والمال والاهل و لشدة وطأتهم على عرب مصر والصعيد) . (42)

وقد أكد ذلك التاجرونى السفير (هكذا أهل افريقية كلهم من الذل والاهانة
. . وقد رأينا منهم العجب العجاب فى كثرة اشتياقتهم وحنينهم الى حكم موالينا
الشرفاء) (43) .

(39) رسالة المنصور الى العالم المصرى البركى . (مناهل الصفا . ص 172) .

(40) المصدر السابق .

(41) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 270 .

(42) ابن القاضى : المنتقى المنصور . ص 103 .

(43) التاجرونى : النحلة المسكية . ص 70 .

- 3 - إمكانية الوصول الى مصر بحكم مجاورتها لحدود الامبراطورية المغربية التي (انتظمت ممالك السودان . . وتنهى الى برنو . . المتاخمة لصعيد مصر) (43)
- 4 - امانى المنصور البعيدة في نشر لواء خلافته العربية الهاشمية على العالم الاسلامى ، ولم يخف الفشتالى وزيره الخاص هذه الامنية عندما اشار الى ان أحد حكماء مصر كان قد تنبأ بالمنصور وبأن الخلاص سيكون على يديه : (. . فهو خليفة الاسلام العظيم الشأن القوي السلطان المفتوح له وعلى يده بتمهيد الاقطار وافتتاح الامصار والايوطان) (45) .

* * *

فماذا كانت نتيجة المحاولات التى قام بها المنصور فى الشرق العربى وفى مصر بوجه خاص ؟ لقد اشتهب الاتراك فى الاتصالات القائمة بين المغاربة والمصريين وبيدو أنهم تنبهوا الى أن شيئاً ما يدبر فى الخفاء ضدهم ، فشددوا الرقابة وحالوا دون أي اتصال جديد بين المغاربة والمصريين ، الامر الذى حدا بالمولى احمد المنصور الى مراسلة والى التركى بمصر فى شأن التوصية بالوفد المغربى ، والتاكيد له بأن الوفد لن يقوم بأي اتصال فى مصر الا باذن الباشا (وجهنا لهذا الغرض . . الحاج احمد الوجانى وجعلنا وجهته الى بابكم وامرنا بحط رحاله برحيب فناء جنابكم . . وقد الزمناه ان لا يقطع امرا من الامور الا بأمرك ومشورتك هنالك) (46) .

ولم تخف على الاتراك النوايا الحثيثة للمنصور والمرامى البعيدة التى يهدف اليها خصوصا وقد تم له فتح مناطق واسعة ببلاد السودان واواسط افريقية . ولاجل عرقلة التوسع المغربى فى افريقية ، وليحمى الاتراك بصفة خاصة جنوبى مصر من أي تدخل خارجى ، امدوا ملك برنو ادريس الوما (الثالث) بالاسلحة النارية التى طالما سعى الى الحصول عليها باتصالاته العديدة مع الاتراك تارة ومع المنصور تارة اخرى (47) ، وغير مستبعد أن يكون الاتراك قد امدوا عددا من امراء وحكام افريقية بهذه الاسلحة ليواجهوا بها الهجومات المغربية او ليقاوموا بها الحكم المغربى ، هذا فى الوقت الذى ظل الجانبان التركى والمغربى يظهران حرصهما على روابط الود القائمة بينهما ، للمشاكل الكثيرة التى كانت تشغل بال كل من مراد الثالث فى أوروبا الشرقية والمنصور فى السودان .

(44) الفشتالى : مناهل الصفا ص 164 .

(45) المصدر السابق ص 290 .

(46) رسالة المنصور للباشا التركى بمصر (رسائل سعية . ص 180) .

(47) الحضارات الافريقية . ص 55 .

ثورة الناصر وملايساتها الدولية

الناصر : هو ابن المولى عبد الله الغالب ، انتقل صبيحة معركة وادي المخازن الى معسكر البرتغال للانضمام الى اخيه المولى محمد المتوكل الذي استنجد بالبرتغال ضد عميه المولى عبد الملك المعتصم والمولى احمد المنصور ، ثم الى اصيلا فالبرتغال .

وعندما قام فيليب الثاني ملك اسبانيا بضم البرتغال عام 1580 وجد الناصر الفرصة وتقدم بطلب النجدة (1) ضد عمه المنصور الا ان الملك الاسباني لم يلتفت اليه بسبب مشاغله الداخلية والخارجية وللعلاقات الودية التي كانت له مع المنصور .

ولما انتهت معركة اليرموك بانهزام الاسبان وانطلق المنصور بعيدا الى الاعراب عن تأييده ومساعدته - للامير البرتغالي دون انطونيو Don Antonio المطالب بعرش لشبونة ، وغالى في التعامل مع المعسكر البروتستانتى وايليزابيت ملكة انجلترا بصفة خاصة (بما اهداها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها) (2) ، ثم لما حاول استقلال ظروف اسبانيا الحرجة بأوروبا الغربية للضغط على فيليب الثاني ومساومته للتنازل له عن اصيلا ، لجأ الملك الاسباني الى المعاملة بالمثل ونقل الاميرين السعديين الناصر والشيخ من لشبونة الى كرمونا Carmona قرب اشبيلية في شهر ماي 1589 (3) واخذ يلوح

(1) مجلة الاندلس Al - Andalus

العدد (23) ص 19 .

(2) الشتالي : مناهل الصفا . ص 193 .

(3) م. ص. ت. م. - فرنسا - ج 2 - ص 218

للمنصور بإمكانية مساعدتها للثورة ضده ، الامر الذي يمكن اعتباره من العوامل الاساسية التي اجبرت المنصور على عدم انجاز وعوده للانجليز ودون انطونيو في المشاركة في الحرب ضد اسبانيا .

ولما كان دون كريستوف Don Cristophe بن دون انطونيو بالمغرب لاجئا في مراكش ، نجد بعض المراسلات التي كان الاجانب المقيمون بالمغرب يبعثونها الى اوربا تتعرض الى الاتصالات التي كانت بين فيليب الثاني والمنصور حول امكانية تبادل الخارجين عليهما اي الاميرين السعديين بالامير البرتغالي ، ولعل هذا من الدوافع التي جعلت الحكومة الانجليزية منذ ان ادركت تراجع المنصور عن التعاون معها ، تلح في اعادة دون كريستوف بل وتتدخل لدى السلطان مراد الثالث لاجل ذلك ، ادراكا لتخوفات المنصور من التدخل العثماني ، فاضطر المنصور الى السماح لدون كريستوف بمغادرة المغرب نحو لندن ، وحتى في هذه الحالة اكد لفيليب الثاني مدى حرصه على مسالمة حيث لم يمكن السلطان العثماني من الامير البرتغالي حتى لا يتخذ سلاحا ضد اسبانيا اي ان تطورات الاحداث لم تسمح للمولى احمد باستغلال وجود دون كريستوف بين يديه الا في مواقف خاصة ولامد محدود ، في حين ان فيليب الثاني الذي لم يغفر للمنصور تواطؤه مع الانجليز واعلان تأييده لدون انطونيو ، والذي لا زال يأوي الاميرين السعديين ، فد أخذ يترقب الفرص لازال الضربة بالمنصور ، للاطاحة به او لازعاجه والضغط عليه ، وةـد وابت الفرصة المنتظرة سنة 1595 م : فما الاحداث العامة التي حصلت في هذه السنة ؟ وما التطورات الداخلية بالمغرب التي وجد فيها فيليب الثاني مناسبة للتدخل ضد المنصور ؟

في الميدان الخارجى : اهم ما يلفت النظر الاصطدامات العسكرية بين الاتراك العثمانيين وحلف شرقي اوربا : فالسلطان مراد الثالث بعد انهائه حروب ايران توجه نحو اوربا الشرقية لاتمام فتوحاته بها ، غير ان تدخل الانجليز وتوسط الملكة ايلزابيت ادى الى عقد هدنة سنة 1591 بين الاتراك وبولونيا سعيا من الانجليز الى جر الاتراك والبولونيين الى تحالف عسكري ضد الاسبان ، خاصة بعد ان فشلوا في دفع المنصور الى محاربة فيليب الثاني ، ثم رغبة من الانجليز ايضا في استمرار شراء الحبوب وملح البارود من بولونيا لحاجة الانجليز الملحة الى ذلك .

ولم تنجح وساطة الانجليز بين العثمانيين وشعوب اوربا الشرقية الا لامد

تصير لعوامل كثيرة أهمها : حرص الاتراك على - سفية أوضاعهم المضطربة بأوروبا الشرقية وتعزيز نفوذهم وسلطانهم بها ، ثم عزم شعوب هذه المنطقة على صد التوسع العثماني الذي كان يحمل بين ثناياه أخطارا سياسية ودينية أيضا ، الامر الذي قارب بين وجهات نظر المسيحيين ودفع دول القارة وشعوبها الى مديد المساعدة والعون الى المحاربين في ترانسيلفانيا (Transylvanic) ووالداشى (Valdachic) ومولدانيا (Moldavic) وما من شك في أن أكثر المتحمسين لاعانة شعوب أوروبا الشرقية ضد الاتراك ملك اسبانيا فيليب الثانى الذي كان يقدر أكثر من غيره مدى خطورة الفتوحات العثمانية بأوروبا ، هذا في الوقت الذي كان كل من بلاط مدريد واصطامبول يظهران حرصهما على التمسك بالهدنة القائمة بينهما .

وفي غمرة هذه الاحداث ، توفي السلطان مراد الثالث وتولى ابنه محمد الثالث يوم 16 يناير 1595 فوجه قوات محاربة الى أوروبا الشرقية ، الا انها انهزمت امام التحالف المسيحي ، ولندرك مدى الخطورة التى أصبحت عليها حال الحكم العثماني في أوروبا الشرقية نذكر بان (ساع من الباب العالى جاء يأمر بأن يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء وأولاد المكاتب في الجامع الاموي ويقرأوا القرآن ويدعو لعساكر الاسلام بالنصر) (4) . وقد زادت عوامل الطبيعة وظروف فصل الشتاء القاسى من خسائر الاتراك ، مما قوى عزيمة المحاربين المسيحيين وشجع الزعيم الهنغاري (ميشيل الشجاع) على التمادي في مقاومة الحكم الاسلامى العثماني بأوروبا الشرقية .

وبالنسبة لشعوب أوروبا ، فقد اعتبرت هذا النصر فتحا لا يقل عن انتصار معركة ليبانتو (Lipanto) التى جرت قبل ربع قرن وحققت فيها المسيحية انتصارا عظيما على الاتراك العثمانيين .

تركت هذه الاحداث مضاعفات خطيرة في مناطق مختلفة من الامبراطورية : نفى الشام : اثار استبداد (كيوان باشا) سخطا عاما بعد أن شرع الوالى (يصادر الناس ويسلبهم باطنا وظاهرا وكثر القتل في أزقة دمشق والطرق والاسواق) (5)

(4) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 245 .

(5) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 246 .

وفي مصر : اضطرت لوضع واستاء الاهالى لتصرفات الوالى (قورد باشا)
الذي (كان اميا سادجا محبا للهو والملذات ولا حيلة له الا جمع المال) (6) .

أما في الجزائر : فقد اشتد التنافس بين الاتراك والعرب وتولى على حكم
البلاد عدد من الباشوات دون أن ينجح احدهم في اقرار الاوضاع الداخلية (7) .

فهذه التطورات الداخلية تعد من العوامل المساعدة التي جعلت المولى أحمد
المنصور ينطلق بعيدا في تنفيذ سياسته التوسعية بافريقية وفي توطيد صلاته مع
البلاد العربية في المشرق ، لولا ثورة الناصر التي شجعتها اسبانيا بشمالى المغرب :
فالملك الاسبانى (فيليب الثانى) الذي كان يسعى دائما الى أن يبقى المنصور
ضعيفا ومحايدا قد اقلقته تطورات المغرب الداخلية وما آل اليه امر الاقتصاد
بالمغرب في ميادين الفلاحة وصناعة السكر وفي التجارة الداخلية والخارجية ، علاوة
على الاسطول المغربى الذي أخذت وحداته تتزايد في عرض البحار ، وما أصبح
للمولى أحمد من صيت ونفوذ وغنى بعد فتح السودان . ولم يعد من جهة أخرى
يامن جانب المنصور لما يتمتع به المغرب من موقع ستراتيجى يمكن خصوم اسبانيا
متى ما نجحوا في استمالة المنصور من تهديد المواصلات الاسبانية ، وتصفية
قواعد الاحتلال الاسبانى بالمغرب ، بالاضافة الى المساعدة التي يمكن أن يقدمها
المغرب للموريسكوس الذين لا يزالون قوة خطيرة باسبانيا

ولهذه الدوافع ، وحتى لا يستغل المولى أحمد انهزام الاتراك في المشرق ،
وانشغال الانجليز والاسبان بالحروب الدينية بفرنسا والاراضى المنخفضة ، لاحتراز
نصر سياسى يمكنه من التوسع وبسط النفوذ ومن الحصول على مكاسب مادية
تزيد من اوضاعه الداخلية قوة وتشجعه على الانطلاق والتدخل ضد فيليب الثانى
في شبه جزيرة ايبريا بوجه خاص ، أرسل ملك اسبانيا الامير السعدي الناصر
بن عبد الله الغالب بالله ضد عمه المولى أحمد المنصور ، ليفسد عليه امته الداخلى
ومراميه التوسعية الخارجية (ولما انس . . نار العزم تلتهب التهايا والهمم
الشريفة قد همت بتجديد الاسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والالات
البحرية بما كان مولانا يومل من فتح جزيرة الاندلس وعبور البحر اليها بجنود الله
وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها) (8) ثم (لما عظم على الطاغية شأن ما

(6) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 2409 .

(7) عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .

(8) الفتاوى : مناهل السما . ص 170 .

أسفه من اسداء أمير المومنين والحامه . . وأقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال
في المكاييد التي هي جنده الاقوى .. فأمل الناصر لتفريق الكلمة وتحريك حوآز
الفتنة به ليثنى بذلك عزم مولانا أمير المومنين ويشغله عن شأنه ويكافئه على ما
يعتمد فيه من نكايته ، فرمى به الى مليلية من سواحل العدو (9) .

والواقع أن الاستقرار الداخلي الذي كان ينعم به المغرب ، يعد من أهم
عوامل تطوره الاقتصادي والاجتماعي ، واليه يرجع الفضل في معظم المنجزات التي
حققتها المنصور في غربى افريقية وبلاد السودان ، ولم يكن يتلق بال المولى أحمد
غير الاطماع الاسبانية المتزايدة في سواحل غربى أفريقيا وفي جزيرة (اركوان)
(Arguin) التي اتخذوها مركزا للمتجارة والتعامل مع القبائل المجاورة
ما اعتبره المولى أحمد منافسة خطيرة من قبل الاسبان لاهدافه التوسعية بالسودان
سياسيا واقتصاديا . واعتمادا على وثيقة معاصرة لاحد الاسبانيين (10) فإن
الاراضى المجاورة لجزيرة (Arguin) بلد غنى بالتمح والشعير والماشية
والفواكه وخاصة معادن الذهب التي يحملها الاهالى بعيدا الى المغرب أو تمبوكتو ،
ولقطع الطريق على هذه الثروات وحرمان المنصور منها ، عمد الاسبان الى المتاجرة
مع الاهالى واخذوا في نقل المنتجات المختلفة اليهم ، الى درجة أن تجارة الاسبان
قد ازدهرت بهذه النواحي وان نفوذهم السياسى قد أخذ يتعزز بها ، وهذا
سيكون له اثر كبير على الحكم المغربى بالسودان في قابل الايام .

أبحر الناصر من مالقا يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من
الموريسكوس الذين كانوا يسامون سوء العذاب باسبانيا للتعصب الدينى ، والذين
وجدوا في ذلك فرصة للفرار من جحيم الاضطهاد ، كما وجد نبليب الثانى بالمقابل
في ذلك وسيلة للتخلص منهم ، ونزل الجميع بمدينة مليلية ، احدى قواعد الاحتلال
الاسبانى بشمالى المغرب ، يوم الثلاثاء 27 شعبان 1003 هـ الموافق 9 ماي 1595 م
واعلن منها الثورة ضد عمه المولى أحمد المنصور .

ان ما أظهره المنصور من حزم ، وما هياه من قوات مسلحة ، يعكس الى
حد بعيد ، تخوفاته من ثورة ابن أخيه الناصر بجبال الريف بالمغرب الشمالى —
الشرقى . وهناك أكثر من سبب لتفسير اهتمام المنصور بالثورة وانشغاله
بالتضاء عليها :

(9) الفشنالى : مناهل الصفا . ص 170 .
(10) م. م. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 44

الاول : ظروف المنصور الخارجية حيث أن الاحداث السابقة قد باعدت بينه وبين حلفائه الانجليز الذين فقدوا الثقة في وعوده . في الوقت الذي كان السلطان محمد الثالث منهكاً في حروبه ضد الحلف المسيحي الذي صمم على التحريض من الحكم العثماني بشرقي أوروبا ، وقد امد الاسبان الناصر بقوات عظيمة وبكل المساعدات (ان عدو الدين طاغية غشائلة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام . . رام خذله الله مكافئنا على ذلك بما اهل ان يفتى نسي عضدنا الاقوى . . فرمى بمخدول من ابناء اخينا عبد الله كان ربي لديه وطوحت به الطوائج منذ ثمانية عشر عاماً اليه الى مليلية احد ثغوره المصائب لمغرب مالكننا) (11) .

ثانيا : ان القوات التي تناصر الثائر تضم من بين عناصرها : الموريسكوس كقوة نظامية ، ووجود الموريسكوس في صفوف الناصر يجعل المنصور لا يركن الى العدد العظيم منهم الموجود ضمن قواته المسلحة .

ثالثا : العدد الكبير من قبائل المغرب الشرقي التي استجابت لدعوة الناصر للاموال الطائلة التي وزعها الناصر على رؤساء هذه القبائل ، علاوة على الوعود والاماني التي بذلها ومناهم بها بعد تحقيق الفوز والانتصار ؛ وقد تجمع للناصر من مجموع ذلك قوات جرارة (ثم لحق به سائر الاحلاف فالقفوا به واعلنوا بدعوته نصرخ الشيطان به في اذان غوغاء تلك الناجية من اهل الجبال المصائب لبا فطاروا اليه من كل اوب وصوب . . فالتف به منهم جموع لا تحصى) (12) . خرج بها من مليلية نحو تازة التي لم يجد صعوبة كبرى في فتحها لانضمام عدد من قوات المنصور المسلحة الى الناصر (فتخاذلت منهم فئة ومالت اليه . . فنزلها . . والقوا باليد فدخلها) (13) . وبلاستيلاء على تازة باب المغرب الشرقي اصبح طريق مدينة فاس مفتوحا امام القوات الثائرة ، كما ان هذا النصر الاولي زاد من حماس الناصر ودفع بالكثير من زعماء القبائل الى الانضمام الى الثورة واعلان تأييدهم لها (ولما دخل تازة وتسامع به المغترب بابا طيله

(11) الفشتالي : مناهل الحسنا . ص 189

(12) المصدر السابق . ص 171 .

(13) المصدر السابق . ص 172 .

الواهية . . تسائلوا اليه ينسلون من كل حذب فتكاثرت جموعه وحشوده
والتف عليه منهم عالم من العرب والبربر . . فلاح له من ذلك بارق خلب
اكذبه امنيته فقوض عن تازى وتخطاها الى امام) (14) .

رابعا : لقد اختيرت جبال الريف بالشمال الشرقى من المغرب كمركز للثورة ، وذلك
لقربها من قاعدة الاحتلال الاسبانى لمليبية حيث يسهل مد الناصر بمختلف
المساعدات العسكرية ، ولصعوبة تضاريسها مما يساعد على محاربة
قوات المنصور (وجاد بالخروج الى تلك الجهة . . حذارا من المباغثة
والمعالجة بالمساكل) (15) ، ثم لاستراتيجية هذه المنطقة التى يمكن
الانطلاق منها نحو مناطق المغرب الشمالية والشرقية ، وتمكن الناصر
فى الوقت نفسه من طلب العون التركى بالجزائر او الالتجاء اليهم عند
الانهازم (وليجد وليجة الى المروق من هنالك لجهة الشرق ان بدا له من
امره ما يكره) (16) .

اما الموقف الذى اتخذ المنصور من هذه الثورة فقد تجلى فى مظهرين :
دبلوماسى وعسكري .

1 - فالمظهر الدبلوماسى : ظهر فى مكاتبته ملك اسبانيا فيليب الثانى
بشان ثورة الناصر ، وقد كان قصده من ذلك - كما يبدو - التأكد من موقف الاسبان
الحقيقى ومدى مساعدتهم لها ، ومما جاء فى رسالته المؤرخة بيوم الخمس 6 قعدة
عام 1003 هـ / 13 يوليوز 1595 اى بعد مرور نحو شهرين على قيام الثورة .
يؤكد بان المنصور كان لا يزال يبادل الملك الاسبانى عبارات الود والمجاملة : اما
املا فى رده عن مغامرته الخطيرة ، او ليحمله مسؤولية ما سيقع ، دون ان يففل
عن التعرض لحل بعض مشاكل الاسبانيين بالمغرب (هذا وقد وصلنا كتابك فقابلناه
على عادتنا فى كتبك الواردة الينا بوجه البشر والترحيب . . وطالعنا ما ذكرتم عن
ولد اخينا الخارج بمليبية وعن اسباب خروجه وحتى خديمكم بلتزاربول ذكر لنا
ما امرتموه ان ييئه علينا وينهيه الينا والى هذا فما نحن اجبناه عن ذلك مشاهمة
وكلمناه بما عندنا مواجهة ومن عنده ان شاء الله تعلقون ما لدينا وتقفون على
ما عندنا) (17) .

(14) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .

(15) المصدر السابق .

(16) المصدر السابق .

(17) توجد هذه الرسالة فى (سيمبلكاس) اسبانيا . رقم 213

وبديهي ان السفير الاسباني قد حاول اقتناع المنصور بعدم مساعدة فيليب الثاني للناصر ، اذ لا شيء اهم عند المنصور والحالة كما نعلم من ان يتعرف على موقف الاسبان من الثورة ، وهل اقتنع المنصور بذلك ؟ ان مجريات الاحداث تثبت لنا بان المنصور لم يكن يشك قط في ان الاسبان هم المحركون الاساسيون للثورة (.. ؟ اعلامكم بان الناصر حليف الصليب .. كان الطاغية خذله الله تذف به الى جهة ملياية تذف النواة .. وتواه بالاموال) (18) التي لم يكن القصد منها سوى اضعاف المنصور وتشتيت شمل المغاربة الذين اخذت اوضاعهم المتطورة تزعج فيليب الثاني وتورقه (لما ائس من جانب طور عنايتنا الامامية نار العزم تلتهب التهابا .. والههم كلفت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للفرز والجهاد بقضاء كل دين مطول وعلم ان الحديث في هذا الاحتفال اليه يساق .. رام مكايدة الاسلام في ذلك بما امل ان يفت في عضدنا) (19) . لذا فقد امر المنصور بالقاء القبض على السفير الاسباني بمراكش (Balthzar Polo) يوم الجمعة 4 غشت 1595 ووضع رهن الاعتقال ، وملاحقة الاسبانيين الموجودين بالمغرب (20) ، وذلك كتدابير وقائية لما عسى ان يقوم به هؤلاء من شغب وغرضي لصالح الثورة القائمة بشمالى البلاد .

2 - والمظهر الثاني العسكري ، تجلى في خروج المنصور خارج مراكش (لاول ما طرق الخبر باجلاب الناصر على تازى وعزم على الزحف بنفسه .. فبرز بروزا فخما اوائل شوال عام ثلاثة) (21) مما يدل على خطورة الثورة ، غير ان المولى احمد عدل عن التوجه شخصيا وكلف ابنه المولى محمد الشيخ نائبه على فاس بتوجيه حملات عسكرية ضد الناصر ، وظل هو معسكرا في نهر تانسيفت وعلى اهبة الاستعداد للتدخل (وتلوم مولانا .. بمعسكره من باب اغمات ريثما استكمل العساكر اهبة السفر فارتحل لنهر تانسيفت) (22) .

ومن فاس ، خرجت قوات جرارة بقيادة ابراهيم بن القائد كتيرس ومحمد ابن ابراهيم بن بجة ، وحصلت معارك بين الطرفين كان النصر فيها حليف الثورة لانضمام قسم من هذه القوات المحاربة الى صفوف الناصر . وقد شجع هذا الانتصار

(18) رسالة المنصور للعالم الكبرى بمصر (مناهل الصفا . ص 189)

(19) المصدر السابق .

(20) م. ص. ت. م - فريسا - ج 2 - ص 227

(21) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 172 .

(22) الفتاوى : مناهل الصفا . 172 .

الناصر على مواصلة الزحف نحو مدينة فاس عاصمة المغرب الشمالي ، وقيل أن يصل إليها خرج إليه الشيخ على رأس قوات عظيمة ، وجرت عند سفح جبل مدغرة معركة عظيمة انهزم فيها الناصر وفر ، بعد أن أصيب برصاصة في ركبته (ناحتله العرب في الهودج وطاروا به) (23) ، وقد جرت هذه المعركة يوم الخميس 26 تعدة عام 1003 / 2 غشت 1595 .

وعلى اثر هذا الانتصار الذي احزره المولى محمد الشيخ ، كاتب المولى احمد المنصور تائدي قواته بالسودان منصور باشا وجوذر باشا يخبرهما الخبر وكيف انتهى امر الثورة بالفشل ، وهذه الرسالة تعد من الوثائق التاريخية المعاصرة التي تلقى الضوء على ثورة الناصر ومدى الجهود التي بذلها المنصور في سبيل القضاء عليها (الى كبير المماليك المتتسمين لاعمال الممالك السودانية وهما منصور باشا وجوذر باشا اسمعهم الله من البشائر ما يملأ صدوركم انشراحا . . فكتابنا هذا اليكم من معسكرنا السعيد على نهر تانسيفت . . والذي ننهيه الى جهنكم من الانباء المثيرة للفرح والسرور . . اعلامكم ان الشقى الناصر حليف الصليب . . ولم يكن الا كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقى وجمعه الانبار . . واخذهم الله على يد ولدنا اسعده الله تعالى اخذة رابية . . هذا من بعد ان لم يأل الشقى وجمعه جهدا في الاحتفال والاستعداد بما لا مزيد عليه عدا وعددا . . وعرفناكم بما سنى الله من هذا الفتح العظيم . . لتأخذوا من السرور بشارته . . وتشبهوه الى من هنالك من عساكرنا المؤيدة بالله والاجناد والى سائر اهل ممالكنا الشريفة بتلك البسلاذ) (24) .

التجأ الناصر الى (دار ابن مشعل من جبل بنى يزناسن من ايالة الترك معتمبا بها) (25) ، وهذا يعد تطورا خطيرا في سير الثورة لان توجه الناصر نحو الجزائر كان لطلب المساعدة التركية اما لتخلي الاسبان عنه بعد انهزامه أمام الشيخ بن المنصور ، أو سعيا منه الى تقوية صفوفه بالمساعدة التركية وهل كان يوسع اترك الجزائر تقديم المساعدة للناصر ؟

ثم ما هي وضعية الاسبان وما العوامل التي حالت بينهم وبين الاستمرار في تقديم المساعدة والعون لثورة الناصر بشمالى المغرب ؟

(23) المصدر السابق .

(24) يوجد نص الرسالة في مناهل الصفا . ص 189 .

(25) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 172 .

ان الجزائر العثمانية منذ ان اصبحت باشوية دخلت في عهد من الفوضى والفتن الداخلية ، وتعد سنة 1595 بداية تطور خطير زاد من حدة هذه الفوضى والاضطرابات : اذ في هذه السنة عزل السلطان محمد الثالث الباشا مصطفى بن قية لفشله في اخضاع ثورة (القبائل) وعين في غشت من نفس السنة خضر باشا للمرة الثانية ، الا انه لم يتمكن كسلفه من القضاء على الثورات الداخلية للتنافس الشديد بين العرب والأتراك ، الامر الذي حدا بالسلطان الى عزل خضر باشا واعادة مصطفى الباشا السابق ولكن بدون جدوى (26) . فاذا كانت هذه هي وضعية الجزائر الداخلية فمن البديهي ان الأتراك الحاكمين لن يتمكنوا من تقديم مساعدة ما للناصر ، لان الحالة تستدعي الاهتمام ومقاومة الخارجين قبل التفكير في ارسال قوات عسكرية لمساعدة ثورة منيت خلال شهورها الاولى بالفشل والهزيمة . علاوة على أن وضعية السلطان العثماني الحديث العهد بالتولية (محمد الثالث) كانت جد سيئة للانجازات المتوالية التي لحقت قواته المحاربة بشرقى أوروبا سواء بقيادة (فرهاد باشا) أو (سفان باشا) الذي انهزمت قواته عند نهر (الطونا) ، حيث غنم أعداؤه عددا عظيما من العتاد الحربي والمعدات العسكرية ، بالإضافة الى القتلى وعشرات المئات من الاسرى (27) ، مما زاد في قلق السلطان ودفعه الى حصر الاهتمام بهذه المنطقة دون سواها ، وقد بلغ من حرصه ان خرج على رأس القوات المحاربة في شوال 1004 / جوان 1596 واستطاع بعد معارك طاحنة تحقيق انتصارات على الحلف المسيحي (28) ؟ على ان المساعدات العسكرية التي ارسلتها دول أوروبا ، وأعمال الخيانة التي وقعت في صفوف القيادة التركية ، مكنت القوات المسيحية من القيام بهجمات معاكسة ضد القوات التركية انى تكبدت خسائر فادحة ، ولولا قيام الوزير التركي (جنكالا) بصد الهجوم لحصلت للقوات العثمانية ما لا تحمد عقباه (29) .

ولما كان المنصور مطلقا على احداث الشرق وملما بحال الأتراك في الجزائر فانه لم يضطرب لتقرب الناصر من الجزائر وحكامها الأتراك ، فقد (اجمع السلطان . . على النهوض بنفسه بالعساكر والاجناد من مراكش . . وعلى الاقامة بفاس وتجهيز العساكر منها مع ولى عهده أيدهم الله الى اقتحام جبل بنى يزناسن على

(26) عبد الرحمن الجبالي : تاريخ الجزائر العام . ص 360 .
(27) ابراهيم اندي : المصباح السارى . ص 146 .
(28) المصدر السابق . ص 147 .
(29) ابراهيم اندي : المصباح السارى . ص 147 .

الناصر غير مكثرت باولى الايالة عاملا على الاجلاب عليهم وعليه ان راموا النصره له والوقوف للدفاع دونه واحتفل له احتفالا عظيما (30) .

وبالرجوع الى الوثائق التاريخية التى بين ايدينا نتأكد من ان المنصور قد ظل حريصا على مسالمة الاتراك ، بل ان دور اسبانيا فى مساعدة الحلف المسيحى لاوريا الشرقية وفى تأييدها لثورة الناصر بالمغرب ، قد تقارب بين العثمانيين والسعديين ودفعمهم الى التفاهم لصد الاخطار الخارجية ، وذلك كما تثبت الرسائل التى تبودلت بينهم : فقد بعث المولى أحمد سفارة خاصة لاصطامبول للتعزية فى وفاة مراد الثالث ولتقديم التهاني لابنه محمد الثالث (فالذي يحيط به علمكم أننا قد كنا لحين ما الم بنا نبأ ذلك النبأ الفاجع من قبل ورود كتابكم وموافاة خطابكم بادرنا بازعاج ارسالنا الى أبوابكم برسم التعزية والتهنئة) (31) .

وعندما وصلت السفارة التركية الى مراکش لتخبر المنصور رسميا بتولية محمد الثالث حملها المولى أحمد خطابا يعكس مدى حرصه على الود وحسن الجوار (وعندنا من موالة ذلك الجنب بجميل الود والمحبة المحكمة الربط والعقد والمصافاة التديمة العهد والمواخاة الاسلامية الموروثة عن الاب والجد ما لا تزال لدينا على الدوام سورة تتلى) (32) . فالظروف العامة للإمبراطورية العثمانية والايوضاع المضطربة لباشوية الجزائر حالت جميعها دون الاستفادة من ثورة الناصر وتلبية مطالبه : بالمساعدة ضد المنصور (الى ما تضمنه كتابكم . . الاعلام بأولئك الاشخاص الواردين عليكم من اصحاب ذلك المخذول وما كان من عدم التفات مكانكم المكين اليهم وعدم الاصغاء لما لديهم وايعازكم مع ذلك الى اصحابكم بتلمسان بسذ باب القبول فى وجهه وعدم اسلام الجيش الى الالتفات اليه والالتفاف عليه) (33) .

وقبل ان يأمر المنصور بهاجمة الناصر فى شرقى المغرب كاتب الوالى خضر باشا مخبرا اياه بما قر عليه امره (فلما رأيناه تقاعس عنكم لم نرد اتحامه الا بعد مفاوضتكم واعلام مكانكم . . فنحن ان شاء الله على الاجلاب عليه بعساكرنا حتى نستخرجه من نفقه ونستأصل بعون الله ما كانت أبقت من رمقه) (34) .

(30) الفتاوى : مناهل الصنا . ص 172 .

(31) رسالة المنصور الى السلطان محمد الثالث . دار الوثائق - الرباط - مخطوط - ك 278 . ص 342

(32) المصدر السابق .

(33) رسالة المنصور الى خضر باشا - (رسائل سمعية . ص 254)

(34) رسالة المنصور الى خضر باشا . رسائل سمعية . ص 254 .

وبالنسبة للأسبان لقد اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوروبا الغربية بين المعسكرين : الكاثوليكي والبروتستانتى وازدادت حدة الصراع فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة كما اعدت بريطانيا فى مضايقة المستعمرات الاسبانية أن بأمريكا أو البنفد والشرق الاقصى ، وفى انزال الخسائر بالسفن الاسبانية العائدة من الشرق والغرب ، بالإضافة الى التأييد الانجليزى للامير البرتغالى دون كريستوف بعد وفاة والده دون أنطونيو (جوان 1595) فى المطالبة بالعرش البرتغالى ، وقد انتهى الامر باحتلال الانجليز لمدينة قادس فى يوليوز 1596 (وفى هذا التاريخ صمد اليه أسطول بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وانرة وعساكر النار على احتفال عظيم يقدمها دون كشتوبان . . فأجلبت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومتوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من ارضه ومرسى أسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه . . وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعبث فى سواحل الطاغية وتدمير ارضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه) (35) . وفى هذا يكن سر تراجع الاسبان عن الاستمرار فى تأييد ثورة الناصر الذى وجد نفسه فى الاخير وحيدا فى الميدان أمام المنصور الذى لم يستصغر مع ذلك شأنه ، بدليل الاستعدادات العظيمة التى اتخذها لمواجهة الثورة والقضاء عليها : فقد انجد ابنه الشيخ بالقوات المسلحة (جهز ايداه الله . . مسعود بن مبارك فى جيش من عساكر النار) (36) ، وأمر ابنه المولى زيدان عامل تادلا بقطع طريق سجلماسة على الناصر (ان رام النهوض اليها من دار بن مشعل) (37) ، كما (وجه عن عساكر السوس ؟ للاجلاب على الناصر ان زلت به الاقدام الى الانحدار للسوس) (38) .

ومن اجراءاته العسكرية ايضا الاوامر التى وجهت الى غوانه (بحاحة وبلاد دكالة وتامسنا وسائر العساكر المتفرقة فى الممالك) (39) لتكون على اهبة الاستعداد (فتوافت الاجناد وتوالت الامداد . . فتكاملت الاهبة وعظم الاحتفال من الاستعداد) (40) .

(35) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 194 .

(36) المصدر السابق . ص 173 .

(37) المصدر السابق . ص 177 .

(38) المصدر السابق . ص 177 .

(39) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 178 .

(40) المصدر السابق .

أما الناصر فقد دخل في حروب دامية مع قوات المنصور ، وأحرز في
الامطدات الأولى انتصارا بسبب تراجع بعض القبائل عن المولى محمد الشيخ ،
إلا أن هذا الأخير سرعان ما أعاد الكرة ضد الناصر للامدادات العسكرية التي
وصلته من مراكش وجرت معارك حاسمة دارت فيها الدائرة على الثائر الذي حاول
الفرار ولكن القى عليه القبض وصحبه وسيق الجميع إلى فاس (فقبضوا عليه
واستاقوه لفاس فوجه ولي العهد برأسه وجثته لأمير المؤمنين . . بمراكش فنصب
الرأس حتى شاهده الناس تنكيسا للفساد وأخمادا لنار الفتنة الناشئة بسببه) (41)
وتم بذلك القضاء على هذه الثورة التي دامت سنة كاملة (9 ماي 1595 حتى
21 ماي 1596) .

ويكفي لإظهار خطورة الثورة أن المنصور قد أمر بإقامة مظاهر الفرح ، وجلس
لقبول التهاني وسماع قصائد الشعراء (فكان ذلك اليوم . . بما عم الناس من
السرور وشمل من الفرح . . وبرز مولانا إلى فسطاطه الأعظم المعد للديوان العام
ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد مجلس للتهنئة وانثال
الناس عليه من العساكر والأجناد وأهل الحضرة . . وبرزت آيات الغناء
من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت أصوات آلات الملك) (42) .

وكتب المنصور بعد ذلك جميع ولاته في الداخل (43) يعرئهم بالنصر والقضاء
على الثورة وبعض الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي : الدينية منها
والسياسية ، مستغلا الفرصة المناسبة لإبراز قوته وعظمته ومدى حرصه الشديد
على الدفاع عن الإسلام وديار المسلمين ، وليلطلب من كبار العلماء في الشرق
الإسلامي الدعاء له بالنصر والفتح (أن يويدنا الله على عدو الدين . . ويسهل
علينا بفضلهم ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها) (44) . فهل

(41) المصدر السابق .

(42) المصدر السابق .

(43) المصدر السابق .

(44) رسالة المنصور إلى العالم المصري البكري (مناهل الصفا ص 189)

كسان المولى احمد المنصور يرمى من وراء ذلك الى العمل على
استغلال الظروف لكسب شهرة واسعة فى العالم الاسلامى
فى الوقت الذي كان السلطانى العثمانى محمد الثالث يعانى الامرين من جراء حروبه
فى اوربا الشرقية وبسبب الثورات والفتن التى عمت معظم ولايات الامبراطورية
العثمانية ؟ وهل كان جادا فى تحقيق امل المسلمين المنشود وانجاز ما عجز بنو
عثمان عن القيام به وهو استرداد الاندلس وهزم اكبر قوى اوروبية مسيحية : قوة
اسبانيا وملكها العظيم فيليب الثانى ؟

المنصور بين التحالف مع الإنجليز والتفاهم مع الأسبان

إذا كانت هنا كمن صفات يمكن أن تتميز بها أعمال فيليب الثاني ملك اسبانيا خلال السنوات الاخيرة من حكمه ، فهي : الفشل والخيبة وتوائى الهزائم ، وان الانهزام في حملة الارمادا قد تربت عنه سلسلة نكبات في كل من الاراضى المنخفضة وفرنسا والمغرب والجديد في الامر هو ان المولى احمد المنصور قد اندفع نحو التعاون الجدي مع المعسكر البروتستانتى الذي طالبا سعى جادا الى جر المغرب في محالفات عسكرية ضد اسبانيا لموقعه الهام ولاستراتيجية شواطئه التى تسمح بالتحكم في المواصلات البحرية الاسبانية مع الشرق الاقصى . وهذه نتيجة حتمية طالبا ان الخطر الاسباني كان يهدد جميع هذه البلدان .

ويهبنا بصفة خاصة : ان نتعرف على أهداف المنصور وعلى نوع الاتصالات التى أصبحت له مع حلفائه الجدد ، وأن نقف على مدى استعداد كل من المتحالفين وامكانياتهم .

كان المولى احمد وهو يندفع الى التعاون مع المعسكر البروتستانتى، تحذوه رغبة العمل ضد فيليب الثاني، بالدرجة الاولى ، كرد فعل لما قام به من تاييد ومساعدة لثورة الناصر ، ولان احتلال الانجليز لمدينة قادس في يوليوز 1596 م ابطل اسطورة اسبانيا القوية المنيعه ، واظهر حقيقة اوضاعها المضطربة ، كما شجع في نفس الوقت خصوم اسبانيا — وما اكثرهم — على التحالف لتهرب الخصم العنيد فيليب الثاني واقتسام امبراطوريته الواسعة الغنية التى لا تفتيب عنها الشمس .

فتهالكوا لهذا العهد في مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخفقه،
وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته (1) .

والحقيقة هو أن فيليب الثاني قد أغرق بلاده في بحار واسعة من الدماء لاعمال
الاضطهادات الداخلية ، وللحروب الطويلة المستمرة والمتعددة الواجهات التي
خاضتها القوات الاسبانية ، كما عرض اقتصاديات اسبانيا الى الخطر وحمل
الخبزينة ما لا تطيق من النفقات المتزايدة ، دون أن يحسب حسابا للدول الاوربية
النامية التي أخذت تطور اوضاعها السياسية وتعمل جاهدة لارساء قواعد اقتصاد
قوي ومتين وتفكر ايضا في التوسع الخارجى وتأسيس المستعمرات .

واعتمادا على ما أصدره الكورتيز (Cortès) الاسبانى خلال هذه الفترة
(1594) نتأكد من أن اسبانيا قد ساءت احوالها المختلفة اقتصاديا واجتماعيا :
اذ تدهورت الزراعة وتربية المواشى وتأخرت الصناعة والتجارة ، ولم يعد هناك
من منطقة فى اسبانيا لم تفقد الكثير من سكانها الى درجة ان العديد من المنازل قد
اصبحت مغلقة وغير مسكونة ، وباختصار : لقد اضطلعت المملكة الاسبانية (2) .

لقد أعرب المنصور منذ الايام الاولى للقضاء على ثورة ابن أخيه الناصر ، عن
عزمه وصادق نيته فى العمل ضد اسبانيا الى أن تكفل جهوده بفتح الاندلس واسترداد
مردوس الاسلام المفقود (. . ان يويدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده
الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومهونته أسباب
فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان
الدين فيها بكلمة الله التى طالما سكت عنها بدائه وخرس وشرق بريقه فغص
واحتبس) (3) .

وقد ظهر هذا العزم فى توجيه المنصور ثلاث سفن مسلحة ومحملة بالمؤن ،
انضمت يوم 25 يونيه 1596 (4) الى الاسطول الانجليزى والهولندي الذى كان
يحاصر قادس تحت قيادة (Charles Haward) ليؤكد للمعسكر البروتستانتي
مدى حرصه وصدق نيته فى محاربة اسبانيا وليعمل على استعادة ثقة ايليزابيث

(1) اللشتالى : مناهل الصا . ص 195 .

(2) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 287 .

(3) اللشتالى : مناهل الصا . ص 191 .

(4) م . ص . ت . م - فرنسا ج 2 - ص 299

ملكة إنجلترا بوجه خاص (اهتم أيده الله بالجهاد وأخذ الاهبة له والاستعداد وبجازاة عدو الدين على كل ما اعتمل فيه من كيد الاسلام وتفريق كلمته) (5) .
ثم عجل بارسال سفارة خاصة الى قانس لتعرب للامير البرتغالي دون كريستوف عن تأييد المنصور واستعداده التام لامداده بالقوات المسلحة وكل ما يطلبه منه (6) ، وهذا يعد اعترافا من المنصور بسلطنة الامير البرتغالي وتأييدا صريحا منه ضد فيليب الثاني ملك اسبانيا . وقد انطلقت في الوقت نفسه قوات من الاسطول المغربي لغزو جزر كناريا (وما زال أيده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك مفتقاد السبى والانتقال ولا كالجزائر الخالدات التي ضرستها بانيابها واضحت مشمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيها) (7) .

ومن جهة أخرى استقبل المنصور في بلاطه بمراكش بعثتين سياسيتين أرسلتا من هولندا وفرنسا للقيام بمهام سياسية واقتصادية لدى المنصور :

— فالوفد الهولندي وصل الى مراكش في اكتوبر 1596 ليقتراح على المولى احمد بصفة خاصة عقد معاهدة تجارية تمكن التجار الهولنديين من التعامل مع الموانئ المغربية وتسمح لهم بالاستيراد والتصدير (8) . وقد وجد الوفد الهولندي حسن استقبال من المنصور طالما أن الهولنديين كانوا من أشد أعداء اسبانيا وانهم لن يتوانوا عن تزويد المنصور بكل ما يحتاج اليه من ذخيرة وسلاح . وقد كانت هولندا تهدف في الواقع الى :

1 - فتح الموانئ المغربية في وجه سفنها الذاهبة او العائدة من الشرق الاقصى وحمايتها من أخطار القرصنة الاسبانية ، خصوصا وقد أصبحت للهولنديين مستعمرات في غينيا بغربي انريقية وجاوا بالشرق الاقصى .

2 - اتخاذ الموانئ المغربية الاطلسية نقط انطلاق ضد السفن الاسبانية العائدة من الشرق الاقصى لنهب خيراتها وقطع الطريق عليها .

وأما السفارة الفرنسية فقد وصلت الى المغرب يوم 13 ديسمبر 1596 بقصد نهى تعاون عسكري ضد اسبانيا (9) ، ومعلوم أن فرنسا في عهد هنري الرابع

(5) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 187 .
(6) م . ص . ت . م - بريطانيا - ج 2 - ص 96
(7) الفشتالي : مناهل الصفا . ص 197 .
(8) م . ص . ت . م - بريطانيا - ج 1 - ص 27
(9) م . ص . ت . م - بريطانيا - ج 2 - ص 160

قد دخلت في حروب متواصلة دفاعا عن أراضيها ومقاومة التدخل العسكري الاسباني ، ثم لانساد خطة فيليب الثاني الرامية الى ضم العرش الفرنسي بدعوى توحيد قوى العالم المسيحي الكاثوليكي (واتصل اهل افرانصه وانضم بعض الى بعض فقويت شوكتهم واستفحل امرهم وتعاضمت صولتهم فسبت همتهم السى استرجاع ملكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكة فصعدت عساكرهم الى باريز فنازلوها واجلبوا على اعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه) (10) .

وفي نطاق سياسة المنصور الجديدة راسل الملكة ايليزابيت في ديسمبر 1596 في شأن تحرير اسير كان يعمل بقادس لصالح المنصور ، مبديا استعداده لامتدائه (11) فعادت بذلك — نوعا ما — الاتصالات المغربية — الانجليزية بعد انقطاع شبه تام استمر خمسة أعوام تقريبا . ودخل ايضا في اتصالات مع عدد من الاجانب الذين كانوا بالمغرب ، ومن هؤلاء (Pedro Ferreira) البرتغالي الاصل ومن مرافقى الامير دون كريستوف عندما كان لاجئا بالمغرب (12) ، واستنادا الى المذكرة التى بعثها البرتغالى المذكور بتاريخ 30 يناير 1597 (13) ، فان المولى أحمد قد تذاكر معه غداة احتلال الانجليز لمدينة قادس وأنه ابتهج لهذا الفتح ووجد فيه عزاء للخسائر الجسيمة التى نزلت بالمغرب من جراء ثورة الناصر . ثم يذكر صاحب المذكرة بان المنصور :

1 — اعرب له عن نيته في أن يقوم الانجليز باحتلال جزر أصور ، وذلك لما تمتع به هذه الجزر من ستراتيجية وسط الحوض الشمالى للمحيط الاطلسى كمنطقة هامة للمواصلات التى تربط اسبانيا مع مستعمراتها بالعالم الجديد .

2 — لم يخف المنصور عن محدثه البرتغالى الامال التى يعلتها على قيام تعاون عسكري مغربى — انجليزى ضد فيليب الثانى ولفتح اسبانيا ، اذ ان احتلال قادس قد اعطى الدليل على امكانية فتح هذه البلاد متى توحدت الجهود واتخذت كل الاستعدادات .

(10) المشتالي : مناهل الصفا . ص 194 .

(11) م. ص. ت. م — بريطانيا — ج 2 — ص 137

(12) المصدر السابق ص 110 .

(13) المصدر السابق .

3 - لقد أكد المنصور للمبعوث البرتغالي كامل استعدادده لخوض غمار الحروب الى جانب الانجليز ، وانه يضح جميع ثرواته الطائلة من أجل ذلك تحت تصرف ايليزابيت ملكة انجلترا .

اما مدى استجابة الانجليز وحلفائهم لمقترحات المنصور ، فالوثائق المعاصرة تثبت بأن بوادر تحالف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا قد أخذت تلوح في الافق ، خصوصا وان المعسكر البروتستانتى كان قد بيت العزم على انزال الضربة القاصمة بالاسبانيين واستغلال بعض جوانب الضعف والتدهور فى سياسة فيليب الثانى لاحتراز انتصارات سياسية واقتصادية ، متخذين من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا ، ولقطع طريق التجارة والمواصلات البحرية الاسبانية ولقد ابدع الفشتالى وزير المنصور فى تصوير الصراع الانجليزى - الاسبانى ، وفى التعرض الى النتائج الهامة التى ترتبت عن احتلال قادس . (وفى هذا التاريخ صمد اليه اسطول سلطنة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وامرة وعساكر النار على احتفال عظيم . . فاجلبت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائر الثتيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من أرضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه . . وقد تصاعد اسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعبث بسواحل الطاغية وتدمير أرضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة فى نكايته) (14) .

وأول ظاهرة تؤكد استجابة الانجليز لمقترحات المنصور ، ما جاء فى الوثيقة المؤرخة بشهر مارس 1597 بأن الملكة ايليزابيت قد بعثت تطلب من المولى أحمد ان يقوم بتخريب المناطق الزراعية الموجودة حول مراكز الاحتلال الاسبانى بالمغرب وأن يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا (15) . فهل كان ذلك تنفيذا لسياسة حصار اقتصادي تعقبها هجومات عسكرية ضد اسبانيا ؟ وهل أدرك فيليب الثانى وساسة الايسكوريال مدى الخطورة التى أصبحت عليها وضعية اسبانيا الداخلية والخارجية وان عليهم تدارك الامر ؟ ان الذى يبدو من دراسة الاحداث وتطوراتها هو ان الاسبانيين قد شعروا بظروفهم الحرجة وأدركوا ان عليهم القيام باحباط مساعى خصومهم حتى لا تحل باسبانيا ما لا تحمد عقباه : ولأجل ذلك أصدرت

(14) الفشتالى : مناهل الصنا . ص 194 .
(15) م. ص. ت م - بريطانيا - ج 2 - ص 121

الحكومة الاسبانية عفوا شاملا عن السياسة البرتغاليين الذين كانوا يتعاونون مع اعداء اسبانيا (16) ، وقد كان ذلك ولا شك لكسب جانب عدد من البرتغاليين الذين كانوا يخدمون مصالح الاميرين دون انطونيو ودون كريستوف ، وتسخرهم ايليزابيت ضد اسبانيا . كما اثار الاسبانيون المسيحيين الكاثوليك بايرلندا ضد انجلترا ، وقد اشتعلت ثورة دينية خطيرة بالجزيرة تحت زعامة (هيواونيل) و (ايرل تيرون) ، دامت عدة سنوات ، ارتكب خلالها الانجليز من اعمال الشسدة والبطش ضد الايرلنديين الكاثوليك الشيء الكثير ، بما في ذلك جماعة الرهبان الكاثوليك الذين تعرضوا للطرد والملاحقة ولم يسمح بالبقاء الا للمسجلين في سجلات الحكومة وللذين ادوا يمين الولاء للدولة الانجليكانية (17) .

ومن جهة اخرى قبل الملك الاسبانى فيليب الثانى وساطة البابا (كليمان الثامن) وعقد مع هنري الرابع معاهدة (Vervins) 1598 م . التى خففت بعض العبء عن كاهل الاسبان واحدثت نوعا من الانفراج فى سياستهم الخارجية . ولكن وفاة فيليب الثانى يوم 13 سبتمبر 1598 وتولية ابنه فيليب الثالث الذى لم يكن كآبيه قوة وحزما حيث سلم امور الدولة الى (دون فرنسيسكو غوميت دي ساندربال) المعروف بـ (Le Duc de Larmes) ، الذى كان همه فى جمع الاموال وبيع المناصب والذى ابتدا فى عهده ما يعرف بمؤامرات البلاط ، قد زاد من سوء الاحوال الداخلية باسبانيا وجعل الاوضاع العامة تتدهور بشكل خطير كما لاحظ ذلك الاسبانى المعاصر الشهير (سرفانطيس) :

وحتى فى هذه الحال ، لم تساعد الظروف على القيام بعمل ما ضد اسبانيا لان الثورة الايرلندية قد ارغمت الانجليز على توجيه عناية كبرى للتضاء عليها ، ولان هنري الرابع اهتم بتضميد جروح فرنسا وبناء ما هدمته الحروب الدينية وخاصة بعد اصدار مرسوم (نانط) (18)

والمغرب بدوره اجتاحه داء الطاعون واثر على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية مما لم يعرف له مثيل من قبل (الطاعون هو وباء استئصال وطال من عام سبعة

(16) المصدر السابق . ص 110

(17) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 387 .

(18) مجموعة Clio القرن 16 م . ص 289

والف الى عام ستة عشر والـف وعم سهل المغرب وجباله حتى افنى اكثر الناس ومات جمع من الاعيان) (19) . ومن الرسائل المعاصرة الاولى التى اشارت الى انتشار الوباء بالمغرب ، رسالة مؤرخة بشهر يونيه 1598 جاء فيها بان المولى احمد المنصور قد أصبح يعيش فى خيمة خاصة وان خيمته تنظف كل عشرة ايام (20) مما يدل على ان الطاعون قد استفحل بشكل خطير اضطر معه المولى احمد المنصور الى مغادرة مراكش والتخيم بضواحيها . وقد تضاربت الارقام التى سجلها الاجانب عن عدد ضحايا هذا الداء فى كل يوم وان لم يكن هناك خلاف بان نسبة الوفيات كانت مرتفعة فى المدن والاماكن الاهلة بالسكان اكثر مما هو الحال فى البوادي والناطق النائية وبسبب انتشار الطاعون اضطرت اقتصاديات المغرب للتأخير الذى حصل فى ميادين الزراعة والصناعة بالداخل ولتوقف الاجانب عن المتاجرة مع المغرب وهذا زاد من حدة الفتن الداخلية واغرى الطامعين والمستائين على الخروج والجاهرة بالعصيان . ومن مضاعفات الطاعون بصفة خاصة ان الشركة البربرية التى كان الانجليز قد أسسوها سنة 1585 للمتاجرة مع المغرب قد اعلنت فى هذه السنة انلاسها كنتيجة لبيعها بالدين ولمضاربات التجار الاجانب والمهربين منهم خاصة ثم لاضطراب الاوضاع الاقتصادية العامة (21) .

ويبدو ان حدة الوباء قد خفت فى السنة الثالثة من ظهوره وخاصة فى مراكش مما جعل المولى احمد يعود الى عاصمته (واما اهل مراكش . . فكان اكثر وقوعه بهم . . ثم لم يزل يعود اليهم سنة بعد سنة . . وقد شاهدنا من ذلك ما الله اعلم به) (22) .

وفى مراكش استقبل المنصور خلال ماي 1599 سفارة انكليزية حملت اليه خطابا من الملكة (ايليزابيت) ترجوه فيه ان يحرر بعض الاسرى (الفلمانكيين) الموجودين بالمغرب ، وان يسمح لرعايا دولتى هولندا وزيلندا بالمتاجرة مع المغرب وحق اقتداء اساراهم (23) . وهذا يؤكد بان الهولنديين كانوا لا يزالون يسمون الى الحصول على امتيازات من المنصور للمتاجرة مع المغرب ولاستغلال موانئه

(19) عبد الرحمان التانارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 1420 . ص 31

(20) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 137

(21) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 1 - ص 445

(22) التانارتى : الفوائد الجمة . ص 31 .

(23) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 137

المتوسطة والاطلسية لارساء سفنهم في الذهاب والاياب من الشرقتين الاوسط والاتصى
وللقيام بأعمال القرصنة ضد السفن الاسبانية .

وقد استجاب المنصور لمطالب الملكة ايليزابيت ولاسيما فيما يرجع الى تحرير
بعض الاساري الهولانديين والزيلانديين ، واستغل وجود السفارة الانجليزية
بالمغرب وفاتح بعض اعضائها بنيتها في اقامة تحالف عسكري مغربي - انجليزي
ضد الاسبان . واستنادا الى المراسلة الهامة التي وجهها Jasper Tomson
الى لندن بتاريخ 4 يوليوز 1599 م (24) فان المنصور قد كلف وزيره القائد عزوز
بالتباحث معه في شأن اقامة تحالف عسكري ضد اسبانيا ، وكان مما استفسر عنه
الوزير المغربي : هل في نية الملكة ايليزابيت التعاون مع المنصور لفتح اسبانيا ، لان
قيام تحالف بين البلدين كفيلا بتحقيق ذلك .

الا ان الدبلوماسي الانجليزي اجابه بأنه لا يعرف شخصا شيئا عن ذلك
وان الملكة الانجليزية ليست لها نية في غزو اسبانيا ، ومن الافضل أن يوجه المغرب
سفارة خاصة الى لندن لمناتحة المسؤولين عن ذلك . وتضيف المذكرة بأن القائد
عزوز الح في الاستفهام عن مقترحاته هذه وطلب من (طومسن) أن يستقصى نية
الملكة والحكومة الانجليزية بوجه خاص .

وفي مارس 1600 م قصدت سفارة مغربية لندن ومعها عدد من أسرى هولندا
وزيلندا (واعلمى أن النصرى الفلامنك الذي كتبت فيهم لعلى مقامنا وكانوا فى
اسرنا ها هم يصلونكم صحبة خدامنا وقدامتنا عليهم لاجل رغبتك ورعاية
جنابك) (25) .

وقد كانت السفارة المغربية مكونة من السفير عبد الواحد بن مسعود بن محمد
ابن عنوري وعضوية التاجرين الحاج ميسا والحاج يهنت ، والترجمان عبد الله
دودور الاندلسى الاصل . وعندما وصل الجميع الى (دونر) يوم (8) غشت
1600 رفقة الانجليزي (توماس جيرارد) رئيس تجار الانجليز بالمغرب ، قصدوا
لندن التى دخلوها يوم 15 غشت حيث استقبلوا بحفاوة . وفى يوم 22 غشت
حظى الوفد المغربى بالثول بين يدي الملكة ايليزابيت بقصر Nonsuch (26)

(24) المصدر السابق . ص 142 .

(25) رسالة المنصور لاييلزابيت مجلة تطوان : عدد (3 ، 4) . ص 55 .

(26) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 197

أما المهمة التي كلفت بها هذه السفارة فهي :

1 - التأكيد للملكة بأن المنصور حريص على تلبية كل مطالبها (ان جميع ما يكون لكم من الاغراض فيبلادنا وفي ممالكنا الشريفة . . فهو مقضى) (27)

2 - اعتماد السفارة المغربية والركون الى ما يتقدم به السفير عبد الواحد (هذا وانه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلى الكاتب الانجد الاثير عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنوري وقد حملناه من الامور ما يلتبه اليكم ان شاء الله مشافهة وبيته عليكم مكاملة ومواجهة وعرفناكم لتعلموا اننا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه بيته عليكم والمراد ان تصفوا الى ما استودعناه تليفه ان شاء الله جملة وتفصيلا حتى يتقرر لكم ذلك تقريرا اصيلا فتطالعونا حينئذ ان شاء الله بما لديكم الى ان نكون على بصيرة من كل ما عندكم) (28) .

3 - مطالبة الملكة بنقل وفد مغربي الى حلب للقيام بمهمة خاصة (هذا والذي اوجبه لمكانك المكين انه يرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريم الذين وجهناهم الى حلب لقضاء بعض ماآرينا مما عن من اغراضنا وقد اخترنا لهم ان يكون مرورهم على بلادك للمحبة التي بيننا وبينك . . نحسب ان تستوصوا بهم خيرا واحسانا في طلوعهم مع سفن بلادك الى تلك الجهة وتوصي بهم اهل السفن . . كما نريد منكم ايضا ان تعطوهم كتابك في ايديهم الى تجار بلادك الذين يسامرون الى تلك الجهة) (29) .

ولعظم المسؤولية التي انيطت بالسفارة ثم لتريث المسؤولين الانجليز في الامر ، استقر الوفد المغربي بلندن زهاء ستة اشهر في ضيافة الحكومة حيث لم يغادر لندن الى المغرب الا في مطلع يناير 1601 . ونحن يهمننا بالدرجة الاولى ان نتعرف على الاقتراحات التي تقدم بها المغاربة الى الانجليز وان نحاول الوقوف على الاهداف التي كان المنصور يتوخاها من ارسال وفد خاص الى حلب ببلاد الشام .

أما مقترحات الوفد المغربي فقد تضمنت :

1 - التعريف بامكانيات المنصور العظيمة : فهو يملك قوات مسلحة ويتوفر على

27 رسالة المنصور الى ايلزابيث . تطوان . عدد (3 ، 4) ص 55
28 المصدر السابق .
29 المصدر السابق .

كنوز وأموال ودخول ، علاوة على وفرة الاخشاب الصالحة لبناء الاساطيل مما يجعل بوسع المنصور تموين الاسطول الانجليزي بكل ما هو بحاجة اليه من رجال وموؤن .

2 - اقتراح تعاون عسكري مغربي - انجليزي ضد اسبانيا . والمولى احمد يرى مهاجمة الاسبانيين في :

أ - المراكز التي يحتلونها بالمغرب ، حيث يقوم المغاربة بتموين كل الاماكن التي ستمكن القوتان من تحريرها بشواطئ المغرب .

ب - نقل الحرب الى اسبانيا وغزو الاسبانيين في عقر دارهم .

ج - الهجوم على المستعمرات الاسبانية في : غربى افريقية وجزيرة Arguin وفي جزر الهند الشرقية والغربية (30) .

وأما هدفه من توجيه الوفد الى حلب ، فيبدو واضحا بعد التعرف على احداث الشرق الاسلامي وما كان السلطان العثماني محمد الثالث يلاقيه من حروب وثورات لقد استمرت حروب الاتراك في اوربا الشرقية وتكبد العثمانيون خسائر فادحة وبالاخص لما استولت القوات النمساوية - المجرية على قلعة (رعب) الحصينة والستراتيجية . ومما زاد من سوء احوال السلطان أن روح التخاذل والتأمر قد دببت في نفوس قادة الانكشارية ودفعتهم الى التمرد والعصيان وبرز الامثلة : ما قام به عبد الحلیم قره يازيچى قائد فرقة السكبان الانكشارية ، حيث أعلن خروجه على السلطان واحتل سنة 1599 مدينة الرها ، وأصبح يشكل خطرا قويا على الباب العالي الذي لم يجد بدا من مفاوضته والتنازل له عن ولاية اماسية لاستمالته، ولكن ذلك لم يزد الثائر الا امعانا في خروجه ، وقد استفحل خطره بعد الانتصارات التي حققها على ولاية كل من دمشق وبغداد سنة 1600 م .

وهذه الاحداث الداخلية الخطيرة تردد صداها في المناطق المختلفة من الامبراطورية :

— فقد قامت (ثورات العربان ضد حلب وواليها أحمد مطامن باشا . . لما قام به الانكشارية في حلب من أعمال الظلم والنهب والقتل والحرق) (31) .

(30) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 222
(31) محمد كرد على : خطط الشام . ج 2 . ص 243 .

— و جرت حروب أهلية بين الإمراء المحليين (ابن معن) و (أبا سيفا) في نهر الكلب ، وبدأت قوة فخر الدين المعنى الثاني تبرز في بلاد (كسـروان وبـيـروت) .

— وفي مصر (حصل فناء بالطعن والطاعون عم الامصار والقري ومكث مدة) (32) فكانت نتيجة ذلك سوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية الى جانب تصسف الباشوات والمسؤولين .

— أما في الجزائر فقد استبد قادة الانكشارية بالسلطة واصبحوا يقومون بتميين حكام البلاد من بينهم ، وهذا زاد من فوضى الداخل وساعد زعيما محليا وهو احمد مقران سيد بجاية على الثورة ضد الاتراك في نواحي حمزة والساحل الجزائري (33) .

وكل هذه التطورات قد الم بها المنصور الذي كان حريصا على (معرفة اخبار الاماق الشاسعة والاططار البعيدة والاطلاع على انباء المنوك من اصدقاءه واوليائه وبث اصحاب الاخبار في البلاد دانيتها وقاصيتها وانكفاء العيون في سائر الجهات) (34) ، فهل كان المولى احمد يهدف الى الاستفادة من الظروف السيئة للسلطان العثماني ؟ وما موقف الملكة الانكليزية من هذا التدخل ؟ والى اي حد كانت اوضاع المنصور الداخلية تساعده على ذلك ؟

استقبل المنصور سفارة انجليزية برئاسة (Henry Parnell) في اكتوبر 1600 م حملت اليه اجوبة الملكة على المقترحات المغربية السابقة :

- 1 - تشكر المنصور على استجابته لرغبتها في اطلاق سراح الاسرى الفلامنك .
- 2 - تعتذر له عن عدم تمكنها من ارسال الوفد المغربي الى حلب .
- 3 - تعهد الضابط المذكور وترجو المنصور ان يتعرف منه على اجوبة الحكومة الانكليزية على مقترحاته السابقة .

أما عن اعتذارها عن حمل الوفد المغربي الى الشرق الاسلامي فالامر لا يحتاج الى تعليق اذ سبقت الإشارة الى احوال السلطان العثماني الحرجة وكيف أصبحت

(32) محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول . ص 35 .
(33) عبدالرحمن الجبالي : تاريخ الجزائر العام . ص 361 .
(34) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 207 .

ثورة عبد الحلیم تهدد الحكم التركي في الاناضول وفي شمالي سوريا وسواحلها ، ولما كان الانجليز قد أصبحت لهم مصالح بالشرق العربي وبالتالي ارتباطات اقتصادية وسياسية مع صطامبول يمكن تسخيرها ضد خصمهم العنيد : فيليب الثالث فان ايليزابيت قد رفضت طلب المنصور ، حفاظا على مصالحها وروابطها مع الاتراك (35) ، وبالنسبة لجواب الملكة على مقترحات المنصور بشأن التحالف ضد اسبانيا : فانها لا توافق على مهاجمة اسبانيا او تواعدها المنيبة بشواطئ المغرب في الوقت الذي تقترح على المنصور امدادها بقرض قيمته مائة الف جنيه (36) لتهيء حملة عسكرية ضد الهند ، احدى المستعمرات الاسبانية ، لاهميتها الاقتصادية ولان الاتكيز كانوا يسعون الى تركيز نفوذهم في الشرق الاقصى .

كاتب المنصور الملكة الانكليزية من جديد بتاريخ 23 شعبان 1009 هـ الموافق لاول ماي 1601 م وشكرها على عنايتها بالوفد المغربي :

(هذا وانه ورد على مقامنا خدامنا القائلون من جهتم فاثنوا عن جنابكم المكين كل خير جزيل وصنع جميل وشكروا ما عاملهم به مكانكم الاصيل من جميل الرعى الذي تعرفوه في كل حال وفي المقام والترحال وتلقينا منهم من صميم محبتكم في هذا الجنب العلى الامامى ما لا نزال نتعرفه منكم في جميع الاحوال وكل هذا مشكورا لمكانكم المكين ووردكم الواضح المستبين) (37) .

كما أعرب لها عن قبوله اعتذارها لعدم توجيه الوفد المغربي الى حلب (وأما ما اقامه مكانكم من العذر عن عدم تجهيز اصحابنا الى جهة حلب فقد قبلنا في ذلك عذركم وارتضيانه وباحسن التاويل تاولناه) (38) .

واكد لها في الاخير بان جوابه عن مقترحاتها الاخيرة مستعترف عليه من السفارة المغربية (وكل ما لدينا من الجواب عن الامور التي تضمنها الزمام الواصل لمقامنا العلى مع كتابكم هذا هو مفصل في الزمام الوارد عليكم ان شاء الله صحبة هذا المکتوب الكريم لتتلقوا ذلك اجمالا وتفصيلا) (39) واعتمادا على وثيقة معاصرة فان المولى احمد قد ربط تقديم القروض المالية بمشاركة القوات المغربية في غزو

(35) البحر المتوسط : (Brandel) ص 467

(36) مجلة تطوان . العدد الثامن . ص 45 .

(37) مجلة تطوان . ك 8 - ص 81 .

(38) المصدر السابق .

(39) المصدر السابق .

المستعمرات الاسبانية وبالتالي اقتسام الاراضى المفتوحة بينهما (40) .

وامام اصرار المنصور على موافقه بعثت الملكة ايليزابيت تطلب منه السماح لمجموعات من الاندلسيين الموجودين بالمغرب بالتوجه الى انكلترا لتستخدمهم في حروبها ضد الاسبان (واما ما اشترتم اليه في مسألة من هنا من بنى فلان ببلادنا وعمالك من الغرض في عبورهم لبلادكم وجوازهم ان أمكن الى تطركم وأرضكم (40) مما يؤكد عدم ثقتها بجدية المنصور في موافقه العدائية لفيليب الثالث ويعكس نسي الوقت نفسه التجارب الفاشلة بين الاندلسيين والانجليز ضد خصومهم الاسبانيين . نهل كانت النية مبيتة لجمع افواج المهاجرين الاندلسيين الموجودين بالمغرب والشمال الافرقي وانكلترا وغيرها لاستخدامهم في الحروب الانجليزية ضد اسبانيا ؟ ويؤكد هذا كون السفير الخاص الذي حمل مقترحات الملكة الانجليزية الى المولى احمد كان اندلسيا (وقد ورد على مقامنا العلى فلان الاندلسى وقرر لنا كل ما حمل من ثلاثكم من المقاصد والاعراض التى التيتتموها اليه وقصصتموها عليه تقريراً اصغينا اليه فيها بالاذن الواعية حتى فهمناها جملة وتفصيلاً ووعينا كل ما قررتم له تقريراً اصيلاً) (40) .

غير ان المنصور رفض هذا الطلب بحجة ان عددهم قليل لا يفي بالحاجة المطلوبة وان نقلهم محنوف بالاطار (وهؤلاء المذكورين ان أمرنا بعبورهم وجوازهم نخشى ما يؤدي اليه الحال من التغيير بهم وربما يجد العدو فيهم فرصة ينتهزها ننعرضهم الى الخطر ونحن لا نريد ارتكاب وجوه الاخطار والغرر بهم لانهم لا يكونون ايضاً في هذا الشأن وحدهم) (40) .

ولمواجهة هذا الخصم القوي الذي (هو عدونا وعدوكم وهو كما تعلمون عدو كبير وقدره بين ملوك كذا قدر معتبر وشأنه عندهم في قوة المملكة واتساعها عظيم) لابد من القيام باستعدادات ضخمة هائلة (ولا يكفى لاجل ذلك في مسألته الا الاحتفال العظيم والعدد الكثير والجمع القوي والعمل الكبير ؟ . ولا اقل في ذلك من مائة الف بين الخيل وعساكر النار كلها مقاتلة) (40) .

وقد اكد المولى احمد للملكة الانكليزية استعداداه التام الى حد اعلان الجهاد المتدس (ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحد افره سهولة وجباله عربه وبربره بجموع تملأ الارض وتغطى بسوادها الاعظم الشمس) (40)

140 رسالة المنصور الى ايليزابيت - دار الوثائق بالرباط - مخطوط - ك 278 . ص 195

وامك - الواسعة للانفاق على جميع القوات المحاربة (لا يخفاكم ان هذا العدد العديم الذي به تخضع شوكة العدو ويقصم ظهره ويثقل عرشه وينقض من أصله ركنه يحتاج الى الاموال الوفيرة ولا يقوم بتجهيزه واعطياته وعونه واثقاله الامال عريض ووفر قوي وجهد عظيم) (41) شريطة الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة (واذا تبسر ذلك وعلم المسلمون ان البلاد اذا فتحت تبقى لهم فان هذا الامر بحول الله وقوته اهمون شئ علينا وعليهم بخلاف ما اذا كانت البلاد تستفتح ولا تبقى لهم فان فقهاءنا وعلماؤنا لا يساعدون على ركوب الاخطار بالمسلمين واقتحام الاموال العظيمة لهم الا اذا كانت البلاد يسلم اليهم امرها ويلقى اليهم حكم ولايتها والنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين ولا يساعدون المسلمين عليه واذا حصل الوفاق بهذا الشرط فان جيوش المسلمين حينئذ يسرعون الى النهوض لهذا الغرض الجهادي من كل اوب خيلا ورجالا وخفانا وثقالا لانه لا يخفاكم اننا نحتاج الى الانفاق العظيم على هذا الغرض واذا كنا ننفق الاموال الطائلة مع انه ما دعنا الضرورة الى ذلك ثم لاتكون البلاد مع ذلك لنا فما الفائدة التي تظهر حينئذ للمسلمين في حركتهم لهذا الامر العظيم) (41) .

ومن خلال اجوبة المنصور هذه يبدو ان الملكة الانكليزية قد واعده بتقديم اسلحة وعتاد حربى مقابل السماح بهجرة الاندلسيين ، غير ان المولى احمد اكد لها مدى استعداداته العسكرية وانه لا يحتاج الا لبعض قطع الاسطول (واما ما ذكرتم عن ارسال العدة فلا نحتاج لذلك فان كل شئ هنا والحمد لله ببلادنا ونعرفكم حاجتنا الى ستة سفن من اكبر ما يكون وارادنا منكم الموافقة على جلبها من عنكم ان شاء الله واذا وافقتم نوجه اليكم الستة من الرياس برسم هذه السفن مع من يتوجه معهم من خدامنا ونحن لا نحوجكم في هؤلاء الرياس ولا في هؤلاء الخدام الى كلفة من الكلف لاننا ندهم من عندنا بمال لنفقاتهم حتى يرجعوا ولا نحتاج منكم الا الوقوف لهم حتى يحيزوا ان شاء الله بتلك السفن فما تمكن استعماله منها جديدا يستعملوه وما تمكن شراؤه واقفا موجودا يشتروه ، وهذه المسألة من اوكذ امورنا عندكم تقفون لنا فيها اجمل الوقوف الموافق لصديق محبتكم في جانبنا العلى حتى تكبلوا لنا فيها البقية والمراد) (41) .

وفي (مناهل الصفا) للفشتالى - وزير المنصور - تأكيد للسياسة الجديدة

(41) رسالة المنصور الى ايليزابيت - المصدر السابق .

الرامية الى تقوية الاسطول المغربى وتطويره ليتمكن من مواجهة الاسبان وغزوهم في ديارهم وللقيام بالفتوحات البعيدة (وهو اليوم ايدى الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوى الاسر بحمد الله وافر العدد والمدد مرائى الجناح بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية الغنية بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في الاتفاق الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير الجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفتانا وسرعة وطيرانا . . حتى يبلغ اهل الاسلام في الجهاد ويفتح من ارض الاندلس اقصى البلاد والاطار البعاد بعزته وقدترته (42) .

فهل حققت الايام امانى المنصور ؟

اهم ميزة تطبع الفترة الاخيرة من حكم المولى احمد ، هو ذلك التحول الذي طرأ على سياسته الخارجية او بعبارة اوضح : عودة المنصور الى سياسته التقليدية : سياسة التفاهم مع الاسبان وملكها فيليب الثالث . فما هى ظروف المغرب الداخلية خلال السنوات الثلاث الاخير من عهد المنصور ؟ وما العوامل والاسباب التى جعلت المولى احمد ينتقل من خصم لدود الى صديق حميم للاسبان ؟

كان للاوضاع الداخلية المتدهورة نتيجة انتشار الطاعون اكبر الاثر في مجرى الاحداث التى عرفتها الفترة الاخيرة من حكم المنصور ، فهو لم يتمكن من مواصلة اتصالاته السرية مع الانجليز للمرض الخطير الذى الم به في صيف 1010 هـ / 1601 م وقد ازداد الامر تعقيدا وبدات الاحوال تنذر بانفادح العواقب . وتعكس رسالة التهنية بالشفاء التى وجهت الى المنصور من فاس في يوم 15 جمادى الثانية 1010 هـ المخاوف التى انتابت القوم بسبب ذلك (وعلينا أن الله لطف بنا اللطف الخفى وانه بنا حفى حين دافع عن مولانا واهدى له الشفاء والراحة . . وفى راحتكم نصركم الله راحة العباد وفى ضمنها النعم الواكفة لصلاح البلاد . . ولولاه لعظمت الاوجال) (43) .

ويبدو أن المامون ، ولى عهد المنصور ونائبه على فاس ، قد وجد في الاوضاع المضطربة من جراء الطاعون وفي مرض والده ، فرصة مناسبة للاستبداد بالسلطة

(42) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 197

(43) رسالة اهل فاس للمنصور توجد بروض الترطاس للمبرى . ص 96 .

ومحاولة الخروج على والده ، وعندما كتبه المنصور في جمادى الاولى 1011 هـ /
ماي 1602 م كان امره قد استفحل بدليل ما جاء في هذه الرسالة : (44)

1 — استماتته لكثير من القبائل التي كان المولى احمد المنصور قد نكبها بسبب
تأييدها لثورة الناصر ، مثل : اولاد طلحة ، الخلط واولاد حسين وقبائل
الجبال . (بلغنا أنه قد استخدمتم هناك جماعة من اولاد طلحة . . وهؤلاء
انما يبحثون على الغرة وعورة المملكة . . وكانكم نسيتم ايضا ما عمل اولاد
حسين بالامس دون بعد من النهب وما اضرموا من نار الفساد والعيث فسى
البلاد) .

2 — قيام الشيخ بتسليحهم (وأعلم أن من جملة ما بلغنا ايضا أن الخلط رجعوا
كلهم رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالنساذ والخلاف وكنا انتشبتنا
معهم بالعمودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار) .

3 — اغداقه العطايا الجزيلة على كبار القادة ورؤساء القبائل (وأعلم أن مما
نحتاج أن ننبهك عليه مسألة القواد الذين يريدون أن يحملوك ائثال اولادهم
. . وعملت لهم خمسمائة اوقية .. واثك قد فرضت لهم في اعطياتهم نحو خمسة
آلاف . .)

4 — لقد كانت لبعض القبائل التي أخذ الشيخ يتعاون معها حظوة كبرى واتصال
وطيد بالاتراك في الجزائر ، مما يؤكد صلة الشيخ بالاتراك (والذي شق علينا
أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد له صبيرا هو ما وجدنا قد اطلع عليه
اولاد طلحة . . في اخباركم والفيانهم قد توصلوا من ذلك الى ما لم يتوصل
اليه والله أحد من كبار خدامكم . . فاذا بكم تستخدمونهم بطانة واصدقاء
وتطالعونهم على أموركم واحوالكم ، مع أن القوم ما زالوا ببلد العدو وبين
اظهره والذي يطلعون عليه تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى
كانهم شاهدوه ووقفوا عليه بأنفسهم . . وبالجملة فقد أحرقتنا هذه المسئلة
وتقطرت لها اكبادنا وصارت قلوبنا مطعونة) (45) .

5 — لقد كان المنصور يشعر بأن شيئا يدبر ضده في الخفاء وأن الشيخ يتمادى في
طريق الغى والضلال ، فبعث اليه ابوه مستفسرا عن ذلك (وأي مصلحة

(44) رسالة المنصور الى ابنه البامون . الامراتى . ص 147
(45) رسالة المنصور الى ابنه البامون . الامراتى : ص 147 .

لك في استخدام هؤلاء القوم . . بل ما في ذلك الا الفساد البين لان هذا الذي فرضتم لا يفي به ولا يقوم معه بكم شيء) .

6 - وقبل اقدام المولى احمد على اي اجراء ضد ابنه ، حاول اصلاح حاله بكل الوسائل ولكن بدون جدوى (ان الحال كان انتهى في معالجة امره التسي تجاوزنا في وجه الخير اليه حد الاستقصاء واتينا في محاولة استصلاحه من احوال السياسة المرجوة النجح ما لا يحصى . وقد جرب المنصور ايضا ان يبعد الشيخ عن مقر سلطانه وقوته بفاس بأن اضاف اليه ولايتي سجلماسة ودرعة وسمح له بالذهاب اليهما لجمع خراجهما (الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة . . وابقنا له التوجه اليها بجملته وجمعه) ولكن عبثا ، لان الشيخ رفض الخروج من فاس والابتعاد عنها .

7 - لذا فقد قرر ابي المنصور على ارسال قوات عسكرية ضد ابنه الشيخ بقيادة مومن بن ملوك ولكنه تراجع لما رأي ابنه يزداد تقريبا من الاتراك ويستعد لمقاومة قوات ابيه (. . لان خروج القائد مومن الخارج الآن ما كان الا اليهم) (46) .

8 - اما الخطوات الاخيرة لقمع حركة الشيخ وتمرده فقد اتصفت بالتجاء المنصور الى وسائل الدهاء والحيلة بأن بعث اليه كتابا يستنكر تصرفاته ويرجوه الاتلاع عن غيه ، وذلك بعدم التعاون مع القبائل السالفة الذكر وتسريح الموجود منها ضمن قواته المسلحة . ثم الاهتمام باصلاح الادارة واختيار الحاشية والمساعدين من أصحاب الكفاءة والنزاهة . وقد كان المنصور يهدف من مراسلته الاخيرة كسب عنصر الوقت والتبليغ للشيخ بأنه : على الرغم من كل تصرفاته ، لم يياس من اصلاحه ، حتى لا يندفع الشيخ بعيدا في تمرده ويعطن الخروج والثورة والتعاون مع الاتراك . وعلى حين غفلة ، خرج المولى احمد من مراكش في قوات مسلحة أوائل جمادى الاولى عام 1011 هـ / منتصف اكتوبر 1602 وحاصر ابنه ، الذي لم يتطعن الى خروجه من مراكش ، والذي لم يجد بدا من الخروج فارا من فاس يوم الخميس 15 جمادى الاولى من نفس السنة والالتجاء الى زاوية الشيخ ابي الشتاء ببلاد فشتالة في جبال

(46) رسالة المنصور الى ابنه ابي فارس . الامراني : ص 155 .

الاطلس . (فتلاحق به رماته الانكشارية ومتفرقة سمسرة الفتن وطلائع
الشؤم والمحن جمع عظيم وعدد جسيم (47) .

ولم يستسلم الشيخ لايه الا بعد انهزام قواته « نذاهمتهم بعد ذلك عساكرنا
المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيم فخدمت النار
من وقت الظهر الى اوان العصر فاظهر الله منة الحق على منة الباطل (47) .

اما الشيخ فتد القى عليه القبض وحمل اسيرا الى مكناسة (وقد حصل فى
القبضة كما سبق به فى القضاء والقدر وأجبر بمكان الاحتياط عليه بمكناسة
الزيتون) (47) .

وذلك قبل العشرين من جمادى الاولى اذ فى هذا التاريخ بعث من فاس الى
ابنه أبى فارس بمراكش بيئه الخبر السار :

1 - اذا كان تبرد الشيخ بفاس قد فشل لتدخل المنصور السريع ، فان النتائج
التي ترتبت عنه قد تركت ابعداً فى الاثر فى المواقف التي اتخذها المولى احمد خلال
السنة الاخيرة من حكمه .

فرغم محاولة الحاكم التركى بالجزائر سليمان باشا التظاهر بما يبنى عنه
كل صلة له بأحداث فاس وعرضه الوساطة لاصلاح ذات البين بين المولى
احمد وابنه ، فان المنصور الذي كان يدرك نوايا الاتراك منذ امد بعيد لم يزد
على ان شكر الباشا التركى (فتعرفنا منه . . ما كان من عزمكم لاول ما بلغكم
هذا الطارق على الكتب الى على مقامنا بالاستعطاف وبمقابلة جانب ولدنا بوجه
الصنح وجبيل اللطاف) (48) ومدى الصرامة والقسوة التي واجه بها
المتهمين (واما الشرمة الفسدة فحكنا فيهم السيف واقفناهم مرارة
النبور والحتف) (48) .

ومن جهة اخرى ، هل يمكن القول بان تدخل الاتراك ضد المنصور بفاس كان
من قبيل رد الفعل لما يقوم به المولى احمد من اتصالات مع خصوم الاتراك
بالجزائر وخاصة أمير كوكو عمر بن عمر ابن القاضي بالاضافة الى ابوانه
الامير الزيانى محمد الواثق ؟

(47) رسالة المنصور الى ابنه أبى فارس . الامرانى . ص 155 .

لقد اطلع سليمان باشا احمد المنصور على انتصاراته العسكرية ضد امير كوكو عمر بن عمر ابن القاضى واكد له عزمه على مواصلة الحرب ضده (واما ما عرفتم به من حال ابن القاضى صاحب كوك وصلة يده بيد الطاغية صاحب اسبانية . . فيحيط بعلمكم ان هذا الخبر كان قرع اسماعنا الكريمة على السنة العوام فلم نصدقه .. الى ان جاء كتابكم فزال الشك والريب) (48) فهل يفهم من هذا ان المنصور كانت له صلة ما مع امير كوكو ؟

2 - هناك ما يدعو الى احتمال وجود هذه العلاقات :

1 - ان اماره كوكو في مجاجة قرب الاصنام المنطقة الجبلية الوعرة ، يرجع فضل تأسيسها الى قاضى بجاية الشيخ احمد ابن القاضى الزواوي ، احد القادة المجاهدين ضد الغزو الاسبانى ومن مهدوا لنشـــــــر النفود التركى بالجزائر ، وعندما اغتاله الاتراك عام 933 هـ / 1527 تزعم ابناؤه المقاومة ضد الحكم التركى وربطوا لاجل ذلك صلات مع الاسبان .

2 - لقد ظلت اماره كوكو تقاوم الحكم التركى بالجزائر وتعددت الاصطدامات العسكرية بين الجانبين ، وهذه الامارة غير بعيدة عن الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة تيكورارين المغربية ، فلا يستبعد ان تكون للمنصور صلات بهذه الامارة والا فما الداعى لاطلاع سليمان باشا المولى احمد على انتصاراته على الامير عمر بن عمر ابن القاضى ؟

3 - وما يزيدنا يقينا بهذا الاحتمال ان المنصور قد ظل يأوي عددا من امراء بنى زيان ومنهم محمد الواثق الذي كان يجد في المنصور كل عون ومساعدة على مهاجمة خصومه الاتراك بالجزائر (السلطان الاجل . . فيليب . . كتبها محمد الواثق الشريف الزياني ابن صاحب اماره المغرب الاوسط .. وتولى مولاي احمد .. ومات ابنى فخلقت انا الحروب التى كانوا يحاربوا اهلنا مع الترك وجهزت لهم محلة في حياة مولاي احمد واخذت لهم ناحية من البلاد وكانت الحرب مرة علينا ومرة عليهم كمادة

(48) جواب المنصور للبasha التركى بالجزائر . الامرانى . ص 166 .

الايام وكنت مع مولاي أحمد كأحد اولاده على وجه الضيافة وكان لى نصيب فى طاعة المغرب من بلاد واقامة وغير ذلك) (49) .

فاذا كان تدخل الاتراك بفاس من قبيل التعامل بالمثل فان عبارات التهانى المتبادلة بين المنصور والباشا التركى تؤكد بان كلا منهما قد افسد على خصمه محاولة التدخل ضد الآخر (ووقفنا على ما وصفتم لتمامنا العلى فى نهوضكم أولا الى صاحب كوك وتخريب بعض بلاده . . وتصميم عزمكم ثانيا على الكرة اليه . . جعله الله خروج خير وسعادة) (50) .

3 — ان حادثة تأمر الاتراك مع الشيخ بفاس زادت من شكوك المنصور ، خاصة وان البلاد لا تزال تعيش ظروفًا صعبة قاسية بسبب داء الطاعون ومضاعفاته الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة ، وقد زاد من خطورة الوضع ما اظهره الانجليز من حرص على اغتنام الفرصة المناسبة لاقتطاع مناطق مغربية كبلاد سوس التى كانت تمثل فى نظرهم اغنى مناطق المغرب لوفرة قصب سكرها وتعدد معادنها ولستراتيجيتها فى المواصلات مع السودان التى يتدفق منها الذهب مصدر قوة المنصور وغناه ، يشجعهم على ذلك روابطهم الجديدة مع السلطان العثمانى محمد الثالث والباشوات الاتراك بالجزائر .

وكنتيجة للوضع الجديد ، نجح الانجليز فى فتح الجبهة الجزائرية ضد الاسبان فى محاولة منهم لتخفيف الضغط الاسبانى على الاراضى المنخفضة والبرتغال وارلندا ، ودفنوا السلطان العثمانى الى مطالبة المنصور بالتخلى لهم عن ميناء اكدير ليتخذوه قاعدة لهم (51) .

فهذه الاحداث جميعها اكدت للمولى احمد مدى خطورة الاوضاع القائمة ودنمته من جديد الى التناهم مع خصمه التقليدي ملك اسبانيا الذى اسرع الى التجاوب معه للظروف التى كانت تحياها بلاده :

- 1 — الحروب المتعددة فى الواجهات المختلفة من اوروبا الغربية .
- 2 — اعمال القرصنة المتزايدة ضد السفن الاسبانية العائدة من امريكا الجنوبية والشرق الاقصى .

(49) نص الوثيقة فى (المجلة التاريخية المغربية) تونس . عدد 2 . ص 125 .
(50) رسالة المنصور الى الباشا التركى بالجزائر . الامرانى : ص 142
(51) م . ص . ت . م — بريطانيا — ج 2 — ص 267

3 - وكان الملك الاسبانى يقدر أهمية الجبهة المغربية والفوائد التى تعود على بلاده متى ضمن حياد المغرب وبالأحرى انضمامه لاسبانيا

لقد قاربت الاحداث المختلفة بين المنصور وفيليب الثالث وعاد ثانية السبى سياسته التقليدية فى التقارب مع الاسبان والدخول معهم فى مشروعات الاحلاف العسكرية لمواجهة الاخطار الخارجية ومن ذلك مشروع التحالف الجديد المتوقع يوم 2 غشت 1602 (52) .

اي ان المولى احمد المنصور قبل ان يخرج من مراکش للتضاء على تمرد ابنه الشيخ المتآمر مع الاتراك بفاس خلال شهر جمادى الاولى عام 1011 هـ الموافق لآكتوبر 1602 كان قد وقع مع الاسبان مشروع حلف عسكري ضد خصومه التقليديين : الاتراك العثمانيين ولصد اطماع الانجليز فى سوس . واعتمادا على ما جاء فى وثيقتين مؤرختين بيوم 16 غشت 1602 فان قطعا من الاسطول الاسبانى المرابط بالموانئ الايطالية قد تحركت نحو السواحل المغربية لمساعدة المولى احمد المنصور (53) .

غير أن الايام لم تهمل المولى احمد المنصور طويلا اذ اشتد عليه المرض وشعر بد نواجله كما يبدو من آخر رسالة وجهها الى ابنه ونائبه فى مراکش ابنى فارس بتاريخ 4 ربيع الاول 1012 هـ (والله سبحانه وتعالى يرعاكم ويتولى حفظكم انتم واولادكم وقد استودعناكم الله الذى لا تضيع ودائعه . . والله سبحانه وتعالى خليفنى عليكم .. وأن يعافى البلاد والعباد بمنه وفضله) (54) .

(52) م. ص. ت. م - فرنسا - ج 2 - ص 318

(53) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 216

(54) رسالة المنصور الى ابنه ابنى فارس الايرانى . ص 156 .

دفع المنصور بفاس بعد صلاة عصر يوم الاثنين 16 ربيع الاول 1012 - 24 غشت 1603 م ثم نقل جثمانه الى مراکش فيما بعد ودفن بمقبرة الشرفاء السعديين . وعلى شاهدة قبره توجد الابيات الاتية :

به العالى فتخبر
لكل مجد مبتكر
بكل نهر تستمر
ان رضاه منه
ند ذكره العطر
(دون تعسر) ذكر
عند مليك مقتدر

هذا ضريح من غدت
أحمد منصور اللوا
يارحمه الله أسمى
وبأكر الرمس بها
وطيبى ثراه من
واغنى تاريخ الوفاة
بمعد صدق داخلا

(الايرانى : نزهة الحادى - ص 170)

وكانت ايليزابيت ملكة انجلترا والمعاصرة له قد تزوجت قبله ببضعة أشهر من نفس سنة 1603 ، ولحق بها السلطان العثمانى محمد الثالث فى يوم 22 ديسمبر 1603 ، وطويت بذلك صفحة مجيدة فى مطلع العصور الحديثة .

وفي ليلة الاثنين 16 ربيع الاول عام 1012 ، 24 غشت 1603 انتقل المولى أحمد المنصور الى الرفيق الاعلى فطويت ببوته صفحة مشرقة ذهبية لما عرفته البلاد بعده من محن واهوال تجلت في ثلاثى خطير : الطاعون والمجاعة والحروب الاهلية (وفي سنة اثنى عشرة الف بلغنى وفاته بمدينة فاس . . فنزل الارض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن ما نالها طائش لها الوقور . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس ونشى العار وخان الجار ولبس الزمن البؤس وجاء بالوجه المبوس وأوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والانتلاف وطاطأ الحق رأسه واخفى المحق نفسه وتبرعت الحسنى . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع .. فاننا لله وانا اليه راجعون نيالها من مصيبة ما اعظمها . .) (55)

مظاهر الحضارة المغربية أيام السعديين

تتميز المراحل المختلفة التي عرفتھا الدولة السعدية منذ تأسيسها عام 916 هـ / 1510 م بالعمل المتواصل على : اقرار دعائم الدولة الناشئة والسعى الى توحيد الصف الداخلى ثم قيادة المجاهدين لمحاربة قواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء (فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى حق الله حق جهاده حتى استخلصوا من ايدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلادهم وأسسوا لدين الله قواعد وأركاناً وملكو من المغرب بلاداً معتبرة وأوطاناً) (1) .

وعندما تمكن القادة السعديون من القضاء على الوطاسيين ومرضوا سلطانهم على معظم البلاد ، وجدوا انفسهم امام الزحف التركى فى الشرق والخطر الاسبانى والبرتغالى فى الشمال والغرب ، فاندفعوا الى مواصلة العمل على تدعيم اسس دولتهم وصد كل الاخطار عنها ، وتكيفوا بسبب ذلك مع الظروف المختلفة لمواجهة التهديدات الخارجية . وبهذه الطرق والوسائل حافظت الدولة السعدية على كيانها اتجاه قوى الشرق والغرب ، وتمززت وضعيتهم الداخلية فى وادي الخازن عندما انتصروا على البرتغال ، احدى القوى الرئيسية الثلاث فى العالم :

فالسعديون خلال الثلاثة ارباع القرن تقريبا بذلوا اقصى الجهود لتقوية دولتهم سياسياً وعسكرياً وتطويرها اقتصادياً ، وانفقوا من الاموال لشراء الاسلحة النارية الحديثة ما جعل هذه التجارة تحتل المرتبة الاولى فى ميدان المبادلات التجارية بين المغرب وغربى اوربا ، بل وان كل علاقة للحكام السعديين مع الدول الاوربية كانت تقاس بما تستطيع هذه الدولة او تلك أن تقدمه من اسلحة وعتاد ونخيرة وما ترسله للمغرب من خبراء مهرة فى صناعاتها .

(1) الانرانى : نزعة الحادى . ص 65 .

فلا مجال والبلاد معسكر كبير ترابط في وأجهاته العديدة قوات المجاهدين من جميع فئات العامة أن نبحت عن مظاهر حضارية خاصة للدولة الناشئة (كانت سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من أول الدولة الى أيام المتوكل عفا الله عنه ، سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا تيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية شاذجة غير مرتاضة للقوانين التى تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك أمير المؤمنين المعتصم رحمه الله فجنح بالدولة الى السيرة العجمية . . وحمل الناس عليها حملا عنيئا فشق عليهم ذلك لتناثر الطباع ، واضطربت الاحوال لتغيير العادة وايناس الامور الغير المعتادة . ثم جاء الله من مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله بالطبيب الماهر والحكيم المدبر الباهر . . فلم الشعت وجبر الصدع وسكن الهيعة ورتب الالتاب وواخى بحسن سياسته وحيد سيرته . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة وندب لكل منهم أهل بلواه من الصنفين) (2) .

فما هى المميزات العامة لمظاهر الحضارة المغربية أيام المولى أحمد المنصور الذهبى ؟

نظم الحكم وبناء القوات العسكرية

قامت الدولة السعدية منذ تأسيسها أوائل القرن السادس عشر ، على أساس النظام الملكى الورائى ، وقد حاول القائم بأمر الله المؤسس الاول لهـذـه الدولة أن يسن قاعدة لتوارث الملك ، بحيث يتولى الحكم كبير الاسرة بعد وفاة الملك (كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ واخوانهما الا يتولى الخلافة منهم ولا من اولادهم الا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك) (3) . ولكن ذلك لم ينفذ لان كل ملك كان يسعى الى ابعاد الآخرين من اخوته وابناء عمومته ليخلو الجلو لابنه ، الامر الذي ادى الى قيام فتن وثورات داخلية ، وعرض بالتالى البلاد لتدخلات خارجية كادت فى بعض الاحيان أن تتسبب فى انهيار الاسرة الحاكمة وتقضى على كيان المغرب ووحدته .

(2) الفشتالى : مباحل الصفا . ص 200 .

(3) الامرانى : نزعة الحادى . ص 65 .

1 — الحكومة المركزية : وفي مقدمتها أولا البلاط المنصوري : مقر الحاكم ودواوين أعضاء الحكومة والكتاب ، وبه تنعقد الجلسات الخاصة مع المسؤولين وكبار المستشارين ، وهو يمثل الإدارة المركزية والسلطة العليا في كل الامبراطورية المغربية .

والمولى أحمد منذ الساعة الاولى لتوليته ، تسمى بالخليفة المنصور ، تخليدا لانتصار المسلمين في معركة وادي المخازن من جهة ، ولان الحكام السعديين لاصلهم العربي ونسبهم الشريف — كانوا يعتبرون دولتهم من جهة ثانية بعنا وتجديدا للخلافة الهاشمية المنتزعة ، وبأنهم احق بخلافة المسلمين من الاتراك العثمانيين الذين هم من (جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام . . وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها وهم مولينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الامامة والخلافة) (4) .

وقد اتخذ المولى أحمد كل القاب الخلافة ، فهو (أمير المؤمنين وامام الجماعة . . وركن الامامة .. والخليفة المخصوص بثرات الرسالة ومالك امرة المؤمنين) (5) واستعمل جميع شاراتها من ذكر اسمه في خطب المساجد أيام الجمع والاعياد ، وضربه على السكة والنقود ، ثم الجلوس على اريكة الملك ولبس ابهى الحلل وانخما ، كما أعطى لبلاطه وحكومته من المظاهر والصفات ما يؤكد قوته وعظمته ، ويجعله جديرا بامامة المسلمين وخلافتهم العظمى (حتى اذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة النبوية وانبعثها لتجديد الدين ونصرة الملة ووراثه الارض واحياء معالم الخلافة الدائرة) (6) .

ثانيا : الهيئة المسؤولة ، وقد كانت تضم رجالا (ممن يوثق به في المحافظة على اسراركم ، والى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرک واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (7) . أي أن الهيئة المسؤولة كانت تتكون من رجال سياسيين وقادة عسكريين :

(4) النفاة المسكية في السفارة التركية للتاجروني . ص 76 .

(5) مناهل الصفا للشخالي ص 1 .

(6) المصدر السابق : ص 108 .

(7) نزهة الصادي للاندراى ص 147 .

أ - فالسلطة السياسية كانت تتكون من :

الحاجب : المسؤول الاول في حكومة المنصور ، (حاجب الامامة الكريمة وكبير الدولة الصدر القائد ابو محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي) (8) والواسطة بينه وبين بقية الوزراء والكتاب (وكتبت لحاجب الباب اعرفه بالقصة ليقيم المعذرة عند السؤال عنى) (9) ، وهو موضع ثقة المنصور (وانتهى معهم لهذا الموضع تشييعا حاجب الامامة الكريمة و . . استكناه من مولانا الامام .. لم يستتم فيها الا مثله من علية الخدام الاكابر الثقات) (10) .

كاتب السر : الذي يحافظ على سر الدولة حتى لا (يطلع عليه الاجانب وان كانوا احب من كل حبيب واقرب من كل تريب) (11) ، ويؤمن الاتصال بين الخليفة وجميع الولايات ومن الولاة الى الخليفة (وهو الذي يتولى قراعتها ويعرفكم مضمناها) (12) .

اصحاب المشورة : اي الهيئة الاستشارية التي كانت تتكون من (طبقات الاجناد وذوي الحل والربط واولى البصيرة والحكمة وخبرة الامور) (13) . وقد كان المولى احمد يلجأ الى عقد مجالس الشورى لآخذ رأي من يهمهم الامر من كبار دولته في بعض الامور التي ينوي الاتدام عليها ، وذلك كما حصل عند تفكيره في غزو بلاد السودان .

صاحب المظالم : وهو الذي يتلقى شكاوي المظلومين ويرفعها الى المنصور للبحث فيها ، وغالبا ما كان الخليفة ينظر فيها بعد صلاة يوم الجمعة (واذا كان يوم الجمعة صلى ايده الله بالمسجد الجامع . . ربما جلس هنالك لسماح المشتكين والنظر في المظالم) (14) ، وقد ينبى عنه ولده للقيام بذلك .

ب - والقيادة العسكرية : تتكون من عناصر عربية واعجمية (فقد اختص رؤساء العرب واكابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل . .

(8) مناهل الصفا : ص 134

(9) نفس المصدر . ص 232 .

(10) المصدر نفسه . ص 134 .

(11) الامرائى : نزعة الحادى . ص 149 .

(12) نفس المصدر . ص 162 .

(13) المناهل . ص 126 .

(14) المناهل . ص 206 .

واصطفى من العجم موالى انتبتهم نعمته ودريتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة (15) وقد كانت القيادة العسكرية العليا زمن المنصور تضم (منصور) (باي لارباي) لظلة عجمية معناها قائد القواد . . شرفه أمير المؤمنين وميزه بتسميته تنويها لما رماه لهذا العهد من قيادة الانتكشارية .. وقائد جيش اهل السوس من عساكر النار) (16) ، والى هذه الهيئة يرجع أمر تنظيم الجيش وضبط وحداته وجنوده ممن (ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية) (17) ، ومن الجدير بالذكر أن عوامل داخلية وخارجية قد تضارفت على ابراز دور القوات المسلحة المغربية وساعدت قيادتها العسكرية على الشعور بأهميتها خلال عهد المنصور : فالولى أحمد تولى غداة معركة وادي المخازن ، وتعرضت بلاده في الايام الاولى من حكمه للتدخل العسكري العثماني ، كما قامت ضده فتن وثورات خطيرة ، وظل شعور القلق والخوف من هجوم خارجي اسباني او عثماني يساوره طوال حكمه .

واكثر ما برز دور القوات المسلحة وقيادتها العسكرية في الفتوحات بالصحراء المغربية وبلاد السودان الى الحد الذي اضطر معه المنصور الى جعل الاقاليم المفتوحة النائية تخضع لسultan القادة العسكريين الذين كانوا مطلقي التصرف في سلطاتها السياسية والعسكرية ، فكان أن تميزت هذه الولايات بالطابع العسكري عن غيرها من ولايات الامبراطورية المغربية .

2 - الجهاز الاداري : نظم المنصور منذ توليته الادارة المغربية وضبطها بما لم يكن معروفا من قبل ، فقد كانت (سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من اول الدولة الى ايام المتوكل عفى الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا تديتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة هربية سانحة غير مرتاضة للقوانين التي تلك زمامها وتمسك عن الاسترسال عناتها الى أن صار الملك والخلافة للمولى . . الامام المنصور . . رتب الالتاق وواخي بحسن سياسته وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة وقربى الصداقة الجامعة) (18) .

15) البناامل . ص 201 .

16) البناامل . ص 201 .

17) المصدر السابق . جاء في الرسالة التي وجهها التاجر الإنجليزي George Tomson سنة 1600 من مراكش بأن الهيئة العسكرية العليا للمنصور كانت تضم القواد عزوز والمومن بوكزية وينكوز وعبد الصادق وعبد الواحد بن سعيد واخوه والبابا جونز وأحمد بن منصور . م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 230

18) مناظر الصفا للعثمالي . ص 201 .

فما القوانين والضوابط التي أحدثها المنصور ؟ وما الاهداف المتوخاة منها ؟

لقد كانت القوانين التي وضعها المنصور تتسم بالطابع الاسلامى بما كانت الدولة عربية مسلمة ، ولان المولى احمد والحكام السعديين لم يفتشوا ينادون بأحقيتهم فى الخلافة وامامة المسلمين (ما فى الارض اليوم مملكة جاءت على حكم طريق العدل وقوانين الشرع ومناهج السنة احسن من مملكته) (19) وكانت ترمى الى اضاء الصفة التنظيمية على مختلف النواحي الادارية فى المغرب لتقوية جانب الدولة ولاحكام الصلات بين الحكومة المركزية وباتى الولايات من جهة اخرى ، الامر الذي من شأنه ان يعزز وحدة البلاد السياسية ويزيد من سيطرة المنصور على كل اجزاء امبراطوريته المترامية الاطراف .

ومن أولى مظاهر هذه التنظيمات ، ان المنصور قد حدد اياما سماها (ايام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود واحكام الجند ومناولة امور المملكة بالنقض والابرار وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء) (20) . فاذا كان أحد ايام الديوان (جلس اهل الايوان وارباب المناصب واكابر الدولة الذين عليهم مدار الامور يرقبون خروج امير المومنين . فاذا جاز وقت الزوال او كاد يخرج للجلسوس .. فيحضر خواص بساطه الكريم وكاتب سره ويناوله ما ورد على ابوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره على الكتبة وتعرض عليه التضايا ومهمات الملك ، ثم يوزن لسائر الاكار والكتتاب وأولى المناصب فى الدخول فيأخذ عند ذلك ايده الله فى العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة ان كانت الكتب اجوبة او ظهائر وتارة بالطابع ان كانت مظالم او براءات الاشغال والعطاء ان يأخذ فى املاء الاجوبة على الكتبة او فى سماع ما يرفعه اهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر ذلك حتى يصلى الظهرين غالبا يوم الناس فيدخل الى قصره ايده الله وينتفرق الديوان) (21) .

وانتخذ المولى احمد ايام الجمع فى الغالب لسماع المظالم ، فاذا ما رفع اليه القوم ظلماتهم سقى الى انصاتهم (بأن يؤتى بالعمال ايام ععوده للفصل مترنين فى الاصفاذ حتى تقضى منهم حقوق الرعايا بمجلس الحكم) (22) . واثناء غياب المنصور

(19) المصدر نفسه . ص 197

(20) الفتحالى : البناهل . ص 205 .

(21) البناهل . ص 205 .

(22) البناهل . ص 200 .

عن مراكش كان ينيب عنه ابنه أبا فارس للنظر في أمور الدولة كما كان يكلفه بالنيابة عنه لسبب من الأسباب (ودفعه الى النيابة عنه في مغيبه عنها وسماع المظالم والقعود للجم الغفير بآيوان الخلافة متى عن اللامام في بعض الاحيان ما يوجب العكوف في قصوره عن مصالح المسلمين) (23) .

أما في الولايات والاقاليم فالمنصور كان ينيب عنه أبناءه ومن يتمتعون بثقته ، وحسب ما أورده الإسير البرتغالي المجهول — وهو معاصر — نعلم بأن المولى أحمد قد قسم امبراطوريته الى اثني عشرة ولاية : مراكش ، سوس ، تادلة ، مكناسة ، ناس ، تامسنا ، درعة ، تانفيلالت ، الصحراء ، تيكورارين ، الطوارق والسودان (24) ونظرا لاهمية بعض الولايات من الناحية الدينية والعلمية او السياسية والستراتيجية فقد اقام بها المنصور أبناءه والمقربين الثقة : (وقسم بينهم الممالك .. فلما كبرهم .. المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ .. قلده الخليفة الامام ايده الله ولاية العهد .. وعقد له على ناس وسائر ممالكها .. فلما المولى أبو فارس .. فعقد له على السوس وسائر ممالكه .. ولما المولى أبو الحسن فعقد له على مكناسة وعقد للمولى زيدان اصفرهم على تادلا) (25) .

درج الملوك السعديون منذ تأسيس دولتهم على اتخاذ ناس مقرا لولى العهد، لاهيتها الدينية والعلمية وكمركز حضاري هام لا يقل أهمية عن العاصمة مراكش، لذا فقد عين المنصور منذ توليته ابنه محمد الشيخ وكان لا يزال صغيرا (26) على ولاية ناس وجعل معه من يساعده على تدبير الامور ، ولما كبر أصبح المتصرف المطلق في المدينة واقليمها ، وبديهي أن الغاية من ذلك تدريب ولى العهد على ممارسة شؤون الادارة والحكم وتهيؤه لتحمل المسؤولية الكبرى في المستقبل .

أما باتى الاتاليم فقد عين عليها عددا من ابناؤه وكبار موظفيه ، وكلماتم تعيين شخص للقيام بادارة اقليم او تحمل مسؤولية ما ، اصدر المنصور بذلك ظهيرا صورة مطلعة (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرفة التي اختطت فيها يمين الامام وبنان سبط النبي عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبير يبهر العيون

(23) البناامل . ص 93 .

(24) م. ص. ت. م. — فرنسا — ج 2 — ص 236 .

(25) البناامل . ص 93 .

(26) يوجد نص ولاية العهد في بناامل الصفا . ص 82 .

حسنا ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسمة ومبدأ الخطاب الكريم) (27) ثم يبين الظهير نوع المسؤولية وحدودها (هذا ظهير كريم . . امر به عبد الله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد المنصور بالله . . لولده الاحظى . . الامير أبى الحسن وقد أتمر هلاله . . فقلدناه امارة حضرة السوس الاتصى وجميع أفقا السهل والجبل وفوضنا له فيها التفويض المطلق في القبول والعمل) (28) ، ويعدد ما يلزمه من قوات مسلحة للسهر على الامن والنظام (والزمناء لحياطة تلك البلاد والاستعداد لتلبية داعى الجهاد الفى حصان معدودا فيها من استقر به في الحال هنالك قراره) ، ثم يلزم من بهمهم الامر بتطبيق مقتضياته (فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعدى ما أحده وأمضاه) .

ومن هذا يبدو أن الولايات التى يتولاها أبناء المنصور ، كانت تتمتع بصفات خاصة ابرزها أن الامير كان مطلق الصلاحيات ، وان ادارته كانت تشبه الى حد كبير ادارة والده المركزية بمراكش (والى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وأصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) (29) وان الامير كان يجند قوات مسلحة يتخذها من قبائل اقليمه للمحافظة على الامن وتسيير الشؤون (بلغنا انه قد استخدمتم هناك جماعة من اولاد طلحة . . وبلغنا أيضا أن الخلط رجعوا كلهم رماة . . بالدافع وعدة النار) (30) ، ولانجاد والده عند الملمات (وتزيدون للقائد . . الف رام ليستوفى بهم الغرض) (31) .

وبالنسبة لبعض الولايات النائية كبلاد السودان مثلا ، فقد جعلها المنصور (باشوية) وولى عليها قادة عسكريين حمل كل منهم لقب (الباشا) ، بيدهم كل السلطات العسكرية والسياسية ، فأتخذت ولاية السودان لاجل ذلك طابعاً عسكرياً محضاً . وعن الأشخاص الآخرين الذين كانت تناط بهم مسؤوليات ادارية وسياسية في المدن والاقاليم ، هناك :

القاضى : لتطبيق الشريعة وفق الكتاب والسنة (عن امر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الظهير الجليل . . بيد الفقيه . . قضاء قبائل سجتانة . . عصابة

(27) البناهل للفشتالى . ص 74 .

(28) رسائل سمعية . ص 217 .

(29) نزعة الحادى : الامرانى . ص 150 .

(30) المصدر السابق .

(31) نفس المصدر . ص 151 .

القاهما على جبينه وعهدة جعل زمامها بين علمه ودينه . . والاستضاء
بمصباح مشورة الائمة الاعلام في غياهب مشكلات النوازل والاحكام . .
فجيلة القبائل بالكون عند امره والانتقاد لاحكامه (32) .

وقد كانت للقاضى مطلق الحرية في ممارسة احكامه (وكان ايده الله
قد سوغ للقاضى توجه الحكم على من يتعين عليه حق في داره
الكريمة) (33) .

الفتى : (وأولا قاضى الجماعة بحضرتهم ثم الفتى بها) (34) .

العامل : الذي يتولى حكم عمالة خاصة باسم الخليفة في المجالين السياسى
والاداري (عن امر عبد الله تعالى . . يستقر هذا الامر الكريم .. بيد
القائد الاجل .. ولما كان وفقه الله من مقلة الدولة مكان انسانها ..
اقتضى النظر الامامى ايده الله . . أن يعصب جبينه وفقه الله بتاج
ولايتها .. ناصبا له بمنصبها المعتبر عام النظر في البدو من اطرافها
والحضر موكولا من لدنه ايده الله الى ما خبر من تثبته وائاته واقامة
تسطاس العدل ورسوم سيره المستحسنة في كل حالاته معهودا اليه في
اتباع الحق .. واجتناب الحيف .. امرا خلد الله سلطانه .. لمن شملته
الولاية المذكورة من الخاصة والجمهور .. بالكون عند اشارته .. كما
حذر ايده الله عن المخالفة والصدوف والخروج في السواد عن السبيل
المعروف) (35) .

ولم يكن المنصور يتوانى عن معاقبتهم اذا ما حادوا عن الطريق
القويم وظلموا الرعية (ومن مشهور مآثره في العدل .. غلظته على جبايرة
العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وشمولهم بأنواع العذاب
والانتقام وتذفيهم في السجون والمطابق مقرنين في الاصفاد ومصادرة
أموالهم) (36) .

(32) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 14

(33) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 204 .

(34) المصدر السابق .

(35) المجموع المخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 30 .

(36) الفتاوى : مناهل الصفا . ص 200 .

صاحب الشرطة : وهو الذي يترأس جماعة من الجند تناط بهم مسؤولية المحافظة على الامن والسهر على سلامة العامة ، ثم القبض على الجناة والمجرمين وتنفيذا لعقوبات الصادرة بحقهم ، (وعقد على الشرطة لمولاه القائد ابي عبد الله محمد بن سالم) (37) وكثيرا ما قام المنصور بمعاينة الظالمين منهم (كما فعل ايده الله .. بأصحاب صاحب الشرطة كان بالحضرة .. وكان رجلا منبوذا عند الناس بارتكاب الجور والحيف واستحلال اموال الرعايا .. حتى شهر بذلك وجلب اليه مقنا اوجب منابزته واطراحه واقعد به عن الاستعمال في الخطط) (38) .

شيخ القبيلة : فقد كلف المنصور رؤساء القبائل بالسهر على (تأمين الطرق وكل شيخ ضمن ما يضيع في ترابه واخذ العهد على رؤساء القبائل بذلك) (39) .
مسدد الناحية : المكلف بتطبيق حدود الشرع في البادية (وقد كان من حق مسدد الناحية .. ان يقيم الحد على الفاسق ويستعين على حده بمن يعينه على ذلك كشيخ الناحية واعيانها) (40) .

وفي نهاية التسلسل الاري هناك :

امناء الحرف : المكفنين بحل خلافات اصحاب حرفتهم .

ومقدمى الحارات : من (اهل الخير والدين كل على حومته) (41) .

وعند التساؤل : هل كانت هناك شروط معينة تؤهل لتولية منصب ما في الدولة ؟ وهل كان الحكام في دولة المنصور يتمتعون بحصانة ما ؟

نجد بان الامر كان يتوقف على مكانة الشخص العلمية و (وفور عقله وصحة نبذه وذكائه) (42) وعلى مدى المقدرة والكناءة في تسيير الاعمال والاستقامة والاخلاص للخليفة المنصور ، الى جانب ما يحقته المسؤول من نجاح وتوفيق في أعماله (وانجحت مساعيه فمجدب ذلك بضبعه عند امير المؤمنين ورقاه عند وصوله

(37) المصدر السابق . ص 48 .

(38) المصدر السابق . ص 199 .

(39) ابن القاضي : المنتقى المنصور . ص 95 .

(40) ابراهيم الجليلي : تنبيه الولدان . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 571 . ص 3

(41) البناامل . ص 300 .

(42) البناامل . ص 63 .

من الظلم الى السيف نجعله اولاً قائد محلائه السعيدة .. ثم رقاہ الى قيادة القواد
عند ولى عہدہ (43) .

وقد كان المولى احمد المنصور يخلق لمساعديه جوا من الحرية فى العمل
ويشعرهم بذرع من الثقة والطمأنينة ، حتى يتمكنوا من ممارسة أعمالهم ، وليكونوا
مسؤولين عن أعمالهم وكل تصرفاتهم (ولقد سمعته ايدہ اللہ مرارا يقول ويتقسم
على ذلك انه ما علم من نفسه اعتمد قط السطو بأحد أو تصدى الى نكبته لمجرد غرض
نفسه وحظه أو وتر له قبله) (44) .

وعندما يتأكد المنصور من زيغ أحد حكامه أو قواد جنده فانه يسرع الى عزله
ومحاكمته أو يأمر بقتله ومصادرته ، (سرح اللہ قتلہ عظیم
الدولة القائد ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفيناسى وانفذ
معه الفاتك احمد الزواوي وقريعه حدو الزواوي وعبد العزيز بن يخلف اليمرانى
وعبد الله التلمسانى وكلهم قواد عشائريهم زواوة وعصابة الشراقة من جيوش
النار . . وجعل يختل سيفه . . حتى امكنته الفرصة فاخترطه وأغرى احمد الزواوي
بالذغالى فاوما بسيفه العضب الى سالنته وهو مستلق فطارت هامته لضربة
واحدة وشد ابو اسحاق هو على محمد بسيفه فعصب جبينه . . واحتزوا رأسه
وحمل مع رأس عمه فى مخالفة حتى وضعوا بين يدي امير المؤمنين) (45)

كما كان يلزم الولاة الذين ثبت ظلمهم وتعديهم برد ما أخذوه (الزامه العمال
غرم ما تحلف عليه الرعايا انهم جاروا عليهم فيه وانتهبوه منهم حينما من غير احتياج
الى اقامة بيئة احتياطاً منه ايدہ اللہ على الرعايا وكسرا لشوكة العامل) (46) .

وعن اتصال الحكومة المركزية فى مراكزها بباقي الولايات والنواحي ، نذكر
بأن ذلك كان يتم عن طريق المراسلات التى كانت مستمرة بين المنصور وابنائہ
وجميع ولاته ، وما أن ترد على (كاتب سره ويناوله ما ورد على ابوابه الكريمة من
الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفریق غيره على الكتبة . . حتى يأخذ
فى املاء الاجوبة) (47) .

-
- 43: البناء على ص 63 .
44: البناء على ص 212 .
45: البناء على ص 212 .
46: البناء على ص 200 .
47: البناء على ص 206 .

وقد كانت هناك جماعة خاصة من المستخدمين تناط بهم مهمة تبليغ اوامر المنصور الى جميع الجهات في الامبراطورية (الشواش وهم الطائفة التي تتولى . . الكتب الى الجهات والاقطار بانهاء خبر او نفوذ امر او تفريع ظالم او جائر او تصفيد خارج ولها مكان في المناوبة بين الطبقات المرتبة للملازمة ابواب الخلافة العلية) (48) .

ولشدة حرص المولى احمد المنصور على اسرار الدولة وسرية التعليمات الموجهة الى الامراء والولاة ، وحتى لا يطلع عليها أحد مهما كان (احب من كل حبيب واقرب من كل قريب) (49) ، عمد الى (اختراع اشكال من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسراره ومهمات اموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أو ضاع أو وقع في يد عدو لامت غوائل الاطلاع على اسراره . . ثم نوع ايده الله هذا الخط الى انواع يخصص ولى عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معنى كتبه) (50) .

كما انه لشدة حزمه وصرامته في تطبيق جميع تعليماته ، ولضبط امبراطوريته وسلامتها (بث اصحاب الاخبار في البلاد دانيتها وقاصيتها واذكاء العيون في سائر جهات ممالكة من داره الى اقصى المغرب بل والى قاصية السودان . . فله من رجاله المصطنعين على كل مرقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفي كل خلوة او جلوة عين اذكاها موكلين بنقل ما يحدث من خبر او قصة او يدور على الالسنة . . ولا يكاد يخلو له يوم من ورود وارء بخبر على بر او بحر) (51) .

3 - القوات المسلحة :

وحتى يتمكن المولى احمد المنصور من اقرار دعائم الطمأنينة بالبلاد ، وليضبط شؤون الادارة والدولة ، اولى اهتماما كبيرا بالقوات المسلحة وزودها بالمعدات الحربية الحديثة كما جعلها رهن اشارته باعتباره القائد الاعلى وبيده مقاليد الامور.

(48) اليناامل . ص 202 .

(49) الامرائى : نزمة الحادى . ص 147 .

(50) اليناامل . ص 208 .

(51) اليناامل . ص 207 .

وقد كان الجيش المغربي زمن المنصور على غرار (الانكشارية) عند الاتراك العثمانيين ، حيث عمد الى تدريب العلوج والاندلسيين والسودانيين وكون منهم قوات نظامية تمكن بفضلها من اقرار الاوضاع الداخلية وجمع كل الثورات التي قامت ضده ، وتحقيق الكثير من امانيه وخاصة المتعلقة منها بالتوسع في غربى فريقيبة وبلاد السودان (اصطفى من العجم موالى انبتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا أضخم حالا وأعظم شانا وجلالا . . . وقسم الجند الى اقسام واصناف وانواع وعلى كل قائد يسوس امرهم ، واخترع الالقاب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض وجعل الجيش والقواد طبقات متفاوتات في الحظوة وعين لكل من الاقسام والطبقات محلا ومكانا يقف به وعملا يخصه) (52) .

وقد كان القواد وكبار الجيش ضمن حاشية المنصور ، أما الجنود فيوجد عدد مهم منهم بالعاصمة مراكش حيث قدر السفير الانجليزي (Henry Robert) في تقريره المؤرخ بيوم 3 افريل 1603 عددهم بنحو اربعين الف مقاتل موزعين بين العلوج والاندلسيين وزواوة والاتراك والمخازنية وغيرهم (53) والباقي موزع بمختلف المدن والولايات وفي القلاع والحصون ، وهؤلاء الجنود يأخذون رواتبهم كل اربعة اشهر ، وفي زمن الحرب يحصلون على تعويضات خاصة والدولة هي التي تتكفل لهم بالملابس وتوزعها عليهم سنويا (54) . والقلاع الموزعة في انحاء المغرب كانت ماوي الحامية المنتقاة من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص واهراء الطعام وجبات المياه . . . مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة ببارج البارود وشواطئ النار والاكوار المعدنية والصخرية التي تذر الجبال كثيها مهيلا) (55) والجنود بصفة عامة يخضعون لتدريبات خاصة (وتوضع لهم دراهم معدة لذلك فمن اصاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة لذلك فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم في ذلك على مزيد التدريب والتخريج في الرماية) (56) .

(52) البناهمل : ص 201 .

(53) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 463

(54) مجلة (Hesperis)

العدد - (3 و 4) . لعام 1957 . ص 179 .

(55) البناهمل . ص 264 .

(56) البناهمل . ص 174 .

وكثيرا ما كان المنصور يحضر استعراضات عسكرية في المناسبات المختلفة (ولما تكامل الاستعداد . . اضطربت المحلات ضاحية بظاهر الحضرة . . فبرزت العساكر الامامية من الحضرة . . وانتظموا في أوعب ترتيب . . انجفلت الدهماء لمشاهدتهم وغصت بهم فوهاء الشوارع) .

وقد اناط المنصور ببعض فرق الجيش مهمة حراسة البلاط الامبراطوري والسهل على سلامة الخليفة والاسرة المالكة ، كما اتخذ منهم حرسه الخاص ولمواكبة الموكب الملكي اثناء تجواله وخلال تنقلاته ، وفي الحفلات والمواسم والاستقبالات الرسمية ، مما كان يضيف على المنصور مظهر الابهة والعظمة (وانتقامهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه . . ومولات ركابه . . واتخذ من هنا الجنس الذي هو جنس العجم أيضا الصنف المسمى البيك . . والسلاق . . وبردروش) (57)

اما القوات المحاربة فتتكون من (جيش الاصباحية من جيوش النار) و (جيش الموالى المملوكى من عساكر النار المعروف بجيش الانكشارية) و (جيش الاندلس من جيوش النار) وكانت تخضع لتسلسل في الرتب العسكرية هي : (الباشوات والقواد والكواهي والمقدمون والباشوظفات وبلكباشيات والضباشيات ولضاش والاجناد) (59) . وقد أبدى حرصا شديدا على تزويدها بأحدث وسائل القتال واسلحة النار (وعساكرنا قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة) (60) وعلى أن تكون دوما على أهبة الاستعداد حتى لا تخلد الى الراحة (من اصلاتها نار الحرب ورميها المئازق الجراد دؤبا على الدربة بها وارتياضا على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيدا عن الاخلاص الى الراحة والركون والسكون الى الدعة لما يؤدي اليه ذلك من وهن عزائمهم ولين عرائكهم وغل شبي شوكتهم عند الحاجة اليهم) (61) ومتشعبا بروح الطاعة والامتثال (وسار ذلك الجيش على وثيرة الانضباط . . ولما مدنوا عليه من الانضباط . . حتى لو سيمو اسم الخياط لوسعهم مجالا . . سيرة دربوا عليها حتى صارت

(57) المناهل . ص 202 .

(58) المناهل . ص 201 .

(59) عبد الله كنون : رسائل سديفة . ص 118 .

(60) المناهل . ص 126 .

(61) المصدر السابق .

لهم سجية وغيرة طباع) (62) . وقبل التوجه الى القتال (.. عقد الراية المذصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشامخ الجبين) (63) .

وقد برزت قوة هذا الجيش في جميع حروبه الداخلية والخارجية (فلم يرعهم عند انقضاء بازي الصبح على غراب الليل الا ابيضاض الارض بما جلها من القباب ومحميات الاجناد ولمعان الافق ببريق السيوف وميض الدروع وشهب الخرصان وخفق الرايات ثم هدرت الطبول وأرعدت رعود النار اشعارا بالبلوغ فاهتزت الارض وربت وضج الافق من هول اليوم وصواعقه فظن أهله أن القيامة قد قامت) (64) .

ومن المعارك أيضا (فزحفوا اليهم وترجل سائر الفرسان والابطال من جيش الاسل يومئذ عن خيلهم واستلاموا وتظاهروا في دروعهم ونصبوا ألدق امامهم واشهروا سيوفهم وسابقوا الرماة من عساكر النار حتى وقفوا لصق سور قصبتهم فارعدت رعود النار وضج الافق من صواعقها الهائلة بالرصاص المنهل انهلال الطر وحصى الحديد المنبعث من أفواه الانفاض الذي يدك الجبال ويصدع الصخر) (65) .

ومن حسن التدبير ، وتلاف لكل استبداد بالسلطة ، جعل المولى أحمد مسؤولية قيادة الجيش المكلف بالغزو أو الفتح بيد جماعة من كبار القادة العسكريين والزمهم بالمشورة فيما بينهم قبل الاقدام على أي اجراء عسكري (وعقد مولانا الامام . . على هذه العساكر لمملوكه الشهم .. جودر باشى .. وشد مولانا الامام .. ازر مملوكه .. بثقات من كفاته وحماته من قواد الاسل أولى الدهاء والرأي المطبق لمفاصل الخطوب .. يرجع اليهم في مجال المفاوضة شدا لاواخى الحزم) (66) .

ويدخل في هذا المجال تغيير القيادة واستبدال القوات المحاربة والمرابطة في منطقة ما من الامبراطورية بقوات أخرى ، كلما مرت فترة من الزمن (.. بنقل

(62) البناءل . ص 134 .

(63) الافرانى : نزعة الحادى . ص 65 .

(64) البناءل . ص 79 .

(65) البناءل . ص 78 .

(66) البناءل . ص 130 .

قبائل المغرب اليها وانزالهم عليها وادالة العساكر الاولى بالاخرى لراحتها من طول
المغيب ومعانات الحروب .. لمدة من ثلاثة أعوام) (67) .

وهكذا كانت للمنصور امكانيات عسكرية قوية مستعدة دوما لتنفيذ أوامره ،
يعززها كرديف لها قوات (عرب الدولة) وهم القبائل الموالية للدولية ، وحسب
تقدير السفير الانجليزي في مراكش (Henry Robert) فان هذه القبائل كانت
على أهبة الاستعداد دوما لانجاد المنصور بقوات من الفرسان والمشاة يصل
تعدادها الى مائتى الف مقاتل (68) وكان عرب الدولة قد (تميزوا بشعار الجندي
ولبسوا شارتها والحق روساءهم بطبقات القواد واقطعهم ما شاءوا من البلاد) (69)
ويضاف الى هذا القوات المغربية فى السودان (فان نهاية الرجال الذين صرفهم
والده فى الحملات من لدن الباشا جودار الى الباشا سليمان ثلاثة وعشرون الفا
من خيار جيشه وهى مقيدة فى الزمام) (70) .

وقد كانت القوات المغربية موزعة فى المدن والاقاليم للمحافظة على الامن
والاستقرار ، ولتدعيم سلطان المنصور وتوطيد اركان دولته ، (فالدولة استغللت
.. واستطال جناحها واتسع نطاقها وضامت حواضر ممالكها وثغورها القاصية
والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر فيها من الحماية) (71) بحيث كانت تقيم
فى قلاع وحصون ذات مواقع استراتيجية : ففى الشرق وعند الحدود الجزائرية
يوجد حصن تازة (وليس الحصن الذي اختص ايده الله تعالى على بلاد تازى ببعيد
من هذه الانار الضخمة والحصون الفخمة تشييدا وتوطيدا ومنعة وتحصينا) (72) .

وفى الشمال بفاس خاصة ، يوجد (المعقلان الضخمان اللذان انشاهما .. بالجانب
الشرقى .. وبمقابلته بالجانب الغربى .. قريعه لابل كبيره الذي يلفه على عظمته ..
ذو العمل الضخم .. ف جاء بها آية الاعجاز توطيدا وتشييدا وتحصينا .. ماوي
الحامية المنتقات من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود
والرصاص .. مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواط النار والاكوار
المعدنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيبا) (73) .

-
- (67) البناءسل . ص 164 .
(68) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 463 .
(69) البناءسل . ص 192 .
(70) السعيدى : تاريخ السودان . ص 97 .
(71) البناءسل . ص 75 .
(72) البناءسل . ص 265 .
(73) البناءسل . ص 264 .

وفي الغرب اقام عدة قواعد بحرية في :

- أ - العرائش (واذا انتهيت الى الاثرين العظيمين .. والحصنين الضخمين . .
بمرسى المرائش العديمة النظير في مراسى المعمور سعة وانفساحا . .) (74)
- ب - في اصيلا وأزمور وآسفى (وأما ما أصلحه ايده الله تعالى ورمه وزاد فيه
فتممه بمدينة آسفى وبلدة آزمور . . ومدينة أصيلا وسائر الاطراف
والثغور . .) (75) .

والى جانب القوات البرية ، هناك الاسطول البحري الذي وان لم يبلغ شوا
عظيما لعوامل مختلفة ، فان المنصور قد حاول خلقه وتطويره ، وكان من المؤمل
ان يعظم امر الاسطول المغربى لولا :

1 - اهتمام المنصور المتزايد بالقوات البرية لاقترار الاوضاع الداخلية ولصد أي
خطر خارجى .

2 - احتكار الانجليز خاصة تجارة المغرب الخارجية وتزويدهم المنصور بكل ما
هو بحاجة اليه من عتاد وأسلحة علاوة على قيامهم فى الغالب بنقل السفارات
المغربية والوفود من المغرب الى أوروبا وبالعكس .

3 - وجود مراكز احتلال اجنبى بسواحل المغرب وهى موانئ هامة ذات مواقع
استراتيجية ولما كانت علاقات المهادنة فى غالب الاحيان قائمة بين المنصور
والاسبان فانهم استفادوا من ذلك للمتاجرة مع المغرب والقيام بعمليات
التصدير والاستيراد .

4 - انتشار عمليات القرصنة فى عرض البحار ، الامر الذي كان يتسبب فى كثير
من المشاكل ويعرض علاقات الدول للخطر والتوتر وقيام الحروب .

5 - ان خصوم المنصور من اترك واسبان بالدرجة الاولى هم الذين كانوا يهددون
البلاد بين آونة وأخرى بالهجوم والتدخل العسكري ، أي ان المولى أحمد كان
بحاجة الى قوات دفاعية لصد أي تدخل خارجى بالدرجة الاولى .

وعندما انهزم الاسبان فى الارمادا (Armada) وتحطم القسم الاعظم
من الاسطول الاسبانى ، ثم لما انشغل الاتراك العثمانيون بحروبهم فى أوروبا

(74) البناهل . ص 265

(75) البناهل . ص 265 .

الشرقية ، سعى المنصور الى اغتنام الفرصة المناسبة لتأسيس اسطول مغربي قوي (وهو اليوم (عام 1596 م) ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عد والدين .. وافر العدد .. بما يتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع في الانفاق .. وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفقانا وسرعة) (76) .

وقد عمد المولى احمد المنصور من اجل تحقيق ذلك الى :

1 — بناء الدور لصناعة السفن (ثم صرف همهته الى اتخاذ الاسطول برياط سلا امه الله فتعددت مراكبه) (77) .

2 — تحصين بعض الموانئ المغربية الصالحة لرسو الاسطول (لما كمل بناء حصن الفتح من مرسى العرائش نقله اليه وانزله به) (78) ، ومن بين قطع الاسطول المسلحة كانت (القطائع والشواني) (79) .

3 — تنظيم قيادة الاسطول بان (عقد على رياسته لرجل من اهل المغرب يدعى الرايس ابراهيم الشط المثل المضروب في الشجاعة والمعرفة بأحوال البحر) (80) وبعد الرايس الشط تولى قيادة الاسطول (الرايس شعبان فهو اليوم (عام 1596 م) قبطان الاسطول الامامى الجهادي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية) (81) .

ومن الملاحظ ان فاعلية هذا الاسطول قد برزت بصفة خاصة عند الفتح المغربي للسودان ، وذلك لصعوبة التنقل وحمل آلات الحرب والقتال في البر ، فاستفلت القوات الفاتحة نهر النيجر لنقل القوات والعتاد وللتوغل بعيدا في اقصى مناطق بلاد السودان وفرض سلطان المنصور عليها (وارسلت في النيل ارسال الاجادل المنقضة تقطع انفاس الرياح وتستقل بالفيلق الجم والوقار الثقيلة من البضائع .. وكانت الاساطيل التي اتخذت سبيلها في البحر القاها اليم بالساحل من كاهو .. فارسلت على نفق الشقي المخدول فانكما اليها فالتقاها تلمظ فاغرة امواه الحنف اليه

(76) المناهل . ص 197 .
(77) المناهل . ص 204 .
(78) المناهل . ص 205 .
(79) المناهل . ص 205 .
(80) المناهل . ص 205 .
(81) المناهل . ص 205 .

جالبة أسباب الحين عليه (82) وكذا في مهاجمة كنفاريا (وما زال ايده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك فتقتاد السبى والانتقال ولا كالجوائز الخالدات التي ضرستها بأنبيائها ووضحت مشمرات اليد بما تستاق كل عام من سببها) (83) . مهل كلت جهود المنصور لتنظيم ادارته الداخلية بالنجاح ؟ وإلى اي حـد ؟

لقد نجح المولى احمد المنصور بفضل حزمه وحسن ادارته من ضبط البلاد ونشر الطمانينة بها (مسكن زعازع هوله اولا واقتلع جرثومة اهل البغى والشقاق من اجناده ثانيا واستأصل شائفة الخوارج والثوار على الدولة ثالثا وطاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالجبوب مخازن الاقوات ثم جاء نصر الله فذرت الفتوح واتسع نطاق الملك وبلغت الدولة الى اشراف نصابها) (84) .

4 - ولاية العهد :

كان المولى احمد المنصور يعتبر ان تسمية من يخلفه في امامة المسلمين بعده حق من حقوقه الشرعية كماير للمومنين ، لذا فقد اعلن بيعة ابنه المولى محمد الشيخ ، مما يؤكد حرصه على استمرار العرش السعدي وسلامة الدولة المغربية ، وحتى لا تختلف الكلمة وتنتفرق الجهود بعد وفاته ويحصل ما لم يكن في الحساب ؟ وقد تمت بيعة المولى الشيخ بالمصافحة اذ (ازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقترضت منهم الايمان) (85) ، ثم لما كبر ابناء المنصور جدد البيعة لابنه الشيخ واخذ من بقية ابنائه عهدا بذلك (فسمعوا واطاعوا واقمعوا على الرسم علامتهم بالتزام البيعة والرضى والتسبول) (86) .

وبالنسبة لجمهور العامة (امرنى ايده الله بالقيام على رؤس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراعتة عقيرتى ليتادى الى الناس فهمه . . وقام الى جنبى قاضى الجماعة .. مفسرا لما أشكل من احكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم . . ونادى

-
- (82) الناهل . ص 118 .
(83) الناهل . ص 197 .
(84) الناهل . ص 151 .
(85) الناهل . ص 60 .
(86) الناهل . ص 82 .

الناس بالسمع والطاعة والرضى .. واندفعوا للبيعة واعطاء صفقة الايمان (87)
ويعد نص البيعة بولاية العهد من الوثائق التاريخية الهامة المتعلقة بتاريخ الخلافة
السعيدية في المغرب (88) .

5 - التبادل الدبلوماسي :

بعد انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن سنة 1578 م ، وقضائهم على
الجيش البرتغالي دخل المغرب في صلب السياسة الدولية وظهر السعديون كحكام
أقوياء يمكن الاعتماد على تحالفهم والركون الى جانبهم . وازدادت أهمية المغرب
الخارجية بعد تطور الصراع العثماني - الإسباني واشتداد الحروب الدينية بين
الكاثوليك والبروتستانت بأوروبا الغربية ، بفضل موقعه الاستراتيجي وتحكمه الى
حد بعيد في طريق الملاحة البحرية والمواصلات بين أوربة الغربية والشرق الأقصى .

وإذا كانت للمولى أحمد المنصور من صفات يتميز بها ، فان أبرزها حسن
دهائه السياسي وبراعته في اغتنام الفرص وارغام الخصم على التسليم له بمكاسب
مادية وسياسية (فجرد أمير المومنين أيده الله صارم عزمه . . وارهف لذلك حد
تدبيره . . فلم يزل أمير المومنين يسدي في أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد
وبنى ذلك على أساس من المكائد كائنها لحصانيتها بكل مفان الفتل شدت ليذبل (89)
وبعد فتح السودان وتأسيس الإمبراطورية المغربية ، ذاع صيت المولى أحمد المنصور
وأصبح من الحكام العظماء لا يقل قوة وغنى عن معاصريه في : صطامبول ومدرسد
ولنــــــدن .

واتسعت بذلك مجالات اتصالاته الخارجية وأصبح له تبادل دبلوماسي مع
أعظم الدول المعاصرة في الشرق والغرب . وتشهد الوثائق التاريخية ورسائل المنصور
العديدة التي بين أيدينا على عظم اتساع أفق الدبلوماسية المغربية ، مما يمكن
اعتباره بداية للتمثيل السياسي في تاريخ المغرب الحديث .

فما الاعراف الدبلوماسية المغربية التي كانت في عهد المولى أحمد المنصور ؟

1 - اعتماد السفراء المغاربة :

لقد تبادل المنصور مع الملوك المعاصرين له السفراء والبعثات

(87) البناهل . ص 82 .

(88) البناهل . ص 82 .

(89) البناهل . ص 114 .

الدبلوماسية ، وعرف قصر البديع بمراكش نشاطا سياسيا متزايدا لكثرة ما ورد على المنصور من وفود اجنبية من المشرق والمغرب . وكانت العادة أن يعجل المولى أحمد بارسال الجواب دليلا على حرصه واهتمامه ، مع سفير مغربي يذهب في الغالب صحبة الوفد الاجنبي العائد الى بلاده (برز الاذن السلطاني .. فتوجهنا .. مع الرسل ووردنا على الابواب العثمانية بالقسطنطينة) (90) ، والمنصور هو الذي كان يتولى اختيار سفرائه ، وغالبا ما كان ينتقيهم من طبقة العلماء النابهين (فاهتز السلطان (العثماني) لذلك . . واستنبل فيه احوال القاضى وحسن تطفه في الابانة عن اغراضه واستدل بذلك على شرف مرسله وهمته في انتقاء امثاله للسفارة عمن ابوابه) (91) .

وقبل أن يسافر المبعوث الدبلوماسى المغربى يتسلم من المنصور كتاب اعتماده ، يتضمن التعريف بالسفير ومدى حظوته ومرتبته العلمية والسياسية (هذا وانه يرد على مكانك المكين حامل هذا الخطاب الكريم خديم مقامنا العلى الكاتب الانجد الاثير ..) (92) ويلتمس من الملك المرسل اليه ان يعتمد على السفير المغربى ويستمع الى اقواله (وقد حملناه من الامور ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة وبيئه عليكم مكالمة ومواجهة ، وعرفناكم لتعلموا اننا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه بيئه عليكم والمراد ان تصفوا الى ما استودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا) (93) . هذا فيما اذا كانت المهمة التى كلف بها السفير تستلزم السرية التامة ، واحيانا يصرح المنصور فى رسائله بكل ما يرغب فى اطلاع مخاطبيه عليه (هذا وقد وصلنا كتابك .. وطالعنا ما ذكرتم عن ولد اخينا الخارج بمليلية وعن اسباب خروجه وحتىى خديمكم .. ذكر لنا ما امرتموه ان بيئه علينا وينهيه البنا) (94) .

وجميع مراسلات المنصور الخارجية كانت تفتتح بالبسلة والتصلية ثم الاشادة بالخلافة السعدية الشريفة وذكر المدينة التى صدرت عنها ؛

(90) النحلة السكية فى السفارة التركية . الناجروتى . ص 25 .

(91) المناهل للشنتالى . ص 66 .

(92) من رسالة للمنصور الى ايليزابيت ملكة بريطانيا - مجلة تطوان - عدد 8 - ص 80 .

(93) المصدر السابق .

(94) من رسالة للمنصور الى فيليب الثانى ملك اسبانيا - المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257

وتخلص بعد ذلك الرسالة الى اعتماد السفير المغربي والتعرض الى الغرض المقصود ، وفي الختام نجد تاريخ صدور الرسالة باليوم والشهر والسنة .

ومن الجدير بالملاحظة أن المولى أحمد كان يطلع سفراءه على رموز شيفرة خاصة كان قد ابتدعها وذلك لاتخاذها اساسا في المراسلات بينهم (كتابسة الفقيه عبد الواحد بن مسعود عنون وجدنا في براءة بخطه رمز فيها بأخبار لمولانا أبي العباس أحمد المنصور المعروف عندهم بالذهبي عن أخبار سلطنة النصاري .. ببلاد الاندريس في عام تسع والف) (95) .

2 - استقبال الوفود الاجنبية :

وجد السفراء والبعثات السياسية من المولى أحمد المنصور كل الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الاستقبال ، وقد جرت العادة أن يقام حفل خاص يقدم خلاله السفير أوراق اعتماده وكتب ملكه الى المنصور ، ومن ذلك الحفل الذي اقيم لسفير مملكة برنو وملكها ادريس الثالث (ألوما) ، إذ (جلس لهم أمير المومنين أفخم جلوس بالقبتين التوامتين .. واستوقف الموالى والمماليك سباطين من التوامتين الى القبة العربية .. فغودي بالرسول يخترق السباطين حتى انزل بالديوان وكان الملامن اكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا به . . فجلس الرسول هنالك مليا ثم غودي به على سبيل الترقى الى القبة العربية فتلبث بها ريثما جاء الاذن الكريم بإيصاله الى مقر الامامة الكريمة .. فغودي به الى التوامتين فمثل بين يدي أمير المومنين .. فأدى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية (96) .

واستنادا الى ما ذكره السفير الانجليزي في المغرب Henry Robert فإنه قد وجد في استقباله عندما رست سفينته بميناء آسفى قائد المدينة الذي أرسل رسولا خاصا الى مراكش ليعلم المنصور بوصوله . واثناء اقامته بآسفى وضعت تحت تصرفه دار فخمة وأنيقة وعدد من الجنود نحراسته . ولها جاء أمر المنصور بالتوجه الى مراكش هيا له القائد خيولا ليركبها وصحبه وبغالا لحمل الاثقال ثم خرج نحو العاصمة مخفورا بقوات مغربية .

95 مجلة (Hesperis) : لعام 1927 . ص 221 .
96 البنامل . ص 67 .

وفي الطريق وعلى ضفاف نهر تانسيفت أقاموا له خيما تحت أشجار الزيتون كما خرج لاستقباله عدد من التجار الأجانب . وفي مراكش أنزل السفير في دار جميلة بالملاح (حى اليهود) ثم استدعى لمقابلة المولى أحمد المنصور بعد أن استراح ثلاثة أيام ، وتسليم كتاب الاعتماد الذي اعتمده به الملكة ايليزابيت سفيرا لدى المنصور وليبلغه مطالبها (97) .

ومن الاعراف الدبلوماسية في هذا العهد أيضا :

1 — ما يشبه كتاب (الامتراج) عند الرغبة في تعيين السفير الجديد الذي يستحسن أن يكون ممن عرف البلاد وعاداتها ويتوفر على خبرة وتجربة (لما مرت عليه هنا في هذه البلاد سنون عديدة .. حصلت له بسبب ذلك . دروية وممارسة .. ولاحت له مخايل النجدة والنجابة .. فاخبرناكم بأهليته) (98) .

2 — العناية بالسفراء الأجانب وتيسير مهامهم (ثم نثنى اليكم أن رسولكم الاثير المرعى .. الذي هو الآن بدارنا واستقر به العز والاكرام في كريم جوارنا) (99)

3 — التتويه بالسفير عند نجاحه في مهامه (ولقد شهدنا له من خصال نصحكم وقيامه بواجب حثكم .. فانه لا ينفك عن أبواب مولانا امير المؤمنين .. مجتهدا في اغراضكم التي نهج فيها جادة السداد والصلاح) (100) .

4 — التعجيل بالجواب الا اذا حصل ما يستوجب التأخير ، وفي هذه الحالة توجه رسالة خاصة تعلم بذلك (ثم عنت لنا بعض أمور تجددت لدينا . فاشغلنا تقاصيها وتدبيرها الى هذا التاريخ عن المبادرة بتشجيعه لكم في الفور كما هو المراد فكان المقتضى لتأخيره ما عن لنا من هذه الاسباب كما انها أيضا سببت في تأخير هذا الجواب) (101) .

5 — تمكين بعض المبعوثين الأجانب من رسائل توصى مرسلهم بهم والانعام عليهم (هذا وموجب اصداره اليكم .. أن خديكم القبطان .. مد لعلائنا الرغبة في ان نكاتبكم في شأنه لتفسحوا له من قبولكم محل الرعاية وتبوءه من

97 م. ص. ت. م. — برنسا — ج 2 — ص 510
98 نص الرسالة في مخطوط المكتبة الوطنية بدريد . ص 257
99 المصدر السابق .
100 المصدر السابق .
101 المصدر السابق .

ملاحظتكم وموالاتكم مكان الرعى والمبالاة فاسعفنا رغبته . فعاملوه بما يناسب قصده) (102) .

6 — وعند انتهاء مهام السفير يتوصل المنصور بخطاب خاص يعلمه بذلك (وانه اتصل بنا كتابكم .. فوقفنا منه على ما تصدتم اليه .. من استدعاء توجيه رسولكم .. اليكم واشخاصه نحوكم) (103) .

وقد كان السفراء الاجانب يتمتون في المغرب بحصانة دبلوماسية تشمل اشخاصهم ومنازلهم وكل ما يتعلق بهم (وانه اتصل بنا من قبلكم كتاب .. ووقفنا منه على ما كتبتم فيه لعلى مقامنا من ابقاء الحرمة على دار الباشدور دون فرنشيشا و .. والى هذا فاما حرمة الدار فما زالت عنها ولاحالت بل ابقيناها عليها كما كانت) (104) .

كما كان هناك ايضا القائمون بالاعمال ولهم نفس امتيازات اسفراء (وما ذكرتم عن بلتزاربول وانه في هذه الساعة يكون هو الذي يبلغ الينا كتبكم ويعرفكم بما نأمره وانكم ما زلتم تبعثون الينا رجلا آخر يكون في مكانه ليستوفى غرضنا واغراضكم فعلى بركة الله فما نحن ننزله بهذه المنزلة الى ان تبعثوا ان شاء الله من يكون في مكانه كما ذكرتم) (105) .

ومن الاعراف الدبلوماسية التي جرى بها العمل زمن المنصور : ان يتقدم السفراء المسلمون على غيرهم للسلام على المولى أحمد (وكانت ارسال بنى عثمان ملوك القسطنطينية العظمى وارسال طاغية تشتالة حاضرين .. فاذن لهم فسى السلام .. فتقدمت للسلام اولا ارسال بنى عثمان لمزية الاسلام) (106) .

وان تحضر البعثات الدبلوماسية الاجنبية في المغرب الحفلات الرسمية (.. حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية تشتالة بما كان ساعتذ بمراكش سفيرا الى حضرة أمير المؤمنين من عند ملكه فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله في البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام فاسعف الى ذلك وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين) (107) .

102) المصدر السابق .

103) المصدر السابق .

104) رسالة المنصور — سيانكاس 197

105) المصدر السابق .

106) البناهل . ص 99 .

107) البناهل . ص 60 .

وقد حصل نفس الامر بالنسبة للسفراء العثمانيين ٢ وكانت الارسال الوافدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينية مقيمة بفاس .. فاذن لهم يومئذ بالصعود على سطح الدار المعدة لنزولهم بالرياض من البلد الجديد لها سالوا ذلك (108) .

وفيما يتعلق بطريقة المراسلة التى كانت تتم بين المولى أحمد المنصور وبقيّة الملوك المعاصرين له ، تؤكد وثيقة معاصرة بأنها كانت تجرى وفق قواعد خاصة وطرق معروفة متفقا عليها . ومن ذلك :

- 1 — استعمال خط معروف (ثم ان الذي ينهيه اليكم ونقرر له ان هذا الكتاب الواصل من تلقائكم قد تأملناه فوجدنا خطه مخالفا للخط المعتاد من كتبكم) (109)
- 2 — ان يختم الكتاب بطابع خاص (وطابعه أيضا مخالف لطابعكم) (110) .
- 3 — وحتى طريقة الكتاب كانت تتم على صورة خاصة (وحتى طيه غير الطى الذي يأتى من عندكم) (111) .

اما لغة المخاطبة ، فالمولى أحمد المنصور لم يكن يستعمل فى رسائله الا اللغة العربية ، وفى دار الوثائق الاسبانية اليوم بسيمانكاس (Simancas) يوجد العديد من رسائل المنصور الى فيليب الثانى باللغة العربية ومعها ترجمة اسبانية مما يؤكد بأن رسائل المولى أحمد كانت تترجم بالاييسكوريال قبل تقديمها الى الملك الاسبانى للاطلاع عليها (113) .

وبالمقابل كان الباب العالى يخاطب المنصور باللغة العربية ، بينما ملوك أوروبا يرسلونه بلغاتهم الوطنية (جاءنا اصحابكم ووفدوا على ابوابنا العلية بكتبكم .. الواردة بخطوطكم .. وبحسب ذلك كتبنا من عندنا لخدم مقامنا .. ليتولى كتبه الينا بخطوطنا لى نفهمه) (114) كما كان السفراء الاجانب يحادثون المنصور بواسطة الترجمان الخاص (115) .

-
- (108) البناهل . ص 99 .
 - (109) نص الرسالة . سيانكاس - اسبانيا - رقم 197
 - (110) المصدر السابق .
 - (111) المصدر السابق .
 - (112) على بعد 12 كم من مدينة (الوليد Villadolid) بالشمال الغربى من اسبانيا توجد قرية (سيانكاس Simancas) التى تضم خزانتها الوطنية ازيد من ثمانية ملايين وثيقة .
 - (113) فى المكتبة الوطنية بهدريد مجموع مخطوط لترجمان الملك الاسبانى الخاص يضم مسودة احدى وخمسين رسالة للمنصور الى فيليب الثانى .
 - (114) نص الرسالة . بالمكتبة الوطنية بهدريد . مخطوط رقم 257 .
 - (115) م . ص . ت . م - فرنسا - ج 2 - ص 512

أما مدى نجاح المولى أحمد في دبلوماسيته ، فقد (جرد أمير المؤمنين أيده
الله صارم عزمه .. وارهف لذلك حد تدبيره .. فلم يزل أمير المؤمنين يسدي نسي
أمرها ويلحم ويسرج ويلجم ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكائد كأنها
لحصافتها بكل مغان الفتل شدت ليذبل (116) الأمر الذي مكنه من تحقيق مكاسب
سياسية عظيمة وجعل له مكانا خاصا بين معاصريه (ومكث هو في تلك الأمر
سبعة وعشرين عاما ونصفا فخرج فيها عجائب وغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع
الاشياء والهمة العلية والسعادة الدنيوية ومواتاة الليالي والايام حتى قال انه ما هم
:شيء قط الا يأتيه وفق ما أراد بل فوق ما نوى) (117) .

(116) اللشغالى : مناهل الصفا . ص 114 .
(117) السعيدى : تاريخ السودان . ص 208 .

المظهر الاقتصادي

أظهر المولى أحمد المنصور منذ توليته حرصا كبيرا على توطيد دعائم الامن في البلاد ، وظل طوال حكمه حريصا على ذلك ، لما للاستقرار من اثر في ازدهار الحياة الاقتصادية وتطورها . وقد حقق المنصور بفضل الامن النسبي الذي كان يعم دولته الكثير من المنجزات داخل البلاد وخارجها ولاسيما في المجالات الاقتصادية المختلفة (الى أن جاءت دولة أمير المؤمنين أيده الله فرفض التقليد واتسع التوليد والاختراع .. وعظمت الانفة من الاقتصار على الكفاية فجاءت الآثار بادرار الفتوح ونبالة الصنائع وتحكم الحضارة ولطف الاختراع والتوليد وسعة الدرع وضخامة الشكل بحيث لا تشبیه بينها وبين ما تقدم زمانها) (1) .

وعند البحث عن العوامل التي ساعدت الى حد بعيد على ازدهار اقتصاديات المغرب زمن المولى أحمد المنصور ، نجد :

أولا - انتعاش البادية المغربية :

وقد حصل ذلك بفضل الاهتمام بالزراعة والري اذ ادرك المنصور دور الزراعة الرئيسي في الاقتصاد المغربي لسببين اساسيين : وجود الاراضى الخصبة الواسعة المنتشرة في مختلف المناطق المغربية ، ثم النسبة العظيمة من السكان في البوادي الذين يعتمدون عليها ، لذا فقد أولى عناية كبرى بالاراضى الفلاحية والفلاحة بوجه عام ، وظهر ذلك في مظاهر أربع :

(1) النماذج ص 209 .

1 — تنظيم الزراعة ومختلف أنواع المزروعات من حبوب وغلل وفواكه وخضر وزيتون وكرمة ونخيل وغير ذلك من المنتوجات التي دفعت السفير الانجليزي (Henry Robert) في المغرب الى الاشادة بها والتنبؤ به بخصوصية الاراضى المغربية وامكانياتها الانتاجية الواسعة (2) .

2 — الاعتناء بالماشية من قطعان البقر والغنم والماعز للاستفادة من عائداتها والخيل والجمال والبغال التي تستخدم للاسفار وحمل الانتقال ، الى جانب الحيوانات الداجنة . وقد أشاد بها السفير الانجليزي أيضا ونوه بثروة المغرب الحيوانية العظيمة (3) .

3 — الاهتمام بالري وسقى الاراضى الزراعية عن طريق استغلال الودية العظيمة والشبكة المائية الغزيرة التي تتوفر عليها الاراضى المغربية : ففى اقاليم مراكش ، كان الفلاحون يستغلون الودية التي تنحدر من جبال الاطلس الكبير لسقى اراضيهم ، وذلك بحفر مجار مائية خاصة واقتنية تحت الارض بما يعرف بالخطارات .

وفى السودان قام المغاربة بتنظيم واسع لعمليات ري الاراضى الزراعية (محمود باشا أخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطفه من تياره ويمكن ذلك فى غير ما موضع منه ، وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهو على جلق ووسط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتبهر القاصى والدانى من اقاليم السودان) (4) .

4 — السهر على توزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها والاهتمام بها الى الحد الذي كان يجبر معه احيانا بعض القبائل الرحل فى البادية على سكنى الارض والاستغال بالزراعة (فيسكنها اهل البادية وأجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكنهم) (5) . وقد وزعت الاراضى على المهاجرين الاندلسيين أيضا (واقطعتهم الدولة اراضى نسيحة بالجاناب الغربى من فحصها الاينح ماغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا

(2) المصادر الاصلية لتاريخ المغرب : انجلترا . ج 2 ص 325 .

(3) المصدر السابق . ص 327 .

(4) المصدر السابق ص 167 . الفشتالى : مناهل الصفا . ص 167

(5) ابن القاضى : المنتقى المقصور . ص 95

من استفلال ذلك الى اليوم على ما اُنسأهم ذكر وطنهم وأعتاضهم مما
مأتهم به (6) .

فأزدهرت الحياة الزراعية وتعددت منتوجاتها وكثرت قطعان الماشية كما
نشط العمران بظهور مراكز حضارته فى البوادي المغربية .

ب — فتح مجالات اقتصادية واسعة للكسب أمام سكان البادية : اذ زيادة
على أعمالهم الزراعية ، عمد المنصور الى تنشيط الناحية التجارية لدى سكان
البادية وتشجيعهم على أعمال البيع والشراء ، فقد كلف سكان المراكز الحضارية
فى القرى المستحدثة بالبادية ، بتقديم كل ما يلزم المسافرين من طعام وشراب
وبالسهر على خدمتهم ، مقابل تعويضات مادية يدفعها المسافرون (وأمرهم ببيع
الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون
ودوابهم) (7) . وفى هذا مكسب مادي لسكان البادية وتشجيع هام للتجارة الداخلية
ومحاولة لاقرار دعائم الامن فى البوادي المغربية من جهة أخرى .

ج — اقامة قرى صناعية فى البادية ، وذلك نتيجة الاهتمام المتزايد بزراعة
تصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصر السكر ومصانعه :
(وهى الامور التى انفرد ايده الله بتدبيرها فجااء للناس منها بئايات الاعجاب) (8)
وقد ازدهر العمران بهذه القرى الصناعية الناشئة (لكثرة ما ضمته من العملة
وحشرته من الخلق ولا تسل عن هولها ولغظ الاصوات بها على عظمة شأنها
وضخامة أحوالها على ضخامة الملك وسعة نزع الدولة) (9) .

وبانتعاش البادية المغربية بوجه عام للعوامل التى أسلفنا (طاب الجنى وذرت
أخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاتوات) (10) .

وقد لمس العديد من المعاصرين الاجانب ما بلفته البوادي المغربية زمن
الولى أحمد المنصور من ازدهار وانتعاش فى مجالات الزراعة وتربية المواشى
والدواجن ومدى تأثير الاحوال الاقتصادية المتطورة على أحوال البلاد وتزايد عدد
السكان فى المدن والبوادي (11) .

(6) البناهل . ص 42
(7) ابن القاضى : المنتقى المنصور . ص 95 .
(8) البناهل . ص 297 .
(9) البناهل . ص 40 .
(10) البناهل . ص 209 .
(11) م. ص. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 437

د - وتجلى تشجيع المنصور للبادية المغربية في حذفه لضرائب كانت تثقل كاهل الفلاح ومن أهمها (النائية التي ثقل لمخالفاتها للشرع على الاذان سماعها وخرجت عن حد السنة أوضاعها) (12) .

ثانيا - اتساع نطاق الحياة الاقتصادية :

فقد تطورت الصناعة وازدهرت بصفة خاصة : الصناعات التي كانت الدولة المغربية تقوم باستغلالها وتدر عليها أرباحا عظيمة .

ومن أهم تلك الصناعات : صناعة السكر ، صناعة الاسلحة ، عمليات استخراج المعادن ومختلف الصناعات اليدوية والحرف المحلية .

١ - صناعة السكر وتأسيس معامل للدولة :

فقد نمت هذه الصناعة بفضل ازدهار زراعة قصب السكر والتوسع فيها (ثم انطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الاوطان) (13) .

وأهم مزارع قصب السكر كما اثبتت المصادر المعاصرة وأيدتها الحفريات الحديثة : وادي القصب عند مدينة الصويرة ، سهل سوس ، وفي غربي تارودانت ، ثم في وادي ماسة وضواحي كولمين (14) .

علاوة على مزارعه بضواحي طنجة وسبتة وسلا (15) . وهذه المزارع كانت تسقى بفضل شبكة ري خاصة وحرصا من المنصور على تصنيع قصب السكر ، أمر بتوسيع عمليات غرس القصب السكري (وهو اليوم . . . قوي العزم على الاستكثار من المعاصر حتى ينمو العدد ويتضاعف الخراج) (16) .

أنشأ المولى أحمد مصانع سكرية عديدة من أهمها :

أربع مصانع شمالي الاطلس الكبير عند مدينتي شيشاوة والصويرة ، وعشر مصانع بسوس وتارودانت وما حولها (من أعظم آثاره . . . المعاصر السكرية التي

(12) عبد الله كنون : رسائل سعية . ص 145 .

(13) المناهل . ص 209 .

(14) مجلة البحث العلمي . العدد الاول . ص 33 .

(15) المصدر نفسه .

(16) المناهل : ص 210 .

ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش . . . وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر جناء وعظمة وتوطيد أو تشييدا ، ما شئت من برك رحيبة وجنان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفيات وحركات هندسيات . . . فانطلق العمل وعم الاغتراس بالتصب الاوطان المرتادة له . . . ثم اجرى لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجانية الاجرام النهر المعروف بأسيف أنوال) (17) .

وجميع مزارع السكر ومصانعه كانت بيد الدولة التى تتعاقد لاستغلالها مع الذميين لمدة معلومة وحسب قدر من المال (وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (18) .

ب - مصانع الاسلحة :

لحاجة القوات المسلحة الى الذخيرة والعتاد الحربى ، اهتم المنصور بانشاء هذه المصانع وتطويرها ، واهم هذه المصانع تلك التى كانت بالقصبة الملكية بمراكش (واما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة الماثلة قرب ابوابهم العلية من قصبتهم المحروسة المذكرة بزفير الاكيار وزير الحديد لفتح جهنم) (19) .

وندرج ضمن مصانع الاسلحة : دور صناعة السفن التى عمل المنصور على تاسيسها بالموانئ المغربية ، املا منه فى خلق الاسطول المغربى (ثم صرف همته ايده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا امنه الله فتعددت مراكبه . . . وهو اليوم . . . لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل) (20)

ج - استخراج المعادن :

هناك بعض المعادن التى كانت تصنع بالمغرب ، وبعضها الآخر الذى كان يصدر خاما الى الخارج ، ومن أهمها : ملح البارود ، ومعادن النحاس والحديد والرصاص ثم ملح الطعام . . . (واذا وصلت الى هضاب الاكر الحديدية والحجرية

(17) البناهل للفشتالى ص 209 .
(18) المصدر السابق . ص 210 .
(19) المصدر نفسه . ص 210 .
(20) المصدر نفسه .

والرصاص المائل كالجبال الراسية والبارود المنبث في الدهاليس الندية والمغابن الرحيبة رأيت ما يبيلد الفكر ويوجب البهت (21) . ولقد استغل المنصور معادن الملح المستخرج من الصحراء وتغازي بوجه أخص استغلالا عظيما (ووظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الإبل التي ترده وتؤمه من سائر الأماق وتقصده ، وكانت بحرا لا ساحل له) (22) وكذلك مناجم الذهب بالسودان (وأوعز مولانا . . . الى مولاه وعامله على البلاد جوذر باشا بملك أمر معادن الذهب الثلاثة التي اكتفتها هذه الممالك وأمره بالبناء عليها واختطاط الحصون الجاثمة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (23) .

د - الصناعات اليدوية :

لقد عرفت الحياة الاقتصادية بوجه عام تطورا ملموسا بفضل نشاط الزراعة والصناعة ، وشمل الازدهار الحرف والصناعات اليدوية كالنجارة (جمع لها أيدي العملة من صناعات النجارة) (24) والخياطة (وأعلم أنى تركت عند أولئك المعلمين أعنى بركاض السلالتى برسم ابنتنا) (25) . ومطاحن الحبوب ومعامل الشموع (ويعكف على خدمة رياض الشموع التي تجلوا محاسن هذه الدعوة الجهادية الذين يبارون النحل في نسيج أشكالها لطفا وادماجا) (26) ومعامل الحسك (واستحضر من أنواع الحسك أمام الحضرة كل توراء مصنوعة من النشب) (27) وآلات البخور (ومثلت أمام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية الصوغ بديعة النقش) (28) .

وتؤكد الوثائق المعاصرة بأن المولى أحمد كان يحرص على استقدام المهرة من الصناعات الأجنبيات مما ساعد على ادخال بعض الصناعات الحديثة الى المغرب لتعدد مشروعاته العمرانية والحربية (حشد له الصناعات وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الامرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من أرباب الصنائع ومهرة

-
- (21) نفوس المصدر .
(22) البناهل . ص 120 .
(23) البناهل . ص 165 .
(24) البناهل . ص 129 .
(25) الانراني : نزعة الحادي . ص 162 .
(26) البناهل . ص 237 .
(27) البناهل . ص 238 .
(28) البناهل . ص 238 .

الحكمة وجهابذة البناء وأولى المعرفة والكفاية في التثمين والتشييد ومن سائر الفعلة وأساري الدولة خلق عظيم (29) .

ويجدر بنا التعرض في هذا المجال الى الملاحظة القيمة التي أوردها أحمد المقري في (نفع الطيب) وهو معاصر ، عن ازدهار الحياة في البوادي والحواضر ، وعن الدور العظيم الذي قام به المهاجرون الاندلسيون الى المغرب في سبيل ذلك (ان اهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الاقصى . . . فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات . ومال اهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق اهل الصنائع اهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في اقرب مدة وامرغوا فيه من انواع الحذق والتجويد) (30) .

3 - نمو التجارة الداخلية والخارجية :

1 - التجارة الداخلية :

نمت بفضل الامن والاستقرار ، وليس من شيء يهيب بالتجار الى توسيع نشاطهم التجاري وأعمال الاستيراد والتصدير ، كاستقرار دعائم الامن والطمأنينة . والمغرب في عهد المنصور عرف امنا منقطع النظير لما ابدته الدولة من حزم وسلطة وبفضل ازدهار الزراعة في البادية ثم بسبب نمو الصناعات بالمدن ، حصل تبادل بين هذين القطاعين : فانتعشت التجارة الداخلية وظهرت في تزايد عدد القيساريات والفنادق في المدن ، والاسواق الاسبوعية والمواسم الفصلية والسنوية تسمى البوادي (فقد عمل على تمهيد الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن المخوفة) (31) .

واعتمادا على شهادات معاصرة فان الاسواق التجارية بكبريات المدن المغربية كناس ومراكش ، كانت مزدهمة بالدكاكين الملوثة بالبضائع والمنتجات المختلفة ، وان الشوارع الرئيسية لهذه الاسواق كانت مغطاة ، وذلك لوقاية الزبناء والبضاعة

(29) البناهل . ص 254 .

(30) المقري : نفع الطيب . ج 2 . ص 764 .

(31) ابن القاضي : البنتقى المتصور . ص 95 .

من أمطار الشتاء وحرارة الصيف . وفي البوادي كانت الاسواق تقام في المراكز الهامة حيث تباع فيها الحبوب والماشية والجلود وأنواع البضائع والمنتجات . وقد كان التجار يتومنون بالتجوال بانتظام في مختلف أسواق البادية ويتصدون بوجه خاص المواسم الفصلية والسنوية التي تشبه تماما المعارض العامة وذلك للبيع والشراء ولتبادل المنتجات والبضائع على نطاق واسع جدا (32) (وكثر البيع والشراء في أيامه) (33) .

وهكذا وبفضل جهود دولة المنصور ، اخذ دور التاجر المغربى يبرز تدريجيا كدليل على تطور مرافق الحياة الاقتصادية بالبلاد (وما زال يبيع منها في كل عام بألاف من الذهب العمين حتى صار بذلك في عداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية) (34) وغير خاف بأن الطبقة البورجوازية المغربية الناشئة كان لها دور رئيسى في أعمال التوسع والفتوحات الخارجية التي قام بها المنصور فى الصحراء المغربية وبلاد السودان :

1 — لقد اشاد المنصور بالتاجر المغربى ، اثناء المناقشة التي دارت في مجلس الشورى قبيل فتح السودان ، وقوة جلده وصبره (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (35) . وكان من بين أفراد الحملة العسكرية كادلية ومرشدين عدد من التجار المغاربة (الذين اخلقوا بردة الغمر وانفتقوا عينها في التردد في هذا الطريق جيئة وذهابا) (36) .

وبعد فتح الصحراء المغربية وبلاد السودان ، اتسع نطاق التجارة المغربية لتنوع منتجات الاقاليم المغربية والصحراوية والسودانية : فأصبح هؤلاء التجار يتأجرون بمزروعات المغرب ومصنوعاته ، ويملح الصحراء ثم بذهب وتوابل السودان ورقيقته . (وهكذا استقطبت الدولة اليوم لعهد الكريم وتفرقت التجارة) (37) .

(32) م. ت. م. — بريطانيا — ج 2 — ص 367

(33) البناهل : ص 229

(34) البناهل : ص 127 .

(35) البناهل : ص 127

(36) البناهل . ص 128 .

(37) البناهل . ص 114 .

2 - وبتأثير البورجوازيين المغاربة ، دخلت دولة المنصور في منافسة وتسايق حاد مع الاسبان الذين احتلوا جزيرة Arguin القريبة من الراس الابيض عند مصب نهر السينغال ، لان هذه المنطقة تمتاز بستراتييجيتها كمنطقة اتصال بين المغرب والسودان وبغناها الوافر الزراعى والمعدنى وخاصة معادن الذهب والتبر وقد كان الاهالى فى هذه السواحل الصحراوية يحملون المعادن الثمينة الى المغرب او الى تمبوكتو بالسودان ، ولكن احتلال الاسبان للجزيرة واتصالهم بالقبائل الصحراوية المجاورة لها ، قد اخذ يفسد على المغاربة استغلالهم لهذه الخيرات . واعتمادا على ما بين ايدينا من وثائق معاصرة فان المنصور قد دخل مرارا فى مفاوضات سرية مع الانجليز للقيام بحملة مشتركة ضد القواعد الاسبانية بغربى فريقيّة وضد هذه الجزيرة بصفة خاصة وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الابهة والاستعداد . . . من جهاد المشركين واغزاء ارضهم فى الجنوب . . بمساكره الامامية) (38) .

3 - كانت الطبقة البورجوازية المغربية تعلق آمالا واسعة على نشر النفوذ المغربى فى بلاد السودان واواسط فريقيّة ، واكثر ما كانت تهدف اليه هو وضع اليد والتحكم فى الطريق التجارى الهام الذى كان يربط بين بلاد السودان والمغرب مع افريقيّة الشرقية ومصر ، سعيا الى استغلال هذا الطريق لتصرف منتوجات بلاد السودان الخصبة بالدرجة الاولى اي لايجاد اسواق خارجية (وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتبهر القاصى والدانى من بلاد السودان) (39) .

4 - وما يبرز تأثير الطبقة الغنية الناشئة ، ما قام به المنصور من حذف لجميع الحواجز الجمركية الداخلية (وقد رفع فى اقطار ملكه عن رعيته انواع الامكاس كلها كاشعار السلع فى المراسى والابواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية التى عمت البرايا وعظمت بها الرزايا وكثرت بها البلايا كما هو فى سائر البلاد من الامصار والاقطار) (40) .

(38) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 44 مناهل الصفا : ص 81 .

(39) المناهل . ص 167 .

(40) ابن العاصى : المنتقى المنصور . ص 28 .

وبين الآونة والآخرى ، كان الحكام السعديون يوجهون نداءات إلى أرباب التجارة يحثونهم فيها على التقيد بقوانين الشرع الاسلامى في كل أعمال البيع والشراء (كتابنا الكريم هذا اسماء الله تعالى نعهد به لكافة التجار اهل حضرتنا فاس حرسها الله تعالى ، معتمدي حوانيت القبة الكبرى من تيسرتها والقبة الصغرى والشماط وما بها من الروائع والجهات ومن يتعاطى الحياكة ونسج البز وثيات الحرير والمنسبيين في اصناف السلع وانواع التجارات أن نكون فعالهم على مناهج الشريعة سالكة وان يقتنوا آثار الشرع العزيز في بياعتهم وشراءاتهم ويسيروا على طريقه المستقيم في كل تصرفاتهم ومعاملاتهم ويتجنبوا الخداع وكتمان العيب ولا يتعاطوا من الامور ما فيه شائبة الشك والريب ولا يرتكبوا الربا ولا ما يجبر الى حرام) (41) .

أما عن طرق المواصلات فقد كانت منظمة ومضبوطة تربط بين اهم المدن والاتاليم ومن شواطئ البحر المتوسط شمالا حتى أقصى السودان جنوبا (فالفاوز والفتار لم يتعذر بها السلوك من كل وجه بل هى سابلة للتجار ومدرج غلهم وهم في كل صدر يصدرونه يجلبون من الرقيق صنوغا وضروبا وهم يقطعون عرض هذه السباسب سعيا على الاتدام ويعبرونها باوقار البضائع الثقيلة واحمال المتاع الجمة بين صدر وورد) (42) .

وجميع طرق المواصلات الداخلية ، استطاع المنصور — والى حدما — ان يضبطها ويجعلها صالحة للسفر وأمنة للمسافرين وقوافل التجارة (فقد عمل على تمهيد الطرق على المسافرين بعمارة المنازل والاماكن المخوفة بانزال اهل اخصاص وخيام امر بسكناها على الطريق وبين المنزلة والمنزلة ما يقرب من اربعة وعشرين ميلا فيسكنها اهل البادية وأجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكنيهم ثوبا على سكناهم هنالك وأمرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم وان باتت عندهم تافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون امتعتهم وان ضاع شيء منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم وان كان ضياعه فيما بين المنزلتين نهارا ضمنه اقربهما منه فتجد المسافر في حالة ذهابه وايابه كأنه في بيته وبين اهله وقربته فسى

(41) محمد ميارة : نصيحة المغتربين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 923 . ص 25

(42) المناهل : ص 127

بلاده . . . وان الانسان يكون في احواله من التبر والياقوت عدد عديد فلا يخشى عليها في الطريق شيئا) (43) . ويدخل ضمن تنظيم المواصلات الداخلية : بناء الجسور والقناطر على الودية وفي المرات الصعبة (ومنها بناء القناطر المتعددة كقنطرة تانسيفت كنت بمراكش حين ذهب السيل بنحو الريعة اقواس منها بناها نصره الله . . . وكذا قنطرة ام الربيع السفلى وكنت أيضا هنالك حين ذهب بها السيل . . . وكذا قنطرة بين المدن بمحروسة فاس بناها أيضا في هذه السنة واخبرت أيضا أنه مشتغل هذه الايام ببناء القنطرة العظيمة على وادي سبو) (44) .

أما المواصلات مع السودان وغربي افريقيا فقد كانت تتم بصفة خاصة بواسطة الطرق الساحلية التي تنتهي بمدينة المحمدية (تارودانت) ومنها نحو باتي البلاد . وعندما اصبح للمغرب اسطول بحري ، ساهم بدور فعال في ميسدان الاتصالات الخارجية مع الشرق والغرب .

والحديث عن التجارة الداخلية وطرق المواصلات يجر الى التساؤل عن وسائل السفر : فقد تطورت وسائل المواصلات باستعمال العربات (وأعمل في نقلها العجل) (45) واتخاذ الابل (اذ هي ملاك السفر البعيد) (46) . وكثيرا ما كان التجار والاجانب منهم خاصة يستأجرون ترجمانا مغربيا يكون دليلا لهم في نفس الوقت ومعه خيم وعدد من المساعدين للسهر على خدمة هؤلاء المسافرين الاجانب ولحراستهم (47) . وهناك أيضا وسائل السفر في البحر والانهر وتعتمد على السفن ، وقد استخدمت المغاربة في السودان السفن للتنقل بين ضفاف وادي النيجر وروافده ، كما كان السفراء المغاربة والبعثات الدبلوماسية يستقلون سفنًا عثمانية أو انجليزية واسبانية وغيرها في ذهابهم للقيام بأعمال السفارة في الشرق والغرب (خرجنا من فاس . . . فوردنا ثغر تطاوين . . . واقمنا بالثغر ثلاثة اشهر ننظر ورود السفينة علينا من الجزائر . . .) (48)

أما المولى أحمد المنصور فقد كان يستعمل في أسفاره (افراك وهو القصر المعد لمنزلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من

(43) ابن العاصي : المنتقى التصور . ص 95 .

(44) القرني : روضة الاس . ص 22 .

(45) البناهل : ص 129 .

(46) البناهل : ص 129 .

(47) م. ص. ت. م - بريطانيا - ج 2 - ص 495

(48) الناجروني : النعمة المسكية . ص 13 .

كتان مترف) (49) ، ويستعمل أيضا (السياح وهو قصر اتخذه مولانا الامام . . من الخشب المؤلف ذات الالواح بعمل عجيب مموره فيرتمل به في الاسفار القريبة (50) وقد كانت العادة أن تتكفل المنطقة التي يرحل اليها المنصور بجميع حاجياته (فهذه تمام النزالات التي ينزل فيها سيدنا . . . وكل نازلة يدفع فيها أهلها المؤونة حتى يقوم منها) (51) .

ب - التجارة الخارجية :

كان للعلاقات السياسية الواسعة مع الخارج أثر كبير في نمو تجارة المغرب الخارجية ، حيث اقبل التجار الاجانب من جميع اقطار أوروبا الغربية الى المغرب ، يشجعهم على التعامل معه انتشار الامن والطمانينة ورغبة المنصور الملحة فى الحصول على الذخيرة الحربية ومختلف أنواع الاسلحة (الى ما يجلب مع الاحيان على يد المعاهدين من تجار الحربيين من السيوف الهندية والقسى الرومية والمكاحل النارية) (52) ، وفي تنمية التجارة الخارجية بوجه عام لعائداتها العظيمة على خزينة الدولة ، بالإضافة الى مشروعات المنصور العمرانية وما تطلبت من استيراد لبعض مواد البناء كالرخام مثلا لاستعماله في مباني قصر البديع بمراكش . فقد جلب المولى أحمد (المرمر الكثير العدد الضخم المعهد الصائى الجواهر الناصع البياض المعتم من المعادن النفيسة تتبارى التجار من أهل الحرب فى نقله وجلبه طوع اقتراح مولانا . . . من قاصية بلاد البنادقة متهاكين فى تجشم المشقة البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا فى نقل اجرامه الجانية التى يودى حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها) (53) . وقد عقد لاجل ذلك اتفقا تجاريا مع (دوق طوسكانا فرانسوا الثانى) لجلب المرمر وللاستعانة بالمهندسين والفنيين الايطاليين فى اعمال بناء البديع (54) .

ويدخل فى هذا المجال : الامتيازات التى كان يمنحها لبعض التجار الاجانب :
(هذا الظهير السلطانى . . بيد حامله المتمسك به التاجر افرنسشق برير . .

49) البناهل . ص 178 .

50) البناهل . ص 215 .

51) مخطوط خاص .

52) البناهل . ص 210 .

53) البناهل . ص 260 .

54) مجلة (Hesperis)

- العدد (3 - 4) لعام 1957 . ص 204 .

اننا اضغينا عليه من ارادة اماننا ما يصوغ له ايراد بلادنا والنصرف بتجاره في مدنا وحدود ملكنا . . . ولا تمد اليه يد الاساءة فيما يتعاطاه من مآربه) (55) .
 وفي سماحه للتجار الانكليز بتأسيس شركة خاصة عرفت (بالشركة البربريعة) لتنظيم امور التجارة بين المغرب وانكلترا ، وضبط احوال التجار الانكليز بالمغرب . وقد بلغ الامر بهذه الشركة ولما يمض غير وقت قليل أن أصبحت تحتكر تجارة المغرب الخارجية تقريبا وبالاخص تجارة السكر الذي كان تدر منه أرباحا طائلة .
 وبالرجوع الى الوثائق العديدة المعاصرة نجد أن التجار الانجليز كانوا ينقلون الى المغرب : مختلف الثياب الرفيعة ذات اللون الازرق الغامق (برناتا Bernatha والازرق الفاتح (برايا Bria) ، التي كان المغاربة يصنعون منها انواعا خاصة من الملابس : كالبرنس (السلهام) والجلابة للرجال ، و (القفطان) للنساء ، وان هذا الثوب أصبح رمزا للطبقة الموسرة وكون محلى خاص (56) .
 وبالإضافة الى الثياب هناك الطرابيش الحمر وانواع الاسلحة والاشباب اللازمة لصناعة المعدات الحربية والسفن بوجه خاص (57) .

وبالمقابل فقد كان التجار الانجليز يستوردون من المغرب : السكر الناعم والخليط والتمور والشموع ومختلف الحبوب ثم الزرابي ومعادن الذهب وملح البارود والنحاس وغيرها (58) ، وقد أكد وزير المنصور في (مناهل الصفا) نشاط التجار الانكليز الواسع في المغرب (بما أمدها (أي المنصور لايلزابيت) به من النحاس لتفريغ مدافع النار وأطلق ملح البارود لها بالشراء من ممالكة الشريفة وامدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها) (59) ، والامتيازات الكبيرة التي أصبحت لهم الى حد أن النشاط التجاري قد طور العلاقات السياسية بين البلدين (وتوكات (اي ايلزابيت) على منساة الاسناد التي عالى جنبه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستعداد من شريف ايلاته وضخامة ممالكه) (60) .

وقد ضبط المولى أحمد المنصور التجارة الخارجية بشكل انه كلما اشترت الدولة من أي تاجر اجنبي بضاعة ما ، سلم اليه المسؤولين المغاربة وصلا

(55) المكتبة الوطنية - مدريد - مخطوط رقم 257 .
 (56) م. ص. ت. م - بزيطانيا - ج 1 - ص 237 .
 (57) المصدر السابق .
 (58) المصدر السابق ص 239 .
 (59) المناهل ، ص 193 .
 (60) المناهل ص 194 .

يثبت ذلك (الحمد لله قبض بدار العدة من التاجر النصراني ارتوس الانجليز ستة آلاف ومائتين وأربعة وخمسين درعا من الفلّى لتفصيل الاخبية لرامات الجند المنصور وتقيده للبيان في الثاني والعشرين من محرم اثنين وتسعين وتسعمائة) (61) على أن يتم الاداء فيما بعد .

وإذا ما رفع التجار الاجانب شكوى ظلم واعتداء ، أمر المنصور باجراء تحقيق في ذلك (ومما نعرفكم به أن رجلا هنا ما ينتسب الى التجارة من أهل بلادكم قد تعدى طوره ودخل امورا لا تعنيه من أسباب الفساد . . . فسبب ذلك امرنا بسجنه) (62) . والتجار الاجانب عندما كانوا يفتدون على المغرب ، يتصدون في الغالب الملاح ، وهو الحى الخاص باليهود والموجود بالقرب من القصبة الملكية ، أو يطلون في الفنادق الخاصة المعدة لذلك ، حيث يذمعون واجب الجمارك : والديوانة عبارة عن فندق كبير به مخازن عديدة وفسيحة وله أبواب عظيمة تفتح نهارا وتطلق ليلا (63) .

وفي الملاح أو الفنادق يتم اتصال التجار الاجانب مع السماسرة الذين كانوا في الغالب اندلسيين أو يهود لهم معرفة والمأم باللغات الاجنبية ، وعن طريقهم تتم عمليات بيع البضائع والمصنوعات الاجنبية الى تجار الجملة والتجزئة المغاربة الذين يحملونها بدورهم الى الداخل لبيعها في المدن والقرى وفي الاسواق والمواسم بالبادية .

وأهم الموانئ التي كان التجار الاجانب يطلون بها عند قدومهم الى المغرب : آسنى كميناء للعاصمة مراكش ، واكادير بالنسبة لبلاد سوس حيث تزدهر زراعة قصب السكر ، والعرائش كمينفذ للمنطقة الغربية على الاطلسى وبالنسبة لفاس عاصمة الاقليم الشمالى ، وقد كانت تطوان تعد ايضا ميناء لمدينة فاس وشمالى المغرب . وهناك ايضا موانئ الرباط وسلا وأصيلا وأزمور وغيرها على المحيط الاطلسى .

وعن العملة المغربية خلال هذا العهد ، تؤكد الوثائق المعاصرة من جهة ، وما بين أيدينا في متحف النقود بمدينة مراكش من جهة أخرى ، بأن المولى أحمد المنصور

61: م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 1 - ص 431

62: مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 198 .

63: م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 370

قد ضرب نقوداً ذهبية وفضية وبرونزية ، في عدة مدن مغربية وخلال سنوات عديدة من حكمه :

1 — وبالنسبة للنقود التي ضربت زمن المنصور ، هناك :

أ — الدينار الذهبى ونصفه : اذ كان (ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار) (64) .

ب — الدرهم الفضى : (فكان يتمشى له في كل شهر من لدن مقدمه الى حين منصرفه تسعمائة درهم) (65) .

ج — النقود البرونزية .

2 — وبالنسبة لمراكز ضرب النقود ، نجد : فاس ، مراكش ، المحمدية ، لاكتاوا ، سجلماسة ودرعة (66) :

3 — أما تواريخ ضرب هذه النقود فهناك السنوات التالية الهجرية : 986 — 989 — 992 — 993 — 995 — 996 — 997 — 998 — 999 — 1000 — 1001 — 1002 — 1003 — 1004 — 1005 — 1006 — 1007 — 1008 — 1009 — 1010 — 1011 (67) .

4 — وعن بعض ما جاء في هذه النقود :

أ — غداة معركة وادي المخازن واثراً دخول المنصور الى فاس ، ضربت نقود خاصة باسمه بقيمة الدينار ونصف الدينار الذهبى ، وقد جاء في هذا الدينار : (بسم الله الرحمن الرحيم ، عن أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبى العباس ، ضرب بمدينة فاس عام ستة وثمانين وتسعمائة) (68) .

(64) نزعة الحادى . الاثرانى . ص 157 .

(65) البناهل 234

(66) Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques.

(J. D. Brethes) Casablanca page 202

(67) المصدر السابق .

(68) المصدر السابق . ص 202 . يحمل هذا الدينار رقم 1450 . وزنه 3,80 ج

ب — وفي سنة 992 هـ ضرب المنصور بمدينة المحمدية ديناراً ذهبياً ، جاء فيه :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس أحمد المنصور
بالله بن الامام الخليفة محمد الشيخ المهدي بن الامام القائم . يريد الله
ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . ضرب في المحمدية عام اثنين وتسعين
وتسعمائة) (69) .

ج — وفي سنة 998 هـ ضرب المنصور بمراكش ديناراً به :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس المنصور بالله
أمير المؤمنين . لا اله الا الله . الامر كله لله . لا قوة الا بالله) (70)

د — وضرب المنصور في عام الف للهجرة بمراكش ديناراً يتضمن :
(بسم الله الرحمن الرحيم عبد الله الامام أبو العباس أحمد المنصور
بالله أمير المؤمنين ابن الامام أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي بن
القائم بأمر الله الشريف الحسنی . ضرب بحضرة مراكش عام
الف) (71)

ه — وفي عام 1004 هـ ضرب المنصور بمدينة لاكتاوا نصف دينار ذهبى جاء
فيها :

(عبد الله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين بن الامام المهدي أمير
المؤمنين . ضرب بحضرة الكتاوا عام أربعة وألف) (72) .

و — ومن الدراهم التي ضربها المنصور تلك التي صنعت بمراكش من
الفضة ، وبها :

(لا اله الا الله محمد رسول الله . أبو العباس أحمد المنصور بالله
أمير المؤمنين) (73) .

-
- (69) نفس المصدر . رقم العملة 1466 . وزنه 4.5 ج
(70) نفس المصدر . رقم العملة 1482 . وزنه 2 ج .
(71) نفس المصدر . رقم العملة 1484 . وزنه 4.5 ج .
(72) نفس المصدر . رقم العملة 1499 . وزنه 1.9 ج .
(73) نفس المصدر . رقم العملة 1524 . وزنه 6 ج .

ز - وكاملة عن النقود البرونزية تلك التي ضربت بمراكش عام
1007 هـ (74) .

4 - الادارة المالية في دولة المنصور :

لقد سعى المولى أحمد ، ونجح الى حد كبير ، في توطيد أركان الامن فسى
امبراطوريته الواسعة ، وحرص على فرض سلطانه عليها ، كما أمن وصول جميع
العائدات من مختلف الولايات الى خزائنه بالبلاط الملكي في مراكش .

ومن جهة أخرى فقد أوجد تنظيما دقيقا وجهازا ماليا محكما اناط به
مسؤولية القيام بالادارة المالية والسهر على تسيير شؤونها ، ومن أهم عناصره :

1 - (صاحب خزائن الدار) (75) : وهو المشرف على أموال الدولة بالقصر
الملكى والساهر عليها بما يشبه وزير المالية .

2 - الامناء : في المدن والاقاليم ، وقد كان المنصور هو الذي يعينهم وهم
مسؤولون امامه وحده ، ولا يخضعون لسلطة الولاة والعمال في الاقاليم وكثيرا
ما كان يولى هذا المنصب أحد التجار (أنها وقع الاحسان اليه لامرين الاول
الذمة لاته بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا) (76) .

3 - عمال الخراج : المكلفون من قبل المنصور بجمع خراج المناطق (رجع . . .
الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض في ثلاثة أعوام) (77) .

4 - عمال مخازن الاقوات .

5 - حفظة اخماس الغنائم .

(74) نفس المصدر . رقم العملة 1509 . وزنه 8ر5 ج .
كان الدينار الذهبى المغربى خلال القرن (16) يساوى (10) ريالات اسبانية من فضة او
(14) درهما مغربيا من فضة (21 درهما في آخر القرن) .
ومن اثنان بعض الحاجيات كما أورد ذلك Diego de Torres البرتغالى الذى اتر بالمغرب
بعد معركة وادى المخازن :

50 كيلو من القمح بقيمة دينارين اثنين .

50 كيلو من الشعير بدينار واحد .

ثمن الكباش الواحد عشرة دراهم .

مجلة Hesperis-Tamuda لسنة 1974 . ص 127 .

(75) البناهل : ص 201 .

(76) البناهل : ص 67 .

(77) السميدى : تاريخ السودان . ص 97 .

6 — المكلفون بدواوين أرزاق الجند (78) .

وجميع الاعمال المالية كانت تدون في دفاتر خاصة (فلما وصل اليه القائد . . . عرض عليه الجرائد رأى فيها كثيرا من الاموال فسأله عنها بعدما دفع له ما معه منها) (79) . ولم يكن المنصور يولى هذه المناصب الا للثقة دون أن يغفل عن مراقبتهم (وفوض له الاشراف على ما يورده الجبابة والعمال ببيوت الاموال ومخازن الاقوات وامتقاداتها في كل الاوقات ومحاسبة حنظة اخماس الغنائم . . . وضبط دواوين أرزاق الجند والخراج) (80) .

أما واردات بيت المال فأهمها :

1 — غنائم معركة وادي المخازن :

فقد غنم المغاربة الكثير من الكنوز والنفائس ومختلف المعدات الحربية والمؤن والذخيرة بعد انهزام الحملة البرتغالية ، ولعل أهم ما غنمته دولة المنصور آلاف الاسرى من مختلف الاجناس الاوربية (وناهيك من يوم أجلي عن . . . ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل وأسير حسبما تقرر في موضعه) (81) . ويأتى في طليعة الاسرى كبار القوم البرتغال (اكابر دولتهم واقتنائهم وبطارقتهم وقمامستهم واساقفتهم) (82) الذين افتدى البعض منهم مقابل اموال عظيمة (الى خديم ابوابنا العالية القسيس مرين . . . هذا وان موجب اصداره اليكم يصلكم التاجر افرنسشق برين وصاحبه افرنسشق بوطشطه تعطونها احدى وعشرين الف اوقية وخمسمائة اوقية وخمس وستين اوقية . . . تعطونها ذلك من قابل ما ترتب لنا بذمتكم) (83) .

ويمكن القول : ان الامجاد التى شيدها الملوك البرتغال طوال قرنين والثروات العظيمة التى تكديست خلالها في خزائن لشبونة قد اضعافها (دون سباستيان) في معركة وادي المخازن وما تبقى منها دفع كتعويض لانفداء اسرى المعركة في المغرب .

(78) . مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .

(79) السعيدى : تاريخ السودان . ص 97 .

(80) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 77 .

(81) المناهل . ص 39 .

(82) المناهل . ص 170 .

(83) المكتبة الوطنية — مدريد — مخطوط رقم 257 .

2 — عائدات البلاد المفتوحة وبالأخص بلاد السودان (وهو اليوم أيده الله لهذا الجهد . . . قوي الأسر بحمد الله وافر العدد والمدد مراش الجناح بما أتيج لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبجر ومعادن الذهب على التوسيع في الإنفاق الذي لا يخشى معه عيلة ولا فقرا) (84) .
واعتمادا على ما حفظته لنا المصادر المعاصرة ، فان استغلال المنصور لبلاد السودان قد ظهر في عدة نواحي :

فعند انهزام أسكيا اسحاق الاول طلب الصلح من المنصور وقدم . (بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور . . . وهي تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتين من الرقيق) (85) .

وعندما استولى محمود باشا على مناطق واسعة من السودان (جمع من الاموال والمتاع والاثاث اللاتي لا يحصيها الا الله . . . ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد الا مائة الف ذهبا) (86) .

وتوصل المنصور أيضا من الباشا محمود (بائني عشر مائة مملوك من الجواري والغلمان وأربعين حملا من التبر وأربعة سروج من الذهب واحملا كثيرة من العاج واليينوزوكور غالية وقطوط الغالية وذخائر السودان فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوي ملكه وبقيت جباية السودان ثابتة كل سنة) (87) .

ولما رجع القائد الحسن بن الزبير حمل معه خيرات كثيرة (رجع الامين القائد الحسن بن الزبير الى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الارض في ثلاثة أعوام) (88) .

أما جودر باشا فعند عودته نهائيا الى مراكش بعد غياب طويل بالسودان ، حمل معه (عشرة آلاف عبد وعشرة آلاف جارية كلهن في سن البلوغ وأربعمائة حمل من التبر والف . حمل من عظم الفيل وكسوة السودان وطرهه وأربعة أنيال . . . فكان دخول جودر باشا لمراكش يوما مشهودا) (89) .

-
- (84) البناهل . ص 197 .
(85) البناهل ص 147 .
(86) السميدي : تاريخ السودان . ص 79
(87) البصير السابق . ص 83
(88) البصير السابق . ص 87
(89) الامرائي : نزعة الحادي . ص 197 .

وجه منصور باشا حاكم السودان الى المنصور سببا كثيرة وغنائم عظيمة لا تحصى (ونؤكد عليكم أن تنظروا فيما عليه استوليتم من ذخائر العبد نوح وأثائه ، وجميع امتعته وآلاته ، فكل ما يليق من ذلك بمقامنا العلى توجهه لابوابنا الشريفة وتسديه لمثابنا العلية المنيفة بحال الفور والبدار . . . وأولاد مسكية فالذكور منهم أبعث بهم كرامة لمقامنا العلى وأما الاناث . . . وكان فيهن من تليق بمقامنا العلى أبعثها والا فلا) (90) .

وقد شمل الاستغلال المغربى لبلاد السودان الميادين الزراعية أيضا ، إذ زرعت الاراضى الخصبة (التى تغل ضروب المزارع وتتنظم عليها الحدائق الغلب من البساتين ومعروش الشجر والثمار والادواح الاشبه ملتقة الاغصان والرياض المفوفة الخمائل الموشحة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين التى يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتعنى على واسطة الاقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجهوم اقوات وحبوب وفواكه جنبة وقطونها دائية) (91) .

وهكذا انطلق المنصور بعيدا فى استغلال خيرات السودان و (حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصاقى والدينار الواقى . . . ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب فى زمانه) (92) .

3 - استثمار المناجم المختلفة : ومن أهمها :

أ - بالسودان : مناجم الذهب التى (اكتنفتها هذه الممالك . . . واختطاط الحصون الجائمة عليها وترتيب الجيش فيها لحياطتها) (93) .

ب - بالصحراء : مناجم ملح الطعام فى تغازي وغيرها (فقد وظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الابل التى ترده وتؤمه . . . وتضاعف خراج المعادن) (94) .

90) دار الوثائق بالرباط . مخطوط - ك 278 . ص 180 .

91) المناهل . ص 167 .

92) الامرانى : نزعة الحادى . ص 184 .

93) المناهل ص 165

94) المناهل ص 120

ج - بالمغرب : معادن النحاس والحديد والرصاص وملح البارود وغيرها (بما
أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وأطلق ملح البارود لها بالشراء
من ممالك الشريفة وامدادها بالمعادن التي أعوزتها ببلادها) (95) .

4 - عائدات مصانع السكر :

وقد كان الظميون هم الذين يقومون باستغلالها مقابل قدر معلوم من المال في
كل سنة (وقد قطعت معاهدة الكراء فيها اليوم لطائفة من أهل الذمة حسب مبلغ
سنوي) (96) ولعائداتها الواسعة أنشأ المنصور العديد منها (وناهيك من أمام
يستنتج بسديد رايه . . . هذا القدر من الخراج الوافر الذي لا يزال بيت المال
هنيئا بمرى أخلاقه مع الأيام ان شاء الله بباب دار الملك . . . عفوا من غير
احتياج الى ما تحتاج اليه الجباية من تجهيز العساكر المعينة على انتزاع
نواجدها) (97) .

5 - مداخيل الديوانة والمكوس :

وقد وصلت الى 30 ٪ على الواردات و 10 ٪ على الصادرات (98) ، وفي
الداخل ما قيمته ربع دينار عن حمل (وان الانسان يكون في احواله من التبر
والياقوت عدد عديد . . . ولا يعطى على ذلك كله الا ربع دينار عن كل حمل في
باب المدينة فقط) (99) .

6 - التلزييم :

اذ كان المنصور يعمد الى تلزييم الولايات (لكان انما وقع الاحسان اليه
لامرين الاول الذمة لانه بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا الثاني ان خراج
درعة سهل معلوم) (100) .

95) المناهل ص 193

96) المناهل ص 210 .

97) المناهل ص 210

98) م. ص. ت م - بريطانيا - ج 1 - ص 347

99) ابن القاضي : المنتقى المقصور . ص 96 .

100) الامرائى : نزعة الحادى . ص 162 .

7 - الخراج أو عشر المنتوجات الفلاحية :

وقد كانت تدفع من نوع المحصول ، ويدخل هنا (عشر الزيت
لاستئثار خزانة السلطان بها في سائر الامق المراكشى) (101) .

وهناك الضرائب المختلفة المفروضة على انواع التجارة من حوانيت وأرحية
وأمران ودور معاصر الزيت والجنات والعيون والسواقي وملازم الابواب
والرحاب وملازم التجارة وضريبة الكانونة (فرض عليهم بيضة الدجاجة لكل
كانونة . . . ثم جعل خمسة عشر كانونة الدخان بسرجة ليسهل طريق المخزن على عماله
وعلى الدفع . . . وفرض السلطان الذهبى على القائد ثمانى مؤزونات لكل سرجة
عام بعام) (102) .

ونشير في هذا المجال الى ان المولى احمد كان قد قام بالفاء بعض الضرائب
واعمال السخرة التى منها (النائبة التى ثقل لمخالفتها للشرع على الاذان سماعها
وخرجت عن حد السنة اوضاعها . . . وبحسب هذا رأينا . . . ان نجري وظيفتها اللازمة
على قوانين الشرع . . . ذلكم بان يكون سبيلها فى الفرض على اقطاع ما تحت
أيديكم من الارض حتى تنتهى الى ما انتهت بحسب الفريضة على الارض
اقسامها) (103) .

ومن اصلاحاته فى هذا المجال أيضا انه (رفع فى اقطار ملكه عن رعيته انواع
الإمكاس كلها كاعشار السلع فى المراسى والابواب وغير ذلك من الوظائف
السلطانية) (104) حرصا منه على تطوير الاقتصاد المغربى ولاسعاد عامة
الناس .

أما اوجه صرف هذه الاموال : فالمنصور كان مطلق التصرف فى الانفاق ،
وجميع اموال الدولة بين يديه يصرف منها على حاجياته ولتسيير امور الدولة ثم
لتجهيز القوات المسلحة المغربية الساهرة على سلامة البلاد وتدعيم أسس الامن
بأقطارها .

(101) البناء ، ص 229 .

(102) مخطوط خاص معاصر .

(103) رسائل سعدية - ص 145

(104) ابن القاضى : المنتقى المتصور . ص 28 .

ومن أوجه صرف الاموال أيضا المشروعات الكثيرة التي قام بانجازها ففى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وفى المنشآت العمرانية المختلفة فى شتى المدن ، والتحصينات العسكرية التي لا تحصى ولتشجيع العلم والعلماء .

ويضاف الى جميع ذلك انفاقه الواسع على الرعاية فى مختلف الظروف والمناسبات (وكان لمولانا أمير المؤمنين ايده الله صدقات فاشية واسعة عظيمة الفائدة يجريها على ايدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التي يخرجها ختم كل رمضان ويعم بها ذوي الحاجات ومنها المهرجان الذي يقيمه يوم عاشوراء كل سنة لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازها واما ما يجرى على يده ايده الله فى سائر الاوقات من انواع البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من مال فى سبيل التوسعة على الفقراء يقسمه وطعام فى اوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مغاليس تقضى ورقاب ارقاء تفك واساري تفتدى فلا يدخل تحت ضبسط) (105) .



وهكذا وبفضل حزم المنصور وحرصه على تنظيم ادارته السياسية والاقتصادية اجتمع له ما لم يتوفر لغيره : جاه وعظمة وغنى ، مما ساعده على تحقيق الكثير من مشروعاته فى الداخل والخارج : اذ ازدهرت احوال البلاد فى شتى النواحي الاقتصادية وانعكست تأثيرات ذلك فى معالم الغنى والرفاهية التي اخذت تشمل نواحي مختلفة من مظاهر الحياة الاجتماعية والعمرانية وبالنسبة لمختلف طبقات الشعب المغربى ، الى الحد الذي لقب معه المولى احمد (بالمنصور الذهبى) واتصفت دولته بانها (قد اثرت العديم واكسبت المحروم) (106) .

(105) البناهل . ص 303 .

(106) البناهل . ص 146 .

ولم يخرج المنصور في سياسته الاقتصادية بوجه عام عما كانت عليه دول أوروبا الغربية المعاصرة فقد كانت فلسفة العصر الاقتصادية تهدف الى استغلال الاقتصاد لتتوية الدولة اي (الاقتصاد للقوة) (107) . ولتكون الدولة قوية يجب أن تتوفر على ثروات عظيمة من الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، وان تسعى بشتى الطرق لجمع هذه المعادن والحيلولة دون خروجها من البلاد . وهذا عين ما هدف اليه المولى احمد : اذا استغل اقتصاديات المغرب لتتوية دولته : وكنز الذهب والفضة لتبقى الدولة عظيمة وقوية وليحسب لها الجميع كل الحساب ، فيرهبها العدو ، ويطلب الصديق ودها وعطفها (كان جماعا للمال مستكثرا من ذخائر الملك مولعا باقتناء نفيسها طامح العين الى كل مرمى بعيد) (108) .

107، تاريخ المذاهب الاقتصادية ص 67

108، البناهل . ص 25 .

الأحوال الاجتماعية

كان للامن والاستقرار النسبيين اثرهما الكبير في ازدهار معالم الحياة الاقتصادية في المغرب وبالتالي في تطور مظاهر المجتمع المغربي زمن المولى أحمد المنصور ، اذ امتزجت تيارات حضارية مختلفة : تركية ، أندلسية ، أوروبية وسودانية مع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي كانت تطبع المغاربة في كثير من نواحي حياتهم .

وقد نتج عن هذا الاتصال ان اخذت انماط الحياة الاجتماعية تتطور وان كان ذلك لم يحصل في كل البلاد للتباين الحاصل بين المدن والقرى . واكثر ما ظهرت هذه التأثيرات الخارجية في المدينة والمدن الكبرى المغربية بوجه خاص .

وسنحاول التعرف على الخطوط الكبرى للتيارات الخارجية التي اثرت في المجتمع المغربي وبرزت بعض معالمها زمن المنصور أولا ، ثم ننفذ منها الى دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة ثانيا ، وذلك للوقوف على الكثير من معالم المجتمع المغربي وكشف النقاب عنها .

1 - التأثيرات الخارجية :

1 - فالأتراك العثمانيون بلغوا أوج مجدهم السياسي خلال القرن السادس عشر ، وقد تطورت لذلك مظاهر حضارتهم وكانت القسطنطينية تعد من أهم عواصم العالم مجدا وحضارة . وعندما زار المولى أحمد الجزائر العثمانية كلاجئ سياسي زمن حكم ابن أخيه محمد المتوكل ، تعرف على الكثير من نواحي الإدارة والحكم والحضارة عند الأتراك ، وسمى بعد توليته الحكم الى اخذ عدد كبير منها الى المغرب (كانت سيرة الخلفاء من أول الدولة الى أيام المتوكل سيرة مطلقة لم

تحفظها قوانين ولا قيودتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة جارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية سادجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتملك عن الاسترسال عنانها الى ان صار الملك والخلافة للمولى . . . المنصور ايده الله . . . فأحال الصبغة والى الطباع ولم الشعث . . . وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة الواصلة (1) .

فما هي التأثيرات التركية ؟

لقد اختلفت التأثيرات التركية وتعددت مظاهرها ، وأكثر ما تجلت في الميدان العسكري لان المنصور هدف منذ توليته الى تكوين جيش مغربي حديث على غرار الجيش التركي (الانكشارية) فقد (اصطفى من العجم موالى انتتم نعمته وربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا أضخم حالا واعظم شانا وجلالا) (2) ، أي أن المنصور قد عمد الى تربية الصغار على غرار ما كان الامر عند الاتراك بالشرق وكون منهم فرقا عسكرية نظامية اتخذها من الاتراك والاندلسيين والعلوج والسودانيين . وما دام المولى أحمد قد اقتبس النظم المتبعة عند الانكشارية ، لذا فقد اخذ عنهم بعض الالقاب والرتب ، انها الملاحظ هو وجود القاب خاصة عند الجنود المغاربة ، فهل المنصور هو الذي ابتدعها ؟ (واخترع الالقاب والاسماء ليمتاز بها البعض من البعض) (3) .

وفما يتعلق بوضعية الاتراك داخل المجتمع المغربي ، نلاحظ بان هؤلاء كان لهم في مدينة مراكش العاصمة حى خاص نظرا لعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الخاصة ، ولكن مع الايام أخذوا يتفاعلون مع السكان تدريجيا لعامل الدين الاسلامى الذي يجمع بينهم ، فأخذ عنهم المغاربة نظما وعادات في المآكل والمشرب والملبس وفي ميدان البناء والعمران ، ولا تزال حتى اليوم بعض المناطق بمراكش تحمل أسماء تركية مثل (حى الدباشى) نسبة الى القائد الدباشى التركى احد قادة المنصور (4) .

(1) يهاجل الصفا للمشتالى . ص 200

(2) المناهل . ص 201 .

(3) المصدر السابق .

(4) (دوبردان) : مراكش ص 267 P . . . Marrakech : Deverdun

ب - أما الاندلسيون :

فقد كانت تأثيراتهم اعظم من اي عنصر خارجي آخر ، بحكم عامل الدين الاسلامي اولا ، والجوار ثانيا ، ولان المغرب والاندلس تبادلا التأثيرات السياسية والحضارية منذ الفتح العربي الاسلامي . وعندما اخذت اوضاع الاندلس تضطرب ، قصدت المغرب وفود المهاجرين الاندلسيين وتزايدت هجراتهم بعد النكبة الكبرى وسقوط غرناطة (1492 م) . اذ انتشروا في جميع المدن والقرى واستقروا خاصة في بعض المدن مثل تطوان وفاس ومراكش والرباط وغيرها ، وقد آواهم المغاربة وتفاعلوا معهم الى حد بعيد (لما انقرضت دولة الاسلام بالاندلس نجا من استتكتف من ذل الكفر . . الى بلاد المسلمين بالعدوة . . واقطعتهم الدولة اراضى فسيحة بالجانب الغربي من فحوصها الاصح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به) (5) .

وكحقيقة تاريخية هامة نشير الى ان وجود الاندلسيين بالمغرب قد اثر كثيرا على حركات الجهاد التي عمت المغرب في اواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن التالي في البر والبحر وغداة الغزو الاجنبي الاسباني - البرتغالي للسواحل المغربية بوجه خاص ، وكان للاندلسيين ايضا دور في قيام الدولة السعيدية وتوطيد دعائمها في المغرب ، سيما وان الحكام السعديين ما فتئوا يعلنون عن عزمهم على استرداد الاندلس : فردوس الاسلام المفقود .

واذا كان من الصعب استقصاء جميع التأثيرات الاندلسية في المجتمع المغربي ، فاننا نكتفي بالإشارة الى ان العديد من مقومات المجتمع المغربي الحديث ترجع في أصولها الى المهاجرين من الاندلس ، (ان اهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الاتصى فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا البياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية اشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ، ومال اهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها ففاق اهل الصنائع اهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم وتمصرفين بين

أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في اقرب مدة وانرغوا فيه من أنواع الحنق والتجويد (6) .

ج - وعن التأثيرات الاوروبية :

نذكر بأن المغرب زمن المنصور قد دخل في السياسة الاوروبية للدور الهام الذي لعبه المولى احمد في حفظ نوع من التوازن بين الشرق والغرب من جهة وبين دول الغرب الكاثوليكية والبروتستانتية من جهة اخرى ، ففتحت لذلك ابواب المغرب امام الاجانب الاوربيين من مختلف الجنسيات ، الذين وصلوا بصفة سفراء وبعثات دبلوماسية او متفاوضين ، ثم بشكل تجار نظاميين او مهريين ، كما قام البعض منهم بالرحلة الى المغرب للمغامرة والتجسس ، في حين ان قسما آخر قد تعاقد مع الدولة للعمل بالمصانع والمعامل . وهناك الاسرى ورجال الدين المسيحيين الذين كانوا يقومون بعمليات انتكاك الاسرى وتبادل المسجونين .

وبفضل هؤلاء الاجانب الذين زاروا المغرب خلال عهد المنصور لسبب من الاسباب ، ثم بفضل ما كتبه عن دولة المولى احمد وعصره في مختلف النواحي ، استطعنا التعرف على الكثير من مظاهر الحياة المغربية وان كان ذلك يتصد احيانا بالمبالغة او التحامل ، ويدل من جهة اخرى على جهل كبير بحقيقة الامور ، غير ان مقارنة ما كتبه غالبا ما تساعدنا على الوصول الى حقائق هامة وتكشف لنا النقاب عن خطأ بعض الاخبار وعدم صحتها .

فالدبلوماسيون الاوروبيون كانوا يجدون من المنصور وحكومته كل ترحاب وحسن استقبال مما جعلهم يشيدون بالاعراف الدبلوماسية المغربية التي تضمن لهم حصانة تشمل اشخاصهم ومنازلهم وسائر مرائق حياتهم (انه اتصل بنا من قبلكم كتاب . . . ووقفنا منه على ما كتبتم . . . من ابقاء الحرمة على دار الباشدور . . . فأما حرمة الدار فما زالت عنها ولا حالت بل ابقيناها عليها كما كانت) (7) .

وأما التجار فقد كثر عددهم بالمغرب للارباح الطائلة التي كانوا يجنونها من متاجرتهم مع المغاربة ، وبحكم التعامل اليومي فان هؤلاء التجار الاجانب قد

(6) المقرئ : نوح الطيب . ج 2 . ص 764
(7) المكتبة الوطنية بجزيرة - مخطوط رقم 257

تعرفوا على عادات مغربية كثيرة وتقاليد مختلفة، كما أن المغاربة بدورهم قد اطلعوا على مظاهر حضارة أوروبية — وان كان ذلك في نطاق خاص — وتعلم بعضهم لغات اجنبية ايضا .

ومن الاوربيين الذين استعربوا في المغرب : الفرنسي Arnoult de Liste (8) الذي استقر بالمغرب بين 1588 — 1599 م ، وتعلم اللغة العربية الى درجة انه أصبح استاذا للغة العربية في Collège de France بباريز ، ثم الفرنسي Etienne Humbert (9) الذي وصل الى المغرب سنة 1598 وتعلم العربية واتقنها ، ولما عاد الى فرنسا حمل معه كثيرا من المخطوطات العربية الهامة كما أصبح استاذا للعربية بكلية الطب في باريز .

على أن الاوربيين الذين اختلطوا كثيرا بالمغاربة : هم أولئك الذين كانوا يعملون في المصانع ومختلف المعامل كخبراء وصناع مهرة وعمال (حشد له الصناع وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الافرنجة) (10) ، والاسرى بحكم استخدامهم وتسخيرهم في شتى مرافق الحياة المغربية ، ومهما قيل عن معاملة المغاربة للاسرى الاجانب فقد امتازت بكثير من التسامح ، مما لم يكن له نظير في اوطانهم بأوروبا حيث التعصب الدينى الاعمى ، واعمال الذبح والقتل لمجرد الشك والريبة .

د - اما التأثيرات السودانية :

فانها لم تترك أثرا حضاريا لتخلف البيئة السودانية ، ومع ذلك فان عشرات الالاف من السودانيين الذين حملوا الى المغرب ، قد أحدثوا نوعا من التغيير في المجتمع المغربي ، اذ أخذنا نجدهم كمستخدمين في المنازل والمتاجر والمصانع ، وكاماء وجواري ، ثم كجنود في صفوف القوات المحاربة ، علاوة على استغلالهم بفاعة عند تجار الرقيق (. . . وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجازيف الثقيلة بالاساطيل) (11) .

(8) مراکش : دوفردان . ص 342

(9) المصدر السابق ص 343 .

(10) البنامل . ص 254 .

(11) البنامل . ص 197 .

ومن تأثيرات السودانيين في المغرب : عادة التدخين (. . . وبسبب دخولهم . . .
ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة تبغة لان السودان الذين قدموا . . . يشربونها
ويزعمون أن فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومراكش وغيرها من بقاع
المغرب) (12) .

هذه هي أهم العناصر الخارجية التي تفاعلت مع المجتمع المغربي ، وبديهي
أن هذه التأثيرات لا تظهر للعيان الا بعد أجيال ، وليس تعرفنا عليها الا للتأكيد بأن
المجتمع المغربي في عهد المنصور لم يكن منعزلا عن التيارات الخارجية التي تفاعل
معها وتأثر بها . وبان المغاربة قد امتازوا بالتسامح والرغبة في الاتصال بغيرهم
والسعى الى طلب المعرفة للنهوض بالبلاد ولتطوير شؤون حياتهم . فما هي أهم
مظاهر المجتمع المغربي ؟ وما الاعراف والتقاليد التي كانت سائدة بالبلاط المنصوري
والمتبعة في المناسبات الرسمية والحفلات الخاصة ؟

يعد المؤرخ المجهول (لتاريخ الدولة السعدية) من الذين انفردوا بوصف
المولى أحمد المنصور ، فقد ذكر بأنه (كان أسمر اللون غائر العينين وأمر اللحية
له شرطات على خده الايسر غليظ الجسم جهير الصوت له لثة في كلامه يبذل الشين
المعجبة سينا مهلة ، وأثر الثياب يسحبها بالارض حتى تغطى اقدامه ، يكساد
في مشيه أن يطأ على كعبيه) (13) .

كان الخليفة المنصور يحيى في بلاطه وبين أفراد عائلته حياة خاصة كأمر
للمومنين تدين لطاعته شعوب وأجناس عديدة ، وكامبراطور قوي وغنى تخضع
لسلطانه كثير من الولايات والاقطار في غربي إفريقية وبلاد السودان .

ففى داخل القصر الملكى هناك :

— ترمانية الدار : وهى المكلفة بالاشراف على الاماء والجواري اللواتى يقمن
بخدمة نساء القصر (الحريم) . (واستدعوا أم المان ترمانية الدار واعطه
برسم دارنا وأمرها أن تعطيه لهن) (14) .

(12) نزعة الحادى . الامرانى . ص 146

(13) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 64

(14) نزعة الحادى : الامرانى . ص 162 .

- صاحبة بيت الثياب : المسؤولة عن خزائن ثياب القصر وعن الادوية ايضا
(. . . أن يخرج لك من عند صاحبة بيت الثياب القدر المحتاج) (15) .
- كبير الموالى العبدى : المكلف بالاشراف على الخدم الموجودين بالقصر
(. . . الى قائد القصر وكبير الموالى العبدى بأبواب دور الخلافة عنبر
الخصى) (16) .
- قائد الرواء : وهو الذي يسهر على خيول القصر (عثروا على بغل رجل
عليه سمة دواب أمير المؤمنين . . . فرفعوه الى قائد الرواء) (17) .
- خدام القصر : المكلفون بالسهر على خدمة الخليفة داخل القصر (واستكناهم
في خواص أمور الملك والثقة بأمانتهم على المهجة وانتقاهم للتصرف بين يديه
وخدمه بساطه) (18) .
- وقد كان خدام القصر على مراتب باعتبار المهام التى يقومون بها ، فهناك :
الشنشيرية : (وهم الذين يتولون مناولة لطعامه ونساعا ورفعا وغسلا
ومسحاً) (19) .
- القبجية : (وهم حفظة الابواب وحراسها . . . وخدمة سريره الكريم
وانماط جلوسه وسدنة كرسيه) (20) . وتناط بهم أيضا حراسة (الابواب ليلا
وتطوف على مساييف السور المحيط بقصور الخلافة) (21)
- الشواش : (وهم الطائفة التى تتولى ضبط . . . ولها مكان فى المناوبة بين
الطبقات المرتبة للزامة أبواب الخلافة) (22) .
- أما قاعة عرش المنصور ، فيوجد بها سرير الملك (ذو التاج المذهب الفاره
اللامع البروق لشمائها على بعد) (23) .

-
- (15) المصدر السابق .
(16) البناءل . ص 200
(17) البناءل . ص 198 .
(18) البناءل . ص 202
(19) البناءل . ص 202
(20) المصدر السابق
(21) المصدر السابق .
(22) البناءل . ص 178 .
(23) البناءل . ص 202 .

وعندما يخرج المنصور من القصر للذهاب الى المسجد الموجود داخل القسبة الملكية او للتجوال داخل حدائقها ، يحمل المظلة العظيمة قائد فرقة البيك (وهم أهل القالنس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون) (24) ، وتسير عن يمينهم وشمالهم فرقة السلاق (وهم أهل القلانس الطويلة البينة) (25) ، ثم الفرقة المعروفة (بلبردروش وهم أهل اللقايف وهى رماح قصار غليظة العصى مفضاة بالحرير . . . ومرصعة بمسامير بيض) (26) .

أما عند خروج الخليفة الى صلاة الجمعة او العيدين او لحفل رسمى ، فإن العساكر تمتد (أمام موكب العظيم حبلين يتقدم الحبلين لواء من كل واحد منهما عند منتهى الجبل وكل قائد من قواد عساكر النار يقف عند انبعاث جبل جيشه تحت ألويته محفوناً بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل الذين يدعون باكباشيات فاصلاً بذلك بين جيشه وجيش من يردفه من خلفه) (27) .

وقد جرت العادة (أن يتقدم أولاً جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقة . . . ثم يردفهما العسكران العظيمان : عسكر الموالى الملوچى . . . وعسكر الاندلس . . . وترفع على رأس كل واحد . . . الالوية والرايات . . . ثم يتصل بهذين العسكرين الداخلة . . . المؤلفة من الساك والسلاق ولبردروش . . . فاما البيك فهم الذين يلون ركاب أمير المومنين يحف به بعضهم يمينا وشمالا . . . ومنهم صاحب مظلة العظيمة المرفوع على رأسه كالغمامة) (28) .

وأمام الموكب يتقدم (جيش الاصباحية . . . ويرفع اللواء العظيم الابيض الذي هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصوري على رأس أمير المومنين) (29) .

ويضم الموكب الملكى ايضا (الطبل العظيم الذي يسمع دوي صوته على البعد ومن خلفه الطبول الاخرى التى تقرع مع الزامير) (30) .

(24) المصدر السابق .

(25) نفس المصدر .

(26) نفس المصدر .

(27) الناهسل . ص 203 .

(28) الناهسل . ص 203 .

(29) المصدر السابق .

(30) نفس المصدر .

ومن العادات أيضا عند سفر المولى أحمد ، اقامة حفل ديني خاص يحضره (الفقهاء ومشايخ العلم والطلبة من المدينة) وقرئ البخاري سردا في المصحف بين يدي أمير المؤمنين على الرسم المتعارف في ذلك عند الخلفاء رضوان الله عليهم عند ارادة الاسفار) (31) . واثناء الطريق ، يخرج لاستقباله الامراء والولاة الذين يبر الموكب الملكي بأراضيهم (فارتحل ايده الله لتادلا وتلقاه بأطرافها ولده أميرها المولى أبو الحسن في جيش عرمرم من جندها واستاق اليه هدية من العين والجياد والبهال وخيم بحلاته على نظير منها) (32) .

ويجبل أن يصل المنصور الى فاس ، يلتحق بموكبه وفد من علماء القوم وعليتهم لمرافقة الراكب الملكي (وتلقاها وفد أهل فاس من مشايخ العلم والاشراف يوم ارتحاله من حواته واعتسفوا اليه الشقة البعيدة وتجشموا الأمطار المسترسلة . . . فلقاهم بالبر والترحيب) (33) .

أما استقبال الامراء أبناء المنصور لوالدهم المولى أحمد ، فيتم في حفل عظيم ، ومن ذلك استقبال ولى العهد المولى محمد الشيخ لايه في تامسنا (ولما كان يوم وصول ركابه العالى . . فوقف في الاجناد واقبل المولى الامير . . في كتابه . . في أمخ زى وأحسن أبهة . . وانبرت الكتائب تتسرب للسلام على أمير المؤمنين فوجا من بعد فوج . . وتذافع المولى أبو عبد الله في موكبه . . ولما هوى الى الارض ساعيا على اقدمه الطاهرة للثم الركاب العلى الامامى . . وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المؤمنين . . وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى أمكنه من لثم قدمه . . وحتى متطاطا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا في الالوية والمساكر) (34) .

وعن استقبال العامة وجمهور الشعب للمولى أحمد ، فابرز صورة نثبتها في هذا المجال الفرح الذي خامر المغاربة لما علموا بشفاء المنصور من المرض الخطير الذي ألم به (وتسامع الناس بخبر ظهوره فنسلوا اليه من كل حدب . . . فتهافت الناس عليه ايده الله تهافت الفراش وكادوا أن يختطفوه شوقا اليه وشغفا به . . . فازدحموا على رويته وتقبيل بساطه ولثم اطرافه) (31) .

(31) البناءل . ص 66 .
(32) البناءل . ص 98 .
(33) المصدر السابق .
(34) البناءل . ص 60 .
(35) البناءل ص 53 .

وأخيرا لقد كان من عادة المنصور أن يخرج في فصل الربيع الى النزهة في نواحي مراكش (وتلوم شهرين او نحوهما يتقلب في البسيط الممتد من الحضرة لاغمات حتى قضى وطرا من النزهة وتبلى من الراحة) (36) .

2 - أما المجتمع المغربي :

فقد كان يتكون من فئتين متباينتين : سكان المدن وسكان البوادي :

أ - سكان المدن : وقد كانت نسبتهم ضعيفة بسبب قلة عدد المدن ، وهذه المدن قسما :

في القسم الاول : مراكش العاصمة السياسية وفاس العاصمة العلمية والمحمدية بسوس .

وفي القسم الثاني : بقية المدن الاخرى المتطورة .

وقد حفظت لنا بعض المصادر والوثائق المعاصرة معلومات قيمة عن العواصم الرئيسية الثلاث :

فمدينة فاس بها مدينتان : فاس البالي والجديد (المدينة البيضاء) ، وفي هذه الاخيرة توجد القسبة والقصر الملكي ومنازل كبار القوم والمتاجر والديوانة .

وفي فاس البالي توجد العدوتان : عدوة الاندلس وعدوة انقرويين التي تمتاز بالمسجد العظيم الذي به مئات من الاعمدة الرخامية وعدد من الابواب يفضى كل منها الى حى خاص .

وفي مدينة فاس توجد عدة احياء : بعضها للتجارة حيث الخانات الفخمة المزينة بالنوامذ والشرفات وذات الغرف الواسعة والاروقة الطويلة ، وحيث القيساريات الواسعة ذات الشوارع المنظمة التي تصطف حولها عشرات الدكاكين، وقد غطيت لوقاية الزبناء والبضائع المعروضة .

وهناك احياء للسكن ، وقد امتازت دور فاس عامة بالاناقة وجمال المظهر ، وغالبا ما تتكون من طابقين ، ويخترتها جميعا وادي فاس الشهير (37) .

(36) البناءل . ص 221

(37) م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 491

أما اليهود فلهم حى خاص (الملاح) ، حوله سور وليس له الا باب واحد يتناوب على حراسته حراس مغاربة ، وبالقرب منه مقبرة خاصة بسكانه اليهود (38) .

ولما كانت مدينة فاس البالى تمتاز بتمدد مساقط المياه لاختراق وادي فاس المدينة ، فان ذلك قد ساعد على ظهور العديد من المطاحن المائية التى تعد من مميزات هذه المدينة (39) .

وبين الاحياء توجد عدة جسور حجرية لمرور الناس ولعبور العربات والدواب . وما كان يثير انتباه الرحالة فى فاس : العدد العظيم من المساجد والزوايا والكتائب ، الى جانب الحدائق الغناء الجميلة (40) والمستشفيات التى يوجد بها اطباء مهرة وانواع من الادوية لمعالجة المرضى .

أما العاصمة مراكش ، فحسب التقارير العديدة : تقع فى سفوح الجبال المكلفة بالثلوج ، وذلك فى سهل عظيم وبين أشجار النخيل والحدائق الجميلة ، وتنحدر اليا اودية كثيرة يستفاد منها فى سقى المزروعات (41) .

وبمراكش القسبة الملكية التى تعتبر وحدها مدينة مستقلة ، وهى تقع فى جنوبى المدينة ومن أهم محتوياتها : قصر البديع مقر الخليفة المنصور ، وهو يقع فى الزاوية الشمالية الشرقية من القسبة ، وملحقاته العديدة ثم حدائقه الجميلة التى تحيط به شرقا وجنوبا ، علاوة على مسجد القصر الواقع فى الزاوية الشمالية الغربية من القسبة (42) .

وبالقسبة أيضا دار الديوانة : دار كبيرة بها مخازن عظيمة يحل بها التجار مع بضائعهم عند الاستيراد والتصدير ويؤدون بها واجب الجمر ، وقد أوكل المنصور أمر الديوانة الى أشخاص انيطت بهم مهمة السهر على التجار الاجانب وسلامة بضائعهم التجارية (43) .

(38) المصدر السابق .

(39) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 115

(40) المصدر السابق .

(41) مجلة Hesperis العدد (3 - 4) لسنة 1957 . ص 204 .

(42) المصدر السابق .

(43) مجلة تطوان . العدد العاشر . ص 118 .

ومدينة. مراكش تنقسم الى احياء تجارية : تضم عددا كبيرا من الفنادق
الشاهقة المحاطة بالاسوار حيث يضع التجار بضائعهم ، وأخرى للسكن تقيم بها
عناصر السكان : الاندلسيين ، العلوج ، الاتراك والاجانب . بالاضافة الى
الملاح الحى الخاص باليهود . ولا تزال حتى اليوم بعض الاحياء بمراكش تحمل
اسماء ترجع الى عهد المنصور ، مثل حمام الذهبى : ودرب بوشنتوف ودرب
الدماششى . . . (44) .

وقد لاحظ الاجانب المعاصرون الاختلاف الواضح بين الاحياء الخاصة بكبار
القوم والاغنياء ، عن غيرها من الاحياء الشعبية :

فالاولى امتازت بشوارع منظمة . حولها دور جميلة شاهقة مزينة بالشبابيك
الزجاجية والمزخرفة بأنواع القاشانى والجيص والزليج .

أما الاحياء الشعبية فضيقة تكثر بها الاوحال فى الشتاء . ومنازلها مبنية من
التراب والجير ، وهى صغيرة ومنخفضة .

ومما انصفت به العاصمة ايضا وجود الحدائق العامة . وحدائق الحيوانات ،
والمستشفيات والمساجد التى لا تحصى ودكاكين لبيع الادوية . واعتمادا على مادونه
العلامة احمد بابا السودانى المعاصر عن مراكش (رأيت اسباب السعادة بها
متيسرة وازمة الامانى فيها مبذولة غير متعسرة) (45) .

اما مدينة المحمدية (تارودانت) فهى (من مشيدات مولانا الامام المهدي
رضي الله عنه قاعدة بلاد سوس وأم القرى والامصار وملاك باب السودان ذات
القصور المشيدة والواوين الموطدة والرباط المرفوفة والانهار المطردة والمساجد
المزخرفة والمآذن المقرطة بلالىء النجوم المشنفة الى معاصر السكر الجاثمة حوالىها
جنوم اهرام مصر . . . اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما راسه استحياء وحسبما
شهادة العيان) (46) .

ب - وأما سكان البادية :

فيكونون الاغلبية العظمى فى المجتمع المغربى ، لانتشار الحياة القبلية وبسبب

44) دوغردان : مراكش . ص 267

45) احمد بابا السودانى : ذيل الابتهاج . ص 1

46) الناهسل . ص 254 .

اعتماد البلاد على الزراعة وتربية الماشية كمورد أساسى للحياة . ولقد اهتم المنصور بالبادية اهتماما متزايدا ظهر فى الحرص على نشر الامن وتوزيع الاراضى الزراعية على القبائل لزراعتها ثم اجبار بعض القبائل على سكنى الارض وفلاحتها بدلا من الاستمرار فى حياة الترحال . فازدهرت الحياة الزراعية وكثُر العمران بالبادية بشكل قرى ومداشير لانتشار البيوت الحجرية . ومن اهم العوامل التى ساعدت على تطوير العمران فى البادية ظهور انواع ثلاثة من القرى :

1 — القرية الزراعية : التى اقامها المنصور فى البادية (فيسكنها اهل البادية واجرى لهم على ذلك من اقطاع الارض ما يكفيهم ثوبا على سكتانهم هناك) (50)
وقد ازدهرت الزراعة لذلك واتسع العمران .

2 — القرية التجارية : فقد اوجد المنصور لسكان البادية المقيمين مجسالات اقتصادية هامة تدر عليها ارباحا وتعود عليهم بأعظم الفوائد ، اذ (امرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم) (51) .

3 — القرية الصناعية : للاهتمام المتزايد بزراعة قصب السكر وما تطلب ذلك من اقامة للعديد من معاصر السكر ومعامله التى انتشر حولها العمران (لكثرة ما ضمته من العملة وحشرفته من الخلق ولا تسئل عن هولها ولغظ الاصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة احوالها على ضخامة الهلك وسعة ذرع الدولة) (52) .

وهكذا انتعشت البادية المغربية وتطور عمرانها وازدادت مظاهر النعم والترف بها (طاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات) (53) ، وقد لمس ذلك الاجانب ودونوه فى مختلف تقاريرهم كما اشادوا بالامن والطمأنينة التى كانت تعم دولة المنصور .

وهناك مظهر آخر فى البادية المغربية : القبائل الرحل التى كانت تنتقل الى

(50) المنتقى المنصور . ابن العاصم . ص 95 .

(51) المصدر السابق .

(52) البناهل . ص 210 .

(53) البناهل ص 40 .

حيث الكلاً والعشب والمياه والتي كانت تستعمل الخيم وتهتم بالماشية وتربيتها ، وحسب انطباعات بعض الرحالة الاوربيين فان سحب الخيام السوداء كانت تغطي مساحات واسعة من السهول الخصبة ، وبان قطعان الغنم والماعز كانت تنتشر في الحقول والمراعى (54) .

ترجع التباين المغربية الى اصول مختلفة عربية وبربرية ، نال بعضها الحظوة لدى الدولة بأن (الحثم بديوانه فتميزوا بشعار الجندي ولبسوا شارتها والحق رؤسهم بطبقات القواد واقطعوا ما شاءوا من البلاد) (55) بما كان يعرف (بعرب الدولة) (56) في حين ان البعض الآخر لكثرة الاضطرابات والتمرد تعرض للمحن وتوالى النكبات بأن (انتزع خيلهم وارجلهم كائنة وضرب عليهم الخراج ونظمهم في سلك الرعايا الغارمة جزاء بما اتوه من شنيع اعدوثة في الفدر) (57) .

فهل بالامكان وضع تصنيف عام لطبقات المجتمع المغربى ؟ وما مميزات كل منها : ؟

1 - في قمة الهرم الاجتماعى نجد البلاط الملكى وامنراد الاسرة السعدية الحاكمة ، وقد كان المنصور يولى البعض منهم مهام سياسية او يقطعهم ولايات خاصة مع الاحتفاظ بهم في بلاطه وبين يديه (ثم عقد على مكناسة لداود بن أخيه المولى الامير عبد المؤمن وجعل امرها الى نظرة ورتب بها من انتقاه للفيابة عنه فيها من الخدام وصحبه هو لمراكش وأسكنه بها بازائه) (58) .

2 - ثم طبقة كبار القوم من الحكام السياسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يحيون حياة خاصة للانعامات والهبات المتوالية التى يغدتها المنصور عليهم في مختلف المناسبات والظروف (ومن كرمه الذى كاد أن يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التى يصل بها ايده الله خاصته وأهل بساطه) (59) ثم للاقطاعات التى كانت تقدمها لهم الدولة ، مما جعلهم يحيون حياة الترف

(54) م. ص. ت. م. - إنجلترا - ج 2 - ص 437

(55) البناء - ص 191 .

(56) نفس المصدر .

(57) المصدر السابق .

(58) البناء - ص 56 .

(59) البناء - ص 229

(هذا وأيامه الهنية على جناب مريح وحمى منيع ورياض أريضة ودنيا عريضة) (60) . ويدخل هنا في هذه الطبقة رؤساء القبائل ومشايخها من عرب الدولة (والحق رؤساءهم بطبقات القواد واطعموا ما شاء ومن البلاد فبهت بذلك احوالهم وكانت لهم به المزية الظاهرة على سائر اقبالهم) (61) .

3 — والطبقة الثالثة من المجتمع كانت تتكون من (شرفاء وقضاة وفتهاء وكتاب وشعراء . . . واجناد ورؤساء وأشياخ نبهاء وعمال) (62) .

وتلى هذه الطبقة : جماعة التجار المغاربة ممن كانوا يكونون نـوـاة الطبقة البورجوازية الناشئة وقد أخذت هذه الطبقة في الظهور بفضل ازدهار أعمال التجارة الداخلية والخارجية ولتشجيع المنصور المتواصل ، فنكدست الاموال بيدها (حتى صار بذلك في عداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية) (63) .

ويرجع الى الطبقة البورجوازية المغربية بعض الاثر في أعمال الفتوحات التي قام بها المنصور في الصحراء وبلاد السودان ، وفي اقرار دعائم الامن والاستقرار بكل انحاء البلاد بل وفي تأسيس مراكز تجارية ومحطات للتجار وقوافلهم (وأمرهم ببيع الشعير والطعام . . . مما يحتاج اليه المسافرون ودوابهم . . . وان باتت عندهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون أمتعتهم وان ضاع شيء منها عندهم ليلا ضمنوه لربهم فيما بينهم . . . فنجد المسافر في حالة ذهابه وايابه كأنه في بيته وبين اهله) (64) . وقد أيدت طبقة التجار المولى أحمد المنصور في أعمال الفتوحات ونسى بلاد السودان بوجه خاص ورافق عدد منهم القوات الفاتحة كأداء ومرشدين ، وبالمقابل أحدث المنصور اصلاحات داخلية لصالح هذه الطبقة مثل حذف الحواجز الجمركية بين المدن ومختلف الاقاليم .

4 — اما قاعدة الهرم الاجتماعى فكانت تضم فئات العامة من أرباب الحرف وطبقات الجند وجيهور الشعب في المدن والبوادي وفي السهول والجبال . وقبل أن نتعرض الى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد يهمننا بوجه

(60) البناء — ص 28

(61) البناء — ص 192

(62) البناء — ص 237 .

(63) البناء — ص 229

(64) ابن القاضى المنتقى المتصور ص 95 .

خاص أن نتعرف على وضعية الجماعات الغير المسلمة وأنماط معيشتها داخل
المجتمع المغربي ، فهناك :

اليهود :

وقد هاجر عدد عظيم منهم من الاندلس الى المغرب بعد سقوط الاندلس ،
ونتيجة أعمال الاضطهاد والتعسف التي قام بها الملوك الكاثوليك في اسبانيا
والبرتغال . ولجل حماية اليهود كذميين بنت لهم الدولة احياء خاصة حصينة
للاقامة بها (الملاح) لا تبعد كثيرا عن مقر الحاكم . وقد كانوا يمارسون بكل
حرية طقوسهم الدينية كما كانت لهم مقابر خاصة . ولما كان هؤلاء على جانب
هام من الثقافة ومعرفة باللغات الاجنبية ولهم خبرات واسعة في أعمال التجارة
فقد اصبحوا يقومون بدور الوساطة في الاعمال التجارية والسياسية بين المغاربة
والاجانب ، وفي عمليات افتكك الاسرى . واعتمادا على تقرير بعثه الانجليزي
(George Tomson) من مراكش سنة 1600 م فان المنصور كان له مستشار
خاص من اليهود يعتمد عليه كثيرا ويستشيره في بعض القضايا وهو ابراهام بن
واش (65) .

وعن نشاط اليهود التجاري تؤكد الوثائق المعاصرة بان ادارة معامل السكر
التي اقامتها الدولة المغربية كانت تدار في الغالب من قبل اليهود (وقد تطعت معاهدة
الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة حسب مبلغ سنوي) (66) ، كما كانوا
يتولون شؤون املاك الامراء وكبار القوم . وهذه الوضعية بمجموعها فتحت امام
اليهود مجالات واسعة للاتصال بالطبقة الحاكمة وبالاجانب على مختلف المستويات
والاجناس وساعدتهم على تكوين ثروات ضخمة استغلوها في نواح عديدة من
النشاط الاقتصادي . ولعل احوالهم هذه تنسر لنا أسباب الحقد والغيرة التي
طالبها اعرب عنها الاجانب من دبلوماسيين وتجار وغيرهم . اذ لم يتمكن هؤلاء الاجانب
من الصمود طويلا في وجه المنافسة اليهودية وحتى التجار الانكليز الذين أسسوا
(الشركة المغربية) سنة 1585 م سرعان ما فشلت تجارتهم وأعلنت شركتهم
الافلاس سنة 1598 للمضاربة اليهودية بوجه خاص . (67) .

65 م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 230

66 النماذج - ص 210

67 م. ص. ت. م. - إنجلترا - ج 2 - ص 476

الاجانب المسيحيون :

لقد اختلفت وضعية هؤلاء في المغرب اذ كان منهم السفراء والدبلوماسيون والتجار والرحالة وكان منهم رجال الدين الرهبان والاسرى . واكثر ما يهمننا في هذا المجال التعرف على موقف الطبقات العامة المغربية من هؤلاء الاجانب المسيحيين والذين كانوا يحتكون بهم في حياتهم اليومية لسبب من الاسباب . ومن بين الوثائق التي نتحدث عن ذلك رسالة لرحالة انجليزي زار شمالي فريقية مع جماعة من التجار الاجانب : فقد ذكر بان المعاملة الحسنة التي لقيها هو وصحبه من الاهالي المغربية لم يحظوا بمثيل لها في الباشويات التركية المجاورة (68) .

وهؤلاء الاجانب على مختلف مستوياتهم غالبا ما كانوا يقيمون بالملاح ، في حين ان الاسرى المسيحيين كان لهم حى خاص به كنيسة للصلاة ومقبرة لدفن موتاهم . وقد اشاد بعض هؤلاء الاسرى بالروابط القوية التي كانت لليهود معهم ، وكيف ان اليهود كانوا يعملون على تحريرهم ونقل الاموال لافتكاكهم كاليهوديين ابراهيم جبير وبن حلیم اللذين نقلوا اموالا من طنجة وايطاليا الى مراكش حيث كانت الاغلبية العظمى من الاسرى .

وقد ساهم في عمليات الامتلاك ايضا رجال الدين الرهبان والاباء الفرنسيين منهم بوجه خاص . الذين كانت لهم مطلق الحريات في القيام بشعائر الديانة في الكنيسة مما كان يخفف بعض الاسى والالام عن الاسرى ويبعث في نفوسهم الامــــل (70) .

اما الاعمال التي كان الاسرى المسيحيون يقومون بها فعدة كل حسب اختصاصه وحرفته ، وكانوا يسخرون ايضا في اعمال البناء والعمران وفي المصانع والمعامل ، ومن مهامهم حمل الشموع ليلة عيد المولد النبوي الكريم (والاملاك المؤلفة من الاخشاب لحمل جذوعها يحملها اسارى الدولة) (71) .

العادات والتقاليد :

اهم ميزة تطبع المجتمع المغربي : التمسك بالاسلام والتحمس له خاصة وان

(68) المصدر السابق

(70) المصدر السابق .

(71) الناموسل . ص 236 .

حركات الجهاد التي انطلقت مع الغزو الاجنبى للشواطىء المغربية قد توجت بالفوز في معركة وادي المخازن :

وعن العادات والتقاليد التي عرفها المجتمع في عهد الدولة السعدية :

لبس البياض (ثم يقتعد اريكة تبتنه وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة) (72) واستعمال الطيب (ولم يزل في خلال دولة الانشاد يخلف الظرفاء من الخدام على الناس لاخضال الملابس بماء النعيم المصعد من نثير الورد والازهار الارجية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والاس سكباً عدتما في الحجر والارذان) (73) والبخور (مثلت امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكـل) (74) .

ثم من العادات استعمال الزيت والشموع للاضاء والتنوير (واصطفت امام القبة جذوع الشموع المبارية للاذان والنخيل) (75) .

والاعتناء بالطعام والشراب (ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من ابواب القصور الكريمة ويخص بالجفان والاخونة والصحون والطيافير الرحيبة الاقطار جامعة للاحم المسارح وانواع الطير ودواجن البيادن . . . فلا تسئل عن التفنن في المطابخ والتنويع في الماكل والارضاخ في النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاح بانسكاب الحلوي المتنوعة والمربيات المتفننة) (76) .

ومما عرف به المغاربة الاعتناء بالحيوانات والسهر على تربية الخيول (واوصيكم . . . ان تتفقدوا فرسنا الاحمر . . . ولا تتركهم يعطونه القصيل ليلا يكثر لحمه . . . بل انظر له من يركبه كل يوم) (77) . وقد جرت .نعادة ايام المنصور ان تقذف المدافع طلقات خاصة في العيدين وعند ورود البشارة (واذا استهلكت رعوها في العيدين عند العود من المصلى أو لورود بشارة عظمى . . .) (78)

(72) المناهل . ص 236 .

(73) المناهل . ص 236 .

(74) المناهل . ص 237 .

(75) المناهل . ص 237 .

(76) المناهل . ص 237 .

(77) الامرائى : نزهة الحادى ص 162

(78) المناهل . ص 264 .

وان تقام الحفلات في المناسبات الخاصة (فأمر بالفرحانات غدوة وعشيا ثلاثة ايام
نرحا) (79) ويقتبل المنصور تهانيء كبار القوم (و آتاه . . . القواد . . . والعلماء
. والامناء . . . يهنئوننه) (80)

ومن العادات في عصر المنصور اقامة الاستعراضات العامة في الشوارع
حيث يجتمع (عالم من النظارة في سباطين بحا في الطريق . . . قد جللوا جنبتي
الطريق وركبوا الاسوار والاسطاح وبرزت ربات الحجال من اعلى المنازه
والصروح) (81) .

وفي المناسبات تقام حفلات خاصة كما هو الحال عند التوجه الى بيت الله
الحرام لاداء مناسك الحج (82) وخلال شهر رمضان (83) . وفي يوم عاشوراء
يقيم المنصور حفلا (لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة واحوازاها وذوي
الحاجة من أهلها يدخل بذلك ايده الله السرور على اولاد المؤمنين . . . وتجاوبت
الالحن واصطحبت اصوات المزاهر . . . وتقدم الصبية افواج افواجا فكل من
تناوله الختان اعطيت له اذرع من الكتان وحصنة من الدراهم وسهم من
الحمم) (84) .

اما الاحتفال بعيد المولد النبوي الكريم فيمتاز عن غيره من المناسبات ، اذ
توجه (الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . .
نيهوون للدعوة من الاماكن النائية) (85) ويقام ليلة العيد استعراض عام
للشموع (حتى اذا كان ليلة عيد الميلاد الكريم . . . وحضر وقت زفاف العذارى
من رياض الشموع الى الابواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية . . . انتظم
عالم من النظارة سباطين بحا في الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذارى
. . . فارتفعت اصوات الآلة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة
على النبي الكريم) (86) .

(79) تاريخ الدولة السعدية . المؤرخ المجهول . ص 67 .

(80) المصدر السابق .

(81) إيناهل . ص 130 .

(82) إيناهل . ص 188 .

(83) إيناهل . ص 172 .

(84) إيناهل . ص 252 .

(85) إيناهل . ص 237 .

(86) المصدر نفسه .

أما في يوم العيد (فاذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المؤمنين إياه فيصلى بالناس ثم يقتعد أريكة قبته . . . وتسائل الناس من البلد على طبقاتهم . . . تقدم أهل الذكر والانشاد . . . ثم حضرت دولة انشاد الشعراء . . . ولم يزل في خلال دولة الانشاد الظرفاء من الخدام على الناس لاختلال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الارضاح بانسكاب الحلاوي المتنوعة . . . ثم يختم بالشكر والدعاء . . .) (87)

ومن العادات الحميدة التي تميز بها عهد المولى أحمد المنصور ، وزادت من تعظيم الطبقات الشعبية ومحبتها له ، ما كان يخرج من (صدقات فاشية واسعة عظيمة الفائدة يجريها على أيدي ثقات من رجاله فمنها الاموال التي يجريها ختم كل رمضان ويعم بها ذوي الحاجات . . . وما يجرى على يده أيده الله في سائر الاوقات عن أنواع البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من مال في سبيل التوسعية على الفقراء يقسمه وطعام في أوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مفاليس تقضى ورقاب أرقاء تفك وأساري تفتدي . . .) (88) .

ومن جهة أخرى فقد كان المنصور ينعم على البعض من كبار القوم والشراء والوجهاء بظواهر التوقير والاحترام التي تخول لهم امتيازات اجتماعية واقتصادية خاصة ابرزها : اعفائهم من جميع الضرائب والتكاليف المفروضة على (أصولهم ببلادهم . . . وحوانيت وأرحية وامران ودور ومعاصر للزيت وجنات وعيون وسواقي . . . كما يحاشون من جميع الوظائف المخزنية والكلف السلطانية ومن الطواف والحركات والسخر البدنية وسائر الاشغال العملية وملزم الابواب والرحاب . . . ومن ملازم التجارة . . . ويوكلون في تفريق عشر معشراهم من الصوب بعلا وسقيا وخرص مخرصاتهم من الغلل والثمار على الفقراء وذوي الحاجة الى المعروف من أمانتهم والمالوف من ديانتهم . . . بحيث لا يطالبون عن ذلك ولو بمجرد الاشراف على ما لديهم والاطلاع على ما يفيء الله عليهم) (89) .

ولما كان زكب الحجاج المغاربة يتوجه سنويا الى الحجاز لاداء مناسك الحج ، فقد جرت العادة بتسمية رئيس الوفد (يستقر هذا الامر الكريم . . . بيد الشيخ

(87) المصدر نفسه

(88) البناء ص 252

(89) مجموع مخطوط بدار الوثائق بالرباط ، ك 278 ، ص 42 .

الاجل . . فقلده اداه الله امره . . شياخة الركب الحجازي يتصر على نظره المستقيم
أموره) (90) وتكليفه بحمل رسالة خاصة الى شريف مكة والمدينة (91) .

ويدخل في هذا المجال قيام البعض من الموسرين المغاربة بتحبيس بعض
ممتلكاتهم على أوجه البر والاحسان (وتنافس الاشراف والاناضل في اقتناء
الاماكن السنية وانشاء المساجد الدينية . . فكان ممن حاز فضيلة السبق . . مهلوك
المقام العلى . . انشا مسجده المبارك السعيد . . بالحومة المدعوة . . بحضرة
مراكش . . وجعل من تحبيسه عليه جميع نصف العين الذي كان ملكه خارج باب . .
من ابواب مراكش . . مع ما احتوى عليه من الغرس والاشجار . . جعل ذلك كله
حسا مؤيدا ووقفا مخلدا على مسجده المذكور يصرف خراجه في مصالحه من مرتب
اباه ومؤذنيه والقراء به والقيم بمصالحه . . وما يحتاج لاصلاحه . . وعلى ان يكون
نظر ذلك كله . . موكلا الى نظر . . قاضى القضاة بالحضرة) (92)

على أن هناك عادات اجتماعية ظهرت لدى بعض الفئات من طبقات العامة
بسبب انتشار الجهل الذي فسدت معه الاخلاق وساءت بالتالى احوال الناس
الدينية والدنيوية ، من ذلك مثلا : انتشار اعمال المجون والتدجيل والاقبال على
الوشام ثم التعامل بالربا (93) . . . ولطالما استنكر المصلحون والدعاة هذه
العادات واستتجوها وحملوا في الوقت نفسه الحكام والعلماء مسؤولية ما عليه
طبقات العامة وحثوهم على مقاومتها والضرب على ايدي القائمين بها .

فهل كان لنداءات الوعظ والارشاد والترغيب من اثر في الرجوع الى الطريق

(90) المصدر السابق . ص 46 .

(91) مناهل الصفا : ص 187 .

(92) مجبوع مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 278 . ص 91 .

(93) جاء في الفية الامام الهبطى وهو معاصر : (مخطوط في ملك الاستاذ محمد المنونى)

قالوا تمالوا نحو هذا الصالح
بل كلهم انوه حيث كان
من كل حالة تعين الاتجاس
كرفصهم اذن مع النسوان
والشطح والغنا اذن جهارا
فابن ائت من حديث الوشام
على فساد العقل والايان
لديهم في جملة الاسواق
والتزموا الغلابة التزاما
يدعو الى الصلاة والتوحيد
يدعو الى الهدى بصدق النية
والظلم والجور على العباد

ومن اتاهم بالخال الواضح
ما فيهم من كذب الكهان
للو رايت ما لهم في الاعراس
على فساد الدين والايان
قد جوزوا الكسوف والزاهرا
وان دهك ما سمعت من كلام
علامة دلست بلا توان
اباحت الربا على الاطلاق
قد جهلوا الحلال والحرام
او من لنا بعالم رشيد
او من لنا بسيد الصويبية
فكان ما ترى من الفساد

المستقيم (أهل . . هذا وأنه منذ استرعانا الله النظر في أموركم . . كلما لمخاضا
صدعا في جانبكم من أمر دينكم أو دنياكم تلافينا جبره أو تراءى لنا صنم بدعة
بادرنا بمعاول السنة كسره أو ميلا عن الصراط المستقيم أخذنا بنواصيركم، السى
محجته . . . أو اهمالا لبعض الشرائع ندبناكم اليها ثم حملناكم طوعا أو كرها عليها
حرصا على الامة ان لا تضل ولا تشتت وعلى معالم الدين الاتبلى) (94) .

ولا يفوتنا في مجال الدراسة عن الاحوال الاجتماعية في عهد السعديين ان
نشير الى ما كان يصيب البلاد والعباد بين الاونة والاخرى من اوبئة وأنواع
الطاعون ، ومهما كانت هناك من اسباب لهذه النكبات ، فان من أهمها : الحروب
الداخلية وما تسببت فيه من قتل لآلاف الضحايا وخاصة ما وقع منها في الربع
الاخير من القرن السادس عشر حيث بلغ معدلها حربا واحدة كل ثلاث سنوات
تقريبا . ومن أشد الحروب الداخلية : ثورة الناصر التي دامت سنة كاملة (95 -
1596) والتي عم البلاد أثرها طاعون خطير (ولما وقع هذا الطاعون بالمغرب
سنة خمس الى سنة ست عشرة وألف . . كان أول ما وقع بالحواضر . . واما أهل
مراكش وتارودانت فتفرقتوا في البادية والجبال فكان أكثر وقوعه بهم وانقرض جل
أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين . . . وقد شاهدنا من ذلك
ما الله أعلم به) (95) .

ونتيجة انتشار الطاعون اضطربت الاوضاع الاجتماعية بشكل خطير ومخيد
(ولما تتابع الوباء على مدينة تارودانت من عام ستة بعد ألف الى ست عشرة
تفرق الناس منها وخلت جوامعها وأسواقها وتعطلت مرافقها الدينية والدينيوية خرجت
لبلدنا فائجة تمنتث وطال بها مكثى) (26) .

وقد بذلت حكومة المولى أحمد المنصور جهودا متواصلة لمواجهة الداء :

1 — باتخاذ كل وسائل الوقاية .

2 — باستعمال الادوية الناجمة وقد نشطت لذلك ابحاث الاطباء ومهرة الصيدلة

94) عبد الله كيون : رسائل سعية . ص 262 .

95) عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1420) . ص 31

96) المصدر السابق . ص 164 .

3 - استدعاء أطباء أجنبية .

4 - امداد الجهات المتضررة بكل المساعدات (97) .

ولعل ابلغ وصف للمضاعفات الخطيرة التي أحدثها انتشار الطاعون في المغرب ، ما جاء في مخطوط (الفوائد الجمة) للتامرتي وهو معاصر للاحداث : (ولها دخلت الحاضرة (تارودانت) فرايت مجالس الكبار وملاعب الصفار خاوية كساها الايحاش . . . ورايت ملعب صبية حومتنا يقبله الجامع الكبير بها فاقد انسه وملحق عبرة يومه بعبرة امسه وكان اكثر ما وقع الوباء في الشباب . . . فخنقتني الديموع . . .) (98) .

العمران في عهد المنصور :

(هم الملوك اذا ارادوا ذكرها فنالسن الشعراء والبنيان) (99) .

اول ما ينصرف اليه الذهن عند محاولة التعرف على مآثر المنصور العمرانية : (قصر البديع) المدييم المثال : (ايروم اللسان وصفا لشيء ما له في الدنيا مثال وشبهه) (100) .

فقد اختار المولى احمد الزاوية الشمالية - الشرقية من قصبة مراكش التي كانت تغطيها الحدائق منذ أيام الموحدين ، لبناء قصر البديع ، وشرع في البناء خلال شهر شوال من عام 986 هـ اي في الشهر الخامس لتوليته ، واستمر العمل (الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخلها فترة) (101) . وسبب بنائه (اني اذا نظرت الى اثار سلفنا الكريم اجد آثار الموحدين . . وبنى مرين . . وافقت لاهل النبوة ان يكون الفضل والشفوف لآثار من دونهم من الدول على آثارهم فلم ارض الا بما يعنى على آثار الدولتين) (102) .

وقبل أن يشرع في البناء (حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى

97 الامراني : نزهة الحادي . ص 156 .
98 التامرتي : الفوائد الجمة . ص 196 .
99 البناهل . ص 252
100 البناهل . ص 253
101 البناهل . ص 254
102 البناهل . ص 253 .

من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكمة وجهابذة البناء واولى المعرفة والكناية في التنميق والتشييد ومن سائر الفعلة واساري الدولة خلق عظيم (103) والمولى احمد المنصور هو الذي اعطى القصر الجديد اسم البديع (لاحتوائه على كل نوع من انواع البدائع وغرائب العجائب) (104) .

كان مدخل قصر البديع يتسم بكل مظاهر الروعة والعظمة اذ (يشرع اليه من الايوان في مدخل عظيم عريض المسلك تسافر فيه الخطى وتكل القوى بعيد الشقة يسبح منه العابر في بحر المديد الطويل لا تحصى لياته وتعاريجه ، والمدخل المفضى من الباب الاتصى لهذا القصر الكريم . . . عنوان المحاسن وترجمان العجائب . . . ويسحر بمحاسنه العيون والالباب) (105) .

و اول ما يواجه الزائر لهذا القصر (الدار الكبرى مثنى الامام نفسه . . . فهناك يخرس اللسان وتحار الانهان ويملك الدهشة الجنان) (106) وهذه الدار (بديعة الشكل متناسبة الاوضاع متقابلة المحاريب والتماثيل تزخر من بركها الخمس بحار طابية العباب قد مثلت في رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور الادواح المفومة ويخترق صحنها الفسيح لها رجاء من هذه البرك البركة العظيمة الرموتة الارحاء بنجوم الفواتع الطافية من اضطراب احشائها . . . وعلى ضفة هذه البركة سباطان حافلان من ادواح النارج الباسق الانفان . . . بمماشى الزليج المنمنم الواشى) (107) .

وتضم هذه الدار عشرين قبة (وتنتهى قباب الدار الى عشرين قبة) (108) الا ان الاربعة المتقابلة منها هي اعظمها :

1 — في الناحية الشرقية : قبة الزجاجيات التى (تختص بسقف الزجاج الملون . . . وقد تبعد مسقفها الى سبع قباب تفننت فيها الصنائع المقربسة الخشبية والمسطحة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريشا . . . وترهوا هذه

(103) البناءل . ص 254

(104) البناءل . ص 254

(105) نفس المصدر .

(106) نفس المصدر .

(107) البناءل . ص 254

(108) المصدر نفسه

القبة بيهوها المتبرج الزينة البديع النظرة الى المشتهى التروض المنظوم
بالبديع شرقا) (109) .

2 — في الناحية الغربية : القبة الخمسينية التى هى (انهودج الكمال وعنوان
سعة الهمم مثلت بين القباب مئول عقيلة القصر المتربعة على كرسى الجمال
وضخامة الجلال أبرزها الاتقان وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووصفا وتأنقا
وتقنا وزخرفا . . . وتبرز هذه القبة بسقفها البالغ أقصى مبالغ الجفوة والفضامة
يملك الدهش الناظر اليه . . حتى عام فى بحر من الجص . . وتماجنت النقوش
وتفتنت الصنائع . . وتحرفنا وكتابة . . ويتصل بشط هذا البحر من اسفل
نطاق المرمر الفضى . . مدبجا بالشعر فى وصف البناء واضح الكتابة بمرمر
سيحى اللون قد بين فيه الخط الابيض من الخط الاسود وساح تحته الزليج
البراق الملون . . ويشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينيه وتماثيل
مذهبة ومفضضة ما بين اسود فاعرة الافواه تقذف بأغصان اللجين اشكالا
. . وبهو هذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويها وزخرفا
وابوابها المقرنسة الموهة ومضاربيها الضخمة تذكر سد ياجوج جفوة وعظما
. . مسيل الوادي المتدافع يغور فى الارض من تحتها ومعبر على جسر
من المرمر متعدد القسى تكتننها من عن يمينها وشمالها بركتان عظيمتان قام
جنافيهما سباطان من ادواح النارنج المتفء الظلال) (110) .

ومما تمتاز به القبتان : قبة الزجاجيات والقبة الخمسينية (تيجان متلعة
الجيد ضخام العمائم المعقامة اكوار نحاسية تراكب الذهب والابريز على
سطوحها فيكاد سنا برقه يذهب بالابصار) (111) .

3 — وفى الشمال : قبة النصر (الآية المحكمة والمثل المضروب فى مصانع الارض
جفاء ورحبا وزخرفا وتمشأ وتمويها وصيفا لا تتناهى أوضاعها وأغراضها من
محاريب وتماثيل ومقاصر وخزائن ومساجد ومخازن ومغابن ومناقبس . . .
أبرت بسقف يهوها المعتام من منحوت العاج والابنوس وبسقفها الضخم . . .

(109) المصدر نفسه .

(110) البناءل ص 256 .

(111) البناءل . ص 256 .

بالصنائع المقربسة التي تحار فيها . . . وفي زليجها المنظوم الازر بالفرش
تحرار الازهران (112) .

4 — أما في الجنوب فتوجد قبة التيجان (ذات الإبهاء الرحبة الفنان في طلق
.. وتتميز هذه بشعار شنف الخشب الذي عقد سماواتها منه بالصنائع
المقربسة .. الى محاريب ومائيل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنيق
رافلة في حل الانتان (113) .

وعن حدائق هذه الدار التي تتوسط القباب الاربعة ، فقد غرست بها (الاشجار
ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الغصون المدد وغلائلها الخضرة وزهرها الغض
وشمارها الدانية القطاف قد افترشت مماشى حدائقها القباب المتخفضة عن الدار
وأرض القبو الهائل الواصل بين أجزاء الدار بالزليج .. ترقص الفوارات المرمرية
بالمياه السلسالة بحيث يرى المنحدر إليها دنيا من تحت الأرض قد توارت
محاسنها (114) .

أما عن الفرش ومختلف التحف التي احتواها البديع ، فقد (مهدت فيه
فرش الوان الحرير ونظرت فيه المراتب التي لم ينظر مثلها في بيت وصدفت فوقها
النمارق .. وتدللت الاستار ..) (115)

وحول البديع توجد حدائق ورياض غناء أهمها : المشتى (الروض المنظوم
بالبديع شرقا) (116) .

وبستان النهر (الروض الأخذ ما بين لابتى سور القصبه قبله . . . النهر الذي
أخذ أيدى الله في أجرائه الى تصوره الشريفة .. عريض المسلك . . . يشق ما بين
أدواح هذا الروض المفوف صفوفا بشجر النارنج والاس متدافع السيل . . . حتى
ينتهى الى قرابة من القبر المعد له تحت القبة الخضراء بروض المجاز ومركب
السفيين (117) .

(112) المناهل . ص 256

(113) المناهل . ص 257 .

(114) المناهل . ص 257 .

(115) النفعة المسكية . التامجروتى . ص 158

(116) المناهل . ص 257 .

(117) المناهل . ص 257 .

أما المسرة فهو الروض (المنتظم ببستان النهر) (118) وقد وضع على شكل يثير الدهشة (رأيت العجب العجاب . . . وعدد ما اشتملت عليه من اشجار النارنج ستة عشر الفا فاذا كان هذا العدد نارنجا فما بالك بغيره ، وبها صهرىج عظيم لا نظير له عظما وعليه مبانى مؤنقة) (119) .

وتحيط بالدار الاولى ديار عديدة ، من أهمها تلك التى توجد بشرقى البديع (واذا بلغت الديار التى يفضى اليها من البديع من على يمين الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لابوابها حتى تنتهى الى اقصاها من الجانب الشرقى رأيت برنامج المحاسن فى انموذج الكمال . . . فانتظمت دوائرها المترتبة بعضها على بعض فى الهواء) (120) ، وقد كانت هذه الديار الشرقية مخصصة لسكنى المنصور وبها نساؤه وأهل بيته (فأصبحت هذه الديار مكلمة الاراء متممة المآرب قد ختم عليها التحصين والمنعة وأرعى عليها الاحتجاب سدوله بحيث لا يخلص اليها الطيف) (121)

ومن مبانى المنصور فى هذه الناحية (المصرية الشامخة الانف الغربية الشكل المستوية على عمد الرمر الشامخ فيها بحكم الجص حتى فى الشايك البديعة . . . ذات الغرف الاثيرة والمجالس الكريمة . . . بالاطلال على بستان النهر الذى تسافر معه العيين الى رياض وبساتين الملك التى تسرج خلالها القصور المنيفة كالنجوم) (22) و (الديار المنظومة . . . فى حلل الزين اللائذة بالمعقلة الكريمة من قبة النصر التى سمت عليها ذبول عزها وانامتها من خلفها تحت خفارة السور الاعظم الطامح الغرف المحيط بأقطار الدار) (123) .

واخيرا هناك الحمام الذى امتازت به مبانى قصر البديع بمراكش (حمام هذا القصر العظيم الذى تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسن الاختبار . . . ذو الابواب الاربعة التى يفضى منها الى قصر مولانا . . . ثم الى حى المعقلة الكريمة قبة التيجان ثم الى باب البديع ثم الى باب القصر . . .) (124)

(118) البناهل . ص 257

(119) القرى : روضة الاس . ص 25 .

(120) البناهل . ص 254

(121) البناهل . ص 254

(122) البناهل . ص 254

(123) البناهل . ص 254

(124) البناهل . ص 254

ولقد امتازت منشآت المولى أحمد بهراكش وانفردت بعدة صفات :

1 — استعمال الرخام على نطاق واسع جدا (فلقد دارت قورا الدار الكبرى من قصوره الشريفة خمسمائة عمود مرمرية مائلة كالجبال الرواسى ضخامة وجفاء وتسموا القباب وبراطيلها على مائة منها . . . ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط بأقوار الدار ما بين المثلثات الاشكال والمفردات النابذة تحت السواري الازرية لصق الجدار الى اعمدة ضخمة الاجرام زمردية الالوان . . . واما ما تضمنت الحمامات والمساجد والمجالس والقباب والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى . . من بيضائها وصفرائها وخضرائها . . رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها) (125) .

2 — مد اثنايبي المياه الباردة والحارة الى جميع منشآت القصر (وتمتاز المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم ببنيتها شرقا ذى البركة العظيمة المفروغة للوقود من تحتها . . . تتنابها القواديس الفاغرة الامواه اليها من كل جانب فتملاً حواصلها وتساخر بها لهذه الديار وقد اخذت الاهبة لمصبها فى النقر المرمرية بكل دار من اثنوبين ينبجس احدهما بالبارد والاخر بالسخن . منددين بلوالب تنجذب عند الفتل طوع اليد) (120) .

3 — انها كانت عالما خاصا بها لعظمة مبانيها واتساع رقعتها وتعدد منشآتها (فأصبح البديع السعيد من هذه الاثار الفخمة نسيج وحده فى مصانع الارض) (127) .

وعن هندسة قصر البديع وزخرفته ، فبالاعتماد على اوصاف المعاصرين ، ذو اصل عربى اندلسى ، لم يفرق فى مخططه العام عن تصور الاندلس الشهيرة كالحمرأ بغرناطة مما يؤكد التأثير القوي الذي كان للمهاجرين الاندلسيين فى المغرب ، مع تأثيرات اوروبية وايطالية بوجه خاص ، وذلك لوجود العدد الكبير من الفنيين المهرة فى فن البناء ، الذين جلبهم المنصور من فلورانس (فقد حشد له الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة) (128) ونائثيرات أخرى غير

(125) البنامل . ص 254 .

(126) البنامل . ص 254 .

(127) البنامل . ص 255 .

(128) البنامل . ص 254 .

ذلك . والملاحظ في هذا المجال هو أن المولى أحمد المنصور كثيرا ما كان يتبادل الآراء مع كبار المهندسين والبنائين حول تصميم البناء وطرق العمل (أحضر عرفاء المبانى فاقترحها لهم وأخذ أيده الله يرشدهم بحاسة الوصف الى أشكالها التى تصورها فلم يكونوا ليهدتوا حتى تولى لهم رسمها بينانه الكريم فى قرطاس فلمسوه بأيديهم . . . ثم قاموا بتشبيدها وفق الاقتراح الكريم) (129) .

ولو قدر لقصر البديع أن يعمر طويلا لكان من اعظم المآثر العمرانية فى تاريخ المغرب الحديث (130) .

وبالنسبة لبقية المظاهر العمرانية فى هذا العهد نلاحظ بأن الامراء وكبار القوم واغنياءهم قد قلدوا المنصور فاشادوا الدور الجميلة الشاهتة البنيان والمزينة بالشبابيك الزجاجية ، وذات الزخرف البديع بأنواع القاشانى والجبس والزليج . وقد كانت هذه الدور فى معظمها تتكون من دورين علوي وسفلى وباحة واسعة فى الوسط مع رياض عناء خاص ملحق بها (131) .

وقد انعكست آثار النعمة والرفاهية على مختلف نواحى الحياة اليومية فى الملبس والمشرب والمأكل حيث كانت الطبقة الموسرة تلبس الفاخر من الثياب الانجليزية ذات اللون الازرق الغامق (Bernatha) والازرق الفاتح (Bria)

وتصنع منها البرنس (السلهام) والجلابة للرجال و (القنطان) للنساء (132) وقد اوجد المنصور اللباس المعروف (بالمنصورية) حتى اليوم : (وهو لباس من ملف لم يكن مستعملا قبله وهو اول من اخترعه وأضيف اليه فتيل : المنصورية) (133) .

وبرزت تطورات المجتمع ايضا فى اقامة الحدائق العامة وفى الخروج الى المنتزهات طلبا للراحة . ولم يخف الرحالة الاجانب المعاصرون اعجابهم بمظاهر التطور العمرانى فى المغرب زمن المنصور ، التى برزت بصفة خاصة فى بعض كبريات المدن المغربية ، مما حدا ببعضهم الى تشبيهه فاس بغرناطة ومراكش

-
- (129) المناهل . ص 253 .
(130) يعد قصر الايسكوريال (Escorial) باسبانيا من القصور المعاصرة للبديع اذ بناه فيليب الثانى كما بنت ايليزابيت بانجلترا قصرها التاريخى . Hardwicke Hall
(131) م . ص . ت . م - بريطانيا - ج 2 - ص 257
(132) المصدر السابق .
(133) الامرانى : نزهة الحادى . ص 128 .

باشبيلية ، وفاس ومراكش في مصاف العواصم الكبرى في العايم الاسلامى مثل
اصطامبول ودمشق والقاهرة . . . (134) .

وقد شملت ظاهرة التطور العمرانى مناطق واسعة فى البادية المغربية بفعل
توزيع الاراضى على القبائل والزامها بزراعة الارض والاقامة حولها واقامة
المراكز والمحطات التجارية ومعامل السكر ومصانعه ، اذ ظهرت تجمعات بشرية
ومراكز عمرانية بشكل قرى زراعية وتجارية وصناعية ، واخذت ظاهرة البيوت
الحجرية تعم هذه النواحي دليلا على الامن والاستقرار واتساع العمران .

وهكذا ازدهرت الحياة بوجه عام فى البوادي والمدن وتحسنت احوال الناس
على مختلف اوضاعهم وازداد عددهم الديموغرافى ، حيث اوصل عدد الاجانب
سكان كل من فاس ومراكش الى المليون نسمة فلا عجب والحال كما ذكرنا اذا ما
وصف الوزير الفشتالى دولة المنصور بأنها الدولة التى (اثرت العديم واكسبت
المحروم) (135) .

ومن منشآت المنصور العمرانية ايضا المسجد العظيم بحارة ياسر بمراكش
والقبة العظيمة بصحن جامع القرويين والخزانة العليا به (بعث الخصة العظيمة
لجامع القرويين مع كرسى من المرمر توضع عليه وزنها مائة تنطار وهذه الخصة
هى التى تحت منار الجامع المذكور) (136) . ثم الحصون العديدة بفاس وتمازة
والعرانش والقناطر على تانسيفت وأم الربيع ووادي فاس . واخيرا هناك مقبرة
السعديين بمراكش وقد جاءت آية فى الفن المعماري مما لا يزال دليلا قويا على
مدى الروعة فى الزخرف والتأنيق فى عصر المنصور الذهبى .

(134) م. ص. ت. م. - بريطانيا - ج 2 - ص 357

(135) الفشتالى : المناهل . ص 178 .

(136) الافرانى : نزهة الحادى . ص 144 .

الحياة الثقافية

ازدهرت الناحية الفكرية بوجه خاص زمن المولى احمد المنصور ازدهارا عظيما تجلى في تزايد معاهد العلم والدراسة ، وفي كثرة العلماء وطلبة العلم وتعدد مجالات اختصاصاتهم .

واذا كانت الثقافة العربية الاسلامية في المغرب قد حافظت على اسسها ومعالمها ، فانها نظرا للتغيرات التي شملت مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، قد اخذت تعرف نوعا من التطور ، مما يتلاءم والوضعية الجديدة التي كان المنصور يعمل لها ويهدف الى تحقيقها اي نهضة البلاد في جميع مظاهرها لتساير ركب الدول الحديثة المعاصرة .

فطالب العلم يلتن أولا بمبادئ القراءة والكتابة ثم يشرع في حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ في دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة بن آجرم ، الفية بن مالك ، لامية الامعال ، علم الحساب علم العربية ، الالفية ، اصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصفري ، حاشية الكبرى : شرح بن زكرياء الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية في المنطق ، علم العروض ، تلخيص المفتاح والايضاح ، الكتب الخمس ، الحديث والفقہ المالكي . . . (1) وانفتحت في صحبتهم من العمر الطارف والنلاد وقطفت ازهار دروسهم وجنيت من ثمسار غروسهم ما راق السمع والبصر والفؤاد ولقطت من درر علومهم ولآلىء حكمهم ما أنجد الحثائب وأثقل الاكتاد وسمعت من مروياتهم وطالعت من مستنداتهم ما لا يقال الا بانفلاذ الكباد وكنت معهم في وقت الطلاب ارى وأسمع وأتأنق واجمع

(1) مناهل الصنا . الشتلى . ص 265 .

ووجه التهاني يشرق ويلمع حتى انظم الجزع ثاقبه وابصر الجمل طالبه وتفتح
للرغب بابه وتجر على الطالبين عبابه (2) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم اجازة خاصة (وتمرات عليه
اوائل الكتب الخمس بل البخاري والترمذي ومسلم واجازنى فيها وفي باقى الكتب
الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى واجازنى فيها بكل ما
له من مترو ومسموع) (3) .

ونص الاجازة كما جاء فى بعض الوثائق المعاصرة (الحمد لله وحده والصلاة
على من لا نبي بعده ، وبعد فقد اجزت لك أن تروي عنى جميع ما يجوز لى متلفظا
بها بشرطه المعتبر عند أهلها وكتبه محمد بن أحمد بابا بن أحمد . . . بساذن
والسـده) (4) .

ولاخذ صورة واضحة عن الدراسة والجو العلمى فى بعض كبريات المدن
المغربية زمن المولى أحمد المنصور ، نرجع الى ما دونه ابراهيم الجلالى فى مخطوطه
القيم عن فاس ومعاهدها العلمية الكبرى ، وهو معاصر لهذه الفترة :

1 — فيما يتعلق بأهم مراكز العلم بفاس ، هناك :

- جامع القرويين (من جامع القرويين شرفها الله بدوام ذكره) (5) .
- جامع الاندلس (كان رحمه الله . . . يقرأه بجامع الاندلس) (6) .
- مدرسة العطارين (وكان بيده كرسى المرادي بمدرسة العطارين) (7) .
- المدرسة المصباحية (وكان يقريء تهذيب الباردعى للمدونة بقبة المدرسة
المصباحية) (8) .
- مدرسة الحفاوين (ثم يسير الى مدرسة الحفاوين يقريء مدونة أخرى) (9)

(2) الفوائد الجمة : للتانارتى . ص 95 .

(3) المناهل . ص 266 .

(4) الفوائد الجمة : التانارتى . ص 45 .

(5) تنبيه الولدان : ابراهيم الجلالى . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ك 571 . ص 16

(6) نفس المصدر . ص 17

(7) نفس المصدر . ص 18

(8) نفس المصدر . ص 18

(9) نفس المصدر . ص 22

وقد كان لكل جامع ناظر يشرف على شؤونه (أتى ناظر القرويين . . .) (10)
وامام يؤم الناس في اوقات الصلاة (وكانت بيده اقامة مدرسة العطارين) (11) .

2 - كراسى العلم والتدريس والاساتذة القائمون بها واوقات دراساتهم :

فاعتمادا على المخطوط المذكور ، كان بجوامع فاس خمسة عشر كرسييا
للتدريس ، يسهر على القيام بكل كرسي منها عالم من العلماء الاجلاء ، تعددت
اختصاصاتهم ، ولكل منهم زمن معين واوقات خاصة يحاضر خلالها :

1 - (من جملتهم رئيس المحققين في وقته . . . أبو العباس سيدي احمد بن علي
المنجور . . . قرا رحمه الله احبسه شتوة ذلك العام . . . وكان رحمه الله
يقرا التفسير على الكرسي الكاين عن يسار الداخل من البآاب المقابل لباب
القرائين من جامع القرويين) (12) .

2 - (. . . وكان رحمه الله يقرأ صبيحة يوم الخميس ويوم الجمعة تصيد ابن
زكري في التوحيد على الكرسي عن يمين الطالع للمستودع الكاين من باب
الحفا لجامع القرويين) (13) .

3 - (وكان بين المغرب والعشاء يقريء صحيح مسلم على الكرسي القريب من
باب الكتبيين من الجامع المذكور) (14) .

4 - (وكان له كرسي يقرأ عليه بعد صلاة الظهر أسفل السبع الكاين عن يسار
الداخل من مسجد الجنائز للجامع المذكور) (15) .

5 - (وكنت في ذلك اليوم ملازما لمجلس شيخنا سيدي محمد الشريف . . .
التمساني في رسالة الشيخ بالكرسي الكاين بظهر الخصة من الجامع
بعد صلاة الصبح كل يوم) (16) .

(10) نفس المصدر . ص 20

(11) نفس المصدر . ص 18

(12) المصدر السابق ص 18

(13) المصدر السابق ص 18

(14) المصدر السابق . ص 18

(15) تنبيه ولدان . لابراهيم الجلالى . مخطوط ص. 16

(16) المصدر السابق ص 16

- 6 — (وكان شيخنا سيدي يحيى السراج حينئذ يقرأ التفسير على الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب عقبة السبطيين للقرويين (. . . صباحاً) (17) .
- 7 — (تولى سيدي ابو القاسم بن سودة الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب مسجد الجنابر بعد صلاة الظهر كان يقرأ مختصر ابن الحاجب وصفري الشيخ السنوسي) (18) .
- 8 — (وتولى ابو النعيم الكرسي الكائن عن يمين الطالع للمستودع الكائن عن يمين الداخل لباب الحفا من القرويين وكان يقرأ عليه بين المغرب والعشاء صفري الشيخ وبعض الرسالة ، وبعد صلاة الخميس والجمعة قصيدة ابن زكري رحمه الله) (19) .
- 9 — (كان الشيخ سيدي عبد الواحد الحميدي يقرأ التفسير على الكرسي المسند لظهر الجامع عن يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون بانحراف) (20) .
- 10 — (ومن جملة من ادركته حيا الفقيه الحافظ . . . سيدي احمد بن علي الزموري رحمه الله كان رحمه الله . . . له تفسير يقرأه بجامع الاندلس عدوة الصباح عن يمين الداخل من الباب المقابلة لمدرسة الوادي وعن يسار الداخل من الباب المقابلة للمدرسة الصفري هنالك) (21) .
- 11 — (وكان له في القرويين كرسي السير خلف ظهر الصومعة) (22) .
- 12 — (وكان بيده كرسي المرادي بمدرسة العطارين بعد صلاة العصر) (23) .
- 13 — (ومن جملة من ادركته حيا وقرأت عليه . . . العالم العلامة . . . ابو محمد سيدي عبد الواحد بن احمد . . . كان رحمه الله في فصل الشتاء يقرأ

-
- (17) المصدر السابق ص 16
(18) المصدر السابق ص 17
(19) المصدر السابق ص 17
(20) المصدر السابق ص 17
(21) المصدر السابق ص 17
(22) المصدر السابق ص 18
(23) المصدر السابق ص 18

الله . . . يخرج أصحابه لاقراء الرسالة بين النداء بأول الظهر وصلاتها
عند باب مسجد الجنائز . . . وجلوسه على الارض) (31) .

3 — (وكان رحمه الله يقريء مختصر الشيخ مع جماعة من الطلبة يجلس بالارض
عن يمين الداخل من باب الشماعين للقرويين بالموضع المنسفل هنالك من نداء
أول الظهر الى الصلاة) (32) .

4 — (كان رحمه الله يقرأ مختصر ابن الحاجب الفرعى زمان المصيف بالارض
بموضع كرسى تفسيره) (33) .

5 — (وكان رحمه الله يقرأ بعد تفريق مجلس تفسيره مختصر الشيخ قرب باب
المقصورة مسندا ظهره الى حائط القبلة من ناحية الخزانة) (34) .

4 — أما حلقات العلم وكيف يتم التدريس بها :

فالعالم الاستاذ يجلس على الكرسى أو فوق بساط في الارض مسندا ظهره
الى حائط أو سارية ، وحوله الطلبة مجتمعون على شكل دائره ، حيث يقوم احد
الطلبة البارزين بالسرد ثم يشرع العالم الشيخ في الشرح والتفسير (وكان قارئ
مجلسه في المدونة والمختصر . . . عبد الرحمن بن أحمد بن عثمان المكناسى) (35) .

ولحظة العلم احترام وآداب يراعيها الطلبة كثيرا : فعليهم ان ينتبهوا الى
العالم المحدث وان يدونوا اقواله ، ويمنع عليهم الكلام أثناء التدريس اذ ان مجرد
اللغو قد يعرضهم الى غضب الاستاذ وسخطه (وكان كثير الصياح على من تكلم
في مجلسه) (36) . ويستحسن عدم الاسئلة الا بعد أن يأذن لهم الاستاذ بذلك
(ومن جملة ما وقع له مع الشيخ . . . أنه اراد سؤال الشيخ المذكور وهو في
أثناء تقريره وتعبيره فأشار له الشيخ بيده اليمن أن اصبر فسكت حتى فرغ الشيخ
من مراده فبحثه عن سؤاله) (37) . وللطلبة كامل الحرية في مناقشة اساتذتهم بعد

(31) المصدر السابق . ص 17

(32) المصدر السابق . ص 18

(33) تنبيه الولدان . ص 20

(34) تنبيه الولدان . ص 21

(35) تنبيه الولدان . ص 19

(36) تنبيه الوالدان . ص 21

(37) تنبيه الوالدان . ص 16

الانتهاء من الدرس (وكان كثير البحث مع الشيخ . . . حتى يقع ملل الطلبة من ذلك) (38) .

ويبدو أن العادة قد جرت بأن يكون الاستاذ العالم المحاضر حسن الهندام وأن يلبس الجلابة والبرنس والعمامة وأن يجلس متربعا فوق الكرسي أثناء التدريس (وكانت صفة جلوسه على الكرسي مخالفة لجلوس غيره من الفقهاء وذلك أنه كان يجلس على محل الجلوس منه ويضع رجلاه على درجة الكرسي كجلوس الامام على المنبر ولا ادري هل تلك عادة أو أن ذلك لضرر به وكان الطرف المحنك به من عمامته الكائن تحت ذقنه يقربه من فمه) (39) .

وهذه الحلقات العلمية لم تكن وقتنا على الطلبة ، بل كان يحضرها عامة الناس أيضا ، وقد كانت نسبة الحاضرين من الطلبة والعامة تختلف باختلاف موضوعات التدريس وحسب مقدرة المحاضر وفصاحته (وكان رحمه الله فقيها مطلقا بارعا اديبا . . . حاز درجة السبق في العلم والرياسة ذا وجهة عند الخاصة والعامة) أو ضعف صوته وكبر سنه (وكان رحمه الله لا يجلس لسماع مجلسه في ذلك الا القليل من الطلبة والعامة وكان ضعف صوته ومن عادته الامتنع بالتحقيق النقل وتدقيق معانيه وتنقيحه ونفوس العامة تتأثر من ذلك) (41) .

وفي الحلقات التي يتم خلالها ختم تفسير كتاب الله عز وجل يحضر الملا العظيم من الطلبة وجمهور الناس وحيانا بعض اكابر القوم وعليتهم (وبه خرجت ختمة تفسير رحمه الله حضر خروجها الخاص والعام) (42) .

وتعظيها من المولى احمد المنصور للعلم ورجاله وطلبته ، فقد كان يحضر مجالس الدراسة بالتقويين عند حضوره الى فاس ويكرم القائمين على ذلك (ولها قدم مولانا احمد رحمه الله من مراكش عام الثلجة (اي عام 1589) قدم معه جماعة من طلبة مراكش . . . وكان يحضر المجلس المذكور مع فقهاء اهل فاس) (43) .

38) تنبيه الوالدان . ص 16

39) تنبيه الولدان . ص 16

40) تنبيه الوالدان . ص 18

41) تنبيه الوالدان . ص 15

42) تنبيه الوالدان . ص 21

43) تنبيه الوالدان . ص 20

ولم يقتصر عمل العلماء المحاضرين على التدريس بجامع معين ، بل ان بعضهم كان يدرس في جوامع عديدة بفاس (وكان من عادته رحمه الله في فصل الشتاء اذا فرغ من اقراء المختصر حيث ذكر يمشى لمدرسة العطارين يقريء هناك المدونة على الكرسي المتقابل وجه الداخل لتبنتها فاذا فرغ يرجع الى المتصورة ثم يسير الى مدرسة الحلفاويين يقريء هناك مدونة اخرى له عليها حبس) (44) كما كان البعض الاخر يقوم الى جانب التدريس بالافتاء (وبعد نزوله عن الكرسي المذكور صباحا ينصرف الى السارية القريبة لمقصورة فتياه فيجلس هناك مستدير الحائط القبلة) (45) او بمهمة الخطابة (تولى الخطابة في الاعياد بهولاندا السلطان) (46) ، وامامة الناس في اوقات الصلاة (وكانت بيده امامة مدرسة العطارين) (47) ، كما كان البعض الاخر يكلف بحضور ايام الديوان (وغالب امره انه كان لا يقرأ يوم الاربعاء من اجل حضوره ديوان السلطان وكان في بعض الاوقات يقوم لديوان السلطان يوم الاثنين او يوم الاربعاء في زمن الربيع للدار البيضاء ويرجع من وقته الى باب المدرسة ينزل عن فرسه ويبعثها ويدخل الى الاقراء) (48) .

وقد كان لهؤلاء العلماء الاماضل بالترويين مثلا مكان خاص للاجتماع والتذاكر فيما بينهم (وكانت عادة جلوسه في غير الاقراء داخل باب الصفر الخارجة لعقبة السبطيين كان يجتمع هناك مع اصحابه) (49) .

وعندما تحصل وفاة احد كبار العلماء من اصحاب الكراسي ، فان النابهين من طلبتهم هم الذين يخلفون اساتذتهم (كان رحمه الله يقرأ التفسير كما قدمنا لما مات سيدي احمد المنجور انتقل لكرسيه) (50) او ان العالم الشيخ عندما يشعر بالضعف والاعياء لكبر سنه او مرضه يختار من بين طلبته من يخلفه في مهام التدريس (وكان له في التدريس كرسي السير خلف ظهر الصومعة فولاه لتلميذه شيخنا وبركتنا سيدي علي بن عبد الرحمن بن عمران السلاسي) (51) .

(44) تنبيه الولدان . ص 22

(45) تنبيه الولدان . ص 16

(46) تنبيه الولدان . ص 22

(47) تنبيه الولدان . ص 18

(48) تنبيه الولدان . ص 20

(49) تنبيه الولدان . ص 16

(50) تنبيه الولدان . ص 21

(51) تنبيه الولدان . ص 18

وقد كان العلماء الاجلاء يحظون باحترام كبير لدى الطلبة اذ من جهتهم يقدرون الطلبة ويسمعون الى تعليمهم وتثقيفهم (وكان رحمه الله حريصا على محبة الطلبة ونعمهم بعلمه ودينياه) (52) بل ويعطفون على ذوي الحاجات منهم (وكان الشيخ . . . حريصا على محبة الطلبة مشفقا عليهم ويشترى في اول فصل الشتاء عدة عديدة من الحياك ويفرقهم على الطلبة بقبة المدرسة وغيرها) (53) .

وبالمقابل فقد كان الطلبة يكونون كل الاحترام لاساتذتهم ، وكانت عامة الناس تشاطر الطلبة هذا التعظيم والتبجيل (وكان رحمه الله . . . ذا وجهة عند الخاصة والعامية) (54) . واكثر ما يتجلى هذا التجاوب عندما يمرض العالم او يتوفاه الله اليه (وكان يوما عظيما خلت الديار من النساء والاولاد فضلا عن الرجال لحضور جنازته حتى كاد الناس ان يقتتلوا ازدحاما) (55)

ومن مظاهر احترام الطلبة ايضا الاستجابة لمطالب اساتذتهم والحرص دوما على رضاهم (ولما وصلت حاشية الامام اللقاني على لحادي ابن هشام السى مدينة فاس وكانت عزيزة الوجود كلفني رحمه الله نسخها له فكتبتها له ويوم اكملتها اتيت بها ففرح بذلك وقال لى رحمه الله ان الكاتب اذا كتب ولم يقابل كان كالشهد اذا شهد ولم يؤد ، فكلفني مقابلتها معه فتقابلنا معه وهو آخذ بالاصل في داره بالمعادي) (56) .

اما الوافدون على فاس ، فقد كانوا يقيمون في احياء خاصة او في بعض المدارس المهية لاقامتهم ، واعتمادا على مخطوط ابراهيم الجليلي فان من بين تلك المدارس ، هناك :

- المدرسة المصباحية (واستوطنت مع بيتنا في المدرسة المصباحية) (57) .
- مدرسة الحلفاوين (وكان ماواه حينئذ بمدرسة الحلفاوين . . . وكلهم كان ماوهم بالمدرسة المذكورة مع جماعة غيرهم ممن لا معرفة لنا به اذاك) (58)

(52) تنبيه الولدان . ص 19

(53) تنبيه الولدان . ص 20

(54) تنبيه الولدان . ص 18

(55) تنبيه الولدان . ص 21

(56) تنبيه الولدان . ص 18

(57) تنبيه الولدان . ص 15

(58) تنبيه الولدان . ص 16

— زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسي (. . .) كان ساكنا بمدرسة الحفناويين قبل انتقاله منها الى زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسي بالمخفية (59) .

— مدرسة العطارين (وكان أيضا من الملازمين للمجلس المذكور . . . المستوطن بمدرسة العطارين) (60) .

أما في العاصمة مراكش فان كبريات مساجدها قد شهدت نشاطا علميا واسعا مثل جامع الشرفاء الذي كان يدرس به أبو العباس أحمد بابا السوداني (لما تصدر للقراء بجامع الشرفاء بمراكش ورد مجلسه لسماع الحديث وأخذ الرواية عنه اكبر فضلاء مراكش وصدور العلماء) (61) . وقد غدت عاصمة المنصور السياسية بفضل حركتها العلمية (منبع العلم في الديار المغربية . . . معمورة بالعلم مأهولة . . . وسوقا للمعارف نافذة) (62) .

ومما امتازت به مراكش أيضا في المجال الثقافي حلقات الدرس التي كانت تعقد خلال شهر رمضان المعظم (ومنها قيام رمضان واحياء لياليه المباركة . . . ينتقى لذلك مشيخة القراء والاساتيد المبرزين في السبع وحسن الاداء والتلاوة ويستفترهم لشهود رمضان معه . . . ثم يبرز صباح كل يوم من أيامه لسماع الحديث الكريم أيضا وسرد الجامع الصحيح للبخاري بين يديه يعتقد ذلك مجلسا حافلا من اهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم في اسرار الاحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع اليها فيما اشكل) (63) .

ومما اشتهر به المولى أحمد تشجيعه العلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثرهم المنصور (بالمواكلة معه في مائدته متى عن حضور بعضهم . . . ويتاحنهم بهداياه . . . وكل ذلك اجلالا للعلم ومحبة في اهل الخير وتوددا لاهل الدين) (64) .

وأما طلبة العلم فيشجعهم على الاقبال على العلم داخل المغرب وخارجه ، بتقديم المساعدات المختلفة (وتضعيف الجرايات لهم وايثار المجتهد ذوي الفهم منهم بمزيد العناية والاقبال) (65) وبتوجيههم الى الشرق الاسلامي ومصر خاصة

(59) تنبيه الولدان . ص 19

(60) تنبيه الولدان . ص 16

(61) الفوائد الجمة في اسناد علوم الامة . التابنارتى . مخطوط . ص 45

(62) ذيل الابتهاج . أحمد بابا السوداني . مخطوط . ص 3

(63) المناهل ، الفشتالى . ص 213

(64) الفشتالى : مناهل الصفا . ص 225

(65) المصدر السابق .

طلبا للعلم (ووجهنا اليكم . . الفقيه . . القادم على تلكم البلاد بنية طلب العلم ولتاء مشيخته ورواته وجلب الذخائر الثمينة من مصنفاته) (66) .

وقد أخذت سياسة تشجيع العلم والعلماء والطلبة تؤتى أكلها (إذ تنافس الناس لهذا المعهد الكريم من أجل ذلك في اقتناء العلم والاحتراف بصناعاته الشريفة لاعتزاز أهله وسعة أرزاقهم حتى كثر حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التأليف في التصنيف) (67) . وفي روضة الآس لأحمد المقرئ وهو معاصر عاش فترة من الوقت في فاس ومراكش زمن المنصور ، نجد تراجم لاربعة وثلاثين عالما مغربيا نبغوا في علوم الدين والحديث واللغة وفي ميادين الطب والهندسة والحساب والتنجيم وباقي فنون الاداب والمعرفة (68) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم ، حثه العلماء على التأليف في شتى أنواع المعرفة (وشهد أمير المؤمنين أيده الله بهم وأغرى بكل فن أهله وجذب بضع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التأليف في أيامه السعيدة) (69) . وقد كان المولى أحمد من الذين ألفوا تأليف عديدة (تسامت همته الشريفة أيده الله الى تدوين كتاب في علم السياسة . . . وسمى أيده الله هذا التأليف الشريف بكتاب المعارف في كل ما تحتاج اليه الخلائف) (70) .

وقد دل هذا التأليف على مدى النزعة العلمية التي كان يتمتع بها المنصور ومدى تجاوبه مع واقع بلاده وظروف عصره .

وهكذا كان لحرص المنصور على :

1 — تنظيم دولته والسهر على شؤون ادارتها وجميع مرافقها اثر كبير في القيام بأبحاث ادارية هامة (انه أيده الله رعا كل من تعرض الى التدوين في هذا الفن قصاره الوقوف عند السياسة العلمية الراجعة الى المصطلح في الوزير والنديم المشير وتنمية الخراج والعدل في الرغبة وسيره الملكة في

66 رسائل سعدي . ص 33

67 المناهل . ص 225

68 المقرئ : روضة الآس المطبوعة فيمن لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس .

69 المناهل . ص 216

70 المناهل . ص 238 .

الركب والملبس ونحو ذلك . . . وكل اكتفى بالقول واضرب صفحا عن
العمل . . . فأرى ذلك مولانا . . . أن يجمع بين الفائدتين) (71)

2 — وللرغبة في تجهيز وسائل الدفاع الكنيابة برد أي خطر خارجي عن بلاده
تمام بأبحاث تتعلق باتقامة الحصون والقواعد العسكرية ومختلف وسائل
التحصين و (حياطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة بتحصين الحصون
واختطاطها) (72) .

3 — ومن أجل تعبئة القوات المحاربة وتدريبها على أنواع القتال بما في ذلك
المدافع وأسلحة النار حرص على التأليف في ذلك (وتعبئة الحروب ومكائدها
وآلاتها وخذعها وأنواعها والحصار وآلاته والرمي وأدواته ومعرفة أنواع
مدافع التذف والرجم وأسماؤها والقابها وكيفية عملها طولا وتمصرا وخفاء
وتفريغ ذلك ممن يقتضيه غرض الرمي الى البعد أو القرب أو الى السماء أو
الى الارض والى الاستقامة والى الانحراف . . .) والى يرمى بها شواظ
النار وتعداد أنواعها وقسمتها الى الحجرية والمعدنية وغير ذلك مما تقتضيه
السياسة العلمية والعملية حتى في اقامة الحدود) (73) .

وقد جاء في مطلع الكتاب قول المنصور : (نحمدك اللهم على ما أثلت من
رياسة وعلمت من سياسة ووهبت من ملك ونظمت من سلك . . . وبعد فبنا حاجة
الى تكميل نفوسنا في قواها البشرية باستعمالها في حقائق المعلومات
العملية . . .) (74) .

ونجأت عقلية المنصور التنظيمية في الميدان المعماري ووضع تصاميم البناء
(أحضر عرفاء المبانى فانتزحها لهم وأخذ ايده الله يرشدهم . . . ثم تولى رسمها
لهم بينانه الكريم في قرطاس فلمسوه بأيديهم) (75) . كما ظهر بنوغيه في أشكال
الحروف التي اخترعها (كثيفة) خاصة للتراسل مع ولاته وسفرائه واكابر
دولته (اخترع اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد
الاطلاع عليه من أسراره ومهمات اموره وأخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير

(71) المصدر السابق .

(72) المصدر السابق .

(73) المصدر السابق .

(74) البناءل . ص 302 .

(75) البناءل . ص 258 .

بذلك الكتاب ملمعا مستغلتا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره (76) . وقد كانت (الشيفرة) عبارة عن (اشكال على ترتيب ابجدي) كما اكدت وثيقة معاصرة ذلك .

ومن جهة أخرى فقد بذل المولى احمد جهودا متواصلة مع ملك اسبانيا لنقل التراث الاسلامى بالاندلس الى المغرب (77) كما قام باحياء المخطوطات العلمية بأن امر بنسخها (ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذا في مسودته بين اوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلا في مولانا الامام . . امره وبحث عنه . . فتوجهت اليه العناية الكريمة فانظم جمعه . . من لفيف الاهمال وانتازه من لهوات التلف) (78) فنشطت لذلك صناعة النسخ وحرفة الكتابة .

وهناك ظواهر أخرى برزت في الناحية الثقافية خلال حكم المنصور ، تستوقف بعض التوقف ، وهى : اهتمام المولى احمد بتعريب العلوم ، وبالاختراعات العلمية التى ظهرت في بعض دول أوروبا الغربية الناهضة :

ا و لا — ففيما يتعلق بحركة التعريب التى ظهرت زمن المنصور :

نشير الى أن عوامل هامة قد ساعدت على ظهورها وتطورها ، فبالاضافة الى رغبة المنصور العالم والاديب ، هناك : وجود العدد العظيم من الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب بعد نكبة الاندلس ، والذين كانوا على مستوى عال من الحضارة والثقافة وعلى اطلال واسع على بعض اللغات الاوربية ، ثم الجاليات الاجنبية والاوربية منها بوجه خاص كسفراء وتجار ورحالة واسرى واحتكاكهم بالمغاربة على مختلف المستويات ، مما احدث تأثيرات متبادلة . ونضيف الى ذلك مراكز الاحتلال الاسبانى والبرتغالى المنبثة على طول السواحل المغربية وتعاملها اليومي مع المغاربة ، ووجود العدد الكبير من الاسرى المغاربة في مختلف مدن أوروبا ، واخيرا حرص المنصور على الاستفادة من النهضة العلمية بأوروبا الغربية . وما بين أيدينا من مصادر ووثائق يؤكد بأن حركة علمية نشيطة قد ظهرت بالمغرب

(76) البناهل . ص 258

(77) مجلة الاندلس . عدد (23) لعام 1958 . ص 19 .

(78) البناهل . ص 303 .

في هذا العهد ، حيث شجع المنصور تعريب هذه العلوم وحث اصحاب الاختصاص على التأليف فيها . وقد نشط الاندلسيون بصفة خاصة في هذا المجال وقاموا بترجمة كثير من المؤلفات العلمية الاوربية وتعريبها : فقد عرب ابو القاسم الفسائسي الشهير بالوزير الاندلسي الفاسي للمنصور (جملة تأليف رفعها الى المقاسم الاحمدي المنصوري العلوي منها : معنى اللبيب عن كتب اعداء الحبيب ، ذلك انه قدم على امير المؤمنين بعض اكابر الروم فاتحنه بهذا الكتاب مكتوب بالقلسم الاعجمي فعربه الشيخ ابقاه الله وجعل له خطبة وزاد فيه زيادات واسماه بما ذكر) (79) . وعرب العالم الاندلسي الشهاب احمد الحجري في هذا العهد كتابا تحت عنوان : (كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع) (80) تعرض فيه الى اختراع البارود والالات الحربية ، وعدد انواع المدافع النارية والحجرية وطريقة صنع قنابل المدافع .

ثانيا :

واما حرص المنصور على الاطلاع على المخترعات العلمية بأوروبا الغربية والاستفادة منها ، ميؤكده التقرير الذي وجهه التاجر الانجليزي بالمغرب (Thomas Bernher) الى العالم الرياضسي المخترع الانجليزي بلندن (Edward Wright) بتاريخ 24 يونيو 1600 م ، ذكر صاحب التقرير اهتمام المنصور بأبحاث علم الفلك وجميع التجارب التي تجرى لكشف المزيد من اسراره ، واكد لصديقه بأن المولى اهتم لن يتوان عد تقديم اي مبلغ من المال مهما عظم في سبيل الحصول على بعض الاختراعات العلمية وطرق استعمالها ، كما نصحه بأن يعرض على السفير المغربي الموجود بلندن آخر اختراعاته مثل : الآلة الفلكية المعدنية لقياس الاميال ، والادوات المتعلقة بأحداث الشمس والقمر والكرة والساعة وجميع الخرائط المتعلقة بعلم الفلك وحركات السماء ، وبالاخص طرق استخدام الابرة المغناطيسية من أجل التعرف على الجهات الاربع التي ستلقى اهتماما عظيما من المنصور ، سعيا منه الى استخدامها في الرحلات التي يقوم بها المغاربة الى الصحراء وبلاد السودان (81) .

(79) البقرى : روضة الاسر . ص 127

(80) اللسان العربي : ج 1 . يونيو 1964 . ص 67 .

(81) م . م . ت . م - بريطانيا - ج 2 - ص 532

ثالثا - في مجال الطب والصيدلية :

كان لانتشار الاوبئة وداء الطاعون بين الآونة والاخرى في المغرب اكبر الاثر في ظهور عدد من الابحاث الطبية والصيدلية لاكتشاف عقاقير وادوية تساعد على مقاومة الداء الخطير ، فمن أشهر اطباء في هذا العهد : ابو عبد الله محمد طبيب المنصور الخاص ، وقد (كان من مهرة الفن وآية في العمل والتجريب) (82) ، والحسن المسفيوي الذي (له قدم راسخ في علم الطب) (83) .

واهم المؤلفات الطبية (حديقة الانهار في شرح ماهية العشب والعقار) للوزير الغساني و (مغنى الطبيب عن كتب اعداء الحبيب) للغساني أيضا ، ثم (القانون المفيد في علاج الحصى بقول سديد) لابن مسعود (84) . وقد توصل الاطباء الى تركيب ادوية كان لها بعض المفعول في العلاج من داء الطاعون (لا تغفلوا عن استعمال الترياق فالزموه واذا استشعرتهم منه بسلامة بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه) (85) .

وعند التساؤل عن مدى استفادة المغرب في هذا العصر من مختلف الاختراعات العلمية نجد :

1 - معاملة الدولة لعصر قصب السكر (وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر جفاء وعظمة وتوطيدا وتشبيدا ، ما شئت من برك رحبية وجفان كالجوابى وقدور راسيات ولوالب فلسفيات وحركات هندسيات . . . ثم أجرى لاستدارة رجاها العظيمة الاخشاب الجافية الاجرام النهسر المعروف . . .) (86) .

2 - معاملة الاسلحة ودور صناعة قطع الاسطول ، ولا سيما المدافع والبنادق (واما ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاطها بدار العدة . . .) (87)

(82) الفتاحي : المناهل . ص 53

(83) المقرئ : روضة الاس . ص 172

(84) المصدر السابق .

(85) الامرائي : نزعة الحادي . ص 156

(86) المناهل . ص 209

(87) المناهل . ص 210

التي كانت تصنع بمراكش ، والسفن التي كانت تصنع بالرباط (ثم صرف همته أيده الله الى اتخاذ الاسطول برياط سلا . . . فتعددت مراكبه) (88) .

3 — وظهرت الاستفادة من الاختراعات العلمية في وسائل سد انابيب الماء الى مباني المنصور بمراكش ، وقد كانت هذه الانابيب على نوعين : حارة وباردة (تمتاز المياه الدافئة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم بينيتها شرقا ذي البركة العظيمة المفروغة للوتود من تحتها . . . تفتابها القواديس الفاغرة الانواه اليها من كل جانب فتملا حواصلها وتسافر بها لهذه الديار وقد أخذت الالهة لمصابها في النقر المرمرية بكل دار) (89) . حيث ينتهي كل انبوب بحنفية خاصة (من انبوبين ينبجس أحدهما بالبارد والاخر بالسخن مفدين بلوالب تنجذب عند الفتل طوع اليد) (90) .

4 — كما تجلت الاستفادة ايضا في الفانوس المتخذ بباب دار الحریم (لقد بلغ الاحتفال مبالغ الاغياء الى اتخاذ منحوت على شكل الفانوس الكبير مغشى بصفيح النحاس الاصفر الصقيل قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتم لمناولة ما يرد من المرافق والمآكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند الداعية من الاماء والخدم القائمات بخدمة سيداتها من اهل الحجاب العالی فيلقين في جوبه من وراء الجدران . . . ثم يدور بوجهه لداخلها لمنزل فتقع المناولة من غير أنقتراعي الى الاشخاص أو تبدو منها للعين قلامة ظفر اغياء في الاحتجاب) (91) .

5 — وهناك الميدان المعماري والاستعمانة بالمهندسين المعماريين الاوربيين ، ومن فلورانس خاصة (حشد له الصناع وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الامرنجة) (92) .

6 — وظهرت الاستفادة من الناحية العلمية خلال هذا العصر أيضا في استعمال الخاتم لطبع المراسلات (فياخذ عند ذلك أيده الله في العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة . . . وتارة بالطابع) (93) .

(88) البناءل . ص 210

(89) البناءل . ص 210

(90) البناءل . ص 259

(91) البناءل . ص 259

(92) البناءل . ص 254

(93) البناءل . ص 232

وقد كان خاتم المنصور على هذا الشكل (كانت العلامة الكريمة المذهبة التي اختطت فيها يمين الامام . . . اسمه الشريف بتدبير يبهر العيون حسنا وفخامة ورواء) .

7 - وهناك ايضا ميدان طبع النقود الذهبية والفضية والبرونزية (كان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة تضرب الدينار) (95) .



ولما كان المولى أحمد المنصور قد اشتهر بتشجيع العلم والعلماء فنان بلاطه بمراكش قد قصده العديد من رجال العلم والادب في المغرب والمشرق (قد ارتحلت اليها الشعراء من الاقطار الشاسعة وضربوا الى بابيه اكباد الابل) (96) . ووجد الجميع منه كل احترام وتكريم (وأما صلاته الجزيلة . . . للشعراء ومن يفد على حضرته العلية . . . فاجل من أن يحصى) (97) .

وهناك عدد من العلماء المشاركة الذين لم تساعدهم الظروف على التوجه الى المغرب أرسلوا اليه مؤلفاتهم العلمية واجازوه البعض منهم كتابة (98) .

ومن أشهر هؤلاء العلماء (الذين أجازوه ايده الله كتابة ومراسلة من الشرق الى الغرب الشيخ الامام العالم الصدر الكبير الشهير رئيس ائمة العلم بالديار المصرية وقبلة أهل الارض قاطبة علم الطريقة ومركز دائرة الشريعة والحقيقة حجة الاسلام وعلم الاعلام وقدوة الانام الشيخ الامام الاوحد الغوث الرباني ولي الله أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي) (99) .

-
- 94 المناهل . ص 131
95 الامرائى : النزعة . ص 157
96 المناهل . ص 267
97 المناهل . ص 267
98 اعتمادا على الوثائق التي تتوفر عليها والتي يتضمنها الملحق الوثائقي للدولة السعودية فان المنصور قد راسل القاضي ابا على حسن خلال عام 990 هـ وبمقتضى يطلب الاجازة من العالم البكري في عام 991 هـ وقد أجاز العالم البكري المولى أحمد في شهر ربيع الاول عام 992 هـ ثم راسل المنصور المؤرخ مصطفى بن حسن في عام 992 هـ وطلب الاجازة من العالم القرائى عام 998 هـ فاجازوه هذا الاخير في جمادى الاولى عام الف هـ .
وفي العام التالي بعث اليه المنصور يشكره أى عام 1001 هـ وأخيرا راسل المنصور العالم البكري في ربيع الاول عام 1005 هـ .
99 الفشتالى : مناهل الصفا . ص 268

والعالم الكبير (الشيخ الإمام نخبه الفضلاء الاعلام تاج الملة علم الائمة فخر العلماء الجلة قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية الفقيه الجليل العالم العلم الفاضل الشيخ بدر الدين القرامسى) (100) .

وقد اثبت أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فى (مناهل الصفا) نصوص الاجازتين ، وهما من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها الكتاب والتى تعطى صورة عامة وشاملة للنشاط الثقافى والعلوم الدينية فى مصر خلال النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (101) .

والمؤلفات الضخمة والعظيمة التى اشتملت عليها خزانة المولى احمد المنصور خير شاهد على ازدهار العلوم فى هذا العصر (وقد اشتملت الخزانة الكريمة العلية الامامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف اهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة) (102) . وأهم التأليف العلمية والدينية التى تضمنتها : مؤلفات العالم أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذى جمع بين (تقيدي الامامين البسلى والسلوى عن شيخهما صدر الائمة . . . أبى عبد الله بسن عرفة) (103) ومؤلفات الشيخ (أبى العباس أحمد بن على المنجور على رجز ابن زكرياء فى علم الكلام) (104) ومؤلفات (الشيخ الامام الاوحد الفذ الفريد أستاذ المغرب فى وقته فى علوم القراءات وسببويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ أبى العباس أحمد القدومى) (105) ، وتأليف (الفاضل العلامة . . . الرحالة الحاج أبى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لامية العجم املاه بالبلاد المشرقية ورفعته الى حضرة مولانا الامام ايده الله وقد وسمه باسمه الشريف وعليه تقریظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام) (106) ، ثم ديوان (الشريف الفاضل السرى محمد بن أبى الفضل المكى وهو الذى جمع فيه مدائحه فى مولانا الامام) (107) .

ومما تضمنته الخزانة الملكية ايضا (الكشاف فى علم التفسير وحواشيه

-
- 100) المناهل . ص 272
101) المناهل . ص 269
102) المناهل . ص 304
103) المناهل . ص 304
104) المناهل . ص 304
105) المناهل . ص 305
106) المناهل . ص 305
107) المناهل . ص 305

للطبيي وسعد الدين والسيد والفارسي وابن خليل السكوني وللعلامة ابن البناء
وتفسير البيضاوي وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الاسيوطي . . . وكتاب
الرضاع على آي المغنى ومراقى المجد الى آي السعد من تأليف العلامة . . .
أبي العباس أحمد المنجور . . . ومغنى اللبيب في العربية وحاشية الشموني عليه
وشرح ابن الدمامين وحاشيته . . . والارشادات لامام الحرمين في علم الكلام . . .
والمعالم الدينية للفخر . . . وشامل ابن عرفة الذي حاذى به طوابع البيضاوي
والصحائف وشرحها للسمرقندي والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازانى
والمواقف لعضد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجاني وحاشية حسن جبى
على شرح السيد والاربعين للامام الفخري والتقطب في علم المنطق على الشمسية
. . . ومنطق الثمنا لابي على بن سينا . . . وكافية ابن الحاجب . . . وشرح ابن
الدمايني على تسهيل ابن مالك (108) . ونضيف الى ذلك تأليف العلامة
السودانى أحمد بابا مثل (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج) وقد ذكر في مقدمته
(بوصولى الى منبع العلم في الديار المغربية حضرة الامام العلية والمولوية الهاشمية
الاحمدية المنصورية . . . بادرت الى كتب ذلك الذيل . . . وأردت ان اخدم خزانته
المشتملة على الطم والرم من كتب العلم اهديته وان كنت في صنعى كجالب تمر
الى هجر أو قارض شعر لدى أهل حضر) (109) .

تأليف أبى فارس عبد العزيز الفشتالى وزير المنصور التى من أجلها (مناهل
الصفا في مآثر موالينا الشرفا) (110) . ورغم ان الايام قد تلتفت القسم الاعظم
منه ، فان ما بين أيدينا ليؤكد مدى اتساع أمق المؤلف وغزارة علمه وبراعة
شاعريته .

ومؤلفات أحمد المقرئ ، وخاصة (روضة الاس العاطرة الانفاس في ذكر
من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس) (111) الذي ترجم فيه للمعدد الجم
من كبار العلم والسياسة في عهد المولى أحمد المنصور .

ثم مؤلفات أحمد بن القاضى (112) التى منها (المنتقى المتصور على مآثر

-
- (108) البناهل . ص 268
(109) حمد بابا السودانى : ذيل الابتهاج . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 766 . ص 1
(110) أبو فارس عبد العزيز الفشتالى : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء .
دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم . الرباط 1972 .
(111) أحمد المقرئ : روضة الاس . طبع في المطبعة الملكية بالرباط . 1964
(112) ابن القاضى : المنتقى المتصور . مخطوط بدار الوثائق بالرباط

الخليفة المنصور) ، و (درة الحجال في غرة اسماء الرجال) ثم (جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس) وفي خزانة القرويين بفاس اليوم ستة وعشرون مخطوطا في موضوعات شتى ، وهي ما تبقى من المخطوطات العديدة التي كان المنصور قد أوقفها على هذه الخزانة (حبس عليها نصره الله من غرائب الكتب ما لم يسمع مثله قط) (113) ، ويرجع أقدمها الى أواخر رمضان من عام 1001 هـ وقد جاء في وثيقة وقف هذا الكتاب (اللامشى في أصول الفقه) بعد البسملة (حبس مولانا الامام كهف الاسلام ظل الله في الانام كافل أمة النبي عليه السلام . . . مولانا أبو العباس المنصور بالله أمير المؤمنين . . . على كل من يقرأ فيه من طلبه العلم) (114) وبأعلى وثيقة الوقف يوجد توقيع المنصور ونصه (المسطر أسفله صحيح وكتب بخط يده عبد الله سبحانه أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين . . . خسار الله له ولطف به وبجميع المسلمين) (115) .

من خلال ما تمنا به من دراسة للمجالات الثقافية في عهد المنصور ، نلاحظ بأن بلاط الملك وكبريات المدن المغربية قد استأثرت الى حد كبير بهذا النشاط العلمي الواسع ، فما المستوى الثقافي الذي كانت عليه طبقات العامة وجمهور الناس ؟

لا نملك والاسف الشديد الا القليل المحدود من المصادر المعاصرة التي تعرض البعض منها للنواحي الثقافية عند الطبقات الشعبية في هذا العصر ، ففي البوادي المغربية كانت توجد جوامع وكتاتيب في قرى خاصة يعلم بها فقهاء

(113) المصدر السابق . ص 75 .

(114) محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب . ص 48 .

(115) المصدر السابق .

يوجد اليوم بخزانة الايسكوريال (Escorial) باسبانيا نحو الف وخمسمائة مجلد عربي مخطوط ، وهي ما تبقى من مخطوطات المنصور التي كانت بخزائنه بهراكش . وسبب وجودها بالاييسكوريال اليوم يرجع الى الفترة التي أعقبت وفاة المنصور وتنازع أبناءه من بعده ، فقد قام ابنه زيدان بنقل أمواله وكتبه وكتب والده من مراکش الى آسفى وذلك للانتقال منها الى اكادير بحرا وانفق مع بحارة فرنسيين لنقله مع أمتعه الى اكادير ، غير أن بعض البحارة الذين كانت يستفهم أحوال المخطوطات بدلا من النزول جنوبا نحو اكادير توجهوا شمالا أملا منهم في بيعها أو ربما اعتقدوها أموالا وكنوزا وذخائر ، وبينما هم في عرض مضيق جبل طارق اعترضت طريقهم سفن اسبانية وأسرتهم وقام البحارة الأسبان بنقل الكتب خاصة الى الايسكوريال العاصمة السياسية باسبانيا والتي كان فيليب الثاني قد أقام بها قصر الايسكوريال الذي لا يزال حتى اليوم . ولما وصلت الكتب أمر فيليب الثالث بوضعها في مكان خاص ، وقد بذل البلوك البخارية السعيتيون منهم والعلويون بوجه خالص جهودا جبارة متوالية لاستعادة الكتب على أن حريقا قد شب في الجناح التي توجد به الكتب ماتلف عدة مات منها ولم يبق اليوم الا نحو 1500 مجلد مخطوط وهي اعظم ما في خزانة المخطوطات بالاييسكوريال وكل اسبانيا بل وفي غربى أوربا بوجه عام .

ومعلمون مبادئ الدين وطرق القراءة والكتابة (قدمت من بنى ورياغل مع أخى وشقيقى سيدي أحمد للحضرة الفاسية بقصد القراءة والتعليم في شهر ربيع الاول من عام أربعة وتسعين وتسعمائة (مارس 1586 م) وكنت حفظت القرآن العظيم والنية ابن مالك والكراريس بباديتى) (116) .

على أن الاتاليم النائية والمناطق الجبلية هي التي يظهر أنها قد غالت في الجهل والضلال وانحطت احوالها العامة وبالتالي مستواها الثقافي (117) .

وقد ازداد الامر سوءا عندما حل الطاعون بالبلاد وذهب بالعديد من العلماء وطلبة العلم في مختلف المناطق (تقهقر الزمان وذهب العلماء الاعيان وانقرض الاكابر والاقتران ورحلوا عن الدروس الى الرموس وآل الامر من بعد عمارتهم الى الدروس فتعطلت مصادر الطلب وموارده واقوت مجالسه ومعاهده وافلت أو كادت من معظم آفاق المغرب شمسه) (118) .

(116) ابراهيم الجبلالى : تنييه الولدان . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 15
(117) مما جاء في الفية الامام الهبطى من العامة : (نأى خير يرتجى لقوم ليسرلهم تريحة في علم)
(118) التامنارتى : النوائد الجبة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . ص 96

المغرب بعد المولى أحمد المنصور

(وفي سنة اثني عشرة ألف وبلغنى وفاة أبى العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر رحمه الله وكانت وفاته بمدينة فاس . . . فنزل الارض بذلك ما نزلها ونالها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوقور . . . ووضع النفيس وارتفع الخسيس ونشا العار وخان الجار ولبس الزمان البؤس وجاء بالوجه العبوس وأوردنا الاختلاف وانضب ماء الوجوه والائتلاف وطأ الحق رأسه وأخى المحق نفسه . . . ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع . . . فانا لله وانا اليه راجعون فيا لها من مصيبة ما أعظمها) (1) .

بهذه الاوصاف عرف عبد الرحمن التمانرتى وهو معاصر الاوضاع التى سادت المغرب بعد وفاة المنصور ، نتيجة تنازع أبنائه وحفدته على السلطة وما رافق ذلك من حروب وفتن واضطرابات في وقت كانت الاوبئة والطاعون لا يزال يفتك بالعديد من الارواح : فالمولى زيدان بويج بفاس وأخوه أبو فارس عبد الله نوذي به ملكا على مراكش ، وازداد الامر تعقيدا عندما استطاع الاخ الثالث محمد الشيخ المامون الحاق الهزيمة بزیدان وتنصيب نفسه ملكا على فاس . ودخل بذلك الاخوة لثلاثة وابناؤهم في حروب دامية استمرت حداثها طوال العشر السنوات الاولى من وفاة المنصور ، الى درجة يمكن معها القول بأن هذه الحروب الداخلية استنفذت قوى الامراء السعديين وأطمعت فيهم من جهة أخرى كثيرا من الطامعين ، وقد كان من أخطر مضاعفاتها أن مناطق في الشرق والغرب من البلاد قد تعرضت لهجومات خارجية : فالباشوات الاتراك بالجزائر الذين طالبوا تحينوا الفرص

(1) التمانرتى : الفوائد الجبة . مخطوط بدار الوثائق بالرباط . (د 1420) . ص 194

للتوسع قدوا تتهم الظروف المناسبة وبسطوا سيطرتهم على مناطق من المغرب الشرقى وتمركزوا بمدينة وجدة بوجه خاص تمهيدا للتدخل فيما جاورها ، واغتنم الاسبان بدورهم فرصة الحروب الاهلية وحاجة المتحاربين الى الاسلحة والعتاد والقوات المقاتلة وداهبوا قواعد في الشواطىء الغربية : العرائش والمعمورة وأصيلا ، مما اعد الى الازدهار عهودا مظلمة سابقة عندما قاد البرتغال والاسبان حملات صليبية ضد الشواطىء المغربية على المتوسط والمحيط الاطلسي .

على أن استقرار الامر نسبيا للمولى زيدان بمراكش منذ عام 1022 هـ مكنه من العمل على اقرار بعض الاوضاع الداخلية المضطربة ، خاصة وان حدة الحروب الاهلية قد خفت اثر مقتل أخويه : عبد الله أبى فارس (1017 هـ) ومحمد الشيخ (1022 هـ) وساعده على تنظيم مقاومة الغزاة الاسبان بالشواطىء الغربية (فسال السلطان زيدان بن أحمد الذهبى عن يلىق بتولية ذلك الثغر والقيام بوظيفته وبنواحيه فقبل له سيدي محمد العياشى فكتب له بالتولية لذلك فنهض باعباء ما حمل من ذلك . . . وكان كلما بعث بما يفتح الله به عليه من خمس الغنائم والاساري الى السلطان زيدان بمراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه) (2) .

وهذه الجهود المتواصلة التى بذلها المولى زيدان لاستعادة النفوذ السعدي الى بعض المناطق المغربية لم تستمر طويلا ، فبعد وفاته عام 1037 هـ سقط ما بقى للسعديين من هبة في اعين العامة وبدأ الطامعون يعلنون خروجهم ويستقلون تدريجيا بمناطق نفوذهم .

واذا كان السلطان السعدي قد أخذ ينحصر في العاصمة مراكش وما حولها خلال الثلاثين سنة الاخيرة من عهد الدولة السعدية زمن حكم عبد الملك (37 — 1040 هـ) والوليد (1040 — 1045 هـ) ومحمد الشيخ (45 — 1064 هـ) وابنه احمد (64 — 1069 هـ) فان المناطق المختلفة من البلاد قد تقاسمها قادة محليون أشهرهم :

1 — (بودميعة) بسوس ودرعة والصحراء وبلاد السودان .

(2) عبد القاهر بن محمد ابو ملاق : (الخبر من ظهور العياشى) مخطوط بدار انونائى بالرباط (د 91) . ص 3

2 — العياشي بالسواحل المغربية الاطلسية .

3 — محمد الحاج الدلائي بالمنطقة الوسطى من المغرب .

ويظهر هذه الامارات المتنازعة انقسمت البلاد الى وحدات سياسية وضعفت بالتالى قوى المعسكر الوطنى ووحدته وأصبح الامر ينذر بأنفدح العواقب (بعد موت زيدان . . . تطاولت أيدي رؤساء القبائل وعمالها الى الاستبداد على الدولة لمرضاها وهرمها وشاركهم من له شوكة قوية وصاروا كملوك الطوائف بالاندلس) (3).

ومما زاد الوضعية الداخلية تدهورا حرص بعض الطامعين على التوسع وبسط النفوذ فازدادت لذلك الاصطدامات العسكرية وتعددت واجهات الحروب بينهم ، وهذا كله ضاعف من تنكك القوى الوطنية واغرى بالتالى الاسبان على موالاة الغزو والتوسع (فلا يعزب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر عليهم دائرة السوء وانكروا وذكروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على الجزيرة واستيصالهم اياها اعادةها الله دار اسلام لهذا العهد وكانت أضخم ملكا من هذه العدو وأكثر عددا وعددا بل هى محشر العساكر فلم يزل ينزلها من اطرافها ويطاول من جهاتها . . حتى انتظمت كلها فى سلكنهم . . وها هو قد عبر البحر الينا ومد الصليب بهذه السواحل نراعيه علينا . . الله فى الاسلام ادركوه قبل أن يموت وخلصوه قبل أن يفوت) (4) .

فلا عجب اذا ما توجهت القلوب المومنة الواعية الى السماء تطلب العون والهداية وترجو من الله الخلاص للبلاد والعباد : فالبلاد أصبحت بحاجة الى قيادة جديدة تستجيب لمطالب العامة المؤمنة بوجوب وحدة الصف الداخلى وتعبئة كل القوى الوطنية المجاهدة للوقوف فى وجه الغزاة ولتحرير السواحل المحتلة ، اذ وحدة الصف والقيام بالجهاد شرطان أساسيان لتطور البلاد وازدهار احوال العباد ، فهل كانت هناك من بواد لظهور القيادة الجديدة المرجوة بعد ان فقدت الامل فى الزعامات المحلية المتنازعة فى (زمن اطفات فيه الضلالة انوار الهداية وذلك حين فسدت الدولة السعيدة فذهبت ربيع سطوتها التهقرية وكثر الثوار فى غالب

(3) بلعاسم الزياتى : (البستان الطريف) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 1577) . ص 7

(4) عبد القاهر أبو ملاق : (الخبر عن ظهور العياشى) . ص 30 .

الاقطار . . . ولم يبسر الله تعالى لواحد منهم أمرا وقد كانت عاقبة أمر بعضهم
خسرا (5) .

ان الامام المتطلع اليه هو (من رفع الصلبان عن الامة وكشف عن الاسلام وقد
طالت شكواه لاهله الغمة ، ففتح باب الجهاد للانام الذي طال الاستفهام وأجاب
بالاقلام والرماح والسنة الصفاح داعية) (6)

وخير الامامة : القرشية الهاشمية (فانكم أردتم معهم من مورتهم من جدهم
مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّة عيننا وعينهم فانه نهانا عن طلب ما
ليس لنا فقال : الخلافة في قريش والغير متغلب وهم احق بذلك من قريش في
المغرب) (7) .

شام القيادة العلوية :

استقر المولى الحسن الداخل ، الجد الاول للعلويين ، بسجلماسة قادما
من الينبوع بالحجاز عام 664 هـ وقد كانت سجلماسة مركزا دينيا وملتقى استراتيجيا
هاما (فهي قاعدة القرى الصحراوية . . . دار علم ودين وصلاح ومستراح القاصدين
والواردين ومتجر الارباح) (8) .

ولما كان المولى الحسن الداخل ممن عرفوا بالعلم والصلاح والورع فان
العامة قد اقبلت عليه كما ازادت شهرة عائلته لما قام به ابناؤه من جهاد فنى
الاندلس كالمولى على الشريف الذي (توجه الى الاندلس برسم الجهاد واقام بها
مدة طويلة وعندما عاد الى سجلماسة كاتبه اهل الاندلس يطلبون منه الرجوع
اليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويظهرون له ضعف الجزيرة وانها شاغرة
ممن تجبع عليه القلوب) (9) .

ومن جهة أخرى فقد كان الشرفاء العلويون بسجلماسة يحظون بعناية
السلطات الحاكمة المرينية والوطاسية ، وازدادت مكانتهم زمن حكم أبناء عمومتهم
السعديين ، وعندما ضعف أمر الدولة السعدية بعد المنصور وتجزأت البلاد الى

(5) سليمان الحوات : (البدور الضاوية) . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 261) ص 119

(6) عبد القاهر أبو ملاق (الخبر عن ظهور الميائسى) . ص 47

(7) المصدر السابق . ص 75 .

(8) المختار السوسى : ايلخ . ص 137 .

(9) الامرانى : روضة التعريف . مخطوط بدار الوثائق بالرباط (ح 58) . ص 18 .

امارات متحاربة ، أصبحت سجالسة موضع اهتمام الدلائين والسوسيين وملقى نفوذهم ، ويبدو أن الجانبين قد اعتبرها بلد الحدود بينهم خاصة وان المولى الشريف العلوي كانت له المكانة الاولى فيها (بايع اهل الصحراء مولاى الشريف وكان يدافع عن بلادهم ويرفع ظالمهم عن مظلومهم ويمهد سبلهم) (10) .

غير أن القائد السوسى (بودميعة) سرعان ما اغتنم فرصة نزاع داخلى حصل بين العلويين وجيرانهم الزبيريين وتدخل بسجالسة فى محاولة لاختصاصها لنفوذهم ، حيث القى القبض على المولى الشريف ونقله اسيرا الى ايلينغ عاصمة سوس ، وهذا التدخل المسلح اثار الدلائين واستنكره رئيسهم محمد بن أبى بكر الذي السح فى مراسلاته مع (بودميعة) على اطلاق سراح الامير الاسير (واما ما قلت من أن نترك سجالسة للشريف المذكور كغيرها من البلاد التى بيد غيره فلا اتركها) (11) .

وامام اصرار القائد السوسى على التمسك بسجالسة هدد الدلائيون باستعمال القوة (ولقد كثرت استغاثتهم باخوانهم المسلمين وأوجبوا بالشرع انقاذهم واستخلاصهم مما هم فيه . . . وهذه البلاد بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة وبينها وبيننا ست مراحل) (12) .

أخذ الاهالى بسجالسة ينظمون امرهم لمقاومة (بودميعة) وجوره (لما ملك الثائر أبو الحسن على . . . بلاد الصحراء لم يترك لاهلها بيضاء ولا صفراء وكان فظاغشوما) (13) ، وقد استمرت الاستعدادات السرية فترة من الوقت الى أن كان عام 1050 هـ / 1640 م حيث اعلنت سجالسة بيعة المولى محمد بن الشريف اميرا فابتدأت بذلك الصفحات الاولى من تاريخ الدولة العلوية . وقد اثبت المولى محمد جدارته عندما واجه قوات (بودميعة) وانتصر عليها فى عمليات عسكرية متوالية انتهت باخراجها من سجالسة ومن درعة أواخر عام 1051 هـ . ويبدو أن (بودميعة) اضطر الى اطلاق سراح المولى الشريف وقبول الامر الواقع سيما وان

(10) الزيانى : الترجمان العرب . ص 369 .
(11) البدور الضاوية . ص 119 .
(12) السوسى : ايلينغ ص 135
(13) المصدر السابق . ص 125

سياسة الدلائيين تد تفيرت بتولية محمد الحاج الذي أعلن دعوته جهارا وأخذ يسلك سياسة استعمال القوة لفرض سلطانه (قام أهل المغرب بدعوته واذعنوا لامره وطاعته وبياعوه بالخلافة) (14) .



من أهم التطورات التي عرفتها السنوات الأولى من بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة ، أن الزعامات المحلية قد تبلورت في :

- 1 — الدلائيون بالمنطقة الوسطى للمغرب .
- 2 — المجاهد العياشي بالسهول الشمالية — الغربية على الاطلسي .
- 3 — (بودميعة) بسوس والجنوب المغربي .
- 4 — العلويون بسجلماسة ودرعة .

الى جانب السلطان السعدي محمد الشيخ الذي انحصر نفوذه بمراكش وما حولها . فالقائد (بودميعة) أولى اهتمامه لسوس والصحراء المغربية وببلاد السودان واصبحت له بذلك علاقات خارجية واسعة مع دول غربي أوربا ، باعتبار أن التجار الاجانب قد ازداد اقبالهم على التجارة مع غربي افريقيا وبلاد السودان التي اشتهرت منذ القديم بالذهب والتوابل وتجارة الرقيق . وباتباع (بودميعة) لهذه السياسة ابتعد بعض الشئ عن الاحداث الداخلية بالمغرب .

اما المجاهد العياشي الذي بدأ اعماله الجهادية منذ عام 1020 هـ فقد اتسع نطاق عملياته من سبتة الى البريجة في البر والبحر واكسبته أعمال الجهاد هذه شهرة واسعة (كان أبو عبد الله محمد العياشي أكثر توجهاته مصروفا الى الجهاد والاستعداد له ما استطاع من حشر الاجناد حتى كان له من الفتح المبين ما لم يكن لغيره) (15) . وهذه الانتصارات المتعددة التي أحرزها على قوات الاحتلال الاجنبي التي كانت تحاول مهاجمة الاراضي المجاورة زادت من التطلع اليه هو ومن

(14) المصدر السابق . ص 229

(15) البدور الضاوية . ص 119

معه من المجاهدين (شجعان أهل سلا ورباط الفتح ومن لهم تلا من أهل القصر والهبط والخلط وبنى مالك وطوائف المسلمين رضى الله عنهم أجمعين) (16) .

والذي يثير الانتباه في مراسلات المجاهد العياشى مع السلطان السعدي الوليد ابن زيدان أن المجاهد قد استنكر تقاعس السعديين عن الدعوة الى الجهاد (فلا يمتري في تعيين فرضه ووجوب القيام لله تعالى به في أرضه والخطاب بذلك يعم الامة ويخص بالتميين الائمة . . .) (17) ، اي ان المجاهد العياشى قد يئس من السعديين بهمراكنش فأخذ يوجه رسائل الى المدن المجاورة له يحضها على الجهاد ومقاتلة الاعداء . وهذه التطورات الجديدة في الحركة العياشية اصطدمت بكل من :

1 — الدلائيين الذين كانت لهم أطماع في التوسع بالمناطق الوسطى من البلاد (فقد طرق اسماعنا ان أهل الساحل قد أغروا على من تحت ايلتنا وأمرنا) (18) .

2 — السعديين الذين توجهوا الى الدلائيين ضد العياشى (وتكنى أمر الوافدين من السادات الاشراف السعديين . . . فانهم أرسلوا الينا كتابا أفصحوا فيه بأنك ضيقت عليهم وعلى من تحت طاعتهم وغلبت على القبائل المجاورة وعزمت على استئصال شأنتهم وانك تزعم أنك تريد الجهاد وليس تصدك الا جمع الاموال وتملك البلاد واستبعاد العباد وطلبوا منا اعانتهم على قتالك) (19) .

تضاعفت حدة الخلاف بين العياشى والدلائيين وتعددت الاضطرابات الدموية بينهم وقد انتهى الامر باغتيال المجاهد العياشى يوم 19 محرم 1051 هـ (قتله بعض اللصوص من قبيلة الخلط غدرا بموضع يسمى عين القصب ودفن بازاء روضة الوالى الصالح سيدي بوشة) (20) . وبالقضاء على العياشى انطلقت قوات محمد الحاج الدلائى فاتحة وادخلت في طاعتها معظم النواحي الشمالية والوسطى من المغرب (قام أهل المغرب بدموته وأذعنوا لامره وطاعته وبويع له بالخلافة فيه) (21) وبذلك فتحت امام الدلائيين آفاق جديدة نتيجة الاتصالات الواسعة التى أصبحت لهم مع دول غربى أوروبا التى كانت تتطلع الى تطوير علاقاتها التجارية مع المغرب .

(16) أخبار العياشى . ص 15

(17) أخبار العياشى . ص 48

(18) أخبار العياشى . ص 76

(19) أخبار العياشى . ص 76

(20) ظهور العياشى : ص 85 .

(21) البدور الضاوية . ص 230

ولا شك في أن الحاكم الدلائي وهو يعمل على تمتين علاقاته مع الخارج كان يقدر مدى الفوائد التي ستعود على دولته الناشئة في المجال السياسي والاقتصادي فيما لو تمكن من بسط نفوذه على سجلماسة : باب الصحراء والطريق الموصلة الى السودان بلد الذهب والتوابل والرقيق -

انطلق الدلائيون لتنفيذ السياسة الجديدة ومهدوا لذلك باصطناع انصار لهم (كالشيخ مغفر في اولاد عيسى بالرتب والسيد الطيب في قصر السوق والسيد احمد ابن على العثماني في بنى عثمان من الخنق وقصر قلميمة في وطن اغريس وسرير في بلد فركلة) (22) . وكرد فعل لهذا التدخل جرت معركة حاسمة بين المولى محمد بن الشريف ومحمد الحاج الدلائي يوم السبت 18 ربيع الاول عام 1056 هـ (كانت واقعة القارة ويقال لها القاعة بين سيدي محمد الحاج الدلائي وبين صاحب سجلماسة مولاي محمد بن الشريف فوقعت الهزيمة على مولاي محمد ودخل سجلماسة مغلوبا مهزوما وتبعه مولاي احمد الحاج . . . ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازه جبل بنى عياش الى الصحراء فهو لمولاي محمد بن الشريف وما دونه لناحية الغرب فهو لاهل الدلاء وشرط اهل الدلاء على مولاي محمد خمسة مواضع مما هو تحت يده وجعلوها لهم . . . شرطوا عليه أن لا يتعرض لهم فيها ولا يحرك لهم ساكنا وقبل ذلك مولاي محمد بن الشريف) (23) .

وهكذا اتام الدلائيون بسجلماسة خمسة قواعد تدعم نفوذهم بها وتمكنهم من التوجه نحو الصحراء وبلاد السودان ، غير أن ثورة مدينة فاس ضد محمد الحاج واعلانها بيعة المولى محمد بن الشريف ، جددت الحرب بينهما خلال عام 1059 هـ وبانهزام الامير العلوي انطلق نحو المغرب الشرقى في محاولة للسيطرة عليه وللوصول الى البحر المتوسط حيث تجار الاسلحة الاوربيون (واما مولاي محمد بن الشريف فانه رد وجهه لنواحي الشرق فتوجه على عمائر الصحراء الى ان دوخها ودخلت في حكمه ولما بلغ انكاد اجتمع عليه عرب المعتل من الاحلاف وسقونه ويايعوه وتوجهوا به لوجدة حيث كان اهلها متفرقين نصفهم قائلين بدعوة الترك ونصفهم خارجين عنهم فنزل على القائلين بدعوة الترك وحاربهم الى ان غالبهم ودخل وجدة

(22) المصدر السابق : ص 230

(23) البدور الصاوية . ص 250

وملكها وباعوه ثم توجه الى بنى يزناسن كانوا في ايلة الترك . . . ثم توجه لنواحي
تلمسان (24) .

وبتوقيع المولى محمد لمعاهدة الحدود مع الاتراك عام 1064 هـ التي تجعل
وادي تافنا حدا فاصلا بينهم دخل المغرب الشرقى في طاعة الامارة العلوية الناشئة
التي امتدت حدودها الشمالية حتى شواطئ البحر المتوسط .

اتخذت الدولة العلوية بعد استقرار الامر للمولى الرشيد بن المولى الشريف
عام 1075 هـ في سجلماسة والمغرب الشرقى طريقا خاصا في اتجاه الشمال ،
وتعززت قواعدها على البحر المتوسط بالسيطرة على الحسيمة في رمضان عام
1076 هـ / مارس 1666 . ومن المغرب الشرقى وجبال الريف انطلقت الدعوة
الجديدة نحو المناطق الوسطى فدخلت فاس في طاعتها واستسلمت لها بلاد الهبط
بعد انهزام الخضر غيلان الجرفطى عام 1077 هـ . ثم انحدر المولى الرشيد مع
السهول المغربية الاطلسية بما يشبه عملية تطويق للدلائيين في الاطلس المتوسط
لعزلهم وللحيلولة بينهم وبين موانئ الاطلس حيث تجار الاسلحة الاوربيون ، وتمكن
بذلك المولى الرشيد في اوائل عام 1079 هـ من القضاء على الدلائيين وساعده هذا
الفوز على الدخول الى مراكش والقضاء على امارة الشبانان في نفس السنة . اما
آخر امارة دانت له بالطاعة فهي بلاد سوس بعد احتلال عاصمتها ايليف يوم الاحد
15 صفر عام 1081 هـ .

لقد اعاد المولى الرشيد الى المغرب وحدته الداخلية بعد حروب استمرت
سبع سنوات وهي المدة التي تضاها في الحكم ، محقق بذلك للامة املا منشودا
طالها تطلعت اليه ، وهو وحدة الصف الداخلى كمرحلة اساسية للانطلاق نحو
تحرير قواعد الاحتلال الاجنبى ، ومن اجل النهوض بالبلاد وتطويرها وذلك مما
سيعرفه عهد الملك العظيم : المولى اسماعيل .

المصادر المخطوطة

- 1 — المكتبة الملكية بالرباط
- احمد ابن القاضي : المفتى المتصور على مآثر
1153 الخليفة المنصور
- احمد ابن ابى محلى : الاصليت
4009
- السلسيل فى فضل السبيل
4733
- عبد الرحمان التامنارتى : الفوائد الجمة فى اسناد
513 علوم الامية
- ديوانه
5623
- مجموع فى الاذكار للخليفة المنصور
4911

دار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط

- احمد بن القاضي : المنتقى المقصور د 1057
- درة السلوك د 1428
- احمد بابا السوداني : نيل الابتهاج بتطريز الديباج .. د 766
- الانراني : روضة التعريف ح 58
- ابراهيم الجلالى : تنبيه الصغير ك 571
- بلقاسم الزياني : الترجمان المعرب عن دول
المشرق والمغرب 658
- د 1275 الروضة السليمانية
- د 1577 البستان الطريف
- ابن عسكر : دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب
من مشايخ القرن العاشر د 560
- الحسن اليوسى : المحاضرات د 1010
- محمد بن يجيش التازي : جملة مختصرة ق 336
- مرعى الحنبلى : ثلاثد العقيان في فضائل آل عثمان
نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من
الخلفاء والسلاطين ك 2380
- محمد بن اسحاق : لطائف اخبار الاول ك 2409
- محمد الفاسى : مرآة المحاسن د 567
- محمد الفاسى : متع الاسماع في اخبار الجزولى
والتبــــــــاع د 894
- محمد البكري : نصره الايمان بدولة آل عثمان د 527
- محمد اكنسوس : الجيش الحرمم الخماسى د 965

- محمد المرदाسى : رياض الورد د 396
- محمد الهبطى : القبة الهبطى فى ملك الاستاذ محمد المنونى
- محمد بن الامام الهبطى : العرب النصيح مخطوط خاص للاستاذ المنونى
- محمد الفاسى : التحفة الصديقية د 1103
- مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ك 1006
- مؤلف مجهول : تقايد صوفية ك 1074
- مخطوط سوس خاص
- ناسخ مجهول : رسائل سعدية ك 287
- عبد الرحمن الصومعى : التشوف الصغير د 1103
- عبد الرحمن الفاسى : زهرة الشماريخ د 56
- عبد الرحمن التامارتى : الفوائد الجمة د 1420
- عبد القاهر ابو ملاق : الخبر عن ظهور المياشى د 91
- على التامجروتى : النفحة المسكية ك 2829
- سليمان الحوات : البدور الضاوية د 261

١ - المخطوطة

أولا : وثائق الخزانة العامة بالرباط

1 - جملة وثائق مصورة عن السعديين

2 - هناك مجامع مخطوطة بها وثائق سعديّة هامة

أ - رسائل سعديّة - لناسخ مجهول ك 278

ب - مجموع مخطوط - لناسخ مجهول د 2795

3 - أعداد من « الميكروفيلم » لجائزة الحسن الثاني
للمخطوطات والوثائق منذ (1970 الى 1977)

ثانيا : وثائق سيمانكاس باسبانيا المتعلقة بعهد المنصور Archivo general de Sumancas

أ - بالنسبة للدولة الاسبانية Estado Espana

الوثائق الخاصة بالسنوات ما بين 1578 -
1603 ابتداء من الرقم 159 الى 197

ب - بالنسبة للدولة البرتغالية Estado Portugal

وثائق هذه الفترة تحمل ارقامها تسلسلية منذ الرقم 395 حتى الرقم 435

ج - بالنسبة لأمريكية والشرق Estado de Africa y levante

تحمل وثائقها الارقام التالية (489 - 213) الى الرقم (493 - 214)

د - بالنسبة للوثائق العربية عامة Arabes documentos

تحمل الارقام بين 1043 حتى 1165

هـ - وبالنسبة للعرب والبربر (المغاربة) Arabes y Berberiscos

تحمل هذه الارقام 1140 - 1141

و — ويوجد بسيمانكاس عدد هام من الخرائط المحطوبة عن المغرب وشمالى افريقية

1 — عن بلاد سوس وجنوبى المغرب تحت ورقم F137

2 — عن مليية تحت رقم E 48

رقم F 331

3 — عن جزيرة بادس بشمالى المغرب رقم F 19

ثالثا — وثائق الخزانة الوطنية بمدريد : مجموع مخطوط لسودة Allonso del castillo
به احدى وخمسون رسالة للمنصور رقم 257

ب — الوثائق المطبوعة

1 — المجموعة الكبرى للوثائق المغربية (لهنري كاستري Henry de Castries

المطبوعة تحت عنوان : المصادر الاصلية لتاريخ المغرب — السلالة السعدية

(Les sources inédites de l'histoire du Maroc — Dynastie Saâdienne)

(Archives et Bibliothèques de Portugal) **1 محفوظات ومكتبات البرتغال**

من سنة 1486 الى 1516	باريز 1934	المجلد الاول
1526 — 16	أ — باريز 1939	المجلد الثانى
1534 — 27	ب — باريز 1949	المجلد الثالث
1541 — 35	باريز 1948	المجلد الرابع
1550 — 42	باريز 1951	المجلد الخامس
1580 — 52	باريز 1953	

(Archives et Bibliothèques de l'Espagne) **2 محفوظات ومكتبات اسبانيا :**

1552 — 31	باريز — مدريد 1921	المجلد الاول
1560 — 51	باريز 1956	المجلد الثانى
1578 — 60	باريز 1961	المجلد الثالث

(Archives et Bibliothèques de al France) **3 محفوظات ومكتبات فرنسا**

1578 — 33	باريز 1905	المجلد الاول
1614 — 78	باريز 1909	المجلد الثانى
1665 — 17	باريز 1911	المجلد الثالث

(Archives et Bibliothèques d'Angleterre) **4 محفوظات ومكتبات انجلترا**

1589 — 40	باريز — لندن 1918	المجلد الاول
1625 — 1590	باريز 1925	المجلد الثانى
1660 — 1626	باريز 1936	المجلد الثالث

(Archives et Bibliothèques des Pays-Bas) **5 محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة**

1611 — 1578	باريز 1906	المجلد الاول
1616 — 12	باريز — لاهاي 1907	المجلد الثانى
1623 — 17	باريز — لاهاي 1912	المجلد الثالث
1641 — 24	باريز — لاهاي 1913	المجلد الرابع
1654 — 42	باريز — لاهاي 1920	المجلد الخامس
1660 — 55	باريز — لاهاي 1923	المجلد السادس

المطبوعات :

- فاس 1309 احمد ابن القاضي : — جذوة الاقتباس
- الرباط 1936 — درة الحجال — جزآن
- القاهرة 1946 احمد المقرئ : — نوح الطيب
- الرباط 1964 — روضة الآس
- المحمدية 1969 احمد بن عبد العزيز العلوي : — الانوار الحسنية
- بيروت 1272 ابراهيم أفندي : — المصباح الساري
- فاس 1309 ابن عسكر : — دوحة الناشر
- القاهرة 1938 حسين مؤنس : — الشرق الاسلامي الحديث
- فاس 1307 محمد اليفرنى : — نزهة الحادي
- فاس 1309 — صفوة من انتشر
- فاس 1936 محمد أكنسوس : — الجيش العرمرم
- تطوان 1959 محمد داود : — تاريخ تطوان
- محمد كرد على : — خطط الشام — جزآن .
- الرباط 1960 مختار السوسى، : — سوس العالمية
- الرباط 1966 — ايليبنغ
- الرباط 1960 — علماء لامعون من سوس
- دمشق 1968 نور الدين حاطوم : — عصر النهضة
- بيروت 1967 نيقولا زيادة : — المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبى
- البيضاء 1955 الناصري : — الاستقصا ج. 5 و 6
- الرباط 1972 عبد العزيز الفشتالى : — مناهل الصفا
- تطوان 1954 عبد الله كنون : رسائل سعديّة
- الرباط 74 — 1976 عباس بن ابراهيم : الاعلام 5 أجزاء
- باريز 1898 عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان
- الرباط 1934 مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعديّة

الرباط 1960	محمد العابد الفاسى : الخزانة العلمية بالمغرب
الجزائر 1955	عبد الرحمن الجبلاى : — تاريخ الجزائر العام
القاهرة 1948	عبد الله عنان — نهاية الاندلس
القاهرة 1960	سونياي . هاو — فى طلب التوابل
القاهرة 1962	فجر التاريخ الاثريقى
الرباط 1976	الوثائق — العدد الاول
باريز 1928	ليفى بروفنسال : فهرس مخطوطات الاسكوريال

المراجع

ع 9 . 1964 . ص 31	— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى
ع 10 . 1965 . ص 7	— مجلة تطوان : من زوايا التاريخ المغربى
يوليوز 1962 . ص 26	— دعوة الحق : الممالك الاسلامية فى افريقيا السوداء
نومبر 1962 . ص 37	— مجلة البينة : الفكر الصوفى والانتحالية بالمغرب
العدد الاول . يناير 1964	— مجلة البحث العلمى : قصب السكر
ع 1 1956	— مجلة تطوان : تاريخ الموريسكوس
ع 3 و 4 1958	— مجلة تطوان : وثائق سعية لم تنشر
ع 6 . 1961	— مجلة تطوان : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا
ع 2 . ص 125 . تونس 1974	— المجلة التاريخية المغربية
ع 23 ص 19 اسبانيا 1958	— مجلة الاندلس

- Auguste-Cour : L'établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger. Paris 1904.
- Bekkoucha M. : Epitaphes des Sultans Saâdiens. (France-Maroc) Paris 1923.
- Clio : Henri Sée et Armand Rebillon : Le XVIe siècle. Paris 1950.
- Caillé-Jacques : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVIe siècle. Alger 1940.
Une description du Maroc sous le regne de Moulay-Ahmed El-Mansour (1596). Paris 1906.
- Charles-Penz : Les captifs français du Maroc au XVIe siècle (1577-1699).
- Colin : Une nouvelle inscription saadienne à Marrakech. Hespéris 1945. P. 132.
- Caillé : Le commerce Anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVIe siècle (R. Afri) 1940. P. 34.
- Colin : Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmed El Mansour. Hespéris. 1927. P. 221.
- Colin : Le commerce Hollandais au Maroc à l'époque Saâdienne. (B.E.P.M.) 1942 P. 142.
- Deverdun, Gaston : — Inscriptions Arabes de Marrakech. Rabat 1956
— Marrakech des Origines à 1912. Rabat 1966.
- Dapper : Amsterdam. 1668. (Pour le Maroc : 1ère partie. P 205-265)
- Drogue, G. : Esquisse de l'histoire Religieuse du Maroc. Paris 1961.
- De Castries, H. : Les signes de validation des chérifs saâdiens. Hespéris 1921. P. 231.
- Esaguy José du : Tanger sous la domination Portugaise (1471-1665). Tanger 1937.
- Encyclopédie de l'Islam. Ley de - Paris. 1913.
- E. Doutte : Les Marabouts. Paris 1900.
- Fernard Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II - Paris 1949.
- Fagnan : Extraits inédits relatifs au Maghreb. Alger 1924.
- Forneron : Histoire de Philippe II. Paris 1956.
- F. de la chapelle : Histoire du Sahara Occidental. Hespéris. 1930. P. 29.
- Gaunard J. : Histoire des doctrines économiques. Paris 1957.
- Gabriel-Rousseau et Arin. F. : Le Mausolée des Princes Saâdiens à Marrakech. Paris 1925.

- Georges Paniel : Le Maroc à la recherche d'une conquête : l'Espagne ou les Indes. Hespéris. 1953. P. 342.
- Henry De Castries : Les sources inédites de l'histoire du Maroc - Dynastie saâdienne.
- Peuples et civilisations :
Henri Hausser et Augustin Renandet : Les Débuts de l'Age Moderne Paris 1938.
Henri Hausser : La prepondérance Espagnole (1559-1660) - Paris 1948
- Histoire des Relations internationales :
Gaston Teller : Les Temps Modernes. T 3. Paris 1953.
- H.G .Catternoz : Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne. 2^e édition. Rabat 1954.
- H. Koehler : L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission franciscaine (1221-1790). Paris 1934.
- J.D. Brethes : Contribution à l'histoire du Maroc par des recherches numismatiques. Casablanca 1939.
- Jean Baptiste Graunay : Tournau. 1622. (pour le Maroc : P. 127-193)
- Julien A. : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris 1931.
- J. Célérier : le Maroc, pays du sucre et de l'or. (France-Maroc). 1923. P. 72.
- Jacques caillé : Le Maroc et les Pays-Bas. Hespéris. Tamuda 1963. P. 120.
- Lebel Rolan : Le Maroc chez les auteurs anglais du XVIe au XIXe siècle. Paris 1939.
- Levi-Provençal : — Les Historiens des Chorfa. Paris 1922.
— Les manuscrits Arabes de l'Escorial. Vol. III. Paris 1928.
- Lenz O. : Timbouctou. 2 Vol. Paris 1886.
- Le Tourneau, R. : Le début de la Dynastie Saâdienne. Alger 1954.
- Martin A. g. P. : Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de (1504 à 1902). Paris 1923.
- Massignon, L. : Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle. Alger 1906.
- Masson P. : Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque. Paris 1909.
- M. Oclafosse : Relations du Maroc et du Soudan à travers les âges Hespéris. 1929. P. 132.
- Pierre d'Avity : Description Générale d'Afrique. Paris 1643. (Pour le Maroc : P 54-144).

- P. Odinet : La grande route directe de Fès à Marrakech, au XVI^e siècle. Rabat 1921.
- Piana G. : Les préliminaires de la conquête du Soudan par Moulay Ahmed El-Mansour. Hespéris 1953. P. 78.
- Ricard Robert : La côte Atlantique du Maroc au début du XVI^e siècle Hespéris. 1927. P. 229.
- R.P. Koehler : La Kasba saâdienne. Hespéris 1940. P. 236.
- Ricard Robert : Le Maroc à la fin du XVI^e siècle. Hespéris. 1957. P. 34
La conquête du Soudan par El-Mansour. Hespéris 1923. P. 434.
- Roland Lebeb : Le Maroc dans les relations de voyageurs Anglais aux XVI^e, XVII^e et XVIII^e siècles. Hespéris 1929. P. 139.
- Terrasse, Henry : — Les villes impériales du Maroc : Grenoble 1937.
— Histoire du Maroc. Casablanca 1950.

الجدول التاريخي لوثائق الدولة السعودية

اولا : الوثائق السياسية

م. ص. ت. م - البرتغال - ج 2 ص 348	24 صفر عام 932 هـ	رسالة من المولى أحمد الأعرج الى جان الثالث
م. ص. ت. م - البرتغال - ج 2 ص 367	22 حجة عام 932 هـ	هدنة بين المولى أحمد والملك البرتغالي
م. ص. ت. م - البرتغال - ج 2 ص 399	22 جمادى 932 هـ	رسالة من أحمد الأعرج الى جان الثالث البرتغالي
م. ص. ت. م - البرتغال - ج 2 ص 495	23 ربيع 936 هـ	رسالة من أحمد الأعرج الى جان الثالث البرتغالي
المجلة التاريخية المغربية العدد 2 ص 125	محرم عام 959	رسالتان من سليمان القانوني لمحمد الشيخ السعودي
م. ص. ت. م - فرنسا - ج 1 ص 170	أواخر رمضان 966	رسالة من الغالب الى (انطون دي بوريون)
م. ص. ت. م - فرنسا - ج 1 ص 178	أواخر رمضان 966	معاهدة الغالب مع فرنسا
م. ص. ت. م - إنجلترا - ج 1 ص 98	جمادى الاولى 977	رسالة من الغالب الى (ايلزابيت)
مجلة تطوان - العدد 3 و 4 - ص 51	رجب 984	اتفاقية المتوكل مع (ايلزابيت)
مجلة تطوان - العدد 9 - ص 32	أوائل جمادى 986	رسالة المعتصم الى (ايلزابيت)
المكتبة الوطنية ، مدريد مخطوط رقم 257	2 رمضان 986	جواب العلماء المغاربة على رسالة المتوكل
دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278 ص 37	منتصف محرم 987	رسالة أحمد المنصور الى فيليب الثاني الاسباني
سيانكاس باسبانيا رقم 160	أواخر ربيع 988	من المنصور الى الامير داود ابن عبد المؤمن
م. ص. ت. م - إنجلترا - ج 1 - ص 335	20 جمادى 988	من المنصور الى ايلزابيت ملكة انكلترا
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	أوائل رجب عام 988	رسالتان من السلطان مراد الثالث باشا الى المنصور
كتون : رسائل سعودية . ص 18	أواخر عام 989	من المنصور الى مراد الثالث
دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278 ص 24	مطلع عام 990	من المنصور الى حسن باشا الجزائر
دار الوثائق بالرباط . مخطوط ص 68	مطلع عام 990	من المنصور الى علوج على
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	26 رجب 990	من المنصور الى الملك الاسباني فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	منتصف شعبان 990	من القائد ابن تميم الى فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	30 محرم 991	من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	17 محرم عام 991	رسالة اخرى منه اليه
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	22 ربيع الاول 991	من المنصور الى القائد أحمد الكوش
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	22 ربيع الاول 991	من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	15 رجب 991	من المنصور الى الاسباني Venegas
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	23 رجب 991	من المنصور الى الاسباني (دوق سيدونية)
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	رمضان عام 991	من المنصور الى فيليب الثاني
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	مطلع عام 992	من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدونية)
المكتبة الوطنية بدمريد . مخطوط رقم 257	مطلع عام 992	من القائد ابراهيم بن محمد الى فيليب الثاني

- بن المنصور الى شيخ توات
من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدنية)
من المنصور الى السفير الاسباني بالمغرب
من المنصور الى القائد ابراهيم بن محمد
من القائد ابي القاسم بن محمد الى السفير
الاسباني
من القائد ابراهيم بن محمد الى (سيدونية)
من القائد ابراهيم بن محمد الى فيليب 2
من المنصور الى فيليب الثاني
من المنصور الى فيليب الثاني
من المنصور الى فيليب الثاني
من المنصور الى (دون انطونيو) البرتغالي
من المنصور الى قاضى الجماعة بسوس
من المنصور الى اهالى سوس
من المنصور الى اهالى توات وتيگورارين
من المنصور الى اسكيا اسحاق بالسودان
رسالة اخرى منه اليه
من المنصور الى القائدين الانكليزيين
(دراكه ونورس)
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى قاضى تهبوكتو بالسودان
من المنصور مخبرا بفتح السودان
من المنصور الى خضر باشا الجزائر
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى باي بن سوري بالسودان
من المنصور الى داود كاتنه بالسودان
من المنصور الى فيليب الثاني
من المنصور الى فيليب الثاني
من المنصور الى القائد جودر باشا
السودان
من المنصور الى القائد منصور باشا
السودان
من المنصور الى الوزير سنان باشا
من المنصور الى السلطان محمد الثالث
من المنصور الى الباشا الجزائري مصطفى
من المنصور الى العالم المصري (البكري)
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
من المنصور الى ايليزابيت
- مطلع عام 992
رمضان 992
6 شوال 992
8 شوال 992
8 شوال 992
اواخر شوال 992
القعدة 992
الحجة 992
ربيع الاول 994
ربيع 1 995
جمادى الاولى 996
مطلع عام 997
اوائل ربيع 1 997
رجب 997 هـ
جمادى 1 ورجب 997
شعبان 997
29 شوال 997
19 شعبان 998
8 شوال عام 998
7 شعبان 999
اواخر عام 999
ربيع 2 عام الف هـ
عام 1001 هـ
عام 1002 هـ
14 صفر 1003 هـ
6 قعدة 1003 هـ
6 حجة 1003 هـ
6 حجة 1003 هـ
اوائل عام 1004 هـ
منتصف عام 1004 هـ
منتصف عام 1004 هـ
ربيع 1 1005 هـ
12 رمضان 1008 هـ
3 حجة 1008 هـ
23 شعبان 1009 هـ
مطلع عام 1010 هـ
13 محرم 1011 هـ
- كزون : رسائل سعديّة . ص 105
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257
م . ص . ت . م . إنجلترا - ج 1 ص 492
كزون : رسائل سعديّة . ص 150
كزون : رسائل سعديّة . ص 160
كزون : رسائل سعديّة . ص 169
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 123
كزون : رسائل سعديّة . ص 132
مجلة تطوان . عدد 9 . ص 76
مجلة تطوان . عدد 9 . ص 78
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 131
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 143
دار الوثائق بالرباط - مخطوط . ك 278
ص 21
مجلة تطوان . العدد 3 و 4 . ص 55
كزون : رسائل سعديّة . ص 116
كزون : رسائل سعديّة . ص 127
سييانكاس باسبانيا . رقم 197
سييانكاس باسبانيا . رقم 213
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 183
كزون : رسائل سعديّة . ص 172
كزون : رسائل سعديّة . ص 96
دار الوثائق بالرباط . مخطوط ك 278
ص 342
كزون : رسائل سعديّة . ص 254
الفشتالي : مناهل الصفا . ص 189
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 79
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 80
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81
دار الوثائق بالرباط . مخطوط . ك 278
ص 195
مجلة تطوان . عدد 8 . ص 81

147 ص	: نزهة الحادي . ص	1011 1	اوائل جمادى 1
155 ص	: نزهة الحادي . ص	1011 1	20 جمادى 1
166 ص	: نزهة الحادي . ص	1011	جمادى الاولى
142 ص	: نزهة الحادي . ص	1011	شعبان
183 ص	: نزهة الحادي . ص	1011	اواخر 1011
156 ص	: نزهة الحادي . ص	1012	4 ربيع الاول

من المنصور الى ابنه المامون بفاس
من المنصور الى ابي فارس بمراكش
من المنصور الى سليمان باشا بالجزائر
رسالة اخرى منه اليه .
رسالة اخرى منه اليه
آخر رسالة للمنصور من فاس الى ابنه
أبي فارس بمراكش

ثانيا : الموضوعات الحضارية

الناحية الادارية

75 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	في شعبان 986 هـ
76 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	
82 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	
204 ص	مناهل الصفا للفشتالي . ص	
278 ك	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	في 8 شعبان 899 هـ
38 - 40 ص	مناهل الصفا للفشتالي ص 69	عام 990 هـ
82 ص	مناهل الصفا للفشتالي ص 82	عام 993 هـ
278 ك	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	22 ربيع 1 عام 1011
14 ص	مجلة هيسبيريس لسنة 1927 . ص	
221 ص	مجلة هيسبيريس لسنة 1927 . ص	

ظهير تولية المامون على فاس
ظهير تولية على بن المنصور على سوس
ظهير تولية على بن المنصور على نادلا
ظهير تولية ابراهيم الشط على قيادة
الاسطول
رسالتا توصية من المنصور الى فيليب
الثاني في حق اسبانيين
نص بيعة امير بورنو للمنصور
نص ولاية عهد المنصور لابنه المامون
ظهير تولية محمد بن على الهوزالي على
قضاء سجانة
نموذج نحروف (شيفرة) المنصور

الناحية الاقتصادية

257 رقم	المكتبة الوطنية بمدريد . مخطوط رقم 257	2 شوال 987 هـ
145 ص	رسائل سعدية . ص	
1010 هـ	نصيحة المفتقرين . مخطوط بدار الوثائق بالرباط ك 923 ص	جمادى 1 1010 هـ

ظهير امتياز لتاجر اسباني
حذف النائية
نداء من المامون الى تجار فاس

الناحية الاجتماعية

67 ص	م. ص. ت. م بريطانيا ج 1 . ص	اواخر شعبان 986 هـ
42 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	5 رمضان 1004 هـ
187 ص	مناهل الصفا . ص	عام 1005 هـ
96 ص	روضة الاس . ص	15 جمادى 2 1010 هـ
262 ص	رسائل سعدية ص 262	
46 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	
110 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	
91 ص	دار الوثائق بالرباط . مخطوطك 278 ص	

ظهير توقيير واحترام
ظهير توقيير واحترام
من المنصور الى شريف مكة
رسالة تهنة بالشفنا من اهالي فاس الى
المنصور
نداء من المنصور واعظا ومرشدا
ظهير تولية الوجاني شياخة الركب
الحجازي
ظهير التقديم لخطبة الجمعة
عقد تحبيس

التأحية الثقافية

رسائل سعديّة . ص 65	عام 990 هـ	من المنصور الى القاضي أبي على حسن
دار الوثائق بالرباط مخطوطك 278 ص 58	عام 991 هـ	من المنصور الى البكري يطلب اجازته
مناهل الصفا ص 269	ربيع الاول 992 هـ	اجازة البكري للمنصور
رسائل سعديّة ص 236	أواخر عام 992 هـ	من المنصور للمؤرخ مصطفى بن حسن
رسائل سعديّة ص 123	في عام 998 هـ	من المنصور الى القرائى يطلب اجازته
مناهل الصفا ص 272	جمادى 1 عام الف هـ	اجازة القرائى للمنصور
رسائل سعديّة ص 230	في عام 1001 هـ	شكر المنصور للقرائى على اجازته
مناهل الصفا . ص 189	في ربيع 1 1005 هـ	من المنصور الى البكري
رسائل سعديّة ص 180		من المنصور الى الباشا التركى بمصر

